جمال أبو الحسن

300,000 عام من الخوف

قصة البشر من بداية الكون إلى التوحيد

الدار المصرية اللبنانية

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

٣٠٠ ألف عام من الخوف

قصة البشر من بداية الكون إلى التوحيد

جمال أبو الحسن

عن الكتاب..

الخوف والقلق صاحبنا منذ ظهور أول كائن بشري قبل حوالي 300000 عام.. الخوف صنع قصتنا!

وجدنا أنفسنا أمام شفرات غامضة تتغلغل في كل شيء حولنا على الكوكب، وفي الفضاء الشاسع، وفي داخل أجسادنا وأدمغتنا.. رأينا العالم كما لم يره أي كائن آخر، وسعينا لكسر الشفرات واختراع أخرى تمكننا من العيش معًا. هكذا صنعنا أكثر الأشياء تعقيدًا في الكون: المجتمع المكون من أدمغة بشرية!

روّضنا الحيوان والنبات.. ثم كان علينا أن نروّض أهم بطل في قصتنا: أنفسنا!

بزغت المدن والدول والإمبراطوريات الكبرى.. ولكن كان كل شيء ينهار فجأة كبيتٍ من ورق الكوتشينة!

نحن لا نسعى فقط للبقاء، وإنما نُطارد الخلود. رحلتنا سوف تأخذنا إلى أكثر الأماكن غموضًا: إلى داخل أدمغتنا، وإلى ما وراء عالمنا!

إنها قصتك، وقصتي، وقصة كل إنسان عاش، أو يعيش على الأرض.. قصة البشر كما رويتُها لابنتي في عشر رسائل.. من بداية الكون وحتى بدء التوحيد الإبراهيمي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قصة البشر كما رويتها لابنتي
في عشر رسائل

«أطبق الشر على الإنسان من جميع النواحي، فأبدع الإنسان الخير في جميع المسالك».

نجيب محفوظ

بابا العزيز..

أكتب إليك هذا الإيميل لأني عرفت من أمي أنك أُصبت بكورونا. أرجو أن تكون إصابتك من النوع الخفيف. أشعر بالأسف لأنك بعيد عنَّا في بلاد الغربة في هذه الظروف. أنا أيضًا حبيسة المنزل بسبب إصابتي بالكورونا كما تعرف. الحقيقة أنني حبيسة الغرفة، حتى لا أصيب أمي وأخي بالعدوى.

أنت تعرف ما يحدث لي في مثل هذه الظروف. نوبات القلق تهاجمني بعنف. أدرك أن كورونا قد لا تكون خطيرة، خاصة مع الشباب، ولكن لا حيلة لي في هذا القلق. لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في أن الأسوأ يمكن أن يحدث، وتذكر كم أنا بارعة في تصور السيناريوهات السوداء!

برغم أن حالتي تبدو بسيطة، ولا أعاني سوى بعض السعال، إلا أنني خائفة. أشعر بأن حياتي مهددة برغم أني أُذكِّر نفسي كل لحظة بأن الأمر ليس بهذه الخطورة. قبل أسبوع اختطف الموت صديقة لي على فيسبوك بعد أن هاجمها كورونا. لم أكن أعرفها مباشرة. أصابني الرعب لمَّا علمت من حسابها الشخصي أنها في مثل عمري. هل يمكن أن تنتهي حياة وهي بالكاد ابتدأت؟

أقضي الوقت في متابعة أخبار عن كورونا. أراقب عداد الضحايا على مستوى العالم، وأقرأ عن الآثار التي يتركها المرض على المدى الطويل، فأصاب بالرعب. هل كنت تعرف مثلًا أن كورونا يُمكن أن يتسبب في ضباب الدماغ، أي التشوش وعدم القدرة على التركيز؟ معنى ذلك أن هناك احتمالًا أن أرسب في امتحان الثانوية العامة بسبب آثار كورونا!

بالأمس شاهدت فيلمًا أمريكيًّا اسمه «عدوى» تدور قصته حول وباء تخيلي اجتاح العالم، مثل كورونا بالضبط. هل يُمكن أن يحدث لنا ما جرى لأبطال الفيلم؟ هل يمكن أن يؤدي الوباء إلى انتشار العنف والنهب في المدينة؟ الناس يفعلون أشياء غير متوقعة لو كانوا في حالة ذعر. ربما تظن أنني أبالغ، ولكنني أخشى ألا يغادرنا هذا الفيروس أبدًا، وأن نعيش في حالة الإغلاق للأبد.. أو أن يقضي الفيروس علينا جميعًا!

القلق.. القلق.. القلق. لا أستطيع أن أوقف ذهني عن التفكير فيما يمكن أن يحدث. الآن، وأنا أكتب هذا الإيميل، تداهمني نوبة الهلع التي تعرفها: ألتقط أنفاسي بصعوبة، وأشعر باختناق، وأفقد السيطرة للحظات تمرعليَّ طويلةً وثقيلة.

ليتك كنت هنا. على الأقل كنَّا سنتكلم قليلًا.

هل لديك علاج جديد للقلق بخلاف العد من واحد إلى عشرين، والتنفس بعمق؟ هل لديك شيء مُسلٍّ ترويه لي يبعد عني الأفكار السوداء؟ لقد سئمت التواصل الاجتماعي، وأغلقت كافة حساباتي على منصاته. ليس له فائدة سوى إصابتي بالمزيد من الذعر، فالناس لا حديث لها سوى عن كورونا.

اكتب لي يا بابا، ولكن لا تقُل لي كلمتك المشهورة: لا تقلقي! هذه الكلمة بالذات ترفع منسوب القلق عندي إلى الذروة!

ليلى

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الرسالة الأولى
السفر إلى المستقبل

«الحاضر نور يخفق بين ظلمتين»

نجيب محفوظ

العزيزة ليلى..

نعم عندي علاج للقلق. ولديَّ قصة مسلية للغاية، ولكنها ليست بعيدة عن القلق الذي تشكين منه. الحقيقة أنها تبدأ بالقلق، وتدور حوله! أفضل علاج للقلق هو أن تواجهي أسبابه. جربي هذه المرة أن تهاجميه أنتِ قبل أن يهاجمك!

القلق، مع الوقت، يُصبح صديقًا لنا. هو صديق مزعج وثقيل، ولكنه قادر على فرض نفسه كما تعرفين. السر أن القلق يُشعركِ بأنكِ تفعلين شيئًا ما في مواجهة المشكلات التي تفكرين فيها، برغم أنكِ في الواقع لا تفعلين أي شيء. مع الوقت يُصبح القلق عادة لا نستغني عنها، ويصير صديقًا نفتقد وجوده إن غاب.. أي إننا نقلق عندما لا نقلق!

هل فكرتِ يومًا في السبب العميق وراء شعوركِ بالقلق؟ السبب قديم جدًّا. له علاقة بقصتنا، نحن البشر، على الأرض. بل إن بذرة القلق نشأت قبل أن يظهر البشر على مسرح الأحداث.. قبل ظهورهم بمليارات السنين. نعم يا عزيزتي.. القلق وُلد منذ 13.8 مليار سنة.. مع الانفجار الكبير!

الانفجار الكبير هو بداية كل شيء. بداية الزمن نفسه. لا يُمكننا تصور شيء قبله لأن الزمن ذاته لم يكن موجودًا. الزمن يتحرك في اتجاه واحد، وسهم الزمن يُشير دائمًا للأمام كما يقول الفيزيائيون. هذه من أهم القواعد التي تحكم نظام الكون الذي تسبح فيه مجرتنا وأرضنا؛ مسرح رحلتنا. لا يمكنكِ استعادة لحظة واحدة انقضت. نحن عاجزون تمامًا عن تغيير الماضي، ولكننا نستطيع الاحتفاظ بذكريات عنه. علاقتنا بالمستقبل معكوسة. نحن لا نستطيع «تذكر» المستقبل، ولكن بإمكاننا التأثير فيه. باستطاعتنا أيضًا أن نُسافر إليه.. بعقولنا.

القلق هو شعور بالتوتر والانزعاج بسبب حدث مستقبلي نتائجه غير مؤكدة. لو فكرتِ في الأشياء التي تقلقكِ لوجدتِ أن أغلبها يتعلق بحوادث وأمور ليست موجودة أمامكِ الآن، وإنما يبنيها خيالكِ في المستقبل. أنتِ تشعرين بالقلق الآن ليس بسبب أعراض كورونا، ولكن لأن عقلكِ يتصور أشياء سيئة

يُمكن أن تحدث بسبب كورونا في المستقبل. الفيلسوف الروماني «سينيكا» يقول: «نحن نعاني بسبب خيالنا بأكثر ممَّا نعاني في الواقع».

ولكن لماذا يتصور عقلكِ هذه الأشياء؟ لماذا تسافرين بعقلكِ إلى المستقبل باستمرار؟ السبب هو الطريقة التي يعمل بها دماغكِ!

الجهاز الذي تحملينه فوق كتفيكِ، والذي لا يزن أكثر من 1.5 كجم، هو الشيء الأعقد - على مبلغ علمنا اليوم - في الكون. ولكن ما الذي يفعله هذا الجهاز؟

هو يفعل أشياء كثيرة للغاية ومتنوعة على نحوٍ مذهل، من تخزين ذكرياتكِ المفرحة والمؤلمة، إلى اتخاذ قراراتكِ في كل الأمور، إلى تمكينكِ من سباحة الفراشة ببراعة. على أن أهم ما يفعله هذا الجهاز هو تصور المستقبل..

لو تأمَّلتِ فيما يقوم به دماغكِ عبر اليوم، لوجدتِ أنه ينهمك باستمرار في تصور سيناريو للمستقبل. أبسط ما تقومين به من أنشطة يعتمد على هذه السيناريوهات التي يصنعها دماغكِ بصورة متواصلة، وبدون وعي كامل منكِ: أنتِ تلقفين الكرة لأنكِ تتوقعين أنها ستكون في هذا المكان، وتتناولين الشوربة بحذر لأنكِ تتوقعين أنها قد تكون ساخنة. نحن نسمي الحدث غير المتوقع بالمفاجأة؛ لأنه يأتي على خلاف التصور الذي عمله دماغنا للمستقبل، كأن تسقط ثمرة على دماغكِ من شجرة تمرِّين تحتها. وبالمثل، نحن نضحك من النكتة لأننا نتوقع «قفلة» معينة، ثم نفاجأ بقفلة لم تخطر على بالنا وتنطوي على مفارقةٍ ما أو لعبٍ بالألفاظ.

هذه القدرة النادرة نتميز بها نحن البشر عن غيرنا من المخلوقات. البشر وحدهم مَن يستطيعون السفر إلى المستقبل بعقولهم. الحيوانات تستطيع إدراك موقعها في المكان، ولكنها لا تعي فكرة الزمن. هي تفتقد إلى مورد مهم جدًّا هو الماضي، إذ لا ذاكرة طويلة الأمد لديها. لهذا تظل الحيوانات عاجزة عن السفر إلى المستقبل. مسوحات الدماغ تُشير إلى أن المناطق التي تُستخدم لاستدعاء الذكريات هي ذاتها المرتبطة بتمثيل المستقبل. نحن نسافر إلى المستقبل عبر استدعاء ذكريات الماضي، وتصور كيف يمكن أن يتطور حدث ما. أما الحيوانات فهي، إلى حد كبير، محبوسة في اللحظة الحاضرة. لا يوجد شيء اسمه «الغد» عند الزرافة أو الحصان. الخطط المستقبلية التي تقوم بها بعض الحيوانات، مثل البيات الشتوي، تنفذها بواقع الغريزة لا الاختيار أو التخطيط الواعي. أما أنتِ فبإمكانكِ تصور أشياء وأحداث لا توجد في الواقع أمامك. بمعنى آخر، بإمكانكِ اختراق حاجز الزمن الرهيب. هذه الهبة هي التي مكنت البشر من تسلق السلسلة الغذائية والتفوق على كافة الكائنات الأخرى..

تصوري أنكِ تعيشين مثل سلفنا القديم، الذي عاش حياته صيادًا وجامعًا للثمار لعشرات الآلاف من السنين. فكري في حاجتكِ للهرب من الوحوش وإيجاد الطعام. من دون قدرة على تصور خطط مستقبلية، لا يمكنكِ النجاة لأن في الغابة حيوانات ووحوشًا تفوقكِ قوةً وفتكًا. الحل الوحيد أمامكِ هو أن تسبقيها بخطوة. أن تتصوري ما يمكن أن تفعله بكِ، وما يمكن أن يكون عليه رد فعلكِ في المقابل. أي أن يكون عندكِ خطة مستقبلية.

هذه الإمكانية الخارقة وضعتنا على أول الطريق في مسيرتنا. إننا نعيش في الحاضر، ولكن عقولنا قادرة على السفر للمستقبل. نحن نضع خططًا طويلة لمواجهة خطرٍ ما أو جلب منفعة. نستطيع أن نؤجل إشباعنا في اللحظة الحاضرة انتظارًا لكسب أكبر في المستقبل. بإمكاننا أن نصبر على الصعاب من أجل تحسين وضعنا في قادم الأيام. في مقدورنا أيضًا أن نتصور ما لا نراه أمامنا الآن، بل ما لم نرَه في حياتنا وما لم يرَه إنسان أبدًا! حضارتنا على الأرض صارت ممكنة بفضل هذه المهارة الاستثنائية. عندما نُسافر إلى المستقبل، متجاوزين «الآن وهنا»، فإننا نسعى أيضًا لتخيله وتشكيله بأدمغتنا. هذا ما يولِّد لدينا واحدًا من أقوى المشاعر البشرية وأشدها تأثيرًا: الأمل. إن الأمل - مجرد الأمل - يزيد من احتمال حصول الأشياء في الواقع. السبب وراء ذلك أن كثيرًا من الأحداث والأشياء تكون، في الأصل، مجرد تصورات في الدماغ قبل أن تصير واقعًا.

غير أن السفر إلى المستقبل له ثمن: الإحساس الدائم بانعدام اليقين. هذا هو السبب العميق لنوبات القلق والهلع التي تداهمك. هذا هو الأصل البعيد لمعاناتك، ومعاناتنا جميعًا، مع الخوف ممَّا يحمله الغد.

إننا نعيش أسرى لانعدام اليقين. كان هذا هو حالنا في السافانا والغابات، صيادين وجامعي ثمار منذ ظهور الإنسان العاقل على سطح الأرض منذ 300 ألف سنة تقريبًا. وهو حالنا إلى اليوم. ما يفاقم هذه الحالة هو أن وجودنا كان دائمًا مهددًا وهشًّا. لم يكن صعبًا علينا أن نتصور حدوث أشياء سيئة في المستقبل. البشر كانوا بارعين، مثلكِ، في تصور السيناريوهات السيئة كما تقولين. البيئة الخطيرة التي عشنا في كنفها حملت لنا باستمرار ما يعزز مخاوفنا..

الإنسان الصياد عاش أسيرًا للخوف من الضواري وكوارث الطبيعة المتنوعة. الإنسان المزارع عاش تحت رحمة الفيضان المدمر أو موجات الجفاف المهلكة أو الأمراض القاتلة التي لا يعرف لها سببًا. الإنسان اليوم يعيش في مجتمعات بالغة التركيب والتقدم التكنولوجي، ولكن هذه المجتمعات قد تتوقف عن العمل فجأة بسبب كائن لا يمكن رؤيته بالعين المجردة، كما حدث مع كورونا التي أقعدتنا، أنا وأنتِ، حبيسين نتبادل هذه الرسائل!

الحقيقة يا عزيزتي أن جائحة كورونا هي مجرد الحلقة الأخيرة في سلسلة متصلة تربطنا بتاريخنا البعيد جدًّا. الكارثة والأزمة ليست أحداثًا فريدة في قصتنا. إنهما ما يجعلان منها قصة تستحق أن تُروى. مفعمة بالمفاجآت.. وانعدام اليقين. هل كنتِ تتصورين منذ عدة أشهر فقط أن تكوني أسيرة لغرفتكِ بسبب فيروس ضرب الكرة الأرضية؟ لقد تكونت عناصر قصتنا كلها على وقع كوارث مروعة. ولكن مع كل كارثة كانت تنفتح أمامنا نافذة فرصة تقرِّبنا أكثر من المسار الذي وصل بنا إلى هنا.. اليوم.

منذ 65 مليون سنة اصطدم كويكب عملاق في حجم جبل إيفرست بالأرض بسرعة تفوق سرعة الصوت 60 مرة. حرائق الغابات التي تولَّدت عن الانفجار جعلت الأرض تبدو ككتلة لهب، والتسونامي الهائل اكتسح كل شيء أمامه. النتيجة كانت انقراض 70% من المخلوقات، بما فيها الديناصورات التي عاشت على الأرض أكثر من 150 مليون سنة.. أي أطول ألف مرة تقريبًا من وجودنا نحن البشر على الأرض!

الديناصورات تضع بيضًا، مثلها مثل الطيور. الحقيقة أن الطيور التي ترينها اليوم، هي أحفاد الديناصورات البعيدة. اختفاء الديناصورات سمح بانتشار كائنات أصغر في حجم الفئران. تلك هي الثدييات، أي الكائنات التي تلد ولا تبيض. في بيئة مرعبة، من الانفجارات والتسونامي، لو كنتِ أمًّا فليس من الحكمة أن تحتفظي بصغاركِ في بيضة. الأفضل أن تجعلي البيضة في «داخلك». الثدييات هي كائنات تحمل بيضتها في داخلها في صورة رحم، حيث الحماية القصوى داخل جسد الأم. هذه الثدييات الصغيرة كانت تتغذى على أي شيء. صغر حجمها ساعدها على الفرار من الكارثة.. الثدييات هي أصلنا البعيد.. البعيد جدًّا.

أما النوع الذي ننتمي إليه، أنتِ وأنا، ويدعى بـ «الإنسان العاقل»، فقد ظهر في وقتٍ ما منذ 300 ألف سنة تقريبًا. أقدم حفرية بشرية للإنسان العاقل عثر عليها عام 2017م في جبل «إيغود» في المغرب. قبل العثور على هذه الحفرية كان يُعتقد أن نوعنا ظهر للمرة الأولى في شرق إفريقيا منذ 200 ألف سنة.

انطلق أسلافنا من إفريقيا وملأوا مساحات شاسعة من الكرة الأرضية إلى أن ضربت الكارثة من جديد منذ 74 ألف سنة. انفجار هائل لبركان «توبا» قرب سومطرة خلف وراءه أخدودًا ضخمًا، وأطلق في الجو ملياري طن من حمض الكبريتيك. كان هذا، وما زال، أقوى انفجار شهده الإنسان في تاريخه على الأرض. تشكلت سحابة بركانية كبرى، وتكونت سحب حمضية بعد أن حملت الرياح الرماد البركاني لأصقاع بعيدة. حُجبت نحو 90% من أشعة الشمس،

فتعطلت عملية التمثيل الضوئي التي يعتمد عليها النبات، الذي يأكله الحيوان والإنسان..

قبل البركان المدمر كان عدد البشر ربما يتجاوز مائة ألف، انتشروا في عددٍ من قارَّات العالم. عرف العلماء ذلك لأنهم عثروا على آثار لأدوات حجرية من صنع بشر، موزعة على أماكن مختلفة من المعمورة، وتعود لهذا التاريخ البعيد. بعد البركان يرجِّح العلماء أن عدد سكان الكوكب تراجع بشدة إلى ما بين أربعة إلى خمسة آلاف شخص! كلنا أبناء تلك «القبيلة الناجية». هذا ما يفسر التقارب المذهل بيننا في التركيب الجيني. أبناء هذه الجماعة، ونسلها، واجهوا بيئة تفيض بالخطر، حيث يختبئ الموت في كل ركن. نحن عشنا أغلب حياتنا على الأرض تحوطنا أنهار هائلة من الجليد تغطي كل شيء بطبقة سمكها أربعة كيلو مترات.

لقد تركت هذه الكوارث أثرًا غائرًا في أعماقنا. غرست بداخلنا هذا الشعور المضني، والمستمر معنا إلى اليوم، بانعدام اليقين والخوف من المجهول. على أن الكوارث والتهديدات المستمرة، التي ظل احتمال وقوعها سيفًا مسلطًا علينا، دفعتنا دفعًا إلى ارتياد طرق ومسارات انتهت بنا إلى إبداع الحضارة التي تنعمين اليوم بثمارها، وترين منجزاتها في كل شيءٍ حولكِ.

نعم.. القلق والخوف، اللذان يعذبانك، هما صُناع الحضارة البشرية الحقيقيون. البشر وجدوا أنفسهم، منذ اللحظة الأولى، في مواجهة هذا الصديق الثقيل الذي يفرض نفسه عليك: القلق. كل ما فعله البشر عبر رحلتهم على الأرض لم يكن سوى محاولات متواصلة لتقليص مساحة انعدام اليقين في حياتهم. إن عقولنا تكره انعدام اليقين. الحل كان السعي للحصول على معلومات تطمئننا، كما تفعلين أنتِ اليوم بتصفح الإنترنت بحثًا عن آثار كورونا على المدى الطويل. تلك كانت البذرة الأولى لكل نشاط بشري من أجل فهم العالم المحيط. هذا ما نسميه اليوم بالعلم.

كان في إمكان البشر أيضًا أن يتقاسموا عبء القلق معًا، فيخف حمله على الفرد الواحد. تلك كانت بذرة تكون الجماعات البشرية الأولى. نحن نعيش في جماعات لأننا غير قادرين على مواجهة الخوف وانعدام اليقين بمفردنا. عندما يداهمكِ خطر أو خوف من شيءٍ ما، فإن أول ما تفعلينه - لا شعوريًّا - هو اللجوء لآخرين طلبًا للعون صارخةً بكلمة واحدة معبرة: «الحقوني»! الجماعات البشرية تستطيع تقليص مساحات الخطر والخوف ممَّا هو آتٍ إذا عملت معًا وتكاتفت وشاركت أدمغتها في إيجاد حلول للمشكلات، والاستعداد لما قد تحمله رياح الغد. إذا كنتِ تعيشين على الصيد، فسيحدث أن تعودي يومًا ويومين وثلاثة خالية الوفاض، من دون أي فريسة. لو لم تكوني جزءًا من جماعة ستموتين جوعًا. لكن لو أن آخرين، كان حظهم أفضل في الصيد،

تقاسموا معكِ غنيمتهم.. فستكون لديكِ فرصة للنجاة. لو أنك تعرفين أن جماعة تحوطكِ برعايتها سوف تهدأ مخاوفكِ ويتراجع منسوب القلق لديك. رسالتكِ لي ليست سوى محاولة منكِ لتقاسم قلقكِ معي.

سوف أقاسمكِ قصةً في المقابل..

إنها أروع قصة يمكن أن تقرئيها. لا أدعي أنها ستعالج قلقكِ لأنها تدور حول القلق أيضًا كما ترين. ولكنها قد تكشف لكِ أن القلق والخوف ليست أشياء سيئة إلى هذا الحد، إذا فهمناها وتفاهمنا معها.. إنها قصتنا، أنا وأنتِ والبشر جميعًا، منذ اللحظة الأولى التي وجدنا أنفسنا فيها بمواجهة الخوف والقلق على كوكب الأرض، بل منذ اللحظة التي تكونت فيها عناصر قصتنا قبل أن نظهر أصلًا. أشياء كثيرة حددت معالم قصتنا ورسمت حدودها قبل أن تبدأ..

في عزلة كورونا المديدة قررت، مثلكِ، أن أغلق حساباتي على وسائل التواصل الاجتماعي. سوف أقضي الوقت في كتابة هذه القصة لكِ، آملًا أن تبعد عنَّا، أنا وأنتِ، ولو لسويعات قصار هذا الصديق العنيد الذي يأبى أن يفارقنا. لو واصلتِ قراءة الرسائل، سوف أواصل الكتابة، وأعدكِ أنكِ ستجدين في رسائلي الأخيرة أفكارًا مدهشة وطرقًا شتى للتعاطي مع القلق والخوف وانعدام اليقين..

سوف تجدين أيضًا أشياء كثيرة تربطكِ بهذه القصة. سوف تكتشفين أسرارًا عجيبة عن نفسك، وعن حياتكِ وأسرتكِ والجماعة البشرية التي تعيشين في كنفها. هذه ليست قصة مدرسية. ليست تاريخًا من النوع الذي نحصله من أجل اجتياز امتحانات، فنضطر لحفظ العديد من الأسماء والسنوات والأماكن. إنها قصة حية متجددة ستأخذنا إلى الماضي السحيق حينًا، وتقفز بنا إلى اللحظة الحاضرة حينًا آخر..

أهم ما يربطكِ بهذه القصة هو دماغك؛ لأنه نفس الدماغ الذي استقر على كتفَي فتاة عاشت في العصر الجليدي منذ 50 ألف عام. صحيح أن في داخل دماغكِ معلومات أكثر عن أشياء مختلفة، ولكنه يعمل بالطريقة نفسها التي كان يعمل بها دماغ فتاة الجليد. هو ينتج الانفعالات الأساسية نفسها، ويعاني من آلام السفر إلى المستقبل ذاتها. أنتِ أيضًا، مثلها، تعيشين تحت سيف انعدام اليقين وفي قبضة القلق. صحيح أنكِ تتغلبين على ذلك بأدوات مختلفة، مثل هاتفكِ النقال الذي يخبركِ بأن الجو غدًا سيكون ممطرًا فلا تكونين أسيرة الخوف من تقلبات الطقس كفتاة الجليد، إلا أن هذا الجهاز لا يستطيع أبدًا أن يخبركِ بتاريخ التسونامي القادم، أو بموعد الجائحة القادمة، أو بمدى فتكها.

ما يميزكِ حقًّا عن وفتاة الجليد، وعن أغلب البشر الذين مشوا على الأرض، هو أن في حوزتكِ موردًا هائلًا لم يتح لهم..

لقد عشتِ على ظهر الكوكب عددًا محدودًا من السنوات، ولكن بإمكانكِ أن تضيفي لها 300 ألف عام من التجربة البشرية!

الإنسان كفرد ضعيف للغاية. صغير إلى أبعد الحدود. ولكن هذا الإنسان نفسه يصير عملاقًا بلا مثيل عندما يكون جزءًا من الإنسانية بأسرها. المجتمع هو أعظم إنجازاتنا ومنبع قوتنا التي مكنتنا عبر رحلتنا من السيطرة على الكوكب الذي نعيش عليه.

تخيلي سلمًا بشريًّا هائلًا تقفين أنتِ على قمته. البشر يصيرون بشرًا لأنهم يقفون على أكتاف مَن سبقهم، ثم ينظرون إلى الأمام.

عبر رسائلي إليكِ سأحاول أن أعرفكِ على أسرتك.. أسرتكِ الكبيرة العتيدة التي خاضت مغامرة مدهشة من الكهوف الحجرية إلى الذكاء الاصطناعي. مغامرة مليئة بالأفكار والخيالات والصراعات والانكسارات والنكبات والخيانات والانتصارات. سنبدأ الرحلة من أولها، ولكننا لن نصل إلى محطة النهاية. لا أظن أن فترة العزل تكفي لسرد القصة كلها. ستنتهي رسائلي إليكِ مع صعود الأديان التوحيدية، وبخاصة اليهودية والمسيحية. إنها النقطة التي ينتهي عندها الجزء القديم من تاريخنا. هو الجزء الذي يحمل، كما سترين، الجذور العميقة لطريقة حياتنا العجيبة التي كثيرًا ما تُصيبك بالحيرة كما ذكرتِ لي غير مرة. إنه الجزء الأكثر غموضًا في قصتنا لأنه يحمل أسرارًا عن منابع الأفكار الكبرى التي تملأ أدمغتنا، وأصل الانفعالات والدوافع التي تحرك سلوكنا. سأكشف لكِ أيضًا عن حيلٍ بارعةٍ تعلمناها لتسكين القلق والخوف، وترويضهما، بل وتسخيرهما لصالحنا. ربما تساعدكِ هذه الحيل أنتِ أيضًا في التصدي لنوبات القلق والهلع التي تهاجمكِ في عزلة كورونا الثقيلة.

أسرتكِ الكبيرة – كما سترين- مدهشة حقًّا. أسرة صاخبة، نشيطة، لا تهدأ. كثيرة الشقاق، مرتادة للآفاق. توقع نفسها في المآزق من حيث تريد الخير. وتحرز المنافع من حيث تقصد الضرر. لا تعرف على وجه اليقين أي مرفأ تقصد، ولا إلى أي ميناء تبحر، ولكنها تبحر بحماس لا يفتر. تنتج المبادئ والأفكار، ثم تعود لتخرقها وتهزأ بها وتغيرها. تبدو حينًا مهزومة ضائعة، رهينة مصادفات لا دخل لها فيها، ثم إذا بها تنتفض لتنهض من جديد لتعود أقوى وأكثر ثقة. تكذب كثيرًا، ولكن بعض أكاذيبها تفوق الحقائق في أهميتها وفائدتها!

ستعجبين لكَمِّ الأشياء السيئة التي تولدت عنها نتائج حميدة، ولكَمِّ النوايا الطيبة التي انتهت إلى كوارث مروعة. ستدهشين للعلاقات العجيبة بين أشياء

لا يبدو بينها أي رابط ظاهر. ستعرفين – مثلًا - أن النجوم في السماء أسهمت في صناعة التفاوت في الثروة بيننا على الأرض، وأن الفيروس يتصرف مثلنا، بل نحن الذين نتصرف مثله؛ لأنه سبق وجودنا بمليارات السنوات. سيدهشكِ أن الإمبراطوريات الكبرى تفعل نفس ما تفعله الخلايا في أجسادنا، وأن ما يربطنا في المجتمع هو خوفنا من بعضنا بعضًا!

سترين أن رحلتنا قد تبدو في لحظات بلا معنى.. بلا وجهة.. بغير هدف. ستدركين في النهاية أننا نحن مَن نمنحها المعنى. نحن مادة القصة ورواتها. نحن الأبطال، الخيرون والأشرار.

لماذا اخترنا أن نعيش بهذه الطريقة التي نعيش بها الآن؟ هل كانت هناك طرق أخرى للعيش لم نجربها؟ هل اخترنا أصلًا؟ هل ثمَّة قوانين كبرى لقصتنا أم إن القانون الأكبر هو المصادفة؟ هل هناك «شفرات» خفية تشغِّل كل شيءٍ حولنا؟ من أين جاءت هذه «الشفرات»؟ وهل يمكن كسرها؟

هل نحن أشرار يقتل بعضنا بعضًا، أم إننا عطوفون رحماء نضحي - حتى بأنفسنا - من أجل الآخرين؟ أم إن الخير والشر ربما يكونان وجهين لعملة واحدة؟

لماذا عاش أغلب البشر لا يملكون شيئًا، بينما ظلت قلة قليلة، عبر رحلتنا الطويلة، تملك كل شيءٍ تقريبًا؟ لماذا قبلت الأغلبية بهذا المصير؟ لماذا تظهر أفكار معينة في وقتٍ بعينه؟ ولماذا تختفي أفكار أخرى وتذوي؟ ما السبب في انخراطنا، إلى اليوم، في ممارسة القتل المنظم لبعضنا بعضًا في نشاط لا نظير له تقريبًا في أيٍّ من الكائنات الأخرى، ونسميه بالحرب؟

كيف ترتبط كل الأشياء والأحداث والأفكار ببعضها في شبكةٍ واحدةٍ كبيرةٍ لتنتج لنا ما نسميه بالتاريخ.. تاريخنا؟ لماذا تتحرك الأحداث في اتجاهٍ بعينه؟ هل هناك مغزى لكل ما حدث ويحدث؟ هل من سبيل لفك شفرة الماضي لتساعدنا في تلمس الطريق إلى المستقبل؛ مستقبلكِ أنتِ ومستقبل جنسنا البشري؟

هل يُشبه تاريخنا على الأرض قطارًا يتحرك على خط سكك حديدية، أم إنه يُشبه شبكة عملاقة تحمل عددًا لا نهائيًّا من العقد والخيوط المتداخلة؟ هل يمكنكِ تصور شبكة كهذه، تضم كل الأشياء والأحداث والأفكار، منذ نشأة الكون إلى اللحظة التي تقرئين فيها هذه الرسالة؟ هل يمكن أن تكون كل الأشياء مرتبطة على نحوٍ ما؟

رحلتنا على الأرض هي الطريق التي صنعته أقدامنا. هي نحن؛ أنتِ وأنا وجميع البشر..

الآن.. هذه الرحلة انتهت عندكِ يا عزيزتي. أنتِ الوريث. أنتِ حاملة الشّعلة. في اللحظة التي تشعرين فيها بالانتماء إلى هذه الأسرة البشرية الكبيرة، بخيرها وشرها، بانتصاراتها وكبواتها، تصيرين حقًّا إنسانة..

افعلي بحياتكِ ما تريدين، ولكن كوني إنسانة. ربما تدركين بعد قراءة رسائلي كم هو صعب ومضنٍ أن تكوني إنسانة تحمل في داخلها قصة عمرها 300 ألف عام. كم هو رائع ومجيد أيضًا أن تكوني إنسانة!

دافعي عن إنسانيتكِ ما وسعكِ ذلك. ساعدي الآخرين ليفعلوا الشيء نفسه. أحبي أسرتكِ الكبيرة. دافعي عن كل معنى نبيل وجميل تركته لكِ هذه الأسرة الرائعة. تعاطفي معها، حتى في كبواتها. انظري للحظات ضعفها برأفة، فهي – مثلكِ أنتِ - طالما واجهت خيارات صعبة دفعتها للتردد والخوف، وارتكاب الأخطاء، بل والتورط في الخطايا أحيانًا. هي مثلكِ أنتِ، طالما اجتهدت لتعرف الصواب من الخطأ في عالم بلا يقين. تعثرت كثيرًا وناضلت كثيرًا في سبيل الخير والسعادة وراحة البال. هي مثلكِ أيضًا لم تصل إلى مرفأ نهائي، ولكنها ما زالت تبحر حاملة بين ضلوعها حماسًا وفضولًا ومخاوف وشكوكًا، وأملًا بلا حدود..

لن أقول لكِ لا تقلقي.. ولكن سأقول مرحبًا بكِ في عالم القلق!

جمال

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

والدي العزيز..

كلامك عن مصادقة القلق دقَّ وترًا عندي. القلق بالفعل عادة.. عادة سيئة لا أستطيع الإقلاع عنها، برغم كل كلامك المُقنع عن دماغي الذي يسافر إلى المستقبل، والقلق الذي وُلد مع بداية رحلة البشر.

الحقيقة أنني لم أفكر يومًا في أن تاريخنا البعيد على الأرض له علاقة بنوبات الهلع التي تنتابني، ولم أفكر كذلك في أن تاريخ البشر يُشبه شبكة كبيرة.. وأن كل شيء يرتبط بكل شيء!

قصة البشر لا تبدو خيارًا جذابًا لقضاء أوقات العزل. هي تتطلب التركيز، وأنا دماغي مسافر دومًا إلى المستقبل!

أعدك، مع ذلك، أن أواصل قراءة الرسائل؛ فمن المثير أن أقرأ قصة بطلها القلق، وصانعها الخوف.. لسببٍ ما يبدو هذا مريحًا بالنسبة لي. كلامك عن انعدام اليقين الذي يملأ حياتنا يجعلني أشعر بأن قلقي ليس شيئًا خاصًّا بي وحدي. لست سوى ابنة وفية لأسرتي الكبيرة كما تقول.

تذكر أنني أقرأ ببطءٍ بسبب الفيروس الذي يسكن جسدي، فلا تكتب رسائل طويلة من فضلك.. من أين تبدأ القصة؟

ليلى

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الرسالة الثانية

قواعد اللعبة

«أشمل صراع في الوجود، هو الصراع بين الحب والموت».

نجيب محفوظ

ابنتي العزيزة..

الفيروس الذي يسكن جسدكِ وجسدي الآن هو بطل الفصل الأحدث في قصتنا تحت عنوان: «جائحة كورونا»، ولكن الفيروسات بطل قديم جدًّا في قصتنا، يعود وجودها لمليارات السنين. هي أيضًا تكشف عن الشفرة الخفية وقواعد اللعبة التي تتحكم في وجودنا، ووجود الكائنات الحية كافة على الأرض. نعم.. قصتنا تبدو وكأنها رهن للمصادفات، ولكنها في الواقع مثل لعبة لها عدد من القواعد. عندما ترغبين في إتقان أي لعبة جديدة، فإنكِ تبدئين في التعرُّف على قواعدها: حدود الملعب، والأشياء المسموح بها وتلك الممنوعة، ومعيار الفوز، والمهارات المطلوبة لتحقيقه.

الفيروس قد يساعدكِ في التعرف على «قواعد لعبتنا». هل فكرتِ في السبب الذي دفع فيروس كورونا إلى مهاجمة جسدك؟

السبب ببساطة هو: الرغبة في البقاء.

الفيروس ليس سوى «نبأ سيئ مغلَّف بالبروتين». هو عبارة عن مادة وراثية (دي إن إيه) أو (آر إن إيه) بالإضافة إلى البروتين. هذا التكوين البسيط لا يسمح له بالقيام بالمهمة الرئيسية للكائنات الحية وهي إنتاج نسخ من ذاتها؛ لأنه لا يستطيع إنتاج نسخ من نفسه بنفسه. فماذا يفعل؟

فرصته الوحيدة في البقاء هي أن يهاجم خلية حيَّة، ويسيطر على عملية التمثيل الغذائي بداخلها. من دون ذلك يبقى الفيروس معلقًا بين الحياة والموت. بإمكان الفيروس أن يعيش كامنًا لسنوات حتى يجد خلية «تستضيفه» وتساعده في تحقيق هدفه، بإنتاج نسخ من ذاته. وعندما يعثر الفيروس على ضالته، فإنه يحول الماكينة الموجودة داخل الخلية إلى خط إنتاج متواصل لتوليد المزيد من الفيروسات. هذه الخطة العجيبة صادفت نجاحًا مدويًا عبر مليارات السنوات. الفيروسات هي أكثر أنواع الميكروبات انتشارًا على ظهر الأرض. ثمَّة 100 مليون نوع مختلف منها. في عالمنا اليوم من الفيروسات ما يفوق جميع أشكال الحياة الأخرى مجتمعة!

الرغبة في البقاء هي السبب وراء الإستراتيجية العجيبة التي تتبعها الفيروسات: الانتقال بالعدوى من عائلٍ لآخر. لو أن الفيروس استطاع قتل عائله قبل أن ينجح في الانتقال إلى عائل جديد، يكون قد فشل في مهمته؛ لأنه يموت مع العائل. لهذا السبب فإن الفيروسات الأشد فتكًا، مثل إيبولا، لا يكون في مقدورها التفشي على نحوٍ واسعٍ؛ لأنها تقتل ضحاياها بسرعةٍ. أما الفيروسات التي تُحرز الانتشار الواسع، ومنها ذاك الذي يسكن جسدينا الآن، فلا تكون عادة ذات فتكٍ شديدٍ أو سريع. القتل هدف جانبي للفيروس. الهدف الأصلي هو العدوى نفسها.

خلال سعيه لتحقيق هدفه بالانتشار من عائلٍ إلى آخر، فإن الفيروس يتعلم مهارات عجيبة. مثلًا: الفيروس الذي يسبب نزلة البرد (وهناك مائة ألف نوع مختلف منه!) والذي يساعدكِ في تحقيق هدفكِ أنتِ بالغياب من المدرسة، يمارس خدعة معروفة. يدلف هذا الفيروس إلى البطانة الداخلية للتجاويف الأنفية، ويسبب شعورًا بالوخز الخفيف في النهايات العصبية، وهي العملية التي تتسبب في العطس. أثناء العطس نطرد إلى الخارج سحابة هائلة من قطيرات المخاط الحاملة للفيروس. تبقى السحابة سابحة في الهواء باحثة عن ضحية جديدة لتصيبها بالعدوى!

القوانين الكبرى تعبِّر عن نفسها في أصغر الأشياء على الأرض. أشياء بحجم فيروس يسعى للتطفل على الحياة من أجل التكاثر والبقاء. ربما كانت تلك «الرغبة» العجيبة هي البداية الحقيقية للإثارة في قصتنا. إنها تكشف عن قانون مهم يحرك كل أحداثها تقريبًا. الفيروس يشترك مع الكائنات الأخرى في أنه يحمل «هدفًا ما». إن هذا هو شعورنا ونحن نراقب تطورات وباء كورونا في هلع. يبدو لنا الفيروس وكأن له خطة ما. لقد صرنا، بدون قصد، نستعمل كلماتٍ مثل «العدو» في وصفه، كما لو كنَّا نشعر بأن لهذا الكائن إرادة ذاتية للتدمير، بينما الحقيقة أنه يطبق القاعدة الأولى في لعبتنا: البقاء.

خطة الفيروس تكشف عن خطةٍ أشمل. خطة الكائنات الحية، وهي الفئة التي ننتمي إليها، أنا وأنتِ والنبات والحيوان والخلايا والبكتيريا. إذا كنتِ تريدين معرفة القوانين الكبرى التي تحرك قصتنا، فلتنعمي النظر في اللبنات التي تتكون منها. وإن كانت الحياة مصدر حيرة كبيرة لكِ، فعليكِ أن تبدئي بهذا السؤال البسيط: ما هي الحياة أصلًا؟

ما الحياة؟

حتى تسعينيات القرن الماضي كنَّا نظن أن لا كواكب، خارج مجموعتنا الشمسية، تدور حول نجوم كما تدور أرضنا حول الشمس. غير أننا اكتشفنا حتى الآن ما يقرب من 5000 كوكب تدور حول نجوم أخرى في نظمٍ تشبه

مجموعتنا الشمسية. يعني ذلك أن احتمال وجود حياة خارج الأرض يظل قائمًا. من ضمن البرامج التي تعمل عليها وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) برنامج يتعلق بالبحث عن حياة خارج الأرض. ولكن لكي يبحث العلماء عن الحياة كان عليهم الاتفاق على تعريف محدد لها..

ما الذي يمكن اعتباره شكلًا من أشكال الحياة، حتى إذا وجدناه على كوكب آخر تعرفنا عليه؟

تبين أن تعريف الحياة ليس بالبساطة التي يبدو عليها. الفيروس نفسه أكبر دليل: هو لا يستطيع التكاثر بذاته، ويحتاج لغزو خلية أخرى لفعل ذلك. فهل نعتبر ذلك العيش شكلًا من أشكال الحياة؟

وكالة ناسا وضعت تعريفًا للحياة على النحو الآتي: «الحياة هي نظام كيميائي يستطيع الحفاظ على ذاته بذاته، ولديه قدرة على التكاثر الداروينى».

عبارة معقدة ولكن المعنى المقصود بسيط..

المعنى أن الحياة هي في الأساس تفاعل بين عناصر كيميائية. العناصر التي تتكون منها الحياة هي ذاتها العناصر التي يتكون منها العالم المادي حولنا (الجزيئات والذرات). غير أن ثمَّة نظامًا يجمع هذه العناصر بطريقة معينة لينتج لنا هذه الظاهرة المدهشة، المفعمة بالحركة والنماء والتجدد.. التي نطلق عليها الحياة.

ألمح بوادر الاعتراض بادية عليك: الحياة ليست كيمياء! هناك فرق جوهري واضح بين الأشياء الحية (كأوراق الشجر والكلاب والديدان)، والأشياء غير الحية كالصخور والأحجار والكراسي.

عندكِ حق. هناك فرق جوهري: الحياة تتكاثر. تحافظ على ذاتها. تنمو وتتجدد، وتفنى ثم تولد من جديد وتنمو.. إلخ. الأشياء المادية لا تفعل ذلك. حسنًا.. يمكن القول إن النار تنمو وتتكاثر على نحوٍ ما (تأمَّلي ظاهرة حريق الغابات). النجوم أيضًا تقوم بعملية الحفاظ على ذاتها (إلى حين). على أن الحياة وحدها لديها هذه الخاصية الاستثنائية في تجديد ذاتها بذاتها، عبر أجيالٍ متعاقبة. أنتِ موجودة اليوم وتقرئين هذه الرسائل لهذا السبب.

كيف تفعل الحياة ذلك؟

السؤال الأكثر إثارة: لماذا تفعل الحياة ذلك؟

إن نحن استطعنا فك أسرار الوحدة الأساسية المكونة للحياة، وهي الخلية، ربما يصير بإمكاننا أن نفهم طبيعة الحياة ذاتها، بل طبيعة التاريخ البشري كله، فالخلايا تكوِّن الأنسجة، والأنسجة تكوِّن الأعضاء، والأعضاء تكوِّن أجسادًا

بشرية، والبشر ينشئون مجتمعات يعيشون فيها، والمجتمع الواحد قد يضم ملايين الناس. الوحدة الأولى لكل هذا البناء المركَّب، إذن، هي الخلية.

الخلية وحدة مشتركة بين الكائنات الحية جميعًا، من نبات وحيوان وبشر. ثمَّة دليل علمي قوي على أن أصل هذا التنوع البيولوجي الذي يملأ عالمنا، هو كائن وحيد الخلية كان يعيش في الماء قبل نحو 3.7 مليار سنة، أي بعد نحو مليار سنة من تشكُّل الأرض والنظام الشمسي. هذا يعني أن ظاهرة الحياة بدأت مبكرًا على كوكبنا. يرجح العلماء أنها ظهرت عبر تفاعلات كيميائية خاصة جدًّا في باطن المحيطات، وتحت درجات حرارة عالية جدًّا. إلى اليوم، ما زال العلماء يجتهدون لفك أسرار هذا الحدث الفريد. لا أحد يعرف بالضبط كيف بدأت الحياة. ما نعرفه أن القصة، بعد بدء الحياة، اتخذت منعطفات أكثر إثارة..

منبع الإثارة أن الكائنات الحية تتكاثر وتتطور وتتنوع وتحسن أداءها، بينما المواد غير الحية عاجزة عن هذا التطور والتنوع. الكائنات الحية تفعل هذه الأشياء المذهلة لأنها تمتلك مصانع صغيرة بالغة الكفاءة هي الخلايا. بعض الخلايا، مثل البكتيريا، يكون بالغ الصِّغر (واحد على المليون من المتر)، وبعضها يكون كبيرًا بحجم صفار البيضة. نعم.. الصفار داخل البيضة هو خلية واحدة تتحول إلى جنين الكتكوت. أنتِ أيضًا كنتِ في يومٍ ما - منذ 17 عامًا - خلية واحدة!

الخلية نظام كيميائي معقَّد، وظيفته الحفاظ على ذاته بذاته، وإنتاج المزيد منه. الخلية ليست كائنًا طفيليًّا كالفيروس. هي مصنع منتج يعتمد على الذات. ولكي تنجز تلك المعجزة فإنها تحتاج لشيئين أساسيين: الطاقة والمعلومات..

لكي تفعلي أي شيء في هذا الكون تحتاجين إلى طاقة. فكري في أي شيء: تحريك إصبعك.. حل فروضكِ المدرسية.. مشاهدة التلفزيون. فكري في أشياء أكبر: السفر من مكان لمكان.. الوصول إلى القمر.. أي شيء. الحقيقة أن أي تكوين في هذا الكون الفسيح يحتاج إلى طاقة، من النجوم العملاقة في السماوات، إلى ناطحات السحاب، إلى بيوت المكعبات التي كنَّا نلهو بها صغارًا. أي شيء، وأي تكوين، وأي فِعل يحتاج إلى طاقة. قصة البشر على الأرض يمكن النظر إليها، كما سنرى، كنضالٍ مستمرٍّ من أجل الحصول على طاقةٍ أكبر، لفعل أشياء أكثر، وبناء تكويناتٍ أضخم وأكثر تعقيدًا.

منذ ثلاثة مليارات سنة تقريبًا تحركت الحياة، في صورة بكتيريا، من عمق المحيط المظلم إلى سطحه. هكذا تعرَّض هذا الكائن الدقيق وحيد الخلية، إلى أشعة الشمس فوق البنفسجية. هي أشعة قاتلة للبكتيريا (ولذلك ننشر الغسيل في الشمس؛ لأنها الوسيلة الأفضل لقتل البكتيريا!) طوَّر الكائن

الدقيق صبغة تحميه من أشعة الشمس وتمتصها. صار لديه فائض من الطاقة يمكنه أن يتحول إلى غذاء. إنها واحدة من خصائص الحياة العبقرية: تحويل المشكلة إلى فرصة!

لقد توصل الكائن الدقيق، ذو الخلية الواحدة، إلى خطة مبتكرة للحصول على الطاقة. الخطة تمثلت في امتصاص ثاني أكسيد الكربون من الجو، واستخدامه مع ضوء الشمس والماء، في إجراء عملية كيميائية معقدة لتوليد الطاقة. هذا ما يُسمَّى بالتمثيل الضوئي. هذا الكائن وحيد الخلية، وبفضل هذه الوسيلة المبتكرة للبقاء والاستمرار، تسيَّد الكوكب لمدة ملياري سنة تالية!

تنبَّهي لتلك الحقيقة المثيرة: الشكل الوحيد للحياة على الأرض، عبر السواد الأعظم من تاريخها، كان كائنًا وحيد الخلية لا يمكن رؤيته سوى بميكروسكوب، هائمًا في المحيط لا يلوي على شيء!

على أن هذا الكائن الدقيق كان يختلف عن كل الأشياء حوله في المحيط الشاسع. بل عن كل شيءٍ في الكون الفسيح. هذا الكائن الدقيق طوى بداخله درجة هائلة من التعقيد. هو أيضًا، شيء له هدف.. تلك هي بداية أن يكون لأي شيءٍ معنى في قصتنا. الصخور والجبال الرواسي، والصحاري الشاسعة.. أشياء بديعة، ولكن ليس لها أي غاية ذاتية من وراء وجودها. هي لا تسعى لأي شيء، وليس لديها خطة محددة مثل خطة الفيروس الذي يسعى للبقاء عبر العدوى، أو الخلية التي تسعى إلى الطاقة من أجل الحفاظ على ذاتها.

فكري حتى في أشياء أكبر مثل النجوم في أعالي السماء.. ما هدف النجم؟ لا شيء. الحقيقة أن النجم هائل الحجم، مقارنة بالخلية، يبدو نظامًا بسيطًا. هو ليس سوى تفاعل نووي اندماجي بين ذرات الهيدروجين التي تتحد لإنتاج الهيليوم، مطلقةً قدرًا هائلًا من الطاقة. عندما تستهلك النجوم طاقتها، تنهار وتتلاشى. وكذلك الصخور لا تُبالي إن هي تعرضت للنحر والتآكل المستمر عبر الزمن. أما الخلية فلا تتصرف بهذه الطريقة. هي لا تتقبل مصيرها المحتوم في هدوء واستسلام..

الخلية نظام معقَّد يجري في داخله آلاف التفاعلات في اللحظة الواحدة. هذا بالضبط ما يجري الآن في نحو 37 تريليون خلية موجودة في جسدك. كل هذه التفاعلات هدفها النهائي الحصول على طاقة من البيئة المحيطة من أجل البقاء. تسعى الخلية كذلك إلى غاية أخرى أهم: إنتاج نسخة أخرى منها. حلم أي خلية هو أن تصبح اثنتين! لماذا؟ لأن الخلية لا تبقى حيَّة للأبد، هي تفنى بعد عمرٍ معين، تمامًا كمثل كل كائن حي على ظهر الأرض. لهذا فقد وجدت الخلية طريقًا لتحقيق الخلود، بطريقةٍ ما، عبر نسخ نفسها!

تلك هي الخاصية الكبرى للحياة: قدرتها على تجديد ذاتها باستمرار. الخلية ذاتها تشيخ وتموت، مثلنا، ولكن خلايا أخرى تكمل المسيرة بعدها. هذا السعي إلى البقاء والتجدُّد هو ما يجعل من الخلية شيئًا متميزًا.. شيئًا له هدف وأجندة وخطة عمل. إنها خطة لا تختلف كثيرًا عن خطتنا نحن. إننا نسعى أيضًا لإيجاد نسخ أخرى منَّا لكي تستمر قصتنا. من دون هذا التجدُّد لا معنى للقصة من الأصل!

في محيط من الفوضى واللا شيء واللا هدف.. تخلق الخلية نوعًا من النظام والهدف والغاية. الخلية تلخِّص قصتنا كلها: نحن البشر أيضًا نتحدى الفوضى والعدم حولنا، بعمل نوعٍ من النظام. نضع حدودًا وقواعد للأشياء؛ لذلك ستجدين أن الخطوة الأولى في تكوين الخلية هي بناء جدار يعزلها عن محيطها يُسمَّى غشاء. هذا الجدار هو الفارق بين العدم واللا شيء المحيط بالخلية، والنظام المنتِج في داخلها.

نحن أيضًا نصنع الشيء ذاته: نعيش في بيوتٍ لها جدران تفصلها عن المحيط. نؤسِّس المدن ونحيطها بالأسوار. هذه المدن تصير أيضًا مراكز للنظام كما سنرى عبر قصتنا. هي تحصل على الطاقة - مثل الخلية - من خارجها، فالمدن عبر التاريخ لم تكن تزرع ما تأكل، وإنما تحصل على الغذاء من أراضٍ زراعية خارجها. المدن تعمل على الحفاظ على نفسها بنفسها في عملية متجددة، تمامًا كما تفعل الخلية. وهي تدافع عن نفسها في مواجهة الأعداء، مثلما تصد الخلية شرور الفيروسات. وهي أيضًا، برغم تجدُّدها، تفنى وتنقرض، وتظهر نسخ منها مكانها، بدليل أن مدينة منف أو طيبة لا وجود لهما اليوم، وفي مكانهما تجدين الجيزة والأقصر. هذا بالضبط ما يحدث لبعض أنواع الكائنات الحية التي تنقرض فلا يصير لها وجود.

المدن والخلايا تعمل بالطريقة نفسها إذن.. لا تندهشي فالأشياء في قصتنا تبدو كلها مرتبطة على نحوٍ ما!

ولكن يبقى اللغز: كيف تحافظ الخلية على نفسها؟

هي تفعل ما نفعله نحن البشر كل يوم في مزارعنا ومصانعنا، وكل ما نعتمد عليه للحفاظ على استمرار حضارتنا وبقائها. نحن نستعين بالطاقة، لكي نصنع من أشياء بسيطة أشياء أخرى أكثر تعقيدًا. مثلًا: نستخدم مكونات من المواد المختلفة من حديد ورصاص وصفيح ومعادن أخرى، في صناعة السيارة. السيارة شيء معقد، ويقوم بوظيفة لا علاقة لها بأيٍّ من المكونات المصنوعة منها. الخلية تفعل الشيء نفسه: تستخدم مركَّباتٍ بسيطة للغاية متناهية الصغر هي الأحماض الأمينية، في صناعة أشياء أكثر تعقيدًا هي البروتينات. الخلية هي مصنع البروتينات. هذه الأخيرة هي المادة التي تصنع منها مظاهر

الحياة وأشكالها المختلفة: العيون في الحيوان، والخياشيم في الأسماك، وخراطيم الأفيال، وأجنحة البعوض. ثمَّة ملايين الأنواع من البروتين التي تقوم بوظائف لا حصر لها في مختلف الكائنات الحية.

ولكن كيف تصنع الخلية البروتينات؟

هنا يأتي دور المعلومات والشفرات.. إنها أيضًا واحدة من القوانين الأساسية في قصتنا، ليس للخلية فحسب، وإنما لكل شيءٍ حولنا تقريبًا..

المعلومات والشفرات

ما الشركات الأعلى قيمة اليوم في السوق العالمي؟

الشركة الأولى هي أرامكو السعودية التي تعمل في مجال الطاقة. الشركات التالية لها في الترتيب مباشرة تعمل جميعها في مجال آخر. هذه الشركات هي: آبل، ومايكروسوفت، وأمازون، وفي المرتبة الثامنة تأتي شركة ميتا (مالكة فيسبوك وواتساب وتليجرام). هذه الشركات، التي تتجاوز قيمتها تريليونات الدولارات، قيمتها الحقيقية ليست في الطوب والحجارة المشيدة منها مبانيها. ليست حتى في الماكينات أو الأجهزة. قيمتها الحقيقية في المعلومات.. السلعة التي تعيش عليها هذه الشركات وتكسب منها. إنها السلعة الأهم في عالم اليوم!

أنتِ تستخدمين فيسبوك مجانًا، فما الذي يحصل عليه في المقابل؟ حقيقة الأمر أنه يحصل على معلومات عنكِ. يراقب تفضيلاتكِ في الأمور المختلفة من خلال الخوارزميات أو «الألجوريزم». يعرف شبكة علاقاتك، وبعض الأماكن التي ترتادينها عادة، وذوقكِ في اختيار الكتب التي تقرئينها والأفلام التي تحبين مشاهدتها. يحلل الألجوريزم هذه المعلومات، ويستخرج منها نتائج يبيعها لآخرين يهمهم الحصول على المعلومات ويدفعون مقابلًا لها. هؤلاء الآخرون قد يكونون شركات تبيع منتجاتٍ معينة وتسعى لاستهداف المستهلكين عبر معرفة أذواقهم؛ لذلك لا تستغربي عندما ترين فيسبوك، أو جوجل، أو يوتيوب، يفاجئكِ بما تفكرين فيه أو ترغبين في شرائه أو رؤيته. الدعاية صمِّمت لاستهدافكِ شخصيًّا، على أساس معلومات تبرعتِ أنتِ بها. المعلومات تتحول، إذن، إلى شيءٍ مادي ملموس، بل إلى أرباحٍ خيالية!

المعلومات ليست شيئًا حديثًا له علاقة بوسائل التواصل الاجتماعي أو ببرامج الكمبيوتر. هي ظاهرة صاحبت كل مراحل قصتنا من بداياتها الأولى، بل هي متغلغلة في نسيج الكون والوجود ذاته. نحن نعيش «عصر المعلومات» منذ زمنٍ بعيدٍ جدًّا..

من الواضح أنه لا يمكنكِ رؤية المعلومات، مثلما ترين المادة وتلمسين الأشياء من حولك، وكما تستطيعين مثلًا لمس الكمبيوتر أو الهاتف النقَّال. غير أن المعلومات تغلِّف كل شيءٍ حولك. ما يحدث، بيننا أنا وأنتِ، في هذه اللحظة بالتحديد هي عملية نقل معلومات منِّي، عبر رسائلي، إليك. هذه العملية تحدث من خلال «شفرة» معينة نطلق عليها مسمَّى اللغة المكتوبة. العالم الرقمي، كما في الكمبيوتر والهاتف النقَّال، يرتكز أيضًا على معلومات منقولة عبر شفرة أخرى تتكون من عنصرين فقط لا غير: واحد وصفر: (1/ 0).. توصيل التيار الكهربي/ قطع التيار. كل ما تقرئينه وتشاهدينه عبر الإنترنت ليس سوى معلومات مشفرة بهذه الشفرة البسيطة للغاية!

الشفرة ليست المعلومات. الشفرة وسيلة للتعبير عن المعلومات في صورة رمزية. هي نظام معين لتخزين المعلومات ونقلها. أغلب الشفرات مركَّبة من عناصر بسيطة بصورة مذهلة. شفرة مورس مكونة من إشارتين: نقطة وشرطة (. / ــ). عبر هاتين الإشارتين يمكنكِ قول أي شيء. مثلًا كلمة النجدة بالإنجليزية يعبَّر عنها بحروف (S.O.S) وبشفرة مورس هي: (... ـــ ...). الشُّرَط والنقاط ليست معلومات، بل طريقة التعبير عن معلومة معينة (طلب النجدة) عبر نظام متفق عليه من الرموز. المعنى الذي نلتقطه من وضع عددٍ منها بجوار بعضها بترتيب معين هو المعلومة. إذا اتفقتِ أنتِ وصديقتكِ مثلًا على إشارةٍ معينة، ولتكن وضع الإصبع على الأنف؛ لتشير إلى أن الحصة مملة، تكونان قد اخترعتما «شفرة» خاصة بكما، بهدف نقل معلومة بينكما. إذا لم يكن يعلم بهذه الإشارة سواكما، فهذه «الشفرة» تصبح سرِّية. أما رفع اليد والتلويح بها، فهي ليست سوى «شفرة» متعارف عليها بيننا جميعًا، نحن البشر، بهدف نقل معلومة معينة هي التحية!

المعلومات مفهوم مجرد، ولكنه بالغ الأهمية في قصتنا. فائدة المعلومة أنها تقلل درجة انعدام اليقين. هي، إذن، وسيلة مهمة لمواجهة حالة القلق واللا يقين التي رأينا أن الإنسان وجد نفسه من البداية سجينًا لها. إذا كنتِ تعرفين، مثلًا، أن الوحوش تخاف من النار، فهذه المعلومة قد تكون هي الفارق بين الحياة والموت بالنسبة لكِ. إذا عرفتِ أن بعض الأغذية يمكن حفظها بالتمليح، يمكنكِ مواجهة أوقات الجفاف.. وهكذا.

المعلومات هي أيضًا التي تقول لشيءٍ ما كيف يتصرف، وهذا هو الجانب الأهم فيها.

الكمبيوتر مثلًا عبارة عن نحاس وسيليكون وبلاستيك وغير ذلك من المواد. على أن الجزء الأهم في الكمبيوتر يتعلق بما يسمى «السوفت وير»، نظام التشغيل الذي يقول له ماذا يعمل وكيف. لا شيء في الكون يعمل من دون «نظام تشغيل». وكل نظم التشغيل تعتمد على شفرات معينة تمثل

المعلومات التي تحدد للشيء كيف يتصرف وماذا يعمل. هذا الشيء قد يكون حاسوبًا، أو كائنًا حيًّا، أو خلية نحل، أو شركة أو مجتمعًا كاملًا.. كما سنرى.

الخلية الحية، مثل كل شيء آخر حولنا، تعتمد في عملها على معلوماتٍ مشفرة. اللغة التي تستخدمها ليست حروفًا كلغتنا هذه، وليست نقاطًا وشُرَطًا كإشارات مورس، أو بيت (Bit) (واحد/صفر) كما في العالم الرقمي. لغة الخلية، ولغة الحياة.. هي الكيمياء.

ربما سمعتِ عن الحمض النووي «دي إن إيه» باعتباره «شفرة الحياة». هذا الحمض النووي ليس سوى مركب كيميائي في الخلية يضع لها برنامج عملها، أي يقول لها كيف تتصرف. هو عبارة عن معلومات مشفرة (مثل السوفت وير في الكمبيوتر). هذه المعلومات المشفرة تجعلكِ أنتِ تختلفين عن الزهرة والقطة والنملة.. بل وعن البشر الآخرين أيضًا!

كيف تصنع الشفرة حياة؟ كيف تتحول «شفرة كيميائية» إلى قلبٍ ينبض ويدٍ تمسك بالأشياء، وأجنحة تحلق في الفضاء؟

تمامًا كما تصنع «شفرة» اللغة المعاني، والقصائد، والملاحم المقدسة، والمبادئ القانونية، والأغاني، والروايات..

شفرة الحمض النووي مكونة من أربعة مركبات كيميائية لا غير، يرمز لها بالحروف (أ، ج ، س، ث). تصوري قدر بساطتها!

هذه الشفرة هي التي تعطي الأوامر لـ 21 حمضًا أمينيًّا موجودًا في أجسادنا بالتكون بطرق معينة لكي تشكل أعدادًا هائلة من البروتينات المتنوعة. الأحماض الأمينية هذه لها خاصية عجيبة. إنها مثل قطع الليجو التي تلتحم ببعضها بعضًا لتكوين أشكال مختلفة. تلك الأشكال هي البروتينات.

هل يعقل أن يكون كل هذا التنوع في الحياة حولنا ناتج عن هذه الشفرة البسيطة؟

نعم! والسر في تغيير التسلسل والتتابع. الـ (دي إن إيه) يعطي الأوامر في تشكيلات متتالية من ثلاثة حروف، مثلًا: (أ/ ج/ س)، ثم (أ/ث/ س)، ثم (أ/س/ ج).. كل تنويعة من هذه الحروف تحمل رسالة وأمرًا مختلفًا للأحماض الأمينية لتتشكل بطريقة معينة. هذا ما يسمح بملايين التشكيلات من البروتينات في أجسادنا، وفي الكائنات الحية جميعًا. البروتينات هي اللبنات التي تتكون منها أنسجة وأعضاء جسدك.

هكذا تعمل شفرة المعلومات، وأي نظامٍ مماثل لنقل المعلومات. هذه النظم تملأ عالمنا على نحوٍ مذهل. اللغة، مثلًا، تعمل بالطريقة نفسها. هي نظام لنقل عدد لا نهائي من المعلومات عبر استخدام رموز لا يتجاوز عددها من 22

إلى 30، ونسمي هذه الرموز حروفًا. السلم الموسيقي لا يحمل سوى سبع درجات هي نفسها التي استخدمها بيتهوفن ومحمد عبد الوهاب لتأليف السيمفونيات والأغاني. السر هو التسلسل، وتلك هي عبقرية الشفرة.. أي شفرة.

المركبات الكيميائية في الـ «دي إن إيه»، وكذلك حروف اللغة، هي عناصر الشفرة. أما المعلومات فهي المعاني أو التعليمات التي يتم نقلها عبر تغيير تسلسل وتتابع مكونات الشفرة. مثلًا: (ر/ ح/ ب)، هذه ثلاثة حروف. عندما أضعها بجوار بعضها بعضًا بترتيب معين، يظهر معنى جديد تمامًا: (بحر). لو غيرت الترتيب لتغير المعنى: (حرب)، أو (حبر). هنا تتحول حروف الشفرة إلى شيء له معنى مختلف في كل مرة، يدركه على الفور كل مَن يعرف الشفرة ويفهمها. هكذا تتحول الشفرة إلى معلومة. وعلى هذا النحو نفسه تقرأ الخلية التعليمات المكتوبة بلغة الكيمياء لإنتاج بروتين بعينه دون غيره.

بمعنى ما.. يمكن القول إن الكائنات الحية مصنوعة من المعلومات!

المعلومات التي تحمل صفات الكائن الحي (لون الجلد/ القِصَر أو الطول/ شكل الأسنان/ طول ورقة الشجر/ سرعة العدو.. إلخ) تكون مختزنة في مكان يدعى الجين. الجين هو جزء من «دي إن إيه» يكون مسئولًا عن إنتاج بروتين ما. الجينات، إذن، هي مجموعة متتابعة من سلاسل الأحرف تمثل وصفة معينة لصناعة بروتين بعينه. بعض الجينات لا تحوي أكثر من 300 حرف، وبعضها يتضمن أكثر من مليون بحسب تعقيد الوظيفة التي يطلب من البروتين القيام بها. هناك «جين» معين يجعل العيون خضراء، وآخر يسبب الصلع لدى البعض، وثالث يتسبب في مرض معين يصيب شخصًا دون غيره، ورابع مسئول عن الذاكرة.. وهكذا.

الـ «دي إن إيه» والجينات هي ذات اللغة التي تستخدمها الكائنات الحية كافة. الإنسان والشمبانزي يشتركان في 98% من الجينات. بل إنكِ تشتركين مع البعوضة في نصف الجينات. لا تعجبي.. فالحروف التي تستخدمينها أنتِ في موضوع التعبير الذي تطلبه منكِ معلمة الصف، هي ذاتها الحروف التي استخدمها المتنبي في صناعة قصائده التي ملأت الدنيا وشغلت الناس منذ ألف عام.

أعقد الأشياء التي سنصادفها في قصتنا تشترك في شيءٍ جوهري: أنها مصنوعة من مكونات أبسط!

ثمَّة عدد لا نهائي من التشكيلات في أي منظومة تقوم على الشفرة والمعلومات.

على هذا النحو يمكنكِ أن تتصوري كيف تستطيع الحياة تجديد نفسها. هي تفعل ذلك عبر نَسخ المعلومات ونقلها من الآباء إلى نسلهم من الأبناء. كل كائن حي قادر على صناعة نسخ من نفسه، عبر نسخ الـ «دي إن إيه». يتم نقل هذه النسخ من جيلٍ إلى جيل، مثل كتب الصور العائلية التي نتوارثها. أنتِ حصلتِ على نصف «شفرتكِ» منِّي، والنصف الآخر من أمك. لهذا أنتِ تشبهينني في أشياء كلون العينين، وتشبهين أمكِ في أشياء أخرى كالمزاج الحاد. وفي كل الأحوال «توليفة شفرتك» هي شيء جديد تمامًا، مختلف عني وعن أمك، وعن أي إنسانٍ آخر يعيش الآن على الأرض، بل وعن أي إنسان مشى على هذه الأرض يومًا. نعم.. تصوري هذا: كل إنسان من حوالي 50 مليار إنسان عاشوا على الأرض منذ بدء الخلق، له «توليفة شفرة» مختلفة!

الفضل في الكشف عن عمل هذه الشفرة الخفية يعود للعالم الإنجليزي الشهير تشارلز داروين (1809م-1882م). في رحلته على ظهر السفينة «بيجل» إلى جزر أمريكا اللاتينية وجزر المحيط الهادئ في عام 1835م، توقف «داروين» أمام ظاهرة بسيطة. هو لاحظ أن نوعًا معينًا من العصافير على نحو 12 جزيرة متقاربة، تدعى جزر «جلاباجوس» (800 كلم إلى الغرب من الإكوادور) تبدو متشابهة، ولكنها مختلفة في أشياء بسيطة، مثل طول المنقار. ما استنتجه كان مذهلًا. هو تصور أن هذه العصافير لها سلف واحد هاجر من الشاطئ إلى الجزر منذ زمن بعيد. ثم تطورت كل مجموعة على حدة لتتكيف مع بيئة كل جزيرة، ولتحصل على الغذاء المتوفر عليها. مع مرور وقت طويل، أصبحت كل مجموعة «نوعًا» منفصلًا، أي لا تستطيع التزاوج سوى فيما بينها. هذا هو تعريف النوع، فالنوع البشري الذي ننتمي إليه أنا وأنت، لا يستطيع التزاوج سوى من نفس جنسه، وكذلك الخيول والأسود والضباع. لاحظ داروين أيضًا أن السلاحف التي تعيش على الجزر تتباين فيما بينها في الصفات. سجل أن السلاحف تكون أكبر في الجزر التي يتوفر فيها غذاء أكثر. وأن كل نوعٍ من السلاحف مزود بخواص تلائم البيئة وتساعده في الحصول على الغذاء المتوفر.

فكرة «داروين» الكبرى تمثلت في أن أنواع الكائنات الحية تتطور عبر آلية معينة هي «الانتخاب الطبيعي». ما يحدث هو أن البيئة تشكل ضغوطًا على الكائنات. ثمَّة صراع مستمر حول موارد لا تكفي الجميع. في الصراع من أجل البقاء، وبين الحين والآخر، يظهر فرد في النوع مجهز بخاصية أفضل تساعده على البقاء أكثر من غيره (كأن يكون للعصفور منقار أطول مثلًا). وبفضل هذه الصفة، ينجح أكثر من أقرانه في البقاء (لأنه يستخدم المنقار في الحصول على غذاء أكثر). بالتالي، تزداد فرصه في التكاثر أكثر من غيره، ومن ثمَّ نقل الصفة الناجحة إلى الجيل التالي. أي إن الصفات النافعة في صراع البقاء يتم توريثها، وهكذا يحدث التطور في الأنواع.. هذا لا يحدث عبر عام أو مائة عام

أو ألف.. بل عبر ملايين السنين. إنها آلية بطيئة جدًّا، ولكنها تفسر الكثير والكثير من الأشياء في قصتنا..

هي تفسر، مثلًا، لماذا نجد حفرياتٍ على الأرض لكائنات عجيبة قضت منذ ملايين السنين، ولا وجود لها اليوم. الحقيقة أن الغالبية الكاسحة من الكائنات التي سارت على الأرض يومًا، تعرضت للانقراض لأنها خسرت صراع البقاء عند لحظة معينة. أصل الصراع أن الكائنات الحية جميعًا هي «ماكينات تسعى للبقاء». عندما تصادف واحدة من هذه الماكينات، ماكينة أخرى لها نفس الهدف، يصبح الصدام على الموارد احتمالًا واردًا. سوف تلاحظين عبر قصتنا أن هذا الصراع ملمح رئيسي فيها. ليست الكائنات الحية وحدها مَن يخوض صراع البقاء القاتل، بل المجتمعات والحضارات، وأيضًا الأفكار والممارسات والتقاليد كما سنرى.

في عام 1859م، وبعد عشرين سنة كاملة من تأمل الفكرة ودراستها وإيجاد المزيد من الدلائل عليها، نشر «داروين» كتابه عن «أصل الأنواع».. الكتاب حمل بين طياته تفسيرًا لأخطر شفرة في قصة البشر.. شفرة الحياة.

تصوري نوعًا من الكائنات له جلد أحمر اللون. تصوري أن ثمَّة كائنًا آخر مفترسًا يهوى الكائنات ذات اللون الأحمر. لو حدث وظهرت في الكائنات ذات الجلد الأحمر طفرة جينية جعلت أحد أفرادها يكتسب جلدًا أزرق، ماذا ستكون النتيجة؟ سوف يكون لدى هذا الفرد الأزرق فرصة أفضل في البقاء لأنه لن يُلتهم، وسيتكاثر وينقل صفة «الزُّرقة» إلى الجيل التالي. شيئًا فشيئًا سوف تختفي الأفراد الحمراء اللون، وتسود ذات اللون الأزرق. الكائن «الأصلح» ليس بالضرورة هو الأسرع أو الأقوى، ولكنه قد يكون الأبطأ أو الأصغر حجمًا أو الأكثر قدرة على الاختباء. الأمر يعتمد على البيئة المحيطة، وعلى ما يفعله الكائن لكي يحافظ على بقائه بحيث يزيد من فرصه في التكاثر ونقل جيناته إلى الجيل التالي.

الطفرات هي جوهر عملية التطور. في عالمٍ ثابتٍ لا يتبدل.. لم نكن لنصادف الطفرات. ولكنكِ تعلمين أن عالمنا ليس كذلك، عالمنا فيه ثابت وحيد هو التغير المستمر. المناخ يتغير والطبيعة تتحول، والكائنات تتكيف، وبالتالي تدفع كائنات غيرها للتكيف لتواجه صراع البقاء. الطفرات هي وسيلة الكائنات الحية للتعاطي مع التغيير المستمر. لو أنكِ وضعتِ فأرًا في بيئة بالغة البرودة، الأغلب أن يطور الجيل التالي طفرة جينية تزيد من الشعر في جلده، أو الدهون في جسده. الجينات الجيدة، والمفيدة للبقاء، هي التي تبقى وتستمر.

الكائنات تورث الصفات عبر الأجيال. يوهان مندل اكتشف هذه الآلية العجيبة وكتب عنها في بحث نشره عام 1865م. ظل البحث مجهولًا لنحو 35 عامًا

تالية. لم يستخدم «مندل» كلمة جين ولكنه وصفه تقريبًا. في عام 1900م، أثبت ثلاثة علماء - عمل كل واحد منهم على حدة - صحة نظرية «مندل» حول الوراثة فذاع صيته وملأ الدنيا!

في عام 1953م، كشف كل من فرانسيس كريك وجيمس واطسون عن شكل وبنية الـ «دي إن إيه» الذي يتضمن الجينات. كانت تلك هي الأمتار الأخيرة نحو حل اللغز. الجين ليس سوى قطعة من المعلومات المشفَّرة. تمامًا مثل الكتاب الطويل الذي يضم آلاف الصفحات. الإنسان لديه نحو 21 ألف جين تحمل صفاته كافة. الجينوم البشري - أي سلسلة الـ «دي إن إيه» الكاملة للكائن البشري - تم التعرف عليه في عام 2003م. يحتوي الجينوم على 3.2 مليار حرف. الاختلافات بين البشر تنحصر في 0.5% من الجينوم. تبدو هذه نسبة هينة، ولكنها تعادل 16 مليون حرف! في هذه المساحة تكمن الاختلافات، الشكلية والعقلية والنفسية، بين البشر وبعضهم. البشرة البيضاء والعيون السوداء وحدة النظر وقابلية الإصابة بأمراض معينة.. كلها صفات تحددها الجينات.

تلك هي الشفرة الأخطر في قصتنا كلها؛ لأنها الشفرة التي تعمل على أساسها أشكال الحياة كافة على الأرض.

الحياة، في جوهرها، هي عملية تناقل «معلومات مشفرة» عبر أجيال متتابعة. التطور يحدث ببطء شديد عبر تغييرات بسيطة وصغيرة في حروف الشفرة، تؤدي إلى صفات مختلفة في بعض الأفراد. تختار الطبيعة الأصلح من بين هذه الصفات، فتستمر وتنتقل من جيل لآخر. غير أن هذه القصة كلها، قصة الحياة على الأرض، لا معنى لها من دون الشيء الذي تعتمد عليه الحياة في استمرارها وتجديد نفسها بنفسها. إنه الشيء الذي تبحث عنه، وتسعى إليه، الكائنات كافة الحية على الأرض، بما فيها نحن البشر: الطاقة.

هل تذكرين الشركة الأعلى قيمة في العالم؟ إنها «أرامكو» التي تعمل في مجال الطاقة. ليس صدفة أن الشركات الأعلى قيمة في عالم اليوم تعمل في مجالي الطاقة والمعلومات. إنهما محركان أساسيان، ومترابطان، في قصة البشر، من بدايتها وحتى اليوم..

لماذا عبدنا الشمس والنار؟

الرغبة في البقاء، والتي يُمكن أن نُطلق عليها مُسمى أكثر شاعرية مثل «حب الحياة»، هي المحرك الأهم في قصتنا. مهما بلغ من تعقيد الأشياء حولكِ في العالم، تأكدي أن هدفها الأساسي هو البقاء، ثم التكاثر. في هذا يتشابه الفيروس الذي لا يُرى مع الشركات الكبرى التي تسعى أساسًا

للحفاظ على بقائها في السوق، ومع الدول التي يُمثل البقاء والاستمرار هدفها الأول.

ولكن من أين تأتي هذه الرغبة العارمة في البقاء؟

الوجه الآخر للبقاء هو الفناء.. العدم.. اللا شيء. الكائن الحي يفضل الوجود على العدم، ويسعى لإبعاد الفناء عنه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا. على الأقل هو يسعى للبقاء لفترةٍ كافيةٍ تسمح له بالتكاثر ونقل جيناته. معضلة الفناء، كما سترين بعد قليل، ربما تكون المحرك الثاني الأهم في قصتنا. الفناء قوة عاتية لديها قدرة عنيدة على سحق الأشياء جميعًا عبر الزمن، مثل وحش ينشب أظفاره في فريسة لا تستطيع منه فكاكًا. الصراع بين البقاء والفناء هو الصراع الأشمل في الوجود.

السعي إلى البقاء قد يبدو لكِ اختيارًا فلسفيًّا، ولكنه - إذا نظرنا إليه من زاوية علمية - لا يعدو أن يكون مجرد سعي إلى الطاقة والسعرات الحرارية. السبيل الوحيد لمواجهة الفناء هو الحصول على الطاقة.

الكون هو طاقة ومادة. المادة شيء نراه ونلمسه. الطاقة قوة خفية لا نلمسها، ولكن نشعر بها في كل شيءٍ حولنا، وأيضًا في داخلنا. منذ أكثر من قرن كشف ألبرت أينشتاين (1879م-1955 م) عن أن المادة والطاقة هما شيء واحد، أو أن المادة هي صورة أخرى من صور الطاقة. كل مادة مكونة من ذرَّات. في داخل نواة الذرَّة ثمَّة روابط تربط بين البروتونات والنيوترونات. تحتوي تلك الروابط على طاقة هائلة يمكن إطلاقها عند انشطار الذرَّة تُسمى الطاقة النووية.

كيف تكونت الطاقة؟ الطاقة نشأت ممَّا يُعرف بالانفجار الكبير منذ 13.8 مليار سنة. قدر الطاقة ثابت في الكون منذ هذا الزمن البعيد. هذا ما يخبرنا به القانون الأول للديناميكا الحرارية. إن كافة صور الطاقة التي تستخدمينها اليوم، كالغذاء أو الكهرباء أو وسائل المواصلات، وكذلك الطاقة التي تُولَّد في المحطات النووية.. خلقت من 13.8 مليار سنة. معنى ثبات قدر الطاقة أن هناك احتمالية محددة، وليست لا نهائية، لحدوث الأشياء في هذا الكون. الطاقة تضع حدودًا على الأشياء.. حدودًا للعبة.

بعد الانفجار الكبير، صارت بعض أركان الكون مع الوقت أكثر كثافة من غيرها. هكذا تكونت النجوم الأولى كمراكز تجميع للمادة والطاقة، ثم تراصت النجوم في تشكيلات أكبر هي المجرات. حدث هذا بفعل قوة خفية أخرى هي الجاذبية. تلك القوة غير المرئية كشف النقاب عنها إسحاق نيوتن (1643م-1727م) في القرن السابع عشر.

الجاذبية قوة أساسية تعمل منذ نشأة الكون، شأنها في ذلك شأن القوة الكهرومغناطيسية والقوة النووية. هي منتشرة في الكون كله. كلما زادت كتلة الشيء زادت قدرته على جذب المزيد من المادة. كوكب المشتري، على سبيل المثال، كتلته أكبر مرتين ونصف المرة من كتلة كواكب المجموعة الشمسية مجتمعة. جاذبيته من القوة بحيث يستحيل نشوء الحياة عليه. الأرض في نطاق الجاذبية المضبوط تمامًا لنشأة الحياة. لهذا تستطيعين النهوض من الفراش صباحًا من دون مجهود كبير، وتتمكن الأشجار من الارتفاع إلى أعلى، بل وتتحدى بعض الكائنات الجاذبية بصورةٍ صارخةٍ عبر الطيران.

كل شيء حولك، بل كل شيء في الكون يعمل بمنظومة معينة من الطاقة. النجوم تلمع في السماء بسبب تدفقات الطاقة التي تحدث في داخلها. النجوم، كما رأينا، ليست سوى تفاعل نووي ضخم يحول الهيدروجين إلى هيليوم، ويُنتج - بدوره - قدرًا هائلًا من الطاقة خلال هذه العملية. بعد أن ينفد الهيدروجين، يبدأ النجم في دمج الهيليوم، ليُنتج عناصر أثقل مثل الكربون والأكسجين. إنها عناصر جوهرية في نشأة ظاهرة الحياة، غير أن قصتنا على الأرض سوف تحتاج أيضًا إلى عناصر ومعادن أخرى..

عندما يصل النجم إلى مرحلةِ الشيخوخة ينفجر فيما يعرف بالـ «سوبرنوفا» مُطلقًا عناصر أخرى أكثر ثقلًا. تدخل هذه العناصر في تكوين نجوم جديدة. النجوم هي المصانع التي صاغت المعادن كافة التي صنعنا منها الحضارة البشرية على الكوكب الذي نعيش عليه. الحديد والنحاس والذهب والفضة والقصدير، وغيرها من المعادن مصدرها النجوم التي أطلقتها على الأرض في وابل من النيازك والشهب والكويكبات دكت أرضنا دكًّا في مراحل تكوينها البعيدة. لم يكن ممكنًا أن تقوم حضارة بشرية من دون معادن. الدليل على ذلك أنكِ لو نظرتِ حولك، وتصورتِ اختفاء كل الأشياء المكونة من معادن، لما بقي حولكِ أي شيءٍ تقريبًا. كل معدن من هذه له معنا حكاية مثيرة، سيأتي الوقت لأرويها لكِ في رسائلي التالية.

النجوم بطل بعيد في قصتنا، وهي تلعب أدوارًا أخرى بخلاف كونها مصنعًا للمعادن. ثمَّة نجم بعينه لعب الدور المحوري في وجودنا وحضارتنا. هذا النجم نسميه الشمس..

الشمس هي مصدر كافة أشكال الطاقة على الأرض. النبات يحصل على الطاقة من الشمس بالتمثيل الضوئي. ونحن نحصل على الطاقة من النبات والحيوان، لكي نشغل أجسادنا. أما الوقود الذي يُشغل مصانعنا ومحطات الكهرباء ومظاهر الحضارة المعاصرة في مدننا، فليس سوى طاقة شمسية قديمة مدفونة في باطن الأرض في صورة أحفورية منذ ملايين السنين. حتى

طاقة الرياح والأمواج التي طالما سخَّرها البشر قديمًا في تسيير السفن، تعتمد في الأصل على الشمس صانعة النظام المناخي الذي يُفرز الرياح.

لم يكن غريبًا إذن أن تظهر عبادة الشمس بقوة منذ وقت مبكر في تاريخ البشر على الأرض. ثمَّة صروح عملاقة في أماكن متباعدة أشد التباعد في العالم مكرسة لعبادة الشمس ولاستقبال شعاعها بزوايا معينة، كما هو الحال في معبد أبي سمبل بمصر، وفي معابد الإنكا في أمريكا الجنوبية.

لا شك أن البشر لاحظوا مبكرًا هذه العلاقة بين الشمس وبين كل ما هو خير ونافع في عالمهم. الشمس هي الضياء والدفء والأمان. غيابها هو الظلام والمجهول والخوف. ربما يكون ذلك هو أصل الثنائية اللصيقة بطريقة تفكيرنا في نظام الأشياء في العالم: الخير (النور) في مقابل الشر (الظلام).

«شيميش» هو إله الشمس عند البابليين. أما الإله الرئيسي في مصر القديمة فهو «رع»، إله الشمس الذي خلق نفسه من العدم، ثم خلق السماء والأرض والآلهة الأخرى. الملوك متصلون بـ «رع»، أي إن النظام الاجتماعي كله يرتكز على الشمس بصورةٍ أو بأخرى. أول شخص فكر في الإله الواحد، وهو الفرعون المصري المتمرد أخناتون الذي عاش في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، اختار الشمس رمزًا لهذا الإله. سأروي لكِ قصته المثيرة في رسالةٍ لاحقة.

من 4.5 مليار سنة انفجر نجم قريب من مجموعتنا، وبزغت الشمس من بقايا الانفجار. الجاذبية منحت الشمس مكانها في الوسط بسبب كتلتها الهائلة التي سحبت 99% من مادة هذا الانفجار، وتحلقت بقايا مواد الانفجار حولها في صورة 8 كواكب. الشمس أكبر مليون مرة من الأرض. أنتِ تشاهدين الشمس منذ 8 دقائق تقريبًا لأن ذلك هو الزمن الذي يستغرقه الضوء في الوصول إلينا. الحقيقة أن الضوء الذي يصلنا قطع، في المتوسط، نحو 100 ألف سنة ليصل من باطن الشمس إلى سطحها. أي إن الضوء الذي ترينه أمامكِ الآن بدأ رحلته في باطن الشمس عندما كان سلفنا القديم يُطارد الفرائس في إفريقيا!

الحياة نشأت على الأرض لأنها على مسافة مناسبة بالضبط من الشمس بما يسمح للماء بالتواجد في صوره الثلاث. الظاهرة التي ندعوها بـ «الحياة» لا يمكن أن تظهر سوى في الماء في صورته السائلة. الأرض هي الكوكب الوحيد الذي يُتيح هذا في مجموعتنا الشمسية. لو كان أقرب لصار الماء في حالة الغليان، لو كان أبعد لأصبح متجمدًا. الزهرة أقرب إلى الشمس بأكثر ممَّا هو لازم. المريخ أبعد ممَّا ينبغي. الزهرة تدور ببطءٍ شديدٍ حتى إن اليوم (دورانها حول نفسها) يكون أطول من العام (دورانها حول الشمس).

المشتري يدور بسرعة رهيبة حتى إن اليوم يبلغ أقل من عشر ساعات. الأرض في المكان المناسب تمامًا لتكون مسرحًا لقصتنا!

لقد تحكمت الشمس في مصيرنا من مسافة تبلغ 150 مليون كم. رحلتنا بدأت بسببها، واستمرت بفضلها، بصورةٍ أو بأخرى.

إن كل نقلة في تاريخنا الكبير تحدث بسبب الحصول على مصدر جديد للطاقة. توقعي تطورًا متسارعًا، وانقلابات مفاجئة، في أحداث قصتنا في كل مرة نحصل فيها على مصدر جديد للطاقة. نحن لا نخترع أي طاقة جديدة، ولكن من آنٍ لآخر نعثر على وسيلة ناجعة لتحويل الطاقة من صورةٍ إلى أخرى، بحيث نحصل على المزيد منها لأنفسنا.

التمثيل الضوئي كان أول ثورة في الطاقة على ظهر الأرض كما رأينا. تمكنت بعض الكائنات من إيجاد طريقة ما لتحويل ضوء الشمس، مع ثاني أكسيد الكربون والماء، إلى جلوكوز (مخزن للطاقة). الحصول على المزيد من الطاقة يحتاج لمعلومات. مثلًا: الحيوانات التي تصطاد الفرائس تحتاج إلى جهاز أدق لجمع المعلومات بحيث تتمكن من المطاردة وتوقُّع سلوك الفريسة. تحتاج إلى «عين» تمكنها من تحديد المسافات والأبعاد، ودماغ يجري عددًا من الحسابات حول السرعة والمسافة. الإنسان العاقل، بدوره، طور طرقًا مدهشة لجمع المعلومات ومعالجتها من أجل زيادة كمية الطاقة التي يحصل عليها باستمرار بصورة لم يقدر عليها أي كائن آخر على ظهر الأرض.

استخلاص الطاقة من الطعام، أي من الحيوان والنبات، عملية مجهدة. الشمبانزي يقضي نصف يومه في مضغ الطعام. ها هنا تكمن أهمية النار كأول تكنولوجيا استخدمها البشر في الحصول على المزيد من الطاقة. ارتبط ذلك بلحظة حاسمة في تاريخنا عندما تحولنا من الفريسة إلى الصياد.

الحيوانات تقوم بالصيد، بل ويصنع بعضها الأدوات. غير أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يستخدم النار. إنها أول ثورة تكنولوجية في قصتنا. لقد غيرت كل شيء تقريبًا؛ لأنها سمحت لنا بالعيش في بيئات مختلفة. هي أيضًا وفرت الأمن من هجمات الوحوش والضواري. وعندما اكتشف الإنسان فائدة طهو الطعام باستخدام النار، تمكن من توفير سبع ساعات من المضغ، وضغطها في ساعةٍ واحدة. سمح هذا التطور للمعدة بأن يصغر حجمها ويقل استهلاكها للطاقة، بما وفر الطاقة للدماغ البشري لكي يكبر ويتمدد ويحصل على البروتين من اللحوم التي يتم طهوها.

لقد استطاع الإنسان - من خلال النار - ابتداع «معدة خارجية» امتدادًا لمعدته البيولوجية. النار كانت ضرورية أيضًا لتشكيل المعادن التي صنعنا منها

الأدوات؛ لذلك ليس غريبًا أن تظهر النار، مثل الشمس، في أساطيرنا وعباداتنا القديمة. لقد بلغ افتتان الناس بالنار حدًّا جعل بعضهم يعبدها. في الزرادشتية، التي قد تكون أول الأديان التي قامت على ثنائية الخير والشر، تُعد النار رمز الطهارة والنقاء والتنور. النار المقدسة لا ينبغي أن تنطفئ أبدًا في المعابد الزرادشتية. نحن نستخدم تعبير «شعلة الحضارة» في صورة مجازية، ولكنه استخدام يعكس الحقيقة حرفيًّا. طالما تحلق البشر حول النار في المساء بعد يوم شاق من السعي، يتبادلون القصص وينسجون روابط جديدة بينهم. لبنات المجتمعات الأولى تشكلت حول النار.

بخلاف أي كائن آخر، نحن نجحنا في الحصول على مصدر خارجي لتوليد الطاقة.. أي مصدر خارج أجسادنا. الكائنات الأخرى محكومة ومحدودة بقدر الطاقة التي تحصل عليها بأجسادها. الطاقة هي التي تضع «حدود الملعب» في قصتنا. نحن تمكنا من توسيع هذه الحدود، ليس مرة واحدة، بل أكثر من مرة..

القفزة التالية في الطاقة كانت الاستئناس؛ للحيوان والنبات. ثمَّة نباتات محددة يستطيع أن يأكلها الإنسان. وهناك نباتات تتواجد بكثرة على الأرض، دون أن يتمكن من أكلها. مروج الحشائش الشاسعة هي مزارع شاسعة مترعة بالطاقة. ولكن الإنسان لا يستطيع أكل الحشائش. سهوب العشب لا تفيدنا في شيء؛ لأن الإنسان لا يستطيع هضمه لاحتوائه على مادة «السليلوز». ما الحل؟

هنا ولدت فكرة استئناس الحيوان الذي يأكل الحشائش (البقرة مثلًا)، ثم يأكل الإنسان هذا الحيوان فيحصل على الطاقة بصورة غير مباشرة. الاستئناس يحدث عبر التحكم في العملية التي وصفها صديقنا «مندل» عندما كشف عن قوانين الوراثة. بخلاف عملية الانتخاب التي تقوم بها الطبيعة، فإن الاستئناس هو عملية «انتخاب اصطناعية» يقوم به الإنسان عمدًا عبر اختيار السلالات التي يعتبرها ملائمة، وعمل تزاوج بينها. الناس فعلوا ذلك منذ آلاف السنين دون إدراك للقوانين التي كشف عنها «مندل» في القرن التاسع عشر.

الزراعة هي أيضًا عملية استئناس. تجري العملية عبر اختيار سلالات النباتات التي تحمل صفات يرغب بها الإنسان، مثل الغِنى بالحبوب، ثم العمل على تكاثرها بصورة اصطناعية وليست طبيعية. الزراعة كانت ثورة كبيرة في الطاقة. هي حولت الإنسان في ضربة واحدة من خاضع للبيئة بصورة كلية، إلى متحكم في بعض جوانبها على نحو يزيد من فرص بقائه.

الطاقة هي القدرة على القيام بشغل ما. تحريك شيءٍ ما من مكانه مثلًا. الإنسان يحصل على الطاقة لكي يقوم بشغل. ليصطاد أو يزرع أو يبني منزلًا.

هو يحول الطاقة الكيميائية في داخل جسده إلى طاقة حركة عبر قواه العضلية، أو يقوم بتسخير القوة العضلية للحيوانات المستأنسة. العضلات ظلت صورة الطاقة الأساسية المستخدمة في تشغيل المجتمعات الإنسانية على الأرض لآلاف السنين.

بعد ثورة الزراعة منذ 10 آلاف عام تقريبًا، لم تحدث ثورة أخرى في الطاقة سوى منذ نحو 300 سنة: في عام 1712م لاحظ الإنجليزي توماس نيوكومن (1664م-1727م) إمكانية استخدام طاقة البخار لشفط المياه من مناجم الفحم. بعدها طور جيمس وات (1736م-1819م) المحرك البخاري في الربع الأخير من القرن الثامن عشر. لأول مرة منذ اكتشاف الزراعة، صار هناك مصدر للطاقة بخلاف القوة العضلية للإنسان أو الحيوان. كان هذا اختراقًا غيَّر معادلة حياة البشر على الأرض إلى الأبد.. لقد وسعنا «حدود الملعب» مرة أخرى!

نحن نعيش اليوم بصورة تختلف جذريًّا عن الطريقة التي عاش بها الناس عبر التاريخ لهذا السبب بالتحديد: أننا «نلتهم» كمية أكبر من الطاقة. الإنسان يحتاج لنحو 2000 سُعر حراري يوميًّا لإجراء عملية التمثيل الغذائي، والبقاء على قيد الحياة. يُعادل هذا الطاقة اللازمة لتشغيل نجفة كهربائية! ولكن حقيقة الأمر أنكِ اليوم تستهلكين طاقة أكبر بكثير، ربما تصل إلى 11 ألف سُعر حراري (أي ما يوازي ما يستهلكه 12 فيلًا!) لماذا؟ لأنكِ لا تعيشين فقط بالطعام كأسلافكِ في عصور ما قبل الصناعة، وإنما تعيشين في بيتٍ تُنيره الكهرباء، وتستعملين جهاز تكييف في الصيف، وتستقلين الحافلة إلى المدرسة. هذه كلها صور من صور الطاقة، ولكنها تعود في أصلها إلى.. الشمس!

قصتنا الكبيرة، إذن، هي قصة السعي إلى الطاقة. إن الأجزاء الصغيرة، مثل الخلايا، تستطيع الحصول على طاقة أكبر من البيئة إذا عملت معًا في إنشاء تكوينات أكبر مثل الكائنات الحية. وكذلك يفعل الأفراد عندما يُنشئون مجتمعات، تصير دولًا وإمبراطوريات هائلة الاتساع. هذه التكوينات كلها هدفها الحصول على المزيد من الطاقة من البيئة. عندما تسمعين عن ثروات الأفراد أو الدول (في صورة ناتج قومي) فكري في أن كل الثروة هي في الواقع صور مختلفة للطاقة. وكلما زاد قدر الطاقة الذي يحصل عليه كيان أو تكوين معين، استطاع توزيع نصيب أكبر من الطاقة على عناصره، بما يجذب إليه المزيد من العناصر، فيكبر حجمه، وتتعقد الوظائف التي يقوم بها، ويتمكن بالتالي من الحصول على طاقة أكثر.

غير أنكِ تدركين بالطبع أن الكيانات التي تحصل على الطاقة لا تبقى للأبد. الطاقة ذاتها لا تفنى، ولكن الكيانات التي تحصل عليها، من النجوم إلى الخلايا

الحية إلى الإمبراطوريات الكبرى، تفنى وتزول. لماذا؟ ما الذي يدفع الأشياء كلها إلى الزوال بعد عمرٍ، طال أم قصر؟

لماذا تفنى الأشياء؟

هذا هو جانب الفناء في قصتنا. ذاك الوحش المرعب الذي حدثتكِ عنه. ربما يدهشكِ أن الفناء والعدم أنجح كثيرًا من كل أشكال وصور البقاء في هذا الكون.. كيف؟

الجاذبية هي ما تمنح كل الأشياء في الكون بنية وشكلًا. هي التي تدفع الاتجاه المستمر من البساطة والفراغ إلى التركيب والتعقيد. على أن هذه القوة الكونية الجبارة المسماة بالجاذبية، تحتاج إلى وقت طويل جدًّا لكي تنجح في عمل التكوينات المركبة. 5% فقط من المادة والطاقة في الكون تصلح لعمل الكيانات المركبة، كالنجوم والكواكب. 95% من الكون يسوده ما يسمى بـ «المادة السوداء» و«الطاقة السوداء»، وهي غير صالحة لعمل التكوينات المركبة. الحقيقة أننا لا نعرف بالضبط ما هي الطاقة السوداء التي تُشكل السواد الأعظم من الكون؛ لذلك يمكنكِ القول إن أغلب الكون يتمطى فيه ما يُشبه الفراغ أو العدم. تحتاجين للسفر لسنوات ضوئية طويلة قبل أن تصادفي كيانًا مركبًا مثل النجم. النجوم التي ترينها ترصع السماء، وكأنها تتجاور في عقد واحد، هي في الواقع تبعد عن بعضها بعضًا خمس سنوات ضوئية في المتوسط (السنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة، والضوء يتحرك بسرعة 300 ألف كم في الثانية الواحدة). أما إذا أردتِ السفر من مجرَّةٍ إلى أخرى، فإنكِ تحتاجين إلى قطع ما يقرب من 2.5 مليون سنة ضوئية!

وعندما تنجح الجاذبية في عمل أشياء مركبة، فإن ظاهرة أخرى مدهشة تصاحبها. إنها ظاهرة تمثل اللا نظام في أي نظام، والفوضى الكامنة في أي بناء مركب. هي ظاهرة فيزيائية معقدة، ولكنها تعكس ما تدركينه أنتِ ببساطة من مراقبتكِ للأشياء من حولك: كل شيءٍ مُعرَّض للفناء والتحلل والانهيار عند نقطةٍ ما.

هذه الظاهرة الفيزيائية تُسمى الإنتروبيا، أو القصور الحراري..

ربما شاهدتِ مرة كوبًا زجاجيًّا ينكسر، ويتناثر قطعًا. ولكن هل سبق لكِ أن شاهدتِ كوبًا يتجمَّع من جديد من تلقاء نفسه؟ بالطبع لا؛ لأن هذا لا يحدث في الطبيعة. الأشياء، إن تُركت لحالها، تنزع إلى التحلل وليس التوحد والتنظيم. تمامًا عندما تتركين كوبًا ساخنًا من الماء في الجو فيبرد. لماذا؟ الحرارة تنتقل من كوب الماء إلى المحيط. تتوزع وتنتشر. العكس لا يحدث بشكل طبيعي. عندما تُترك الأجسام لحالها بدون تدخل خارجي، فإنها تفقد حرارتها وليس

العكس. هذا ما يُطلق عليه القانون الثاني للديناميكا الحرارية. تذكرين أن القانون الأول أخبرنا بأن قدر الطاقة في الكون ثابت ولا يتغير. القانون الثاني يخبرنا شيئًا عن قدر «الفوضى» في الكون. العالم النمساوي لودفيغ بولتزمان (1844م-1906م) رأى أن هذا القانون لا ينطبق فقط على الحرارة وانتقالها، ولكنه قانون كوني شامل أطلق عليه الإنتروبيا..

الإنتروبيا هي ميل الأشياء، كل الأشياء في الكون، إلى الفوضى والتحلل والفناء. الإنتروبيا في أي نظام، بما في ذلك النظام الكوني، تتزايد باستمرار. هذه الظاهرة المتواصلة لا يمكن وقفها أو عكسها. إنها قانون أبدي، تمامًا مثل انكسار الزجاجة واستحالة جبرها من تلقاء نفسها، ومثل تسرب الحرارة من كوب الشاي. الكون نفسه يعيش عملية تبريد وتحلل متواصلة منذ نشأته منذ 13.8 مليار سنة. سوف تستغرق هذه العملية بدورها مليارات السنين. شمسنا لها عمر افتراضي. هي نجم في منتصف العمر، عاش خمسة مليارات عام. من المقدر أن تعيش مثلها، قبل أن تستنفد الهيدروجين بداخلها، فتتحول إلى عملاق أحمر، ثم إلى قزم أبيض وتبتلع كل شيء في النظام الشمسي، بما في ذلك كوكبنا الأثير.

ما الذي يعنيه ذلك؟

الطبيعة تكره التركيب، وتعشق العدم والفناء. الفوضى هي طبيعة الأمور، والنظام هو الاستثناء. عندما تتأملين الأمر تجدين أن احتمالات الفوضى، في أي وضع، أكثر بكثير من احتمالات النظام. الأمر يُشبه كرات البلياردو التي توضع في «نظام» واحد في أول اللعب، على هيئة مثلث. بعد الضربة الأولى تتفرق الكرات. ثمَّة عدد هائل من الاحتمالات للشكل الذي تتخذه الكرات بعد هذه الضربة. احتمالات الفوضى أكبر دائمًا. الفوضى لا تحتاج لمجهود. لا تحتاج لطاقة. الترتيب والتنظيم والتركيب هو ما يحتاج إلى طاقة. غرفتكِ تتحول بمرور الوقت إلى فوضى بدون مجهود منك. إعادة ترتيبها هو ما يحتاج إلى طاقة عضلية تبذلينها في الترتيب. ذلك هو ما يحملكِ على تأجيل هذا العمل دائمًا!

وعبر قصتنا، سوف تلاحظين باستمرار أنه من الصعب صناعة أشياء مركبة والحفاظ عليها لهذا السبب بالتحديد: أن الإنتروبيا، أو ميل الأشياء للفوضى والتحلل، تزيد كلما زاد تعقيد الأشياء وتركيبها. الأشياء المركبة معرضة للانهيار أكثر من الأشياء البسيطة. لهذا يعيش النجم مليارات السنوات، وهو شيء بسيط التركيب، بينما يعيش الإنسان بدوره عددًا من السنوات لا يمكن أن تتجاوز حدًّا معينًا (الإنسانة الأطول عمرًا في التاريخ - الذي نعرف - هي الفرنسية جين كالمينت، وعاشت 122 سنة). عندما تُشيدين هرمًا من أوراق اللعب (الكوتشينة)، فكلما ارتفع البناء بدا أروع وأجمل، ولكنه يصير أيضًا أكثر

عرضة للانهيار. مع خطأ بسيط منكِ في وضع الورقة الأخيرة على القمة ينهار البناء كله في لحظة!

في مواجهة هذا الميل للتحلل والتفكك الكامن في كل شيء، فإن الحل الوحيد لبناء أي شيء مركب في الكون، من المجرات إلى الخلايا الحية إلى الإنسان، ومن المدن إلى الدول إلى الإمبراطوريات.. هو أن يكون لهذا الشيء مصدر للطاقة يُمكِّنه من تحدي الإنتروبيا..

الطاقة تبدو مثل ضريبة تدفعها الأشياء لكي تبقى وتستمر. وكلما حصلت الأشياء على طاقة أكبر، استطاعت بناء تكوينات أكثر تركيبًا ولها قدرة أكبر في الحصول على طاقة أكثر.. وهكذا.

إذا أرادت الخلية أن تتحول إلى كائن متعدد الخلايا.. فما العمل؟ لا حل سوى إيجاد سبيل جديد يوفر طاقة أكبر (التمثيل الضوئي). كلما تعاظم التركيب في الكائن الحي، احتاج لطاقة أكبر. المبدأ نفسه يسري على المجتمع الإنساني المكون من عدد من الكائنات البشرية. من أجل تشغيل المدن المركبة، ذات الأبنية العالية والأسواق والمعابد والأسوار، احتاج البشر لشفط تدفقات الطاقة من الأراضي الزراعية. ولكي تعيش مدننا الحديثة، ذات المباني الشاهقة المكيفة والطرق السريعة التي تتحرك عليها العربات، فقد احتجنا إلى مصدر آخر للطاقة، نشفطه من باطن الأرض، هو الوقود الأحفوري.

إن الإنتروبيا، بصورة أو بأخرى، تفعل فعلها في مجتمعاتنا وحضارتنا.. تمامًا كما تأتي ببطء، عنيد ومثابر، على النجوم والمجرات. عندما تفشل المدن في الحصول على طاقة، ما الذي يحدث؟ تفنى وتزول. حدث هذا مرات بلا حصر عبر قصتنا..

قصة المجتمعات والدول والإمبراطوريات والحضارات، هي ذاتها قصة الخلايا والنجوم: أنظمة مركبة تحوي في داخلها بذور فنائها الحتمي من اللحظة الأولى، وتخوض صراعًا مريرًا لصناعة النظام وسط الفوضى. تناضل بلا كلل للحفاظ على البقاء في مواجهة الفناء. تعيش مكابدة مستمرة لتحدي هذه الظاهرة المغروسة في نسيج الكون، والتي تبدو كقدر مكتوب على أي منظومة مركبة.. طبيعية كانت أو اجتماعية، بيولوجية كانت أم فيزيائية.

في النهاية.. الأشياء، كل الأشياء.. حيَّة أو غير حيَّة.. نجومًا كانت أم كواكب.. دولًا أو إمبراطوريات كبرى.. تسلم نفسها عند لحظة معينة للتحلل والتفكك.. ثم للفناء والعدم!

لا شك أنكِ تدركين أن قانون الفناء يظهر في أبلغ صوره وأشدها درامية في حالتنا، نحن البشر. الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يعرف أنه سوف يموت

في لحظة معينة. الحيوانات، وللعجب، لا تعرف أنها سوف تموت. وبالتالي هي لا تدرك معنى وجودها أصلًا، إذ لا يمكنكِ معرفة معنى الوجود سوى بإدراك معنى الفناء والعدم.

الموت هو ما يمنح الحياة معناها كرحلة محددة المدة بين نقطتين. تأملي هذا التناقض العجيب: نحن نسعى من أجل البقاء. ولكننا نعرف أننا، عند لحظةٍ معينة، سوف نفشل في هذا المسعى، وسوف تنتهي محاولاتنا بالفناء والموت. بل إننا نعرف أن أخطر ما في الموت أنه متعدد الأسباب، ويداهم المرء في أي لحظة لأتفه الأسباب. الحقيقة المفزعة هي أن الموت شيء سهل الحدوث. حياة مفعمة بالسعادة والإنجاز والتعلم يمكن أن تنتهي في لحظة واحدة، مثلما حدث مع الصديقة التي كتبت عنها في رسالتك.

تلك هي مأساتنا يا عزيزتي. نحن كائنات بيولوجية تسري علينا قوانين الحياة التي تحدث عنها «داروين» و«مندل»، ونعيش محكومين بقوانين الفيزياء التي كشف عنها «نيوتن» و«أينشتاين». ولكننا أيضًا نحمل في داخلنا شيئًا يختلف عن أي كائن حي آخر. هذا «الشيء» أنوي أن أحدثكِ عنه في رسالتي القادمة. إنه الشيء الذي يجعلنا ندرك حقيقة الفناء، ويدفعنا - بخلاف أي كائن آخر - لاتباع أساليب أخرى ليس فقط للبقاء، ولكن للحصول على ما نتصور أنه الخلود!

ستلاحظين عبر قصتنا أن معرفتنا بقدرنا البشري المحتوم هذا حملتنا على التفكير بطرقٍ معينة، وعلى ابتداع سبل عجيبة في تأسيس مجتمعاتنا البشرية وحضاراتنا من أجل تحدي الفناء المكتوب علينا منذ لحظة ولادتنا.

نحن لسنا فقط حيوانات محكومة بالبيولوجيا، وتسعى للبقاء. نحن كائنات تبحث عن المعنى وراء بقائها.. ومسكونةٌ بالقلق مثلك! هذا البحث سوف يقودنا إلى حل مشكلة البقاء ومعضلة الفناء المحتوم بطرق تختلف عن خطة الجينات الساعية للخلود، والفيروسات الراغبة في البقاء والتكاثر. طرقنا المبدعة سوف تُدهشك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

والدي العزيز..

لم أفكر أبدًا في أن حيرتي نحو العالم لها علاقة بدروس البيولوجيا والكيمياء والفيزياء التي لم أكن يومًا من المولعين بها!

كلامك عن «داروين» وشفرة الحياة، وكذلك عن الطاقة والإنتروبيا، يرسم صورة قاسية جدًّا للوجود. لا أريد أن أصدق أنني، بكل مشاعري وأحلامي وآلامي، مجرد نتاج لخطة الجينات من أجل صناعة ماكينات، أو كائنات حيَّة، تتيح لها الخلود.. أو أن وجودي في الحياة هو محض صراع من أجل الحصول على الطاقة لتحدي الفناء.

أنتظر رسالتك التالية، ولكن أرجوك: لا مزيد من الكيمياء والفيزياء، فقد مللت تلك المواد في الكتب المدرسية. اكتب لي عن البشر، وأفكارهم ومعاناتهم، وليس عن الخلايا والجينات في أجسادهم!

ليلى

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الرسالة الثالثة

كسر الشفرة

«وتحسب أنك جِرم صغير.. وفيك انطوى العالم الأكبر».

الإمام علي بن أبي طالب

ابنتي العزيزة..

قصتنا تتداخل فيها الأشياء جميعًا، الخلايا والفيروسات والجينات، وقوانين الفيزياء والكيمياء. لا يمكنكِ فهم «اللعبة» من دون إدراك حدود الملعب وقواعد اللعب. قوانين الفيزياء تضع حدودًا للملعب، وقواعد اللعب. تفاعلات الكيمياء والبيولوجيا هي مادة اللعبة نفسها.

ولكن لديكِ حق. لا يمكن أن نكون نحن البشر، بمدننا العملاقة والتكنولوجيا الفائقة التي نستخدمها اليوم، وما أبدعناه عبر رحلتنا الطويلة من قصص وأفكار وفلسفات، نتاجًا لهذه الآلية الطبيعية القاسية، من القوانين الفيزيائية والبيولوجية، التي تبدو مجردة من المعنى.

شيء ما يبدو ناقصًا في هذه القصة..

صحيح أننا مجرد كائن بيولوجي معرض للفناء، وصحيح أننا نشترك مع الشمبانزي في 98% من الجينات، ولكن المسافة بيننا وبينه أكبر وأوسع كثيرًا من مجرد 2%! هذا شيء لا يحتاج بيانًا أو دليلًا. هناك مسافة هائلة تفصلنا، نحن البشر، عن عالم الطبيعة، بحيوانها ونباتها. برغم أن أجسادنا تحوي الشفرات نفسها مثل الكائنات الحية الأخرى كافة، إلا أننا نبدو متميزين عن كل شيءٍ حولنا على الأرض. فما الذي يميزنا؟ ما الذي عبَّد الطريق أمامنا لكي نسيطر على كل شيءٍ خلال 300 ألف عام لا أكثر.. أي طرفة عين في عمر كوكبنا المديد؟

من الواضح أننا نتطور بطريقة أخرى تختلف عن «الطفرة الجينية»، والآلية التي تحدث عنها «داروين». جينات البشر تطورت على نحو محدود للغاية خلال 300 ألف سنة. الطفرات التي قام بها فيروس قاتل كالإيدز خلال أربعة عقود، تتجاوز الطفرات الجينية التي حدثت للبشر خلال تاريخهم كله!

الحقيقة أن قصتنا، نحن البشر، تعتمد أيضًا على المعلومات والشفرات في التطور. غير أن الشفرات التي استخدمناها في دفع تطورنا الخارق ليست كلها مصنوعة من الكيمياء كتلك التي تستخدمها الكائنات الحية. كذلك، المعلومات التي نتناقلها ليست مخزنة في الجينات، بل في مكانٍ آخر..

كيف ينبثق الذكاء من الغباء؟

هل سألتِ نفسكِ يومًا إن كانت هناك أشياء في عالمنا هذا ليست مصنوعة من المادة؟ إن كل ما حولنا، من جماد أو أشياء حيَّة، بما فيها أجسادنا نفسها، مصنوعة من ذرات وجزيئات. الذرَّة شيء مادي. هل يعني ذلك أن كل شيءٍ في الكون هو عبارة عن مادة؟ أي إن قصتنا، نحن البشر، مصنوعة هي الأخرى من المادة ولا شيء آخر؟

فريق من العلماء والفلاسفة، من القدماء والمعاصرين، مقتنع بذلك. سوف نصادف بعضًا منهم عبر قصتنا. على أن بإمكانكِ أنتِ أيضًا التفكير في تلك المسألة المثيرة. فكري مثلًا في الأعداد: هل هناك وجود مادي للأعداد، كما الحال مع الصخور والجبال وأنا وأنت؟ سوف نأتي على ذكر هذه المسألة المحيرة في رسائل تالية. ولكن من الواضح أنكِ لا تستطيعين أن تقابلي العدد 3 أو العدد 4 في أي مكان. يمكنكِ بالطبع أن تحصي ثلاث تفاحات أو أربع شجرات، ولكنَّ العددين 3 و 4 نفسيهما لا يبدو أن لهما أي وجود مادي. الشيء نفسه ينطبق على الحروف التي تظهر أمامكِ الآن. هي تبدو وكأنها مصنوعة من الحبر. لكنكِ تعرفين أنها مجرد رموز. الحروف والأعداد مصنوعة من شيءٍ آخر..

إنها مصنوعة من المعلومات!

المعلومات، والشفرات التي ترمز لها، هي الطريقة التي استخدمناها، نحن البشر، لكي نصنع مسارنا الخاص في التطور، تمامًا كما استخدمت الجينات المعلومات المخزنة في شفرة «دي إن إيه» لتصنع الحياة والتطور. نحن أيضًا وجدنا طريقة مميزة لتشفير المعلومات، ومعالجتها، وتداولها بيننا. لكي نفعل ذلك احتجنا جهازًا من نوع خاص، لا نظير له في أي كائن حي على وجه الأرض.

أخطر جهاز لمعالجة المعلومات وصناعة وفك الشفرات تحملينه على كتفيك. دماغكِ يُشبه الكون على نحوٍ ما. في الكون تريليونا مجرة. وفي مجرتنا - درب التبانة - نحو مائة مليار نجم، من بينها شمسنا، التي تدور في فلكها الأرض؛ مسرح قصتنا. في المقابل، دماغكِ به نحو مائة مليار خلية عصبية (عصبون)، تتصل ببعضها بعضًا عبر تريليونات الوصلات. دماغكِ يشبه الكون في اتساعه الهائل، ولكن يزيد عليه في كونه متصلًا ومتشابكًا في وصلات معقدة!

المخ البشري هو واحد من أشد الأشياء غموضًا في قصتنا. الغموض يتكشف يومًا بعد يوم بفضل تقدم علوم الأعصاب وتكنولوجيا التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي (FMRI). يمكن لنا أن نعرف الوظائف المختلفة التي

تقوم بها مناطق في المخ. اليوم نعرف، مثلًا، ما الذي يحدث بالضبط داخل أدمغتنا عندما نتعلم لغة جديدة، أو نواجه خطرًا داهمًا، أو نريد تذكر شيء منذ زمن بعيد أو قريب. غير أننا ما زلنا بعيدين عن معرفة كيفية عمل هذا الجهاز بالغ التعقيد ليُنتج لنا هذه الظاهرة العجيبة التي نسميها بالتفكير أو الوعي، أي إدراكنا للعالم من حولنا، ولأنفسنا. الفيلسوف الألماني جودفيرد ليبنتز (1646م-1716م) قال إننا لو كبَّرنا المخ بحجم طاحونة عملاقة، ودلفنا إليه لما وجدنا الوعي داخله!

السواد الأعظم من الحيوانات لا يستطيع التعرف على نفسه في المرآة. لو عرضت على الحيوان صورته، إما أنه يهاجمها أو لا يعيرها أي اهتمام. أما نحن فنعرف أنفسنا منذ وقت مبكر. ألا تذكرين تلك المرحلة عندما كان أخوكِ الصغير مفتونًا بصورته في مرآة المصعد؟ هو كان يمارس الخاصية الأهم التي تميزه عن الكائنات الأخرى: التعرف على ذاته. نحن نعرف أننا أبطال قصة حياتنا، وأن لنا أهدافًا معينة، وأن عندنا إرادة. باختصار.. أننا نحن! نحن لا نشاهد الحياة والأشياء من خارجنا كفيلم غريب عنَّا، وإنما نتابعها كفيلم لنا دور فيه. أنتِ تلعبين دور البطولة في فيلمكِ الخاص، وهو - بالنسبة لكِ - الفيلم الأهم في هذا العالم!

ثمَّة «قصة» مستمرة معنا، من المولد إلى الممات. جسدنا يغير نفسه عبر تجديد الخلايا، فلا يعود تقريبًا هو ذات الجسد بعد عدد من السنوات. ولكن وعينا متصل ومتواصل عبر الذكريات. أنتِ تشعرين بأنكِ نفس الشخص الذي كان يحمل حقيبة صغيرة، مرتديًا مريلة مدرسية زرقاء اللون، يودع أبويه بعينين دامعتين ليستقبل اليوم الأول من المدرسة! ما الذي يجمعكِ مع هذا الشخص؟ كل شيء تغير فيكِ (بما في ذلك دماغكِ نفسه كما سنرى حالًا!) غير أن وعيكِ ما زال هو هو. شعوركِ بذاتكِ كشخصية واحدة غير مجزأة عبر الزمن. هذا الوعي وذاك الشعور هو شيء تصنعه عقولنا.

الوعي ليس مرادفًا للإدراك. نحن ندرك أن النار تلسع، فنبعد أيدينا عنها. هذا شيء يمكن أن تدركه الحيوانات أيضًا. الفارق أننا «نعي» أننا «نحن» مَن يدرك ذلك!

الروبوت المزود بذكاء اصطناعي يستطيع القيام بعمليات ذهنية مختلفة، بصورة أسرع وأدق كثيرًا من البشر، لكنه غير قادر على التعرف على ذاته. حتى الآن، البشر هم الذين يحددون له هدفه وغايته. ليس للذكاء الاصطناعي هدف خاص به، أو غاية يضعها لنفسه بنفسه، أو ذكريات شخصية يستعيدها، أو مستقبل يتطلع إليه، أو إرادة ذاتية تحركه. هو لا يستطيع، مثلًا، أن يُدافع عن «بقائه» إذا جذبتِ الفيشة التي تصله بالكهرباء. برنامج الذكاء الاصطناعي الذي هزم بطل العالم في الشطرنج، وأيضًا في لعبة (go) الأكثر تعقيدًا، لا

يعرف أنه حقق هذا الانتصار. ليس سعيدًا أو فخورًا بذاته. هو فقط يُحقق الهدف الموضوع له بكفاءة. بعبارة مختصرة: ليس عنده وعي؛ لذلك قال أحد علماء الأعصاب إنه سوف يصدق أن الذكاء الاصطناعي سوف يتفوق على الذكاء البشري العادي عندما يقرر روبوت الهروب مع حبيبته!

أما نحن فنعرف أننا في حالة وعي، وأننا نحن، على الأقل ونحن مستيقظون. ولكن كيف نكون متأكدين من هذا؟

ليس الأمر سهلًا كما تتصورين للوهلة الأولى. تأملي هذا الخاطر المدهش، والمخيف، للفيلسوف الصيني جوانج زي (370 ق.م-301 ق.م): «رأيت مرة في منامي أني فراشة ترفرف بجناحيها في هذا المكان وذاك. ثم استيقظت على حين غفلة وهأنذا منطرح على الأرض رجلًا كما كنت، ولست أعرف الآن هل كنت في ذلك الوقت رجلًا يحلم بأنه فراشة، أو أنني الآن فراشة تحلم بأنها رجل»!

صحيح! لماذا لا يكون ما تعيشينه الآن، وفي هذه اللحظة بالتحديد، هو مجرد حلم؟ أي أن تكوني الآن تحلمين بأنكِ أمام الكمبيوتر وتقرئين هذه السطور!

الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (1596م-1650م) انغمس في تجربة ذهنية عجيبة ليصل إلى هذا اليقين بأنه لا يحلم. انطلق ديكارت من أن كل شيءٍ حوله هو وهم وخداع. قد لا يكون هناك بحر أو سماء.. قد لا يكون هناك بشر آخرون.. هذا كله قد يكون مجرد حلم. محتمل أيضًا أن شيطانًا مخادعًا دسَّ هذه الصور والمشاهد على ذهنه. وفي عنفوان الشك، تنبَّه ديكارت إلى أنه هو ذاته قد لا يكون موجودًا!

ولكن مهلًا.. إن لم أكن أنا موجود، فمَن الذي يمارس هذا الشك؟ هكذا فكر الفيلسوف في أن مجرد الشك يحتاج إلى ذهن لكي يشك. ها هنا شيء واحد على الأقل استطاع ديكارت أخيرًا أن يتيقن منه: أن لديه عقلًا يمارس هذا الشك. هذا هو أصل عبارته الشهيرة: «أنا أفكر.. إذن أنا موجود». بالنسبة لديكارت، ممارسة التفكير هي الشيء الوحيد الذي يدل على وجودنا. ولكن كيف نمارس التفكير؟ كيف يحدث هذا الوعي بأنفسنا داخل أدمغتنا؟

كل خلية عصبية (عصبون)، من بين المائة مليار عصبون في دماغك، يحمل الجينوم البشري بكامله وتنتقل خلاله الجزيئات والبروتينات بصورة بالغة التعقيد. العصبون الواحد معقد بقدر تعقيد مدينة القاهرة (وتلك هي أعقد منظومة أعرفها!) كل عصبون متصل بنحو 10 آلاف عصبون آخر، ويتواصل معها. أي إن دماغنا يحوي تريليونات الوصلات. في قطعة صغيرة بحجم الإصبع من مادة الدماغ ثمَّة عدد من الوصلات يفوق عدد النجوم في مجرة درب التبانة!

تتواصل الخلايا العصبية مع بعضها بعضًا بإطلاق إشارات كهربائية، ومواد كيميائية معينة (آسف لأني ذكرت الكيمياء برغم تحذيرك!).. في الثانية التي مرت حالًا، أرسلت العصبونات في دماغكِ عشرات، وربما مئات، الآلاف من الرسائل. تلك هي اللغة التي يستخدمها الدماغ لصناعة الوعي والتفكير: الكهرباء والكيمياء.

هذه هي شفرة الأدمغة!

نعم.. الدماغ، مثل أغلب الأشياء المركبة في عالمنا، يستخدم شفرة معينة. الدليل على ذلك بسيط جدًّا. لو فتشتِ في خلاياكِ العصبية لن تجدي صورًا للأشياء، ولا للكلمات التي تقرئينها. لن تجدي ذكرياتكِ مسجلة على شريط. لن تعثري على ألوان أو روائح أو أصوات كتلك التي تمر بكِ كل لحظة في الحياة. لن تصادفي هنالك سوى مواد كيميائية، وإشارات كهربائية!

نحن لا نرى الأشياء كما هي في الواقع. ليست هناك شاشة داخل المخ تُعرض عليها الصور كما قد تتصورين. المخ غارق في ظلام دامس. الحقيقة أن الجزء المختص بمعالجة الرؤية لا يقع وراء العين. ولكن في مؤخرة الدماغ، ويسمى «الفص القذالي». عندما تشاهد العين شيئًا فإنها تقوم بتحويل موجات الضوء (الفوتون) إلى إشارات كهربائية (شفرة الدماغ). ما يقوم به المخ في الفص القذالي هو قراءة هذه الإشارات الكهربائية، ثم فك شفرتها، وتحويلها إلى صور. آية ذلك أنكِ لا تحتاجين إلى العين بالضرورة لرؤية الأشياء، وإلا كيف ترين صورًا في الحلم وأنتِ مغمضة العينين؟ إن ما يحدث أثناء النوم هو ذاته ما يحدث في وقت استيقاظنا: يستمر المخ في إرسال الإشارات الكهربية الحاملة للصور من الفص القذالي، ولكن من دون التقيد بما تراه العين في الواقع. هذا ما يفسر غرابة الأحلام ولا معقولية المشاهد فيها. إنها مشاهد مصنوعة بالطريقة نفسها التي يقرأ بها دماغنا الأشياء في وقت اليقظة، ولكن من دون أن يكون لهذه الأشياء والمشاهد أصل في الواقع!

ما يصدق على الرؤية، يسري على بقية الحواس. الروائح والأصوات، وملمس الأشياء.. كلها تتحول لإشارات كهربية وشفرات. هذه الإشارات ليس لها أي صلة شبه بالأشياء في الواقع. إنها شفرة مثل شفرة مورس. تمامًا كما أنه ليس هناك أي صلة بين شكل كلمة «بحر» المكتوبة هنا في هذا السطر، وبين البحر نفسه. لا يوجد ألوان حمراء أو صفراء أو خضراء داخل دماغك، وإنما تمثيل «مشفر» لهذه الألوان!

لا تتصوري لوهلة أن تلك الآلية التي يعمل بها الدماغ هي آلية بسيطة. الكيمياء والإشارات الكهربائية قد تفسر بعض ما يحدث داخل أدمغتنا، غير أن مساحة المجهول ما زالت شاسعة. تذكري أن العلماء يحاولون فك شفرة الدماغ

وكشف سر الوعي باستخدام الأداة نفسها: أي التفكير الذي يصنعه الدماغ! تلك هي المعضلة، إذ كيف يكون بإمكان الشيء أن يكشف بذاته عن سر ذاته؟!

الدماغ شيء مادي، أما العقل والوعي فهو شيء غير مادي ينتجه المخ..

مع كل الغموض المرتبط بالدماغ، إلا أن آلية عمله لا تختلف عن أشياء كثيرة في قصتنا. إنه نظام يتكون من وحدات صغيرة، هي العصبونات. كل عصبون في ذاته ليس ذكيًّا. ليس فيه وعي أو تفكير. ولكن من مجموع الاتصالات الهائلة بين العصبونات «ينبثق» شيء جديد تمامًا. «الانبثاق» هذا هو كلمة السر ومنبع السحر. هو ظاهرة محيرة أخرى سوف تدهشكِ بصور مختلفة عبر قصتنا. الظاهرة تحدث عندما تتحد عدة أشياء بسيطة بنظامٍ معين؛ لتكون شيئًا مركبًا، ثم يكون لهذا المركب الجديد - ويالللعجب! - خواصٌ جديدة تمامًا تختلف عن صفات الأشياء التي كوَّنته!

تأملي الماء. هو مكوَّن من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين. التضافر بين هذين العنصرين يُنتج جزيئًا جديدًا له خواص ليست موجودة في الأكسجين أو الهيدروجين.. مثل البلل. من أين جاء البلل؟ ليس من الأكسجين أو الهيدروجين، وإنما من الرابطة بينهما. لقد «انبثقت» هذه الصفة الجديدة من ارتباط هذين العنصرين بصورة معينة. الروابط هي ما يهم. الروابط بين عدة أشياء بسيطة يمكن أن تصنع شيئًا مركبًا جديدًا كليًّا. هكذا ستتحرك قصتنا الكبيرة.. من البسيط إلى المركب، باستمرار.

اتحاد الأشياء البسيطة يصنع سحرًا.. سحر «الانبثاق». الكل يصير أكبر من مجرد مجموع الأجزاء.

هذه الظاهرة تساعدنا في تفسير الكثير من الأشياء في مسار قصتنا. لقد عرفتِ منذ قليل أن الحياة، هذه الظاهرة المعقدة للغاية، ليست سوى اتحاد لعناصر كيميائية بسيطة داخل الخلية بنظام معين. البشر كذلك.. يتحدون معًا لتكوين شيء أكبر من مجرد مجموع الأفراد. شيء جديد له خواص جديدة وآلية عمل تختلف عن آلية عمل الأفراد.. هذا الشيء اسمه المجتمع. الكيان الجديد المركب، سواء كان كائنًا حيًّا أو مجتمعًا مكونًا من بشر، يستطيع القيام بأشياء أكثر تعقيدًا بكثير من العناصر التي يتكون منها.

ظاهرة «انبثاق» الكيانات المركبة موجودة في الطبيعة أيضًا. تأملي مستعمرات النمل الأبيض، والقلاع العجيبة التي يبنونها. بعض هذه المستعمرات يضم غرفًا وممرات عدة، ونظامًا معقدًا للتهوية. النملة الواحدة ليست على شيء كبير من الذكاء. ولكن مستعمرة النمل شيء بالغ الذكاء والروعة. هي كائن جديد «ينبثق» من العلاقات المنظمة وتقسيم العمل بين

ملايين النمل (تصل أعداد سكان مستعمرات النمل الأبيض أحيانًا إلى 70 مليونًا!) النمل يتواصل بشفرة معينة في صورة روائح يطلقها ليتم تقسيم الأدوار المختلفة داخل المستعمرة. لا يوجد «عقل» منظم لمستعمرة النمل الأبيض. لا توجد ملكة توجِّه وتقود. إنه نظام يُرتب نفسه ذاتيًّا.. هو نظام مركب!

كذلك الوعي هو شيء استثنائي وفريد «ينبثق» عن تريليونات الوصلات المختلفة بين الخلايا العصبية. لا يوجد «مدير» داخل المخ، يحرك الخلايا ويقسم عملها. إنه نظام مركب ينتظم ذاتيًّا ليصنع لنا هذا السحر: الشعور بأنفسنا، وبالعالم حولنا. هكذا «ينبثق» الذكاء من الغباء!

تشكيلة الوصلات بين خلاياكِ الدماغية لا تبقى على حالها من الميلاد إلى الممات. عندما تتعلمين شيئًا جديدًا، كلغة أجنبية أو العزف على آلة موسيقية مثلًا، تنشأ روابط جديدة بين العصبونات في دماغك. التجارب التي نمر بها تعيد تشكيل دماغنا ووصلاته من الداخل. يسمي العلماء هذه الظاهرة بلدونة المخ. إنها ظاهرة تجدينها في النظم المركبة كافة. تعيد هذه النظم، مثل المجتمعات والمدن والدول، تشكيل ذاتها باستمرار عبر التفاعل مع البيئة المحيطة بها.

معنى ذلك أنه يستحيل أن يتشابه دماغان، حتى لو كانا لتوأم متماثل. احتمالات التباين في تشكيلات الوصلات، واحتمالات الأحداث والتجارب المتعددة التي يمكن أن تعيد هذه التشكيلات.. هائلة بما يفوق أي تصور. هذا أيضًا ما يجعل الدماغ نظامًا مركبًا غير قابل للتنبؤ. إنه جانب مهم من «الحالة البشرية»: نحن لا نعرف، ولا يمكن لنا أن نعرف، أي الأفكار سوف تنشأ في أي دماغ في أي لحظة زمنية!

نحن البشر غير قابلين للتنبؤ. يمكنكِ أن تتصوري ما سيكون عليه رد فعل شخصٍ ما إن وضع في موقف معين بواقع معرفتكِ بشخصيته وتاريخه السابق. ولكن لا يمكن أن تكوني على يقين من هذا التصور. الدماغ البشري ليس آلة تعمل بمدخلات ومخرجات مثل الكمبيوتر. هو نظام مُركَّب يستعصي على التوقع. إنه سبب آخر لحالة انعدام اليقين التي تغلف قصتنا. ليست الطبيعة وحدها عصية على التنبؤ، وإنما البشر أيضًا. الأشياء المركبة التي سيصنعها عدد من الأدمغة البشرية باتحادها معًا، مثل المجتمع والدولة والسوق والإمبراطورية والشركات التجارية والبورصات، ستطوي بداخلها درجات مختلفة من انعدام اليقين وستظل عصية على التنبؤ..

شبكة الأدمغة

ولكن لماذا ظهر الذكاء والوعي من الأصل؟ ما الغاية من ورائه؟ لماذا لا نعيش مثل الزواحف والثدييات – مثلًا - نستجيب للمؤثرات في البيئة من حولنا، في هيئة مدخلات ومخرجات.. من دون وعي منَّا؟ لماذا نحن فقط مَن أدركنا أننا «نحن» وأننا «هنا»؟

لا إجابة حاسمة عن هذا اللغز.

إن الوعي درجات. أعلى درجات الوعي، كما نعرفها في البشر، لم ينشأ دفعة واحدة. النبات لا يحتاج إلى درجة كبيرة من الوعي كما يبدو. هو لا يبحث عن الغذاء، بل ينتظره في مكانه قادمًا من الشمس. لهذا لا يحتاج النبات إلى جهازٍ عصبي. كذلك الحيوان المائي الصغير، متعدد الخلايا، السابح في المحيط منذ 600 مليون سنة لم يكن بحاجة إلى وعي كبير. هو يحتاج فقط للتمييز بين شيئين: الغذاء واللا غذاء. معادلة بسيطة لا تستلزم اتخاذ قرارات معقدة. في المرة القادمة عندما تغطسين في حمام السباحة حاولي أن تفتحي عينيكِ تحت الماء. لن تستطيعي الرؤية لمسافة بعيدة. السبب هو أن الضوء يخف في الماء. هكذا الأسماك أيضًا، لا يمكنها الرؤية لبعيد. هي تسبح بسرعة، وتصادف أشياء في طريقها لا تبعد عنها مسافة كبيرة. بالتالي، لا تحتاج سوى لقرار لحظي سريع. أما الحيوان الذي انتقل للمرة الأولى من البحر إلى اليابسة، منذ حوالي 370 مليون سنة، غالبًا هربًا من الالتهام في البحر.. فقد احتاج إلى مستوى أعلى كثيرًا من الوعي. على الأرض، يمكنكِ الرؤية لمسافة أبعد كثيرًا، وبامتداد الأفق. لو أنكِ فأرة أو غزالة على الأرض فأنتِ ترين الأخطار على مسافة أبعد. هذا يُتيح لكِ وقتًا أطول لاتخاذ قرارات مركبة.

الحركة على الأرض تتطلب حسابًا للمسافات والأبعاد. الحيوان البري في إمكانه أن يذهب في هذا الاتجاه أو ذاك، وأن يناور أو يختبئ، أو - لو كان مفترسًا - يكمُن في انتظار الفريسة. هكذا تطورت العيون كجهازٍ أكثر حساسية، يقرأ الواقع ويستخلص معلومات من البيئة المحيطة بالكائن الحي. ولكن بعد أن تري ما حولكِ تحتاجين أيضًا إلى فهم ما ترينه. هكذا يتكون جهاز عصبي يوجه الحيوانات نحو الهدف.

تلك هي الخطوات الأولى نحو الوعي: أن يكون ثمَّة هدف يتحرك الكائن نحوه. ثم يتطور الوعي أكثر لكي يساعد الحيوان على تجنب أن يكون – بدوره- هدفًا لحيوانات أخرى أشد فتكًا منه! إن حقبة الديناصورات، التي بدأت منذ نحو 250 مليون سنة، قد أجبرت الحيوانات الثديية على تكوين حواس أشد انتباهًا ورهافة من أجل جمع المعلومات، والتخفي والاختباء من الديناصورات العملاقة. احتاجت هذه الثدييات إلى مخ أكبر لتحميل معلومات أكثر.. نحن ورثنا هذا الدماغ.

على أن النقلة الأكبر للوعي البشري جاءت، على الأغلب، من الاتصال بين الأدمغة المختلفة.. دماغ واحد لا يساوي الكثير. هو يُشبه كمبيوتر غير متصل بالإنترنت. قد يكون مفيدًا في إجراء بعض العمليات الذهنية بسرعة ومهارة، غير أن السحر كله ينتج عن الاتصال بين ملايين ومليارات أجهزة الكمبيوتر في شبكة واحدة (الإنترنت)، بدليل أنكِ تشعرين بأن حاسوبكِ المحمول بلا فائدة تقريبًا إذا انقطع الاتصال بالـ «واي فاي». إن شبكة الإنترنت تُشبه إلى حد بعيد الشبكة التي تكونت بين أدمغتنا البشرية لتبادل المعلومات منذ وقت بعيد جدًّا في قصتنا. أغلب الظن أن تلك الشبكة هي السبب في أننا حصلنا على هذه الميزة الهائلة المسماة بالوعي، وكذلك ما يرتبط به من أن يكون لدينا إرادة حرة. كيف؟

إحدى الخصائص الرئيسية للدماغ البشري هي أنه جهاز سري. يعمل في غرفة محصنة، مؤمَّنة، بعيدًا عن الأعين. لا يمكن لأحد أن يشاركِ ما يجري في دماغك، إن لم تسمحي أنتِ بذلك. لو أردتِ التعبير عن شيءٍ يدور في عقلكِ لشخصٍ آخر، فبإمكانكِ أن تومئي بتعبيرات وجهك، أو أن تستخدمي يديكِ في الإشارة. هكذا بدأ الاتصال، بالإيماءات والإشارات باستخدام اليد. إلى اليوم نحن نستخدم إشارات اليد في التواصل، من أجل التأكيد على المعاني التي نقصدها.

الاتصال هو بناء علاقة بين دماغين أو أكثر لتبادل المعلومات. نحن لا نكتفي بأن نبعد أيدينا عن النار لأنها تلسع.. هذا سلوك غريزي تقدر عليه الحيوانات كما قلنا. أما نحن فنسعى أيضًا إلى توصيل هذه المعلومة المهمة لآخرين غيرنا. إذا أردنا توصيل «فكرة» أن النار تلسع، لا بد أن نكون على «وعي» بها، أي بالفكرة.. وعلى وعي بأنفسنا، وعلى وعي بهذا «الآخر» الذي نريد توصيل الفكرة له. قد يكون هذا التوق للتواصل هو ما صنع وعينا بذاتنا، وأعاد تشكيل أدمغتنا. بعبارةٍ أخرى: هو ما جعلنا أذكى.

لو فكرتِ في الأمر لوجدتِ أن الوعي بالذات لا يمكن أن يتحقق سوى في وجود آخرين. كذلك اللغة لا يمكن أن تظهر سوى في وجود آخرين. لا يمكن أن يخترع شخص لغة بمفرده. لا بد أن يكون هناك «آخر» أتواصل معه، لكي أشعر بذاتي كشيءٍ متميزٍ عن كل ما حولي.

الدماغ، في واقع الأمر، هو آلة لتوقع المستقبل كما ذكرنا، وهو أيضًا جهاز للاتصال. هذا ما قد يفسر السبب في تزايد حجم الدماغ لدينا. عندما بدأنا في تبادل المعلومات - في البداية بإشارات اليد - تزايد عدد هذه الإشارات مع تعقد الحياة ومشكلاتها، فزادت حاجتنا إلى دماغ أكبر لتخزينها ومعالجتها، ومن ثم حاجتنا إلى أداة اتصال أقوى.. إلى شفرة أسهل من الإشارة. هنا لجأنا،

مثل الكثير من الحيوانات، إلى الإشارات الصوتية. على أننا نجحنا، بخلاف الحيوانات، في تطوير نظام الإشارات الصوتية إلى شفرة كاملة هي اللغة.

اللغة تساعدنا في ابتداع رموز لتمثيل أشياء وأفكار مجردة. لو فكرتِ في الأمر، لوجدتِ أن اللغة هي أصل التفكير. عندما تفكرين في شيءٍ فأنتِ في الواقع تُجرين حوارًا صامتًا مع ذاتك. العملية التي تؤدي للكلام وتلك التي تقود إلى التفكير هي تقريبًا العملية نفسها. ربما ظهر التفكير والوعي من الأصل من أجل تعزيز القدرة على الكلام. عملية التفكير غير ممكنة من دون كلام ومفردات.. أي من دون لغة. جرِّبي أن تفكري في شيءٍ، أي شيء، من دون الاستعانة بمفردات.. مستحيل!

الظاهرة المذهلة والغامضة المسماة بالوعي، التي تحدث داخل الدماغ الإنساني، قد يكون غرضها الأساسي تسهيل التواصل ونقل المعلومات فيما بيننا. اللغة تمنحنا قدرة فريدة على تحويل المعلومات والأفكار إلى شفرة يسهل نقلها بين الأدمغة. هل تذكرين الفيروسات؟ هي أيضًا ليست سوى معلومات مشفرة. الأفكار والمعلومات التي نتناقلها نحن البشر فيما بيننا تشبه الفيروسات إلى حد بعيد..

الأفكار والمعلومات التي ينقلها الكلام ليست شيئًا حيًّا، وكذا الفيروسات!

الفيروسات، برغم أنها ليست كائنًا حيًّا، لديها قدرة على الانتقال وعلى التطور كما رأينا.. وكذلك الأفكار أيضًا!

ماذا تفعل الفيروسات؟ إنها تسيطر على الخلايا لتُعيد إنتاج نفسها.

ماذا تفعل الأفكار؟ إنها تسكن الأدمغة، وتنتقل من دماغ إلى دماغ بالعدوى. تمامًا مثل الفيروسات!

وسوف تلاحظين شيئًا عجيبًا في قصتنا: بعض الأفكار لديها تلك القدرة العجيبة على السيطرة على العائل الذي تسكنه؛ أي على الدماغ، إلى الحد الذي يجعل هذا الدماغ يعتقد أن الفكرة التي يحملها أهم من حياة الكائن البشري الذي يحمله على كتفيه! لذلك فإن الأفكار في قصتنا لها أعمار أطول كثيرًا من الأدمغة التي تسكنها. ستلاحظين أيضًا أن الأفكار، مثل الفيروسات، تتطور وتتحور، وأنها تصارع بعضها بعضًا من أجل البقاء مثل صراع الكائنات الحية الذي تحدث عنه «داروين»! الدليل على ذلك أن هناك أفكارًا ظلت حيَّة لآلاف السنين، ولكنها انقرضت ولم يعُد لها وجود في عالم اليوم، مثل الأضحية البشرية والعبودية. وهناك في المقابل، أفكار ظهرت منذ آلاف السنين، ما زالت حيَّة معنا اليوم، مثل دفن الموتى أو ارتداء الذهب للتزين. هذه الأفكار

انتصرت في صراع البقاء؛ لأنها نجحت في الانتقال بين أعداد كبيرة من الأدمغة البشرية عبر الأجيال.

ثمَّة طريقة وحيدة لانتقال الأفكار: من دماغ إلى دماغ. عندما تقرئين هذه الرسائل، تنتقل الأفكار من دماغي إلى دماغك. هذا يحدث بفضل شفرة محددة يفهمها كلانا اسمها الأبجدية العربية.

تطور الجنس البشري لم يحدث عبر «طفرات» الجينات، كما الحال مع عصافير «داروين». تطورنا المذهل جرى عبر انتقال الأفكار والمعلومات. الأفكار يمكن أن تنتقل بالإشارة كما قلنا، أو شفهيًّا عبر اللغة، أو رمزيًّا عبر الكتابة، أو رقميًّا عبر شفرة بيت (Bit) (واحد/صفر).. المهم أن يكون طرفا عملية الاتصال عارفين بالشفرة المشتركة. يمكن أن تنتقل الأفكار أيضًا بالنسخ والتقليد المباشر. عندما يرى سلفنا الصياد القديم شخصًا يقوم بصناعة بلطة حجرية، ثم يراقبه يستخدمها في تقطيع لحم الغزال بعد صيده. يمكن أن يفكر: «هذا الشيء مفيد، لأتعلم كيف أصنعه». المراقبة، في هذه الحالة، هي عملية حصول على معلومات. المراقب لا يريد الحصول على البلطة نفسها، ولكن على طريقة صناعتها، وأسلوب استخدامها، و«فكرة» استخدام أداة في تقطيع اللحم للحصول على نتائج أفضل بمجهود أقل.

الفكرة قد تكون طريقة لعمل شيء، أو طريقة لصناعة أداة لعمل شيء، أو مجرد طريقة للعيش. قد لا تكون الفكرة أكثر من مجرد قول جميل يدخل السرور على النفس، أو عادة معينة، أو طقسًا، أو نُكتة لطيفة.. إن أي شيء نفعله أو نقوله أو نفكر فيه، ويمكن نقله من دماغ إلى دماغ هو فكرة. الأفكار والرموز التي تؤثر على طريقة عيشنا تسمى الثقافة. البشر لا يتطورون بالجينات، ولكن بالثقافة، أي بتبادل المعلومات في الجماعة البشرية، وعبر الأجيال.

عندما نجد أنفسنا في بيئات قاسية البرودة، فإننا لا نفعل مثل الفأر الذي صادفناه منذ قليل. لا تطور جيناتنا فِراءً يغطي جلودنا أو تفرز دهونًا أكثر للتدفئة. بل نُنتج فكرة جديدة: استخدام فِراء الدب في التدثر مثلًا. بعدها نحسن فكرتنا مع الوقت كأن نستخدم إبرة في حياكة الفراء. مع الوقت؛ تخضع الأفكار لقانون الانتخاب الطبيعي: نحن نجرب الكثير والكثير من الأفكار. الأفكار التي تثبت فائدتها ونفعها للبقاء.. تبقى، وتتكاثر، وتنتقل بين عدد كبير من الأدمغة. الأفكار التي تُظهر نفعًا محدودًا أو يتبين ضررها، تندثر وتنقرض.

أداتنا في نقل الأفكار هي التعلم. لا وجود لكائن آخر يمارس عملية التعلم بصورة متعمدة ومنظمة مثلنا. التعليم يقتضي وجود عقلٍ واعٍ بأنه ليس لديه

معلومة أو فكرة معينة، وأن هذه المعلومة موجودة لدى عقلٍ آخر، ويمكن الحصول عليها منه. نحن نولد في حالة عجز بالمقارنة مع أطفال الكائنات الأخرى. الزرافة تستطيع الوقوف على قدميها بعد ساعة من الميلاد، والحمار الوحشي يتمكن من العدو بعد 45 دقيقة من وصوله إلى الدنيا. نحن، في المقابل، نولد بلا مهارات ولا نستطيع لسنوات طوال الاعتماد على أنفسنا في العيش. في الوقت الذي يتمكن الشمبانزي من الحصول على غذائه بنفسه في سن الخامسة، فإن الطفل البشري يكون في هذه السن، كما تعرفين من مراقبة حال أخيكِ الصغير، بلا فائدة تقريبًا. مع ذلك، فسرعان ما يتفوق هذا الطفل البشري المسكين على الأنواع الأخرى كافة. سرعان ما يتحول عجزه إلى مهارة وسِعة حيلة وقدرة على مواجهة المشكلات المختلفة والعيش في بيئات متنوعة.. بينما الحمار الوحشي والزرافة قابعان في مكانهما في السلسلة الغذائية. فما السر؟

نحن نقضي وقتًا كأطفال أكثر من أي كائن على الأرض. غاية الطفولة هي التعلم. سبيل التعلم ليس المدرسة والكتب كما تتصورين، وإنما اللعب! ربما أنتِ لا تذكرين هذا الآن، ولكنكِ تعلمت أشياء كثيرة عن العالم عبر اللعب. عمل الطفل هو اللعب. هو بوابته لتجريب الأشياء في العالم واكتشاف قوانينه المختلفة. الأطفال مثل العلماء.. يجربون تباديل وتوافيق ويستخلصون النتائج. السبب الجوهري وراء تفوق الطفل البشري هو أنه يتعلم «حيلًا» كثيرة من المجتمع البشري الذي ينشأ فيه. يتعلم أشياء أكثر من مجرد المشي والصيد والاختباء من الفرائس.. يتعلم «ثقافة الجماعة»، أي طريقة عيشها ورموزها. الإحاطة بهذه الأشياء المركبة يستغرق وقتًا طويلًا، وهذا هو السر وراء فترة الطفولة الطويلة لدى البشر.

نحن نتعلم من بعضنا بعضًا. التعلم الجماعي هو طريقة الجنس البشري في استكشاف أفضل السبل للبقاء. التعلم الجماعي، ليس مثل التعلم الذي تتلقينه في المدرسة. ليس هناك منهج أو مكان محدد لتلقي العلم. الكل معلمون والكل تلاميذ. الغالبية الساحقة من الأفكار العظيمة النافعة ليس لها صاحب. الأمر أشبه بالأمثال الشعبية التي لا نعرف مَن قائلها. مؤخرًا جدًّا، بدأ البشر ينسبون بعض الأفكار الخارقة إلى مبتكريها. فنعرف مثلًا أن «جوتنبرج» هو مَن اخترع الطباعة، وأن «أينشتاين» هو صاحب نظرية النسبية. أفكار لا تقل براعةً ظل أصحابها العباقرة مجهولين: لا نعرف مَن اخترع العجلة، أو المحراث، أو الرمح، أو ركاب الفرس، أو الساقية، أو خيال المآتة، أو الساعة الرملية.

كل فأر وكل دُلفين وكل ذبابة تولد في هذا العالم.. تبدأ رحلة التعلم من الصفر. أغلب ما تتعلمه يُنقل لها عبر الجين، وهذا ما نسميه بالغريزة. إذا

حدث وطور فرد في جماعة حيوانية مهارة معينة، فإنها تموت بموته..

حدث في اليابان أن تفتق ذهن بعض الغربان عن فكرة مبتكرة بأن تضع ثمرة الجوز صعبة الكسر على طريق السيارات حتى تدهسها العربات المسرعة، فتنكسر. بل طور بعضهم الفكرة بوضع ثمار الجوز على الخطوط البيضاء حتى يسهل جمعها عندما تتوقف العربات في إشارات المرور. هذه الفكرة، وبرغم عبقريتها وفائدتها الكبيرة للجماعة، لم تنتشر في مجتمع الغربان العالمي! لقد ماتت مع أصحابها العباقرة في اليابان. أما نحن فما إن يتعلم أحد أفرادنا «حيلة» جديدة - فكرة كانت أو سلوكًا أو طريقة لعمل شيء - فإنها سرعان ما تنتشر في الجماعة عبر شبكة الأدمغة، تمامًا كما تنتشر الفيروسات بالعدوى. الأفكار مُعدية كالأمراض الوبائية، بل أشد.

لقد حللنا معضلة البقاء بطريقة جد عجيبة، تختلف عن الكائنات الأخرى كافة. لقد خلقنا مجتمعات تضم عددًا كبيرًا من الأدمغة التي تعمل معًا. عندما تعمل الأدمغة معًا، وتتواصل، وتخلق روابط وشبكات.. تصبح أذكى. وكما «انبثق» الوعي في الأدمغة من اتصال الخلايا العصبية، فإن الثقافة «انبثقت» في المجتمعات من اتصال الأدمغة. الثقافة لا تخزن في عقول الأفراد، وإنما في «عقل الجماعة». بدليل أننا نفنى ونغادر الحياة، بينما الثقافة (طريقة حياة الجماعة وأفكارها البارعة والوسائل التي تستخدمها من أجل التغلب على مشكلة البقاء) لا تختفي، بل تتواصل عبر الأجيال.

وعندما يتوسع حجم المعلومات التي نحتاجها، فإن تخزينها يمتد إلى خارج عقولنا. أنتِ لا تحتفظين بالمعلومات التي تحتاجينها داخل دماغك. هاتفكِ الذكي، المزود بـ «جوجل»، يُسعفكِ بأرقام تليفونات أصدقائك، وأيضًا بأي معلومة تطلبينها تقريبًا. الإنسان القديم كان يفعل الشيء نفسه. لم يكن يحتفظ في دماغه بكل المعلومات التي يحتاجها، وإنما كان يلجأ إلى عقول أخرى في جماعته عبر التواصل معها: ثمة دماغ يعرف طريقة حياكة الثياب، وثانٍ لديه حيلة جيدة لاصطياد الأرانب البرية، وثالث عنده حكاية مفيدة عن نمورٍ مفترسة صادفها وراء التل.. وهكذا.

الأمر أيضًا له علاقة بالطاقة. حل أي مشكلة يقتضي قدرًا من الطاقة. تصوري أنكِ تحتاجين لحل كل مشكلة بنفسك، وبدون الاستعانة بالآخرين. في هذه الحالة ستضطرين لإنفاق قدر كبير من الطاقة في حل كل مشكلة. تبادل المعلومات مع الآخرين يوفر الطاقة المطلوبة لحل المشكلات. ثمَّة علاقة وثيقة، كما تعلمين، بين الطاقة والمعلومات.

سر قوتنا، إذن، لا يكمُن في الجهاز العجيب الذي نحمله على كتفينا فحسب، بل أيضًا في كيفية استخدامنا له بتوصيله بالأدمغة الأخرى. الإنسان بمفرده

ليس كائنًا ذكيًّا على نحو خاص. انتماؤه إلى الجنس البشري هو ما يجعله كذلك. لو تخيلنا أن إنسانًا لا يعرف شيئًا، وبدأ التفكير من الصفر فمن المستحيل أن يصل لوحده، وفي حياة واحدة، إلى قواعد الرياضيات، مهما بلغ من الذكاء والألمعية. اختراع الرياضيات يحتاج إلى تراكم للمعلومات عبر الأجيال. الدليل على ذلك أن الحضارات المختلفة وصلت إلى قواعد الرياضيات عبر أجيال وقرون من تناقل المعلومات. ولو افترضنا أن إنسانًا فُقد في جزيرة معزولة في المحيط، كما حدث لـ «شاك نولاند» أو توم هانكس في فيلم «Castaway»، فإن سعة الحيلة التي يُظهرها للخروج من المأزق الصعب لا ترجع لذكائه الخاص. أين تعلم «شاك» كل الحيل والمهارات التي طبقها ليُحافظ على بقائه ثم ليصنع طوفًا يُغادر به الجزيرة؟ هو تعلمها من المجتمع الذي نشأ فيه.

إن أدمغتنا تنصهر معًا في شبكات لنُنتج شيئًا أكثر تعقيدًا من كل واحد منَّا هو ثقافتنا، فيحدث تطورنا بصورةٍ أسرع كثيرًا؛ لأن أفكارنا تتحور وتتطور في طفرات، بوتيرة أسرع كثيرًا من جيناتنا.

إن النمط نفسه يتواصل باستمرار في قصتنا.. من البسيط إلى المركب.. من العصبون إلى الدماغ.. ومن الدماغ إلى شبكة الأدمغة.. وصولًا إلى شبكة باتساع كوكبنا كله تضم أدمغتنا، جنبًا إلى جنب مع «أدمغة» أخرى صناعية (نطلق عليها كمبيوتر)، قمنا ببنائها من أجل تخزين وتناقل السلعة الحيوية لبقائنا: المعلومات!

معالجة المعلومات، توليدًا وتخزينًا وتناقلًا، هو سر نجاحنا المذهل في حل مشكلة البقاء. لم يكن هذا ممكنًا من دون الشفرات التي صنعناها لتسهيل تبادل المعلومات، وأهمها شفرة اللغة. غير أن تفوق البشر كان مرهونًا أيضًا بكسر الشفرات وليس فقط بصناعتها..

كاسرو الشفرات

«زبكتا بمبهنبط بمثا ثثلززز».

هل تستطيعين قراءة العبارة السابقة؟ هي لا تعني أي شيء. السبب أنها مكتوبة بالشفرة. من دون مفتاح الشفرة تبدو العبارة لكِ مجرد طلاسم لا تُقرأ. إنها نص «مُعمَّى» كما سمَّاه العرب. «الكِنْدِي»، الفيلسوف العربي الشهير، يمكن أن يساعدكِ في حل هذه الشفرة..

يُلقب أبو يوسف الكندي (805م-873م) بـ «أبو الفلسفة العربية». وقد ضرب بسهم في علوم مختلفة، من الرياضيات إلى الفلك إلى الفلسفة. وهو مَن أدخل إلى العربية كلمة موسيقى، بل وأثر عنه أنه حاول علاج صبي مشلول

شللًا رباعيًّا باستخدام الموسيقى! غير أن له إسهامًا نادرًا كُشف عنه مؤخرًا في مخطوط عثماني حمل عنوان: «مخطوط في فك رسائل التشفير». هذا المخطوط هو أقدم رسالة في هذا العلم الغامض.. علم الشفرة، أو التعمية.

التشفير هو أن تكتبي نصًّا بطريقة تجعله مفهومًا فقط للخاصة ممَّن يملكون «مفتاح الشفرة»، ويكون النص «مُعمى» على مَن لا يملكون هذا المفتاح، غالبًا من الأعداء. هناك وسائل بسيطة للتشفير، مثل تلك التي استخدمها يوليوس قيصر، بأن يضع مكان كل حرف في الرسالة المشفرة الحرف الثالث الذي يليه في الأبجدية. أي أن يضع، مثلًا، مكان كل حرف «ألف» في الرسالة المشفرة حرف «ثاء». الكندي كان يبحث عن طريقة تمكنه من فك رسالة مشفرة بطريقة مثل هذه، أو بأي طريقة أخرى. هو اهتدى إلى حل بالغ الذكاء..

لاحظ الكندي أن هناك حروفًا تتردد بصورة أكثر من غيرها في اللغات المختلفة. يمكنكِ مثلًا بسهولة ملاحظة أن الألف واللام والنون والميم والياء تُعد الأكثر تكرارًا في نصوص اللغة العربية، فيما الظاء والضاد أقل تكرارًا. فكرة الكندي البارعة هي أننا لو عرفنا اللغة المكتوب بها النص المشفر، وعرفنا أكثر الحروف تكرارًا في هذه اللغة، فيمكن للمحلل - أو كاسر الشفرة - معرفة مفتاحها مع التجريب وتكرار المحاولات، عبر وضع هذه الحروف مكان الرموز الأكثر تكرارًا في النص المشفر.

ارجعي للنص المشفر الذي بدأنا به كلامنا: «زبكتا بمبهنبط بمثا ثثلزز». ألم تلاحظي تكرار حرف الباء؟ أنتِ تعرفين أن الألف هو الحرف الأكثر تكرارًا في اللغة العربية. أول ما تفعلينه، وفق أسلوب الكندي، هو أن تجربي وضع حرف «ألف» مكان كل حرف «باء» في النص. الميم مكررة أيضًا في النص، ويمكن أن تكون هي «اللام». الخطوة الثانية هي محاولة استنتاج النمط، أو «المفتاح». إذا كانت الباء ترمز للألف، والميم ترمز للام، فإن مفتاح الشفرة هو أن كل حرف يوضع مكانه الحرف التالي له في الأبجدية. طبِّقي هذا على نصِّنا المشفر، ليظهر لكِ النص الأصلي: «راقبي الأنماط التي تتكرر»!

مراقبة الأنماط كانت سلاحنا في كسر الشفرات الكثيرة التي تملأ حياتنا على الأرض. النمط هو شيء يتكرر على نحو منظم. من دون الأنماط، لا فرصة أمامنا لفهم ما يجري حولنا. تصوري مثلًا أن تنظري إلى السماء، فتجدي مشهدًا مختلفًا في كل مرة، من دون نمط متكرر لتشكيلة النجوم والأجرام، وحركتها. تخيلي أن تستيقظي من النوم فتجدي الوجود كله يعمل بقوانين مختلفة في كل يوم. الأنماط المتكررة هي ما تجعل البقاء نفسه ممكنًا. أنتِ لا تحتاجين لتعلم الضغط على زر لإضاءة نور الكهرباء في كل مرة. يكفي أن تتعلمي ذلك لمرة واحدة، ثم يتكرر النمط.

عندما تسيرين في الطريق، فإن عقلكِ لا يحسب الذرات والمسافات والسرعات لمختلف الأشياء من حولك، ولكنه يعمل افتراضًا لحظيًّا - في جزء من الثانية - أن هذه السيارة يُمكن أن تصدمكِ لو عبرتِ الطريق في هذه اللحظة. ربما كان هذا ما يميز ذكاءنا البشري عن الذكاء الاصطناعي الذي يحتاج للقيام بعدد هائل من الحسابات لكي يتصور تطور حدثٍ ما. أما نحن فنقوم بعمل افتراضات عامة من مراقبة الأنماط المتكررة، ونتحرك في الحياة على أساسها. إن عقولنا تبحث باستمرار عن الأنماط حولنا. النمط يُساعدنا على التنبؤ بما سيحدث، فيقل شعورنا بانعدام اليقين. كذلك فعل أسلافنا في رصد أنماط الأشياء والكائنات حولهم. التغلب على الوحوش الضارية يحتاج إلى معرفة نمط سلوكها. الحصول على الغذاء يقتضي معرفة أنماط نمو النباتات، وكذلك قراءة الأنماط المُتكررة في السماء.. وهكذا.

إن الطريقة التي استخدمها الكندي تُلخص، بصورة أو بأخرى، المبدأ الذي استخدمه البشر في التفتيش عن الأنماط لكسر الشفرات. والشفرات التي أقصدها هنا ليست الرسائل المشفرة لأغراض عسكرية، وإنما المعلومات المشفرة التي تدخل في نسيج كل شيء حولنا، من الخلايا إلى الأدمغة إلى هنا؟ من أين جئنا؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟ هؤلاء مَن ندعوهم بالفلاسفة. وحتى 300 عام مضت، كان الفلاسفة والعلماء ينتمون إلى الفئة نفسها. إسحاق نيوتن كان يسمى «فيلسوفًا طبيعيًّا»، و«الكندي» كان فيلسوفًا وعالمًا في الوقت نفسه. وسوف ترين عبر رحلتنا أن هؤلاء الفلاسفة لهم طرق عجيبة في التفكير في المسائل. هم يحاولون «كسر شفرة» التفكير نفسه! هذا ما فعله مثلًا صديقنا «ديكارت» عندما تصور أن الوجود نفسه قد يكون حلمًا، وأن ممارسة الشك والتفكير هي الدليل الوحيد على أننا موجودون. هو شقَّ طريقًا مدهشًا جديدًا للتفكير في كل شيء وأي شيء.. طريقًا يبدأ من الشك.

وهناك مجموعة ثالثة من «كاسري الشفرات» يقدحون زناد فكرهم في الإجابة عن نوع ثالث من الأسئلة: كيف نعيش معًا ونتعاون حتى نواجه مآزقنا الصعبة؟ ومَن يجب أن يقوم بماذا في جماعتنا؟ هؤلاء لا يراقبون الأنماط المتكررة في الطبيعة، وإنما يراقبون الأنماط المتكررة في الطبيعة البشرية، وفي علاقات البشر ببعضهم بعضًا. يحاولون الخروج بنتائج أو قوانين عامة تصلح للتطبيق على المجتمع بأسره، وأحيانًا على المجتمعات كافة. هؤلاء هم القادة والمصلحون الذين يفكرون في كيفية تنظيم حياة البشر المشتركة، وفي وضع القوانين التي تجعل جماعة من الناس تعيش معًا وتعمل معًا بطريقة ناجحة ومثمرة، ودون أن يُشكل أفرادها خطرًا على بعضهم بعضًا.

إن مَن يخترعون «شفرات» لعمل المجتمعات وتنظيمها لا يقلون أهمية عن كاسري شفرات القوانين الكبرى. لا غنى عن عمل هؤلاء وأولئك من أجل الخروج من «المتاهة» التي وجدنا أنفسنا فيها على ظهر هذا الكوكب، دون أن نعرف لذلك سببًا ولا معنى، ودون أن نعرف حتى أين نحن!

ثمَّة سمات مشتركة كثيرة تجمع «كاسري الشفرات» في الأزمنة والأماكن كافة. على أن السمة الأبرز بين مَن ينجحون في كسر شفرةٍ ما هي قدرتهم على إيجاد علاقة غير تقليدية بين شيئين: ظاهرتين، مادتين، فكرتين، وجهتي نظر. إن ما فعله «نيوتن» لم يكن أكثر من توجيه سؤال بسيط: لو أن التفاحة تسقط، فلماذا لا يسقط القمر أيضًا؟ من هذا السؤال نسج «نيوتن» علاقة بين عالمين لا يبدو أن شيئًا يربطهما: حركة الأجرام في السماء، وحركة الأجسام على الأرض. هو «كسر» - ربما - الشفرة الأخطر في قصتنا!

والحال أن التعامل مع الشفرات.. درجات.

الإنسان قد يستفيد من شيء دون أن يدرك كيف تعمل شفرته أو نظام تشغيله ودون أن يكسر هذه الشفرة. البشر عرفوا توليد السلالات كما رأيتِ قبل آلاف السنين من كشف «مندل» عن القوانين التي تحكم الوراثة. توليد طاقة حركة من تدفق الماء باستخدام الساقية يعتمد على ظاهرة الجاذبية، وهذا كان يحدث قبل ميلاد «نيوتن» بألفي عام.

ثمَّة حكاية مأثورة عن الشاعر الكبير أبي العلاء المعري (973م-1057م) تشير إلى هذا المعنى. كان لأبي العلاء صديق يُدعى أبا زكريا التبريزي، وكان فارسيًّا. وحضر قريب لهذا التبريزي لرؤيته ولم يكن التبريزي موجودًا. ولم يجد القريب القادم من بلاد فارس أمامه سوى المعري، فقال له إن لديه رسالة أراد إبلاغها لقريبه التبريزي، ولكنها رسالة شفهية بالفارسية. لم يكن المعري يعرف الفارسية، ولكنه استمع للرسالة بإنصات. كانت لديه ذاكرة حافظة استثنائية. وعندما عاد صديقه التبريزي من شأنه ألقى عليه المعري الرسالة دون أن يعرف حرفًا من الفارسية، فجعل الرجل يبكي حينًا ويضحك حينًا؛ لأنه فهم بالفعل ما تتضمنه الرسالة من أخبار!

لو كانت الحكاية حقيقية، فإن المعري هنا استخدم شفرة لا يعرف عنها شيئًا. ولكنه نجح في توظيفها لنقل الرسالة المطلوبة. هذا بالضبط ما نفعله طول الوقت، ومن قديم الأزل. نستخدم شفرات لا نعرف أسرارها لتساعدنا في تحسين حياتنا. إن استخدام شفرة معينة والاستفادة منها في زيادة فرص البقاء، يمثل مرحلة سابقة على كسرها، ومعرفة «مفتاحها». ولكن عندما تنجحين في كسر شفرة ما، فإن ذلك يمنحكِ إمكانيات أكبر كثيرًا للاستفادة منها والتحكم فيها. صحيح أننا قمنا بعملية التهجين منذ قديم الأزل، ولكن

الكشف عن قوانين الوراثة والـ «دي إن إيه» فتح لنا عالمًا جديدًا من الفرص والإمكانيات عبر التحكم في السلالات وتحقيق التقدم الطبي في مواجهة الأمراض عبر «الهندسة الوراثية».

وربما لاحظتِ أن أول ما شغل العلماء عند ظهور فيروس كورونا هو «فك شفرة» الـ «دي إن إيه» والـ «آر إن إيه» الخاص به، وتحليلها باستخدام برامج الكمبيوتر، بهدف العثور على أجزاء في هذه الشفرة يمكن استخدامها في شحذ الاستجابة المناعية للفيروس. هذا بالضبط ما فعلته «فايزر بايونتك» لإنتاج اللقاح المضاد لكورونا، والذي يعتمد على الشفرة الوراثية. إن كسر الشفرات ليس مجرد نشاط ذهني نقوم به، ولكنه الفارق فعليًّا بين الحياة والموت. لقد استطعنا مواجهة كورونا بطريقة مختلفة تمامًا عن مواجهة الإنفلونزا الإسبانية في 1918م التي تسببت في وفاة 50 مليونًا. وفيات كورونا أقل من ذلك بكثير. السبب الرئيسي هو أننا تمكنا من كسر شفرة الفيروس، وإنتاج شفرة مضادة. عبر التاريخ كان أغلب البشر يموتون بعد خمسة أسابيع، أو خمسة أشهر، أو خمس سنوات من ولادتهم. العمر المتوقع اليوم عند الميلاد هو 73 عامًا، وهو ضعف ما كان عليه منذ مائة عام. كسر الشفرات هو سبب مباشر في حياة المليارات من البشر اليوم على ظهر الكوكب.

إن كاسري الشفرات يظهرون غالبًا في المدن، حيث النشاط المتنوع، والفرص للتعرف على أفكار جديدة، وإجراء المقارنات، وربط الأشياء ببعضها. معنى ذلك أن فرصتنا في كسر الشفرات معدومة تقريبًا من دون ظهور المدن والمجتمعات المركبة التي تتيح التعلم الجماعي والتراكم في الخبرات وزيادة حجم المعلومات التي يتناقلها البشر عبر الأجيال. أي إن البطل الحقيقي في كسر أي شفرة هو المجتمع بكل سكانه وبخبراته المتراكمة عبر الزمن. «كاسر الشفرة» يولد في المجتمع، ويتعلم فيه، وينشأ على ثقافته. هو لا يعمل في فراغ، ولا يتلقى وحيًا سماويًّا كالأنبياء. ولكي يظهر عدد أكبر من كاسري الشفرات الذين يتمكنون من صب مواهبهم على شفرة معينة، فإن المجتمع لا بد أن يكون كبيرًا ومركبًا ومتنوعًا بما يكفي لاحتمال ظهورهم. الحل الوحيد لتوسيع حجم المجتمع، بإعاشة عدد أكبر من البشر، هو تجاوز القيد الأكبر في «اللعبة»، أي الحصول على مزيد من الطاقة. السبيل إلى ذلك هو التكنولوجيا..

التكنولوجيا هي ضرورة حتمية لبقاء أعداد أكبر من البشر على قيد الحياة. من دونها ما كان لكوكبنا أن يتحمل 8 مليارات إنسان على ظهره. ومن حسن الحظ أن التكنولوجيا ليست مثل الأشياء المادية. هي ليست موردًا ناضبًا كالبترول، ولا هي تُستهلك مع زيادة عدد السكان كما يحدث للموارد الأخرى، كالغذاء والمعادن مثلًا. العكس هو الصحيح. التكنولوجيا، لغرابة الأمر، تزدهر

وتنمو مع زيادة السكان. كلما كانت أعداد البشر أكبر فى مجتمع ما، تعاظمت فرص ظهور المبتكرين الذين يأتون بأفكار جديدة. وبعكس الموارد المادية، فإن التكنولوجيا لا تنقص عندما يتقاسمها البشر فيما بينهم. بل تنتشر التكنولوجيا بالنسخ والتقليد. ومن خصائص التكنولوجيا كذلك أنها تتوالد من رحم بعضها. عندما نخترع الخيط لحياكة الثياب، فإن أحدهم سوف يكتشف لاحقًا إمكانية استخدامه في صناعة شبكة لصيد السمك، وثالثًا سوف يرى فيه إمكانية لعمل خيمةٍ أو شراعٍ للمركب. فكرة واحدة تفتح آفاقًا بلا حدود للتكنولوجيا..

عندما نصل إلى طريقة جديدة لعمل شيء ما، مثل تنظيم الري، أو استخدام حيوانات الجر في حرث الأرض، أو تركيب حدوة للحصان.. فإن المجتمع يستطيع الحصول على طاقة أكبر من البيئة في صورة غذاء. بالتالي يزيد عدد سكانه، وترتفع احتمالية ظهور «كاسري الشفرات» بينهم. ولكن عند نقطة معينة، كان يحدث دائمًا أن تتزايد أعداد السكان على نحو يفوق قدرة الأرض على توفير الموارد. هنا تنشب الصراعات بين المجتمعات أو داخلها على الموارد المحدودة. أيضًا تمارس «الإنتروبيا» –أي الميل للفوضى الكامن في أي نظام- عملها في صورة تُشبه ما تفعله في الظواهر الفيزيائية، فتضرب المجتمعات ظواهر طبيعية مدمرة، مثل الجفاف والأوبئة وغيرها من الكوارث. هكذا تخرب المدن بعد عمرانها، ويتضاءل سكانها فتقل فرصة ظهور كاسري الشفرات، فتذبل المدن أكثر.. وقد تندثر إلى الأبد.

هذه الدورة العجيبة كشف عنها كاسر شفرات آخر هو عالم الاقتصاد الإنجليزي توماس مالتوس (1766م-1834م). نشر «مالتوس» مقالًا في عام 1798م عن السكان، محذرًا من أن أعداد البشر سوف تزيد دائمًا بصورة أكبر من قدرتنا على إطعام أنفسنا. هو رأى أيضًا أن المرض والمجاعة والحروب تمثل آليات طبيعية مصممة للحفاظ على حجم السكان ثابتًا. كانت توقعات «مالتوس» متشائمة، إذ لم يرَ طريقًا للخروج من هذه الدائرة الجهنمية.

على أن هذه التوقعات، ولحسن حظنا، لم تتحقق. الذي حدث، في العصر الحديث، أن معدل الابتكار أصبح يفوق معدل نمو السكان. تصاعد معدل كسر الشفرات واستخدامها خلال القرنين الأخيرين بصورة غير مسبوقة، وعلى نحو غيَّر مسار التاريخ البشري.

تلك هي «قواعد لعبتنا» إذن: نحن «مُبرمجون» للسعي من أجل البقاء. بقاؤنا، كبقاء كل شيءٍ حولنا في الكون، رهن بالحصول على الطاقة. لكي نحصل على الطاقة، لا بد أن نبني أشياء أكثر تركيبًا. الكيانات المعقدة ليست بالضرورة هي الأكبر حجمًا مثل النجوم، ولكنها تلك التي تحتوي على نظام فيه أجزاء كثيرة مرتبطة ببعضها بعضًا بعلاقات، وتؤدي وظائف مختلفة.. مثل

الخلية الحية، والمخ البشري، والمجتمع الإنساني. هذه الكيانات المركبة يمكنها الحصول على طاقة؛ لأنها تستطيع استخلاص معلومات من البيئة المحيطة، مثلما تفعل الخلية الحية بإيجاد مصادر الغذاء، ومثلما يفعل المخ البشري باكتشاف طريقة توليد النار لزيادة مصادر الطاقة.

ولكن هذه الكيانات المركبة لا يمكن أن تبقى للأبد. كل شيء معرض للفناء. نحن نكافح لبناء النظام في محيط من الفوضى التي تزحف على كل شيء بعناد لا يكل؛ لذلك فإننا، وبخلاف الكائنات الأخرى على الأرض، نحتاج لأن نفهم الشفرات التي تشغل الأشياء حولنا لكي نستفيد من هذه الأشياء ونستخرج منها المزيد من الطاقة. وفي بعض الأحيان نحتاج لاختراع «شفرات» تسهل علينا تبادل المعلومات وتخزينها من أجل البقاء. ولكي نكسر الشفرات ونخترع الشفرات لا بد أن نعمل معًا، وأن نعيش معًا في مجتمعات تضم شبكة واسعة من الأدمغة..

غير أن عيشنا معًا لم يكن أمرًا سهلًا بأي حال.. خذي حذرك، فأنتِ على وشك أن تطئي أرض الخوف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

والدي العزيز..

توقفت أمام ما جاء في رسالتك الأخيرة عن الواقع الذي يمكن أن يكون حلمًا. كثيرًا ما انتابني أنا أيضًا هذا الشعور، بل إنني قرأت مرة أن هناك احتمالًا ليس قليلًا بأن يكون وجودنا كله هو مجرد «لعبة محاكاة» صنعتها كائنات أرقى منَّا لديها قدرات كمبيوترية هائلة. وشاهدت على «يوتيوب» علماء مشاهير يقولون إنه ليس هناك ما ينفي هذا الاحتمال. لو كانت هذه الكائنات أذكى كثيرًا منَّا فسوف يستحيل علينا إدراك أننا في لعبة محاكاة، وأن كل ما حولنا وهم في وهم. لو قابلتُ صديقك «ديكارت» فسوف أخبره بأن مجرد التفكير والشك لا يعني بالضرورة أنه موجود، إذ ليس هناك ما يمنع أن يصنع برنامج المحاكاة هذا الوهم أيضًا.. وهم الوعي!

الوعي لغز محير بالفعل. بدأت الآن أُدرك أنه الشيء الذي يجعلني إنسانة، وهو - في الوقت نفسه - مصدر معاناتي؛ لأنه يعذبني بالقلق والتفكير في المستقبل باستمرار.

لو سلَّمت بما تقول بأننا أقمنا حضارتنا البشرية على أساس التواصل مع بعضنا بعضًا، وتبادل المعلومات والخبرات، وأن هذا ما جعلنا أذكى الكائنات، تظل هناك مشكلة: مَن قال إننا جنس متعاون أصلًا؟ ألم تسمع عن الحروب التي قتل فيها البشر بعضهم بعضًا عبر التاريخ؟ ألم تسمع عن الظلم.. ظلم البشر لبعضهم بعضًا، المستمر إلى يومنا؟ الفترة البسيطة التي قضيتها في هذا العالم تخبرني بأننا نهوى السيطرة على الآخرين، ونكره أن يتفوق علينا أي شخص. هذه هي الحقيقة التي ربما تكون مستمدة من قوانين البقاء والانتخاب الطبيعي التي تحدثت عنها في رسالتك الأولى. الذي يبقى ويستمر ليس الأكثر تعاونًا أو الأرق قلبًا، وإنما الأقوى والأشرس والأشد قسوة.

قناعتي أن عالمنا سوف ينتهي يومًا بسبب هذه المنافسات القاتلة بين البشر. على الأرض من القنابل النووية ما يكفي لتدميرها عدة مرات. بيننا عدد كافٍ من الأشرار والحمقى ممَّن لديهم الاستعداد للقيام بهذا الفعل. صدقني.. الحياة على هذا الكوكب سوف تنتهي كما يحدث في أفلام الرعب التي تتنبأ بنهاية العالم.

ليلى

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الرسالة الرابعة
أرض الخوف

«كان فيه زمان سحلية طول فرسخين

كهفين عيونها وخشمها بربخين

ماتت لكين الرعب لم عمره مات

مع إنه فات بدل التاريخ تاريخين!

عجبي»

صلاح جاهين

ابنتي العزيزة..

هل فكرتِ يومًا لماذا نحب أفلام الرعب؟

إنه طقس عجيب جدًّا هذا الذي نمارسه: ندلف إلى مكان مغلق، تطفأ فيه الأنوار، ليُعرض أمامنا شريط سينمائي يتضمن مشاهد تضطرنا أحيانًا إلى أن نخبئ وجوهنا بأيدينا، وننظر إلى الشاشة من بين أصابعنا من فرط الهلع. أفلام الرعب تحقق مكاسب تقدر بملياري دولار سنويًّا. لماذا ندفع نقودًا لكي نستمتع بالخوف؟!

ربما يخالجنا شعور بالارتياح الداخلي لأن ما يجري على الشاشة لا يحدث لنا في هذه اللحظة. نحن نشعر بالأمان لأننا لا نتعرض، كأبطال الفيلم، لتهديد من مصاصي الدماء، ولا يطاردنا قتلة متسلسلون. من المحتمل كذلك أن أفلام الرعب تستفز شيئًا دفينًا في أعمق أعماقنا. إنها تخاطب ذلك «الجزء الغاطس» من دماغنا البشري. الجزء الذي ما زال يعمل ويتفاعل وكأنه يواجه ذات الظروف التي عشناها كبشر لنحو 99.5% من زمن وجودنا على الأرض!

لقد عاشت فصيلتنا 300 ألف عام إلا قليلًا على جمع الثمار والصيد. حتى 10 آلاف عام مضت عاش الإنسان متنقلًا لا يعرف له مستقرًّا أو موطنًا. يتبع مطعمه ومشربه أنى كان. خلال هذه المسيرة الطويلة من حياة الترحال تشكلت غرائزنا التي ما زالت تصحبنا إلى اليوم. تكونت غرف وتجاويف داخل أدمغتنا، نحملها معنا ولا ندري عنها شيئًا. هذه الغرف المظلمة تتحكم في مساحة واسعة من سلوكنا واختياراتنا. أنتِ تشتهين الحلويات لأن الفواكه كانت نادرة أكثر من الخضراوات، وكان سلفكِ القديم جامع الثمار قلما يعثر على ثمرات تحتوي على السكر وهو مخزن للطاقة. هكذا زُرع فينا جميعًا منذ

ذاك الزمن البعيد جدًّا هذا الشعور باشتهاء السكريات والبحث عنها، ولهذا تكابدين في اتباع الحمية الغذائية!

عالم النفس النمساوي سيجموند فرويد (1856م-1939م) اكتشف بعض الأشياء المدهشة عن هذه الغرف التي تعود إلى عشرات الآلاف من السنين وأطلق عليها مُسمَّى «اللا وعي». في هذه الغرف تسكن، مثلًا، مخاوفنا الأولية من الحيوانات المفترسة والزواحف. من دون هذه المخاوف ما كان للإنسان أن يبقى وسط بيئة لم يكن هو أقوى الحيوانات فيها.

الخوف شعور كريه، ولكنه ما ساعدنا على البقاء. برغم انقضاء حياة الهرب من الحيوانات المفترسة والعيش على الجمع والالتقاط، ما زالت مخاوفنا القديمة تسكن أدمغتنا إلى اليوم. مثلًا؛ الخوف من الزواحف ما زال شائعًا بين البشر بصورة غريزية، برغم أننا قلما نتعرض لهجمات من الزواحف في المدن. ما زال الظلام أيضًا مصدر خوف كبير لنا لأن أغلب الهجمات المميتة التي كان أسلافنا الأوائل يتعرضون لها كانت تجري تحت ستار الليل. الظلام يبعث تلقائيًّا على الرهبة والخوف لسبب آخر مهم. إنه يحمل معه المجهول. أنتِ لا تعرفين بالضبط ما يحمله لكِ الظلام: ضبعًا أو عقربًا أو حيَّة سامة. عدم معرفتكِ هو سبب كافٍ بذاته للخوف. المجهول هو أخوف مخاوفنا.

الخوف يشبه «برنامج كمبيوتر» عتيق جدًّا زودتنا به الطبيعة لكي نحقق هدفنا الأول، الذي نشترك فيه مع الكائنات الحية الأخرى: الحفاظ على بقائنا، وتجنب الموت..

يعمل الدماغ البشري، كما عرفنا، كجهاز لمعالجة المعلومات التي يحصل عليها من البيئة، والتي تتدفق عليه باستمرار. أهم المعلومات على الإطلاق هي تلك التي تتعلق ببقائنا على قيد الحياة. ذلك هو، مثلًا، باعث اهتمامكِ الاستثنائي بمتابعة الأخبار المتعلقة بجائحة كورونا ومراقبة عداد الضحايا. لقد التقط دماغكِ أن الجائحة ربما تُشكل عند نقطةٍ ما تهديدًا على حياتك. من بين المعلومات التي تنهمر علينا يوميًّا، والتي نحصل عليها من الآخرين ومن وسائل الإعلام المختلفة، فإن ما يلفت نظرنا دائمًا هو تلك المعلومات المتعلقة بالبقاء. لا يهم كم طائرة هبطت آمنة في مطار الوصول، ما يدق جرس الإنذار لدينا هو خبر الطائرة التي سقطت. وسائل الإعلام تعرف هذا، ولذلك فهي تحرص على إمدادنا لحظيًّا بأخبار الكوارث والفواجع!

المعلومات التي تتلقاها أدمغتنا تمر على مصفاة مهمة في أدمغتنا اسمها «اللوزة الدماغية». هي جزء تطور في وقت قديم جدًّا من تطور المخ، ويقع على الخط الفاصل بين الأذن والعين. مهمة اللوزة الدماغية هي تحديد الخطر، واتخاذ قرار لحظي حياله.. مثلًا: هل نواجه هذا الحيوان الذي يهاجمنا،

أم نولي الأدبار؟ اللوزة هي المكان المسئول عن انفعالات الخوف، وهي التي تتحكم في قراراتنا وقت الخطر. الانفعالات هي قرارات سريعة تُتخذ في مستويات أدنى من الدماغ، إذ لا يمكنكِ الاستجابة لحالة طارئة بشكل عقلاني يختار بين بدائل. في لحظة الخطر، تتسع حدقة العين لترصد التهديد، ويدق القلب بوتيرة أسرع ليتدفق الدم بصورة أكبر للعضلات. تقوم مناطق الدماغ الأدنى والأقدم - التي نشترك فيها مع الزواحف - بعمل تقييم سريع للموقف، وتتخذ القرار من دون إذن المستوى الأعلى. لهذا تُغلَق عيناكِ تلقائيًّا، ومن دونِ انتظار قرارٍ منك، إن تعرضت لخطر دخول شيء فيها.

وبرغم قسوة الطبيعة علينا وما حملته لنا من أسباب مختلفة للخوف، إلا أن ثمَّة نوعًا آخر من المخاوف خلقناه لأنفسنا بأنفسنا: خوفنا من بعضنا بعضًا!

السبب – أيضًا - كان كامنًا في انعدام اليقين بشأن ما يمكن أن يفعله البشر بالبشر..

الخوف من الآخرين

الوضع الذي يواجهنا اليوم، في وقت جائحة كورونا التي حملتنا على تبادل هذه الرسائل، هو ذاته الذي واجه أسلافنا الصيادين وجامعي الثمار لعشرات الآلاف من السنين: احتمال الخطر المميت الكامن في بشر آخرين!

في حالة الوباء الخوف الأكبر هو العدوى التي قد يحملها آخرون. في حالة أسلافنا الأوائل كان للخوف سبب آخر..

لنعُد، أنتِ وأنا، إلى زمن صاحبنا القديم الذي عاش صيادًا، جامعًا للثمار. لنتصور أننا في مكانٍ ما بسافانا شرق إفريقيا الشاسعة. الزمن: منذ 50 ألف سنة مضت. نحن منشغلان في أكل بعض ثمار التين. تلتقط آذاننا صوتًا لبشرٍ قادمين. هؤلاء ليسوا من جماعتنا. جماعتنا صغيرة للغاية لا تزيد على 50 شخصًا. هذا هو كل مجتمعنا الذي نعيش في كنفه. نحن نعرف أعضاءه فردًا فردًا؛ لأننا نعيش في الواقع كأسرة كبيرة ممتدة. هذان الاثنان اللذان وقع بصرنا عليهما هما غريبان عن الجماعة. علينا أن نختبئ فورًا. سوف نتحرك بسرعة خلف صخرة. لنرقد هنا، نراقب الموقف ونُقيِّمه..

مَن هذان الغريبان؟ هما رجل وطفل صغير. يحمل الطفل حجرًا، والرجل أداة ما..غالبًا للصيد. هما يتضاحكان بصوتٍ عالٍ، ولكن لا نستطيع أن نميز كلامهما. هل تمكنا من رؤيتنا؟ هل هما قادمان من أجل الهجوم علينا؟ ولكن لماذا يفعلان ذلك؟ ماذا نفعل نحن، أنتِ وأنا؟

الآن.. هذه اللحظة مهمة للغاية؛ لأنها ستكشف لكِ عن الأصل العميق للنظام الاجتماعي الذي نعيش في ظله إلى اليوم..

سنفكر، أنا وأنت، كالآتي: هذان الشخصان قد يُضمران الشر لنا. علينا أن نتحسب منهما. ولكن لماذا نفكر على هذا النحو؟ ربما كانا مُسالمين. ربما لو خرجنا من وراء الصخرة معلنين عن أنفسنا في سلام، لغدونا جميعًا أصدقاء. أنتِ تلعبين مع الصبي، وأنا أتواصل مع الرجل بصورة ودية ومسالمة. ربما نستطيع التعاون على نحوٍ ما، ونخرج جميعًا سالمين من هذا الموقف. لِمَ لا؟

ولكن ما الذي يضمن؟ كيف نتأكد من صحة افتراضاتنا تلك؟ حتى لو افترضنا أن التعاون معهما أفضل من المواجهة، وحتى لو افترضنا أن الغريبين هما شخصان طيبان يمكن التفاهم معهما، فكيف نتأكد من أنهما لا يريانا نحن كتهديدٍ لهما؟

إن الدماغ البشري لديه هذه القدرة الفذة على قراءة أفكار الآخرين (سأحدثكِ بعد قليل عن خصائص تلك القدرة العجيبة وأهميتها في قصتنا). نحن نستطيع أن نضع أنفسنا مكان الغريبين، ونتصور كيف يفكران – بدورهما - في هذا الموقف المعقد..

هما سيُجريان نفس الحسابات التي أجريناها، أنا وأنت، في اللحظة التي يقع بصرهما علينا. لا بد أنهما أيضًا في حالة شك مثلنا. هما قد يفترضان أننا نُضمر لهما الشر. أننا نمثل تهديدًا عليهما. إليكِ هذه القاعدة البسيطة التي لا أشك في أن أسلافنا أدركوا كنهها منذ آلاف السنين: أي شخص يراكِ كتهديد له، لا بد أن تعتبريه – بالضرورة - مصدر تهديدٍ لكِ. لماذا؟ لأنه سيحاول التخلص منكِ بصورةٍ أو بأخرى. هذا هو قانون البرية. الحل المنطقي الوحيد أن نُبادر إلى الهجوم. لا بد أن نسبقهما قبل أن يباغتاننا!

هذا هو الوضع الذي تصوره الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز (1588م-1679م) في كتابه الأشهر «ليفياثان» الذي يُشير عنوانه إلى وحش بحري أسطوري ورد ذكره في العهد القديم. عاش «هوبز» في فترة الحرب الأهلية الإنجليزية في القرن السابع عشر؛ لذلك انطبع في تفكيره الخوف الدائم من انحدار المجتمع إلى العنف.. عنف الجميع ضد الجميع. اعتبر «هوبز» أن العاطفة الأقوى على الإطلاق التي تحرك كل إنسان هي الخوف من الموت بشكل عنيف (أي أن يموت على يد شخصٍ آخر). البشر تنافسيون بطبعهم كما ذكرتِ في كلامكِ. يحبون التفوق على الآخرين والتسيد عليهم، لهذا يبدو العنف دائمًا كخيار أو احتمال قائم في أي اتصال بينهم. من ناحية أخرى، فإن الناس - كما لاحظ «هوبز» - ضعاف ومعرضون للخطر بصورة تدعو للشفقة!

الجمجمة عضو صلد تطور على هذا النحو لصيانة الدماغ بداخله. غير أن الأمر لا يتطلب أكثر من حجر لكي تتهشم هذه الجمجمة الصلدة بضربةٍ قاتلة.

القتل، في واقع الأمر، ليس صعبًا. حتى أشد الناس بأسًا وأقواهم جسدًا عُرضة للقتل. ألا يذهب الأقوياء ذوو الشكيمة والبأس للنوم في وقتٍ ما؟ ألا يمكن أن يتربص بهم عدو، مهما كان ضعيفًا، ويفتك بهم وهم نيام؟ ألا يمكن أيضًا أن يتعرض الإنسان، مهما كان قويًّا، للطعن في ظهره غيلة، وعلى حين غرَّة؟ في «العهد القديم» ما يُشير إلى أن «قابيل» قتل أخاه «هابيل» على هذا النحو.

«هوبز» تصور أن وضع البشر في حالة الطبيعة الأولى، وقبل ظهور المجتمعات، سوف ينحدر بالضرورة إلى حالة عنف «الجميع ضد الجميع». هو لا يقول إن ذلك راجع لطبيعة عنيفة متأصلة فينا. المشكلة - كما ظهر من موقفنا، أنا وأنت، في السافانا - تتلخص ببساطة في الشك. نحن لا نستطيع أن نثق في الآخرين، ولا في نواياهم.. لأننا، ببساطة، نعرف أنهم قد يفكرون مثلنا!

هذا الموقف المعقد يتكرر في عالمنا المعاصر بصورٍ مختلفة. على سبيل المثال، قد تتصورين، كما ذكرتِ في رسالتك، أن السلاح النووي هو دليل ساطع على الحماقة البشرية. التفكير المنطقي لا بد أن يدفع الدول للتخلي عن هذا السلاح. فضلًا عن آثاره التدميرية، فإنه سلاح مكلف، خاصة وأنه على الأغلب لن يُستخدم. الأولى أن تُنفق الدول الأموال على ما ينفع الناس ويُسعدهم، بدلًا من هذه القنابل المكدسة لدمار العالم. أغلب الظن أن هذا التفكير قد ساور قادة القوتين النوويتين الأعظم بعد الحرب العالمية الثانية؛ الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، واللتين دخلتا في منافسة ضارية لعقود في مراكمة أعداد أكبر من القنابل النووية وابتداع وسائل إيصالها للعدو. هو يبدو تفكيرًا منطقيًّا، تمامًا كحساباتنا أول الأمر في السافانا. لا شك أنهم اصطدموا أيضًا بنفس المشكلة: الشك في نوايا الطرف الآخر!

سيفكر الأمريكيون على هذا النحو: لو أننا تخلينا عن السلاح النووي، وتخلى عنه الخصم السوفيتي فهذا وضع جيد. ولكن لو أننا تخلينا عن السلاح، ولم يتخلَّ عنه الطرف الآخر، فإننا نعرض أنفسنا للفناء أو للخضوع لإرادة الآخرين. من ناحية ثالثة: لو احتفظنا بالسلاح النووي واحتفظ به الطرف الآخر، يتحقق توازن يردع كلينا عن البدء بالهجوم. ولو احتفظنا بالسلاح النووي وتخلى عنه الطرف الآخر فقد صارت لنا اليد العليا. النتيجة المنطقية: لأننا لا نستطيع «التيقن» من نوايا الطرف الآخر، فعلينا أن نحتفظ بالسلاح النووي في كل الأحوال!

الحل الذي اقترحه «هوبز» لمعضلة انعدام شعور البشر بالأمن في عالم يعيشون فيه مع بشر آخرين هو أن يتخلى الناس عن حريتهم مقابل الحفاظ على أمنهم. الأمن هو سلعة لا تُقدر بثمن لدى البشر. من أجل الحصول على

هذه السلعة الغالية فإن الناس يتنازلون عن السُّلطة لشخص يمنحونه، بمحض إرادتهم، حقًّا حصريًّا في احتكار استخدام العنف في الجماعة. هكذا يتخلصون من شكهم المقيم في بعضهم بعضًا، ويستطيعون النوم في أمان.

بصورة أو بأخرى، نحن أيضًا نفعل هذا إلى اليوم. نتنازل عن حق استخدام العنف لجهة واحدة، هي الدولة التي تتحكم في أدوات العنف (السلاح)، وتنظم استخدامها من خلال الشرطة والجيش.

تصور «هوبز» أن السُّلطة في المجتمعات لا بد أن تكون قد نشأت على هذا النحو. أصل السُّلطة يتعلق، إلى حد بعيد، بالعنف. بخوفنا من عنفٍ قد يمارسه الآخرون ضدنا، وشكنا المزمن في نواياهم. ما فعله «هوبز» هو الكشف عن العنف الكامن في أي تنظيم اجتماعي، من الجماعات الصغيرة في العصر الحجري القديم، إلى المدن والدول المليونية اليوم. لذلك ينضم «هوبز» بجدارة إلى طائفة كاسري الشفرات العظام. الشفرة التي كسرها ليست شفرة طبيعية كتلك التي كسرها «نيوتن» أو «داروين»، وإنما «شفرة اجتماعية»، كما سنرى بعد قليل.

والحال أن العنف لصيق بظاهرة السُّلطة إلى يومنا هذا. لا تحتاج السُّلطة لممارسة العنف طول الوقت بالطبع. مجرد وجود احتمال لاستخدام العنف يُعد كافيًا لتحقيق قدرٍ مناسبٍ من الردع في المجتمع، وبحيث لا نحتاج أنا وأنتِ لأن نشعر بالخوف من نوايا غريبين قادمين من بعيد. في زماننا المعاصر، لا تخالف الناس القانون لأسباب كثيرة، على أن السبب الأهم يكمُن في وجود الشرطة. رجال الشرطة هم جماعة منظمة، وترتدي زيًّا موحدًا نستطيع تمييزه بسهولة، ولديها حق في استخدام العنف لحمايتنا جميعًا. إنه تنظيم تشترك فيه المجتمعات الإنسانية على اختلاف درجات تقدمها وتحضرها. السبب أن نفوس البشر تنطوي على الشكوك نفسها في الآخرين والمخاوف إزاءهم، سواء كانوا في الدنمارك أو الصومال!

في روايته «ملحمة الحرافيش» ابتدع نجيب محفوظ عالمًا من الفتوات الذين يمثلون عنوان السُّلطة في الحارة المصرية. ما الموهبة الأساسية التي تجعل من الفتوة فتوة؟ إنها القوة ولا شيء غيرها. الفتوة هو السُّلطة. أما الحرافيش، أي عوام الناس، فهم يحتاجون إلى حمايته. أصل السُّلطة هو العنف والقوة.

ولكن هل تتأسس مجتمعاتنا على العنف وحده؟ هل ما يربطنا معًا هو الخوف من بعضنا بعضًا ولا شيء آخر؟ الحقيقة أن التعاطف، وليس الخوف أو العنف، كان البطل الحقيقي وراء كل إنجازٍ حققناه في رحلتنا. برغم كونه احتمالًا دائمًا في علاقاتنا ببعضنا بعضًا، إلا أن العنف لا يُخرج أفضل ما فينا.

الحضارة ليست سوى إيجاد طرق مبتكرة من أجل تحقيق التعاطف والتعاون بين غرباء لا يربطهم أي شيء.

القاعدة الذهبية

آدم سميث (1723م-1790م) الاقتصادي البريطاني الذي يُلقب بأبي علم الاقتصاد، كان في الأساس أستاذًا في فلسفة الأخلاق. هو حاول سبر أغوار المشاعر الأخلاقية لدى البشر. ضرب مثلًا افتراضيًّا عن زلزال يقع في الصين، ويموت بسببه الملايين. رأى «سميث» أن البريطاني إن قرأ عن هذا الخبر فسيشعر بالألم والحزن لمصير هؤلاء، ولكنه سرعان ما يتناسى الموضوع لأنه لا يعنيه كثيرًا. ربما لو أن هذا الشخص نفسه عانى ألمًا في إصبعه لكان ذلك سببًا أكبر في غمِّه وحزنه. إصبع متألمة مقابل ملايين الأرواح؟! نعم، ولكن الإصبع هي إصبع الشخص نفسه، بينما ملايين الأرواح في عالم بعيد.

فكرة «سميث» ليست بعيدة عن الواقع. لقد تابعنا هجوم وباء كورونا على مجتمعات أخرى على الشاشات. شعرنا بالتعاطف – مثلًا - مع الإيطاليين عندما تساقط منهم الآلاف يوميًّا في أولى الجولات القاتلة للوباء. ولكننا تابعنا حياتنا العادية بعدها. متى شعرنا بالوباء حقًّا؟ عندما بدأ يظهر في بلادنا. بل متى شعرنا بخطره الماثل يقترب منَّا؟ عندما طرق أبوابًا لأناسٍ نعرفهم، ثم عندما أُصبنا به شخصيًّا، أنتِ وأنا!

هذا يقودنا إلى حقيقة بسيطة، ولكنها مهمة في فهم الطبيعة البشرية. نحن نرى العالم من زاوية محددة عجيبة للغاية: نرى أنفسنا في مركز الكون! السبب وراء ذلك بسيط أيضًا: نحن نعيش مع أنفسنا طول الوقت. نخبر مشاعرنا ونعايش آلامنا صباح مساء. نتصور أن هذه المشاعر والآلام والطموحات تقبع في مركز العالم. نحن ذاتيون إلى أبعد الحدود. نعيش داخل قصتنا، ونتصور أن العالم يدور حولها؛ لذلك فإن التعاطف مع الآخرين صعب علينا. أول درجات التعاطف أن نشعر بمشاعر الآخر. أن نغادر «مركزية ذواتنا». أن نخرج من أنفسنا. ما أشق ذلك علينا!

مع ذلك، فأنت تعرفين أننا لسنا دائمًا أنانيين. نحن نحسن إلى الآخرين، ونساعد بعضنا بعضًا. بل إن تقديم يد العون للآخرين يمنحنا شعورًا جيدًا. «عندما أقوم بفعل طيب، أشعر بشعورٍ طيب». هكذا قال الرئيس الأمريكي أبراهام لنكولن (1809م-1865م) موجزًا هذا الشعور الذي لا شك أنكِ خبرته أيضًا عندما صنعتِ معروفًا لشخصٍ دون انتظار المقابل. ثمَّة دلائل على أن هذا السلوك الخيِّر تجاه الآخرين يضرب بجذوره في أعمق أعماق ماضينا السحيق..

لنعُد أنا وأنتِ إلى السافانا. ها نحن قد عبرنا الموقف الصعب مع الغريبين. اخترنا التسلل بعيدًا بهدوء تجنبًا لموقف غير محمود العواقب. عدنا بعدها إلى جماعتنا الصغيرة. لدينا قصة نتسلى بها في جلسة المساء حول النار. جماعتنا أغلبها يرتبط بصلة القرابة. القرابة هي الرابطة الإنسانية الأقوى في قصتنا الكبيرة، وهي حافز مهم على التعاطف والتراحم. أهم الروابط في حياتنا على الإطلاق هي الرابطة مع الأم. السبب وراء ذلك يعود لمبادلة عجيبة في تاريخنا التطوري البعيد جدًّا..

منذ نحو 5 أو 6 ملايين سنة، هبط أسلافنا البعيدون جدًّا من القردة العليا من الأشجار إلى حشائش السافانا بحثًا عن الطعام. كان هؤلاء مختلفين عن كل القردة الأخرى، إذ طوروا ميزة مهمة للغاية للبقاء في الحشائش المفتوحة. بدلًا من السير على أربع، صارت هذه الأنواع من القردة تسير بانتصاب على قدمين. هكذا ترى لأبعد في الحشائش فترصد المخاطر والفرائس، وكذلك تتحرر اليدان لفعل أشياء أخرى فيما بعد (كصناعة الأدوات مثلًا، وأيضًا لاستخدامها في الإشارة لتبادل المعلومات). المشي بانتصاب على قدمين يميز جنس البشر عن كل الثدييات الأخرى تقريبًا. الكنغر يفعل الشيء ذاته، ولكن لاحظي أنه لا يمشي بل يقفز.

ولكي نتمكن من المشي على قدمين باتزان، كان لا بد أن يضيق الحوض وقناة الولادة لدى الإناث. المشكلة أن قناة الولادة الضيقة تجعل من الصعب خروج الطفل البشري ذي الدماغ الكبير، وهذه أيضًا ميزة مهمة للبشر. من أجل الاحتفاظ بالميزتين معًا، كان «الحل التطوري» هو الولادة المبكرة للطفل المصحوبة بالألم الكبير للأم بسبب هذا الدماغ الكبير. ولأنه يخرج إلى الحياة مبكرًا غير مكتمل النمو، فإن الوليد البشري يحتاج لرعاية لسنوات. هذه الرعاية تقوم بها الأم في الأساس، وهو ما تفعله إناث كثير من الحيوانات أيضًا، وإن كان لفترة زمنية أقل. غير أن ما يميز الجماعة البشرية هو أن الأم لا تقوم غالبًا بمهمة رعاية الطفل وحدها. قدر السعرات الحرارية لديها لا يكفي لتغذية الطفل ورعايته. هي تحتاج لمساعدة آخرين في الحصول على غذائها في فترة الحضانة. تستعين الأم بأخريات في الجماعة مثل أمها وقريباتها، فضلًا عن الأب، في رعاية الأبناء. البشر وحدهم تقريبًا هم مَن يعرفون مفهوم الجد والجدة. لا تعرف الأغلبية الكاسحة من الحيوانات أجدادهم.

تفترض هذه النظرية أن هذا النظام العائلي هو الأصل البعيد.. البعيد جدًّا.. لسلوك التعاون والتعاطف الذي نشأ بين أعضاء الجماعة البشرية.

الأساس الأقوى لعلاقات التعاطف داخل جماعتنا يعتمد إذن على التقارب الجيني. أنا وأنت نشترك في نصف الجينات. أنتِ وأخوكِ تشتركان كذلك في

نصف الجينات. هذا سبب قوي للتعاطف بيننا. نحن نظهر سلوكًا تعاونيًّا أكبر مع الآخرين بدرجة تتناسب مع الجينات المشتركة. مثلًا: نحن نشترك في 25% من الجينات مع أولاد عمومتنا. المثل المصري يجسد هذه المعادلة بلا مواربة: «أنا وأخويا على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب». القبيلة، تعود بنسبها - الحقيقي أو المتخيل - إلى سلف واحد مشترك. هذا ما يسهل التعاون بين أفرادها لأنهم يتصورون أنفسهم كأقارب، سواء كان ذلك حقيقة أو وهمًا مشتركًا.

على أن علاقتنا داخل الجماعة البشرية تمتد إلى ما هو أبعد من الجينات. نحن نكوِّن صداقات مع أشخاص داخل الجماعة، تمامًا كما تفعلين اليوم في المدرسة أو في الجامعة، إن قررتِ مواصلة دراستك! بعض الحيوانات لها «معارف» من بين جماعاتها، لكن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يعرف مفهوم الصداقة. مستوى التعاون - حتى بين الغرباء - في الجماعات البشرية، لا مثيل له في أي جماعة حيوانية أخرى، بما في ذلك الشمبانزي الأقرب إلينا.

لو تأملتِ الأمر لوجدتِ أن التعاون إستراتيجية مثالية للبقاء. تذكرين ما يحدث عندما تصادف «ماكينات البقاء» بعضها بعضًا في الطبيعة، فيقع الصراع. أحد الحلول لمواجهة هذا الوضع هو أن تتحد هذه «الماكينات» في كيانات أكبر. لو أنكِ واحدة من هذه الماكينات فلن تكون أمامكِ فرصة للبقاء سوى أن تلعبي في فريق. اللعب في فريق يقتضي التعاون. هذا ما تفعله الخلايا التي تتجمع داخل الجسد الواحد، والنحل الذي يتجمع في خلية النحل، وكذلك البشر في جماعاتهم.

العلاقات التعاونية بين البشر لها أساس بسيط جدًّا كشف عنه صديقنا آدم سميث خلال بحثه في مجال علم الاقتصاد. إليكِ هذه الفقرة التي تُعد الأشهر في كتابه «ثروة الأمم» الصادر في عام 1776م: «نحن لا نحصل على عشائنا بسبب إحسان الجزار أو الخباز، بل بواقع سعي كل منهم لمصلحته الذاتية. نحن لا ننشد فيهم الإنسانية، بل الأنانية. لا نتكلم معهم أبدًا عن حاجاتنا الضرورية، بل عن المزايا التي يحصلون هم عليها».

تلك هي فكرة آدم سميث الكبرى. هي تتعلق أساسًا بفهمه للاقتصاد. السوق في رأيه لا تحتاج إلى منظم أو مدير عام، بل هي تنظم نفسها ذاتيًّا إن سعى كل شخص لمصلحته. المدهش أن هذا المبدأ يصلح كمنطلق للعلاقات الإنسانية جميعًا. أنتِ وأنا نعرف ذلك جيدًا من خبراتنا مع الآخرين في الحياة. أبسط طريقة لكي تحملي شخصًا على أن يقوم بفعل معين هي أن تكون له مصلحة ما في هذا الفعل. من أعمق الأفكار التي أتى بها «سميث» هي أن النظر لمصلحتنا الذاتية ليس هو والأنانية سواء. المصلحة الذاتية تعني أن نهتم بشئوننا. فكري في الأمر: إذا لم نهتم بشئوننا، مَن يهتم بها؟!

عندما تستقلين طائرة، تذكري أن تتنبهي إلى الفيلم الإرشادي الذي يُذاع قبل الإقلاع مباشرة عن كيفية التصرف في حالة وقوع حادثة تضطر الركاب للقفز من الطائرة في الماء. في وضع كهذا تكون المشكلة الرئيسية هي تراجع الأكسجين بما قد يتسبب في الاختناق. يقول لنا الفيلم الإرشادي: «ضع قناع الأكسجين على وجهك أولًا قبل أن تتوجه لمساعدة الآخرين». هذا منطقي، إذ كيف تساعد أي أحد قبل أن تتمكن من مساعدة نفسك. ماذا يحدث إن لم يلتزم المرء بهذا الإرشاد البسيط في وقت الكارثة؟ سيختنق قبل أن يتمكن من مساعدة أي أحد!

إن «سميث» يعطينا درسًا وثيق الصلة بحياتنا: إذا أردتِ الحصول على شيءٍ من الآخرين، لا بد أن تفعلي - في المقابل - شيئًا لهم. «واحدة بواحدة». الخباز يريد نقودنا؛ لذا يجتهد في عمل الخبز لكي يحصل على النقود. نحن في المقابل، نريد الخبز. علينا أن نحصل على النقود من طريق آخر؛ أي أن نقوم بعمل شيء يحتاجه شخص في المجتمع (ليس بالضرورة الخباز). المسألة لا تتعلق بعاطفة الخباز أو بإحسانه إلينا. المبادلة هي أساس علاقاتنا بمَن حولنا. التعاون، في حقيقة الأمر، هو سبيل آخر لتحقيق مصالحنا وزيادة فرصنا في البقاء.

ربما يوفر هذا المبدأ مخرجًا مناسبًا من المأزق الخطير الذي صادفنا مع الغريبين في وسط السافانا. لو أننا استطعنا أن نصل معهما لصيغة معينة «للمبادلة» لما انحدر بنا الأمر إلى التوجس والصراع والخوف المتبادل. غير أنه من الصعب أن نصل إلى هذه الصيغة مع الغريبين لأنهما – ببساطة - غريبان. نحن لم نجربهما، وهما أيضًا لا يعرفان عنَّا شيئًا. ها هنا تكمُن صعوبة تطبيق مبدأ المبادلة أو المعاملة بالمثل.

المبادلة تحتاج إلى تجريب للأشخاص واختبارهم عبر مدة زمنية ممتدة. هذا بالضبط ما نفعله في الجماعة. نختبر الناس بحثًا عن أصدقاء يمكن الاعتماد عليهم في إجراء «مبادلات» ناجحة. سبيلنا إلى ذلك هو أن نكرر لعبة «واحدة بواحدة» مع الآخرين.. ونرى.

الحياة، كما تعلمين، حافلة بالمشكلات المنغصة والمآزق غير المتوقعة. نحن نحتاج عون الآخرين في أوقات كثيرة. هذا هو سبب انضمامنا للجماعة من الأصل. وكما هو حالنا اليوم وفي كل زمان، نحن نبحث عن بشر آخرين يمكن الركون إليهم في وقت الشدة. الاختبار المتكرر هو المحك الحقيقي للصداقة. يصف المثل العامي المصري هذا الوضع بدقة في صورة محاورة جدلية:

«- تعرف فلان؟

- أعرفه.

- عاشرته؟

- لأ.

- يبقى ما تعرفوش!»

المعاشرة هنا تعني طول التجربة. أي إنك جربت «فلانًا» هذا في أكثر من موقف فوجدته جديرًا بالـ «مبادلة» معه. هو يرد الواحدة بواحدة. عندما تكررين «اللعبة» أكثر من مرة مع الشخص نفسه، تظهر لكِ «معادن» البشر بصورة أوضح. وعندما تطبق الجماعة كلها «اللعبة» نفسها يولد بالتدريج مبدأ أخلاقي شامل. من الجيد أن يُشاع عن المرء أنه ممَّن يردون الجميل بمثله. هذا ما يُدعى بحسن السمعة وطيب الذكر. في المقابل، فإن مَن يُعرف عنه النكران والنكوص عن رد المعروف يُنظر إليه بصورة سلبية من الجماعة. بعبارةٍ أخرى: يفقد سمعته. يفقد فرصته في الحصول على معونة الآخرين عندما يحتاج إليها. مع شيوع هذا المبدأ، يسعى الأفراد لأن يصنفوا تحت الفئة الأولى لا الثانية.

هكذا تترسخ قاعدة «واحدة بواحدة»، أو المعاملة بالمثل، كمبدأ أخلاقي شامل للجماعة، أو كـ«شفرة» متفق عليها. تحت هذه المظلة من الطمأنينة والثقة، يبادر الأفراد، أو بعضهم على الأقل، إلى عمل المعروف من دون انتظار العائد بشكل لحظي. لا يضيرهم إن نالوا الجزاء على حسن صنيعهم من ذات الشخص الذي أدوا إليه الجميل. الانتماء للجماعة يضمن لهم، بصورة أو بأخرى، أن يحصلوا على المساعدة من شخصٍ ما وقتما يحتاجون لها. في الحالة المثالية يمكن أن يتطور «واحدة بواحدة» إلى «اعمل الخير وارميه في البحر»، على حد تعبير المثل العامي المصري الشهير. وستلاحظين أنه كلما كان المجتمع أكثر تركيبًا وتقدمًا، تمكن من إيجاد طرق مبتكرة تشجع الناس على التعاون مع الغرباء والعمل معهم. الأديان والقوانين ونظام الدولة.. كلها مؤسسات تهدف إلى وضع أعراف وقواعد للسلوك. هي تضع نظامًا من العقوبات والمكافآت لتمييز الأشخاص الجديرين بالثقة، وبحيث يمكن للناس التعاون والثقة في بعضهم بعضًا.

مثلًا: في المجتمعات الحديثة نحن ندفع جزءًا من دخلنا كضرائب، يستفيد منها أناس غرباء عنَّا لا نعرف عنهم شيئًا ولن نقابلهم في حياتنا. من بين هؤلاء المستفيدين مثلًا، الشيوخ وكبار السن. «التبادلية» تفرض علينا، عندما نكون في سن الشباب، أن نعطي جزءًا من ناتج عملنا لمساعدة وعلاج المواطنين الأكبر سنًّا؛ لأننا نعلم أننا سنكون في مكانهم بعد سنوات. المجتمعات الحديثة تقوم، في الواقع، على شبكة معقدة من الخدمات والتضحيات المتبادلة بين

أعضائها. وكلما تقدم المجتمع أكثر، ارتفع منسوب ثقة الناس في هذه الشبكة التي تربط أعضاءه، وصاروا أكثر استعدادًا للتضحية من أجل الآخرين.

والحقيقة أن البشر مجهزون للتعاون والثقة في بعضهم بعضًا، بأكثر من الكائنات الأخرى. لو تأملتِ عيوننا لوجدتِ أن بياضها يبرز حركة حدقة العين بوضوح. هذا لا يتوفر للحيوانات (انظري إلى عيون القطط، لن تجدي أي بياض!) نحن نستطيع، بالنظر في عيون الآخرين، أن نتعرف على المكان الذي يوجهون إليه أبصارهم، فنطمئن إلى نواياهم تجاهنا. ربما ساعدنا هذا بصورة أكبر، ومنذ زمن الترحال في الغابات والسافانا، على الثقة في الغرباء وخفف إلى حدٍّ ما من خوفنا منهم، وشجعنا على أن نجرب معهم «مبدأ المبادلة».

إن مبدأ «واحدة بواحدة»، بتنويعات مختلفة، هو أيضًا ركيزة مهمة للعقائد الدينية والنظم الأخلاقية العالمية. من فرط أهمية المبدأ أطلق عليه البعض «القاعدة الذهبية» في المعاملات بين الناس. من تعاليم «كونفوشيوس» الذي عاش في الصين حوالي عام 500 ق.م، والذي سآتي على ذكره في رسائلي لكِ: «لا تعامل الناس بما لا تحب أن يُعاملك به الناس». هذا - كما تلاحظين - هو مبدأ المعاملة بالمثل.. معكوسًا!

وفي الدين اليهودي، ثمَّة حكاية مذكورة في «التلمود» عن شخص كان يرغب في التحول إلى اليهودية. ذهب إلى الحاخام الأكبر «هيليل» - عاش في القرن الأول قبل الميلاد - بسؤال ينطوي على تحدٍّ: هل يمكن أن تشرح لي التوراة كلها وأنا واقف على قدم واحدة؟ لم يتهرب «هيليل»، المعروف بفهمه المتفتح للتوراة، بل قال للسائل: «ما تكرهه لنفسك، لا تفعله لجارك. هذه هي التوراة كلها، والباقي شروح»! إنه ذات المبدأ يتكرر كأساس للأخلاق النابعة من الدين. مع الوقت، نرى المبدأ يظهر في النصوص المقدسة للأديان التوحيدية بصورة أكثر إيثارية وغيرية. على سبيل المثال، تجدين المبدأ ذاته مبسوطًا في القرآن الكريم في لغة استنكارية لمَن لا يعمل به: «وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان»؟! وفي حديث للرسول محمد ( ): «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». أما السيد المسيح فيقول: «فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم، افعلوا هكذا أنتم أيضًا بهم»، بل هو يطالبنا بالإيثار الكامل حتى لمَن لا يبادلوننا واحدة بواحدة: «أحبوا أعداءكم.. باركوا لاعنيكم.. أحسنوا إلى مبغضيكم».

«واحدة بواحدة» يبرز مبدأ محركًا لعلاقات وظواهر كثيرة حولنا. ممارسة الأضحية، وهي ممارسة قديمة في حضارات كثيرة، انعكاس لـ «واحدة بواحدة». أنتِ تعطين الإله شيئًا في مقابل الحصول على رضاه أو تجنب غضبه. تعطينه – مثلًا - جزءًا من المحصول الزراعي متضرعة لأن يحفظ لكِ باقي المحصول من هجمات الآفات أو الجراد أو الجفاف. يمكن أن يتطور

الأمر - كما الحال في حضارات أمريكا ما قبل كولومبوس، الأنكا والأزتيك - إلى التضحية بالبشر، استجلابًا لرضاء إله الشمس التي لا يتجدد ظهورها سوى بهذه الأضحيات كما تصوروا. الفكرة وراء الأضحية أن يكون الشيء عزيزًا عليكِ بالفعل. الأنكا والأزتيك وصلوا بخيالهم إلى أنه لا شيء أعز من حياة الإنسان نفسه. ومن ثم فهو يمثل الأضحية المثالية!

الهدية هي أيضًا وسيلة لكي تعبرين عن استعدادكِ لعلاقات طيبة مع شخص آخر. ما هي الهدية؟ هي «واحدة من دون مقابل». استخدام الهدايا في توطيد الصلات بين القبائل ممارسة قديمة جدًّا لهذا السبب. الشخص الذي يحمل لنا هدايا يقدم لنا برهانًا عمليًّا على استعداده للتعاون والانخراط في «المبادلة». وعندما تقدمين هدية إلى صديقتكِ في عيد ميلادها، فأنتِ لا تبحثين فقط عن شيء يثير اهتمامها، ولكنكِ تبعثين لها برسالة أنكِ «ضحيتِ» بشيء، من مالكِ ووقتك، من أجلها. لهذا، فبإمكانكِ تقديم هدية لشخص غني لا يحتاج بالضرورة إليها، لأن العبرة «بتضحيتك» وليس بحاجة الشخص للهدية.

أما التجارة، فهي المجال الأساسي للعلاقات القائمة على «واحدة بواحدة». التجارة هي مبادلة مربحة لطرفين. تجري بصورة طوعية وباتفاق لا إجبار فيه، بهدف المكسب. هذه الخصائص ستجعل التجارة - كما سنتابع عبر قصتنا - محركًا مهمًّا للأحداث. عندما نتبادل سلعة ما، فإننا أيضًا نتعارف وربما نُجري، دون قصدٍ منَّا، «مبادلات» أخرى قد تكون أشد تأثيرًا وأعمق أثرًا بكثير من السلعة المحددة التي نتبادلها.

يبدو «واحدة بواحدة» مبدأ عبقريًّا وبسيطًا ومفهومًا للكافة بلا عناء. على أن الأمور لا تسير دومًا على هذا النحو البسيط. لا بد أنكِ خبرتِ هذا بنفسكِ عبر تجارب الحياة. «واحدة بواحدة» لا تصلح في كل الأحوال للتعامل مع البشر. ثمَّة فئة خبيثة من البشر - موجودة في كل جماعة - تسعى دائمًا للحصول على «واحدة» بدون مقابل. تعمل لتحقيق مصلحتها على حساب الجماعة. تمامًا مثل الخلية السرطانية التي تعمل لأجندتها الخاصة على حساب الجسد الذي تعيش فيه. في أي جماعة، هناك دومًا إغراء بالحصول على مغانم من دون التضحية بشيء. تلك هي أخطر معضلات العيش في جماعة.

الإنسان كائن قادر على الخداع، بل إنه بارع فيه. لا شك أنكِ خبرتِ ذلك بنفسكِ أحيانًا عبر تجاربكِ مع البشر. ثمَّة حافز يدفع بعض أعضاء الجماعة لممارسة الكذب. ليس صعبًا على مَن عاش في أي مجتمع، مهما كان هذا المجتمع صغيرًا، أن يُدرك هذا. المخادعون يسعون دومًا إلى الحصول على أشياء ليست لهم بالمكر، أو التملص من رد الجميل، أو التحرر من الالتزام بواجبهم نحو الصالح العام للجماعة. هذا ما يدفع البعض، مثلًا، للاستهتار بارتداء الكمامة في وقت الوباء. هؤلاء يستفيدون من المناعة الكلية التي

تتكون في المجتمع ضد الفيروس، كنتيجة لارتداء الآخرين للكمامات والتزامهم بإجراءات التباعد، ولكنهم لا يدفعون الثمن. مثلهم مَن يرفضون اللقاح لأي سبب ويستفيدون كذلك من أن الآخرين سوف يُلقَّحون.

هؤلاء يدعون بـ «الراكب المجاني». هم مثل المتهرب من الضرائب: يستفيد من السلع العامة التي تقوم الحكومة بإنشائها بأموال الضرائب (كالطرق وتوفير الأمن)، ولكنه لا يدفع نصيبه. يعتمد على نزعة الإيثار والالتزام لدى الآخرين. في أي تركيبة اجتماعية ستجدين هؤلاء. لو أنكِ أقمتِ مع أربعة من زميلاتكِ في شقة قرب الجامعة للدراسة، فأغلب الظن أن إحداهن لن تلتزم بواجبها في التنظيف أو إعداد الطعام. ستعتمد على الباقيات.

لذلك فقد تفننت المجتمعات في ابتداع أساليب، تزايد تعقيدها مع الوقت، لتمييز الأفراد الأكثر جدارة بالثقة، وكشف المخادعين. لو أنكِ أردتِ، مثلًا، الحصول على قرض من البنك، فإن أول ما يفعله هو التحري عن قدرتكِ على ردِّ الدَّين من خلال دراسة سجلكِ السابق في الوفاء بالديون (أي معرفة مدى جدارتكِ بالثقة). ومؤخرًا، مدت الصين هذا الخط على استقامته لعمل ما يُعرف بـ«الرصيد الاجتماعي»، وليس فقط رصيد البنك، لكل مواطن. إنها تجربة اجتماعية عجيبة، ومرعبة إلى حد كبير، وظفت تطبيقات الذكاء الاصطناعي، بما فيها تكنولوجيا التعرف على الوجوه والبيانات الكبيرة، لمراقبة سلوك الفرد في المجتمع عبر ملايين الكاميرات المنتشرة في كل مكان، وبناء «رصيده الاجتماعي». هذه التطبيقات تتبع مدى التزامكِ بقواعد المرور، والسلع التي تقومين بشرائها على الإنترنت، ومدى التزامكِ بدفع المصروفات المدرسية في موعدها، وتترجم ذلك كله إلى رصيد من النقاط. لو أنكِ، مثلًا، تبرعتِ بالدم فإن ذلك يمنحكِ نقاطًا إضافية. ولو كان «رصيدكِ الاجتماعي» ضئيلًا فإنكِ تُحرمين من مزايا مثل استخدام القطارات السريعة، أو الانضمام للمدارس الجيدة. إنها وسيلة حديثة للغاية لحل واحدة من أقدم المشكلات التي صاحبت رحلتنا: كيف يحمل المجتمع أعضاءه على الالتزام بمبدأ «واحدة بواحدة»، وكيف يمكن زيادة منسوب الثقة في مجتمع مركب بالغ الاتساع على نحو يتيح فرصًا أكثر للمخادعين لاختراق القواعد.

المخادعون لهم أساليب متنوعة. أنجع السبل التي يتبعها الكاذب في حبك خداعه هي أن يصدق هو كذبته. نعم.. نحن نظهر بمظهر الصدق إن نجحنا في إقناع أنفسنا بتصديق ما نقول للآخرين حتى لو كان كذبًا. لهذا فإننا نحتاج إلى مهارة خاصة لكشف الكذابين والمخادعين في الجماعة. ولكي نصل إلى حكم صحيح على الأشخاص فإننا نجتهد في قراءة أفكارهم. نحاول أن نخرج من أنفسنا، ونضع نفسنا مكانهم. أن نشعر بشعورهم ونتمثل تفكيرهم. إنها مهارة ضرورية للعيش في جماعة. نحن نكتسبها مع الوقت، ومن خلال تكرار

الاحتكاك بالآخرين. وقد تدهشين لو عرفتِ أن برامج الذكاء الاصطناعي تفتقر إلى هذه المهارة برغم قدراتها الهائلة على تحليل المعلومات. الطفل أيضًا لا يستطيع ممارستها..

لو أننا جلسنا أنا وأنتِ وأخوكِ الصغير (4 سنوات) على المقهى. وذهبتِ أنتِ لدورة المياه وتركتِ هاتفكِ النقال على الطاولة. ثم أخذتُ أنا الهاتف ووضعتُه في حقيبتي. عندما تعودين من دورة المياه ستبحثين عن الهاتف. لو سألنا أخاك: أين تتوقع أن تبحث أختك عن الهاتف؟ سيقول ببساطة: ستبحث في حقيبة بابا. لماذا؟ هو لا يستطيع أن يتمثل تفكيرك. لا يستطيع أن يضع نفسه مكانك. بل هو يتصور أنكِ تعرفين كل ما يعرف هو. هذا أيضًا ما يفسر الكثير من المشاكل التي تواجه المراهقين، إذ يعجزون عن وضع أنفسهم في مكان الآخرين. السبب وراء ذلك، مع كامل احترامي لكِ، هو عدم اكتمال نمو الدماغ البشري بشكل كامل حتى سن الحادية والعشرين!

محاولتنا قراءة أفكار الناس قد تأخذنا إلى مستويات معقدة من التفكير. يمكن، مثلًا، أن تفكري في أفكار صديقتكِ على النحو التالي: «هي تتصور أنني أتصور أنها غير صادقة، ولكن هذا غير صحيح»! هذا مستوى مركب من التفكير. ويمكن أن نذهب بالأمر إلى مستويات أكثر تعقيدًا وتداخلًا بالطبع بحسب المواقف المتشابكة والمركبة التي تواجهنا.

إن عيشنا داخل الجماعة، من أيام السافانا إلى عصرنا الحالي، يعتمد على قدرتنا على «قراءة عقول» الآخرين. على شطارتنا في تكوين «خريطة معلوماتية» عن أعضاء الجماعة وشخصياتهم بحيث نستطيع التنبؤ بسلوكهم، ونقلل احتمال تعرضنا للخداع.. فكيف نفعل ذلك؟

لماذا تتلصصين على الآخرين في «فيسبوك»؟

في جماعتنا القديمة بالسافانا، سنكتشف الناس ونحكم عليهم بالطريقة نفسها التي نحكم بها على الناس اليوم: بالمعايشة والخبرة. هذا يحتاج منَّا إلى ذاكرة تربط الوجوه بالأحداث والمواقف المختلفة. العيش في جماعة ربما يكون السبب الأصلي في تكوين الذاكرة. هي جهاز ثمين نتميز به عن بقية المخلوقات. هكذا نشأت علاقة بين حجم المخ، ومدى تعقيده وتشابك وصلاته، وبين حجم الجماعة. السبب في أن أدمغتنا كبيرة بالنسبة إلى أجسادنا، وبالمقارنة مع الحيوانات الثديية الأخرى، هو أننا نعيش في جماعات أكبر عددًا بكثير.

ثمَّة عدد محدود من الساعات في اليوم. صعب علينا أن نقضي وقتًا كافيًا مع أعضاء الجماعة كافة لكي نكوِّن انطباعًا ونصدر حكمًا على كل واحد فيهم. تذكري أننا نحتاج لتكرار «اللعب والمبادلة» أكثر من مرة للحكم على

الشخص. لو أنكِ قضيتِ ساعات قليلة مع عدد كبير من الناس، فأنتِ تخاطرين بتكوين شبكة واسعة من العلاقات الواهية. تعرِّضين نفسكِ لاحتمال الخطأ في الحكم على الآخرين. الأمر هنا يشبه علاقات الصداقة التي نكونها على «فيسبوك». هذه ليست صداقة كما عرفها أسلافنا في جماعات السافانا. نحن لا نعرف 90% على الأقل من «أصدقائنا الفيسبوكيين». نحن نصادق «صفحاتهم» أو ما يسمى «البروفايل» الخاص بهم، ولا نصادقهم هم. وبصفة عامة، فإن العلاقات داخل جماعة السافانا في العصر الحجري القديم كانت أقوى كثيرًا مقارنة بالعلاقات داخل جماعاتنا اليوم. لا تنسي أن أسلافنا كانوا يختبرون بعضهم بعضًا في مواقف متكررة تتعلق بالحياة والموت، وهو ما لا يتوفر - لحسن الحظ! - في حياتنا المعاصرة.

الحال أننا نستخدم «شفرة» معينة لتلمس طريقنا داخل الجماعة، ولحل مشكلة التعرف على أكبر عدد من الأشخاص..

اللغة هي تلك «الشفرة الخارقة» التي لا غنى عنها لنتلمس طريقنا في الجماعة. اللغة تمنحنا حجمًا أكبر من المعلومات عن الأعضاء الآخرين. مع استخدام اللغة، لا يقتصر الأمر على خبرتنا المباشرة مع الآخرين. يمكننا أيضًا أن نستفيد من حكايات الآخرين عن آخرين! هذه «المعلومات الاجتماعية» التي نتناقلها عبر اللغة هي المادة التي تصنع منها شبكة الخيوط والروابط للعلاقات في الجماعة.

أغلب الظن أن نشأة اللغة ارتبطت على نحوٍ ما بالعيش في جماعة. تحتل اللغة المساحة الأكبر في القشرة الدماغية الجديدة (Neo-cortex). هكذا، احتاج البشر إلى دماغ أكبر لتناول تعقيدات اللغة والمعلومات التي نتناقلها.

اللغة هي أقوى شفرة اخترعناها. عليها تأسَّست كافة الشفرات الأخرى التي نستخدمها. هي شفرة مذهلة نستخدمها في نقل المعلومات من دون أن نصرف قدرًا كبيرًا من الطاقة. تصوري أني أحتاج لكي أشرح لكِ - مثلًا - أن ثمة ذئبًا وراء التل أن أُمثل لكِ المشهد، فأقلد عواء الذئب وأمشي على أربع، وأنا أشير إلى التل، وأنتِ تحاولين جاهدةً إدراك ما أقصد. باستخدام اللغة يمكنني أن أنقل لكِ هذه المعلومة في لحظةٍ دون أن أخسر سُعرًا حراريًّا واحدًا.

شفرة اللغة تساعدنا في تحقيق أمرين: التواصل مع بعضنا بعضًا لتحقيق العمل الجماعي، والتواصل عبر الأجيال بنقل الخبرة؛ أي التعلُّم الجماعي الممتد. أغلب الظن أن تطور اللغة هو ذلك الحدث الغامض الذي جرى ما بين 50 إلى 100 ألف عام مضت، والذي أدى إلى التسارع المذهل في رحلة التطور الإنساني مقارنة بالكائنات الأخرى. لا أحد يعرف على وجه اليقين

لماذا ظهرت اللغة، أو كيف ظهرت، أو متى بالضبط. ولكن مولد اللغة قد يكون الحدث الأهم في التاريخ البشري. الواقع أنه من دون اللغة لن يكون لدينا تاريخ من الأصل، وإنما مجرد «تطور بيولوجي»، مثلنا في ذلك مثل الكائنات الأخرى.

لو كانت اللغة هي مجرد وسيلة اتصال وتواصل، فإن الحيوانات لديها أيضًا لغات. العلماء أجروا تجارب على بعض أصناف من «القردة الخضراء». سجلوا الأصوات التي تصدرها، والتي بدت بلا أي معنى أو مدلول. المفاجأة أنهم لما أعادوا إذاعتها من خلال جهاز التسجيل، وجدوا أن القرود تصاب بحالة من الجزع الشديد، وتتلفت ذات اليمين وذات الشمال عندما تستمع إلى مقطع بعينه. تبين أن هذا المقطع يعني: «احذروا..ثمَّة أسد قادم». عند إذاعة مقطع آخر، وجدوا القرود تنظر بهلع إلى أعلى. تبين أن هذا المقطع يعني: «انتبهوا..هناك نسر مفترس». مع ذلك، فإن لغة القرود تظل محدودة للغاية، إذ لا تتضمن سوى بضع عشرات من المفردات.

استخدام الكائنات الأخرى للغة، كوسيلة اتصال، مهما بدت بدائية، يجعلنا نتساءل عمَّا يميز لغة البشر عن غيرها من اللغات، وعن ماهية اللغة نفسها..

كل إنسان على وجه البسيطة، باستثناء أصحاب الإعاقة العقلية، يتحدث لغة ما. لم يحدث أن عثرنا على مجتمع بشري ليس لديه لغة. بل إن العلماء يعرفون أن البشر يستطيعون تطوير لغة جديدة في مدى جيل واحد. اللغة تبدو لنا شأنًا فطريًّا وعاديًّا. من الصعب تخيل الحياة من دون لغة؛ إذ كيف تبدو الحياة من دون أسماء للأشياء؟

أي لغة بشرية تضم ثلاثة أركان أساسية: الصوتيات، ومن الصوتيات تتألف الكلمات (الركن الثاني)، وهي عبارة عن تركيبات صوتية يخترعها البشر لكي ترمز لشيء معين. لا يوجد سبب محدد وراء تسمية البحر بالبحر. الحروف الثلاثة لا تعطينا أي شعور بتدافع الأمواج مثلًا. إنها مجرد تركيب صوتي نتفق على تسمية شيء ما به.

أما الركن الثالث في اللغة فهو الأبغض إلى نفسك كما أعلم: القواعد أو النحو!

الحقيقة أن هذا الركن هو الذي يجعل منظومة اللغة عبقرية بحق. الكلمات في اللغة، أي لغة، محدودة بالطبيعة. عدد الكلمات التي يعرفها الإنسان في المتوسط لا تتعدى بضع عشرات من الآلاف. إلا أننا نستطيع أن نصوغ عددًا لا نهائيًّا من المعاني والجُمَل والعبارات باستخدام هذا العدد المحدود نسبيًّا من الكلمات. نحن نفعل ذلك من خلال وضع الكلمات إلى جوار بعضها بعضًا

بترتيب معين يتبع قواعد متفقًا عليها (تذكري حروف «الدي إن إيه» التي تصنع الكائنات الحية!).

اللغة، مثل الموسيقى، منظومة لا نهائية من حيث قدرتها على توليد الجمل الجديدة. كل ما نحتاج إليه هو معرفة القواعد التي تحكم عملها. يمكن أن تجربي ذلك بنفسك. يمكنكِ، مثلًا، أن تفكري في جملة لم يقُلها أي إنسان من قبل على ظهر الأرض. مثلًا: «أحاول مصادقة الصراصير لأنها تساعدني في تعلم قواعد النحو». لا أعتقد أن أحدًا تفوَّه بمثل هذه الجملة العبثية من قبل، ولكنها مع ذلك مفهومة تمامًا لكِ؛ لأنكِ تعرفين قواعد اللغة العربية. القواعد اللغوية مرحلة متقدمة في قدرة الإنسان، ليس فقط على التعبير والتواصل، وإنما أيضًا على ممارسة عملية التفكير ذاتها، وفي التمييز بين الماضي والحاضر والمستقبل، وفي تكوين علاقات معقدة داخل الجماعة.

في جماعتنا بالسافانا كانت عملية تناقل المعلومات تجري غالبًا حول الطعام. نحن لسنا مثل الشمبانزي الذي يأكل ما تمتد إليه يده بالالتقاط عبر ساعات اليوم. نحن نستمتع بطهي الطعام وتناوله في أوقات معينة. يطيب لنا أن نأكل في جماعة ونُسلي أنفسنا بالحديث على المائدة (الحجرية في هذا الزمان الغابر)، أو متحلقين حول النار. ولكن عَمَّ يدور الحديث يا ترى؟

عن بشر آخرين بالطبع!

الحقيقة أننا نقضي أغلب أوقاتنا إلى اليوم في الحديث عن بشر آخرين، أي عن بعضنا بعضًا. ليس هناك ما يحملنا على الاعتقاد بأن سلفنا من العصر الحجري القديم كان يختلف عنَّا بصورة جوهرية. لهذا السلوك مسمى، له مدلول سلبي بالطبع، وهو النميمة!

نحن نمارس النميمة عبر ساعات اليوم. هي خصلة إنسانية خالصة لا يشاركنا فيها أي كائن آخر. إنها الصمغ الذي يربط المجتمع بشكل أو بآخر. في عصرنا الحاضر، ظهرت وسائل تكنولوجية تساعدنا على إشباع نهمنا للنميمة. وسائل التواصل الاجتماعي تلعب الدور الذي كانت تلعبه النار قديمًا كمنتدى ضخم لتبادل معلومات النميمة. هذه الوسائل توفر لنا أيضًا نافذة لمعلومات أهم وأكثر خطورة: معلومات عن العلاقات!

كلما توسع حجم الجماعة، احتجنا إلى مزيد من المعلومات ليس فقط عن الأشخاص، ولكن عن العلاقات بينهم. المعلومات هي وسيلتنا لتخفيض منسوب انعدام اليقين، سواء تجاه الطبيعة أو حيال البشر الآخرين. والعلاقات بالنسبة للجماعة تشبه الروابط بين الذرات والجزيئات التي تكوِّن العناصر. في هذه الروابط، لا في الذرات نفسها فحسب، يسكن السحر وتكمُن الإثارة. إنه نفس ما صادفناه أيضًا لدى الحديث عن الدماغ البشري: الوصلات بين

الخلايا العصبية هي التي تصنع سحر الوعي والتفكير. الأجزاء أو المكونات، من دون علاقات بينها، لا تكوِّن نظامًا. «الوصلات» بين الأشخاص هي المكون الرئيسي لخريطة الجماعة. هي التي تجعل شيئًا جديدًا «ينبثق» من اجتماع الناس معًا.

تخيلي مثلًا أن عشرة أشخاص ينتظرون مصعدًا في بناية كبيرة. هل يمكن اعتبار هذه جماعة؟ لا. هذه ليست سوى مجموعة من الأشخاص. لو فقدت المجموعة عنصرًا أو زادت عنصرًا فلن يكون ثمَّة فرق كبير. السبب أنه لا توجد علاقات تربط هؤلاء الأشخاص بخلاف اجتماعهم في مكانٍ واحد. لكن لو تصورنا أن هؤلاء دلفوا إلى المصعد، ثم وجدوا أنفسهم في مأزق ما. ليكن مثلًا ذات المأزق الذي صادف أبطال فيلم شهير كتب قصته نجيب محفوظ بعنوان: «بين السماء والأرض» (1960م) عندما تعطَّل المصعد وصار معلقًا بين دورين فحُبس الركاب داخله لفترة من الزمن، بما عرضهم مع الوقت لخطر الاختناق. هنا، وكما حدث في الفيلم، تتحول المجموعة إلى جماعة.. إلى مجتمع صغير.

السبب أن علاقات مختلفة تظهر بين ركاب المصعد. هم يواجهون مأزقًا ضاغطًا. هذا المأزق المشترك يؤدي إلى ظهور أنماط مختلفة من السلوك والعلاقات بين أعضاء الجماعة: ما بين التعاون والصراع.. ما بين الإيثار والخداع. تفضي هذه العلاقات المختلفة إلى تحول مجموعة من الأشخاص الذين لا يعرفون بعضهم بعضًا، إلى جماعة لها هدف. في حالة أبطال الفيلم، كان الهدف هو عبور الأزمة (الخروج من المصعد). في حالة أي جماعة أو مجتمع، فإن الهدف الأسمى، كما هو هدف كل شيء في قصتنا من الفيروس إلى الإمبراطورية، هو الحفاظ على البقاء.. بقاء الجماعة نفسها!

شبكة العلاقات، إذن، هي ما تصنع من مجموعة من الأفراد جماعة. ولا يمكنكِ تلمس طريقكِ عبر تعقيدات شبكات العلاقات البشرية في أي جماعة من دون خريطة. الخريطة تخبركِ بشبكة علاقات شخص معين. هو نفس ما نفعله أحيانًا عندما نتصفح «فيسبوك». نحن لا ننظر إلى «الصفحة الشخصية» لأصدقائنا، وإنما يهمنا أيضًا - على الأقل أحيانًا! - أن نراقب دوائر صداقاتهم. من خلال هذه الدوائر نحدد علاقتنا بهم. إن أول ما تفعلينه عند تلقي طلب صداقة من شخص لا تعرفينه على «فيسبوك» هو البحث في دائرة معارفه عن الأصدقاء المشتركين، أو عن إشارات تشير إلى شخصيته ومدى جدارته بالانضمام إلى قائمة أصدقائك. نحن نرصد، أحيانًا من دون وعي كامل منَّا، تعليقات أصدقائنا على ما يقوله الآخرون. نستشف من كل هذا معلومات مختلفة عن العلاقات داخل شبكة معارفنا على «فيسبوك». توفير «فيسبوك» لهذه الإمكانيات هو سر من أسرار تضخمه الكاسح في وقت قصير.

لكن لماذا نتلصص على علاقات الآخرين ببعضهم بعضًا؟

الأمر يعود لحياتنا القديمة في السافانا. هبي أن شخصًا له شبكة واسعة من العلاقات في الجماعة، هل يكون من الحكمة التورط في نزاعٍ معه؟ أو لو أن شخصًا معروفًا عنه مخادعة الآخرين، فهل من المصلحة أن تضميه إلى شلتك؟ على هذا النحو، بإمكانكِ تصور الكثير من العلاقات المعقدة، تعاونًا وصراعًا. سيدهشكِ كم الأحلاف والمناورات، والتضحيات والخيانات، التي يمكن أن تنشأ في جماعة صغيرة لا يتعدى أفرادها 30 أو 50 شخصًا!

العيش في جماعة ليس سهلًا. هو يقتضي من الأفراد التعاطي مع مواقف معقدة، وبناء شبكات متداخلة، وأحيانًا متقاطعة ومتناقضة. هم في كل هذا يحتاجون إلى الشيء نفسه الذي تحتاج إليه الخلية لكي تحصل على الطاقة: المعلومات..

الخلية تحتاج إلى المعلومات للتكيف مع بيئة متغيرة. أنتِ أيضًا تحتاجين إلى المعلومات للتكيف مع أي تغير قد يطرأ على شبكات العلاقات داخل الجماعة. هذا ما نصادفه أيضًا في الجماعات الصغيرة التي ننضوي تحت ظلها في حياتنا اليوم. في الفصل الدراسي، أو في العمل، أو في فريق الكرة، أو الكتيبة في الجيش.. هناك دومًا حاجة لمعرفة معلومات عمَّن حولك، وعن نواياهم، وعن علاقاتهم ببعضهم بعضًا.

كلما زاد عدد أفراد الجماعة، احتجنا إلى ذاكرة أوسع وروابط أكثر في داخل أدمغتنا. ولكنْ ثمَّة حد أقصى لجماعة تعتمد على هذا النوع من العلاقات الشخصية المباشرة لتحقيق توازنها واستقرارها. بعض العلماء أشار إلى أن هذا الحد الأقصى يبلغ 150 شخصًا. إن توسعت الجماعة عن هذا العدد فإنها تحتاج إلى ما هو أكثر من النميمة لضبط إيقاعها. الذي يحدث أن الشبكات تتعقد وتتداخل. التناقضات تتفشى وتتوسع. لا يغيب عنكِ أن اللغة سلاح ذو حدين. هي أداة لا غنى عنها للتواصل وتناقل المعلومات والنميمة، ولكنها في الوقت نفسه طريق سهل لممارسة الكذب والخداع. اللغة تمكن المخادعين من بناء قصص مفبركة عبر نسج الحكايات واختلاق الوقائع. هذا الكذب والخداع يدمر الجماعات، تمامًا كما يمزق نسيج الصداقة بين أفراد شلتكِ الصغيرة.

كيف تتصرف الجماعة عندما يزداد عدد الأعضاء وتبدأ الفوضى تدب في أركانها وتتسلل إلى نسيج العلاقات فيها؟

كما نفعل بالضبط اليوم. نشرع في وضع قواعد معينة للحياة في الجماعة. هذه القواعد لا تظهر بصورة فوقية أو فجائية. بل «تنبثق» على نحو طبيعي من التفاعلات بين أعضاء الجماعة أنفسهم. إنها «شفرة» جديدة في قصتنا..

قد تكون الشفرة الأكثر إثارةً على الإطلاق.. سأحدثك عنها في رسالتي القادمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

والدي العزيز..

العيش في جماعة عبء كبير عليَّ فعلًا. عندي مشكلة مزمنة مع قراءة أفكار البشر وكثيرًا ما أفشل في الوقوف على أهدافهم الحقيقية من خلال النظر في أعينهم أو محاولة تفسير مغزى ابتساماتهم، ولكني قلما أتلصص على صفحات الآخرين في «فيسبوك»، كما ذكرتَ في رسالتك!

فكرت كثيرًا في موقفنا المتخيل، أنا وأنت، في السافانا. ووجدت أن الشك في نوايا الآخرين تجاهنا يبدو فعلًا كمشكلة بلا حل، خاصة في زماننا، حيث لا نعرف أعضاء جماعتنا كافة بصورة مباشرة. الحقيقة أنه كثيرًا ما يتبين أننا لا نعرف مَن نعرفهم فعلًا. زارت البيت بالأمس صديقة لي، لم تكن من المُقربات. حرصت على أن تترك وردًا على الباب وانصرفت. هي تتصل بي كل يوم تقريبًا. أما صديقتي المقربة، هند، فلم تكلف نفسها حتى إرسال رسالة نصية للاطمئنان عليَّ في عزلة الكورونا. ما أكثر الصدمات التي تعرضت لها من الأصدقاء. تبًّا لانعدام اليقين الذي يبدو أنه يطبع كل شيء في الوجود!

ليلى

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الرسالة الخامسة

شفرة الجماعة

«المجتمع هو شراكة بين الأموات،

والأحياء، ومَن لم يولدوا بعد»

الفيلسوف الإنجليزي إدموند بيرك

(1729-1797م)

العزيزة ليلى..

الشك في نوايا الآخرين الغرباء مشكلة بالفعل. ولكننا أوجدنا لها حلولًا. كما فعلنا مع الكثير من المشكلات التي واجهتنا على الأرض، ابتدعنا شفرة!

لقد صادفنا في العالم البيولوجي أن أي نظام هو عبارة عن: أجزاء + علاقات بين الأجزاء. أي نظام يحتاج أيضًا إلى «برنامج تشغيل». في حالة الخلية هذا البرنامج هو (DNA)، وهو برنامج شامل ومرن للغاية إلى حد أنه «يشغل» الكائنات الحية كافة دون استثناء. كل جماعة بشرية لها أيضًا «برنامج تشغيل» أو «شفرة» مميزة. ولكن أين يوجد هذا البرنامج؟ وأين يمكننا العثور على تلك الشفرة؟

الشفرة الوراثية للحياة - كل أشكال الحياة - تقبع في الخلية. «شفرة الجماعة» تستقر في الأدمغة.. أدمغة أعضاء الجماعة.

وكما تختلف الشفرة الوراثية من شخص إلى آخر، فإن شفرة المجتمعات تتباين فيما بينها. على أن هذه الشفرة تعمل وفق آلية واحدة مستمدة من القانون الأخلاقي الأول «واحدة بواحدة». الإحسان يقابله الإحسان. الهدف من شفرة الجماعة هو ردع وعقاب المخادعين الذين يعمدون إلى التلاعب بهذه القاعدة. هؤلاء يهددون - بسلوكهم هذا - شيوع الثقة في الجماعة. هم بذلك يقوضون بناءها ويمزقون الأربطة والوصلات بين أعضائها.

الفكرة المهمة، التي عثرت عليها الجماعات البشرية كافة، هي أنها لا يمكن أن تحيا من دون «أدوات اجتماعية». الأدوات التكنولوجية تُساعد على البقاء في مواجهة الطبيعة. الأدوات الاجتماعية تُساعد على بقاء الجماعة وتحميها من التفكك، وتسهل التعامل بين أعضائها حتى لو كانوا لا يعرفون بعضهم بعضًا بشكلٍ شخصي. الأدوات الاجتماعية تُتيح تشكيل جماعات أكبر عددًا عبر ابتداع ميثاقٍ معين للعيش في الجماعة، أو «شفرة» للحياة المشتركة داخلها. أبسط هذه الأدوات، مثلًا، هي المصافحة باليد عند اللقاء. عبر هذه «الشفرة»

يتأكد المتصافحان أن اليد لا تحمل سلاحًا. من الأدوات الاجتماعية أيضًا تمييز أبناء الجماعة بعلامة جسدية معينة، أو حلاقة مميزة للشعر، حتى يسهل عليهم التعرف على بعضهم بعضًا. وكلما تضخم حجم الجماعة، زادت الحاجة للأدوات الاجتماعية وتزايد تعقيد «الشفرة».

تعالي نتخيل معًا كيف تطورت هذه الشفرة، «شفرة الجماعة»، عبر رحلة عجيبة في ظلام الكهوف، وأعماق الأدمغة، وعالم الأرواح، مع قدرٍ لا بأس به من السحر..

كهوف الأحلام: عالم آخر؟

إن استخدام اللغة يمنح الإنسان ميزات إضافية أبعد كثيرًا من مجرد التواصل. من الخصائص العجيبة للغة أنها يمكن أن تشير إلى أشياء مجردة. اللغة تمكننا من تصنيف الأشياء. نحن لا نسمي كل شجرة باسم معين، وإنما نطلق مسمى «شجرة» على كل الأشياء التي تحمل صفات معينة نتعرف فيها على الشجرة (جذوع وأفرع وأوراق). نحن نصنف الأشياء باستمرار في فئات مختلفة. هكذا نفهم العالم ونخلق له نظامًا في عقولنا.

بعد ذلك ننتقل خطوة أخرى، فنقوم بإيجاد علاقات سببية بين الأشياء. الصيد يعلمنا تلك المهارة. عندما نرى آثار أقدام أمام الجُحر، نعرف أن الأرنب البري قد مرَّ من هنا. ولكن اليوم حار جدًّا، فربما يكون قد خرج مبكرًا. هكذا نبدأ في تكوين سلاسل متتابعة من الأسباب والنتائج التي تربط ظواهر العالم من حولنا. نبدأ أيضًا في محاولة تصور كيف «يفكر» الأرنب. ننظر إلى الشمس ونحاول أن نفهم: كيف «تفكر» الشمس؟

عند هذه المرحلة من التفكير المجرد، يبدأ الإنسان حتمًا في ولوج «العالم غير المرئي». اللغة هي سبيله أيضًا للتعبير عمَّا هو ليس موجودًا أو ملموسًا في الواقع. عبقرية «شفرة اللغة» تكمُن في إمكانية تطويعها لأغراض شتى، منها الحديث عن شيء غير موجود أمامكِ في هذه اللحظة (كشخص غائب)، أو حتى عن أشياء غير موجودة على الإطلاق (أمنا الغولة أو الحصان المجنح، أو إنسان بجسد أسد، مثلًا). لا توجد «قيود» في اللغة تقول لكِ مثلًا: هذا غير حقيقي أو غير واقعي. هي شفرة طيعة، تلائم خيالنا الجامح المتحرر من قيود الزمان والمكان. إنها بوابتنا إلى «عالم الأرواح»..

العالم الروحي للإنسان القديم كان غنيًّا وغامضًا. هناك آثار من هذا العالم البعيد ما زالت عصية على التفسير. منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي بدأ العلماء يعثرون على كهوف سكنها إنسان العصر الحجري. على جدران هذه الكهوف، عثر على رسوم تعود إلى عشرات الآلاف من السنين. عندما

رأى الرسام الإسباني الأشهر «بابلو بيكاسو» أحد هذه الرسوم صرخ من فرط روعتها قائلًا: «نحن لم نتعلم أي شيء»!

الكهوف التي تحمل جدرانها رسومًا من العصر الحجري القديم منتشرة عبر أوروبا، في فرنسا وإسبانيا وغيرها. في كهوف مثل «ألتا ميرا» و«لازجو» نرى صورًا لرجال وثيران وأحصنة وغزلان. ولو ذهبتِ إلى «كهف السباحين» في هضبة الجلف الكبير بالصحراء الغربية بمصر لوجدتِ نقوشًا تعود للعصر الجليدي تصور أشخاصًا يسبحون.

تلك كانت الخطوات الأولى نحو ممارسة ستصبح جزءًا مهمًّا من حياتنا كبشر. جربي أن تتوقفي في الميدان الأقرب لبيتك. ماذا ترين؟ صورًا تجسد أشياء مختلفة. إعلانات مصورة، تماثيل، علامات إرشادية، أعلام.. نحن البشر، مغرمون بتجسيد الأشياء.

من أين جاء ذلك الولع؟ لا يمكن أن يرسم شخص لوحة من دون أي يكون قد رأى لوحة واحدة من قبل على الأقل. مفهوم التصوير أو الرسم ذاته مفهوم مركب وليس بدهيًّا كما يبدو. كيف ولماذا فكر الإنسان في هذا الوقت البعيد في تجسيد أشياء على جدران هذه الكهوف المظلمة، التي يتطلب الولوج إلى بعضها سيرًا وزحفًا بصعوبة لمسافة تبلغ أحيانًا ما يقرب من كيلو متر كاملًا في جوف الجبل؟

إحدى اللوحات التي عُثر عليها في كهف «شوفي» (اكتُشف في فرنسا عام 1994م) ربما تحمل مفتاحًا لحل اللغز. تاريخ اللوحة يعود إلى 32 ألف سنة مضت. انهيار جبلي تسبب في إغلاق باب الكهف منذ 20 ألف سنة، فحفظه لنا في حالته الأولى. رسومه تكاد تنطق، وكأنها رُسمت أمس. اللوحة المقصودة تصور كائنًا بجسد إنسان ورأس أسد أو ثور. أين رأى الفنان القديم مثل هذا الكائن ليرسمه؟ على حد علمنا، لم يحدث أن سعى على الأرض كائن بهذا الشكل.

مَن رسم هذه اللوحة رأى كائنًا بهذا الشكل في خياله. رأى شيئًا غير موجود وأراد تجسيده وتصويره. هذه اللوحة العجيبة تمنحنا فرصة نادرة للوقوف على التطور العقلي لبني البشر منذ 32 ألف سنة. في هذا الزمن الجليدي الموغل في القدم، قرر إنسان ما – لسبب غامض - أن يتكبد مشقة السير في كهف مظلم، ليسجل صورًا كانت تعتمل في ذهنه على جدران هذا الكهف. كانت هذه قفزة هائلة. الإنسان لم يعُد يكتفي بالأفكار الخيالية، ولكنه يراها من الأهمية بحيث تستحق التسجيل. هو أراد الإمساك بهذه الأفكار. التعبير عنها وإشراك الآخرين معه في رؤيتها.

ولكن كيف نبتت هذه الفكرة العجيبة عن الكائن الإنسان/الحيوان في ذهن صاحبنا الفنان القديم؟ كيف تسللت إلى وعيه بهذه الصورة؟ ولماذا رأى أن تسجيله إياها مهم لحد يستأهل الوقت والعناء؟

الإنسان القديم كان يحلم مثلنا. طبيعي أن يحلم بأشياء من عالمه. غزلان وثيران وأحصنة. لا بد أن هذه الحيوانات بالذات ألهبت خياله، بقوتها، أو برشاقتها، أو بجمالها الأخاذ وتناسق حركتها. الأحلام تعكس الجزء اللا واعي في عقولنا حيث يتوقف عمل القشرة الجبهية الأمامية المسئولة عن التفكير المنطقي والكوابح الأخلاقية؛ لذلك نرى في الحلم تركيبات شاذة وغير مألوفة. لا شك أن أسلافنا وقفوا عاجزين تمامًا عن إدراك كنه هذه الصور والرؤى التي تتتابع بلا نظام أو منطق معين على عقل الإنسان وهو نائم، مسلوب الإرادة. الحقيقة أن هذا هو بالضبط ما يحدث لنا نحن أيضًا أحيانًا بعد أن نصحو من النوم ونتذكر أحد أحلامنا العجيبة!

الأحلام ألهبت الخيال الإنساني وفتحت أمامه، منذ وقت مبكر جدًّا، احتمال وجود عالم آخر بخلاف ذلك العالم الواقعي الذي نعيش فيه. وإلا فمن أين تأتي هذه الصور الغريبة؟

ربما اعتبر الإنسان القديم هذه الأحلام رسائل من عالم آخر. عالم الأرواح والقوى التي تسكنه. إنها قوى قد لا يراها المرء أو يعاينها ولكن أثرها متغلغل وفاعل في كل الأشياء من حوله. هزيع الرياح، دمدمة الرعد، اكتمال القمر، سقوط صخرة من على الجبل، نظرة استرحام في عيني غزال يسعى للفرار من صياده. كلها، كما استقر في ضمير صاحبنا الفنان القديم، رسائل قادمة من هذا العالم البعيد. غايتها أن تقول له شيئًا.. أن توصل له رسالة ما. كان على الإنسان القديم أن ينصت، وينعم النظر، ويحاول أن يفهم. رسوم الكهوف ربما كانت انطباعات أسلافنا عن هذه الرؤى. لهذا تبدو في بعض الأحيان غريبة، وكأنها قادمة من حلم.

هذه الصور هي أيضًا عنوان على قوة خارقة يتميز بها البشر: الخيال والرمز. نحن مثل «مسافر زاده الخيال». بإمكاننا أن نسبغ على الأشياء المادية معاني ورموزًا. لا نصنع الأدوات من أجل البقاء فقط، ولكن نصطنع أشياء لها «معنى رمزي»، مثل الخرز الذي نلضمه في عقد للزينة. لا يوجد حيوان يفعل هذا. لو تأملتِ أخاكِ الصغير وهو يلعب ستجدينه يفعل الشيء نفسه. هو «يتخيل» أنه شخص آخر، مثل النينجا أو بات مان. يتصور الأشياء العادية في هيئة أشياء أخرى، فتتحول علبة الكبريت الفارغة إلى عربة أو طائرة. إنها البدايات الأولى للتفكير الرمزي الذي يميز الكائن البشري عن كافة الكائنات الأخرى. أي شيء حولنا يمكن أن يتحول إلى «شيء يحمل معنى» بواقع قوة خيالنا.

هذا التفكير الرمزي، والسعي إلى إسباغ المعاني على الأشياء المادية من حولنا، كان البذرة الأولى لمشاعرنا الدينية. الإنسان عرف الآلهة والعالم الآخر بالعقل، قبل أن يتصل أنبياء الله بالبشر عبر الوحي، حاملين الرسالات السماوية. المثل المصري العامي يقول: «ربنا عرفوه بالعقل». هذا ينسجم مع ما نعرفه من تاريخنا الكبير على الأرض. آية ذلك أنه ما من جماعة عرفناها بوجودها - مهما كانت معزولة - إلا وكان لها تصور ما عن الدين والآلهة والعالم الآخر.

السبب أن أدمغتنا البشرية مجهزة بصورة طبيعية لتقبل الدين..

الطفل يدرك في مرحلة مبكرة جدًّا أن كل شيء يتحرك وراءه مُحرِّك. أن كل فعل وراءه مُسبِّب ما. هو يتصور كذلك أن أباه له قدرات خارقة. أنه خالد أبدًا، ويعرف كل شيء. بل وأنه قادر على معرفة ما يفكر به الطفل وما مرَّ به من أحداث من دون أن يخبره هو بذلك. لهذا السبب تلاحظين أن أخاكِ الصغير كثيرًا ما يروي حكايات مبتورة. هو يتصور ويفترض أننا - معشر الكبار - نعرف أصل القصة وفصلها. على هذا النحو يتقبل الأطفال الدين والإله القادر على كل شيء، والعالم بكل شيء، بسلاسة وبدون مجهود كبير.

مشاعر الإنسان تميل فطريًّا إلى الدين، وتهفو إلى «قوة عليا» أكبر منه، وأكبر من الحياة ذاتها.. تذكري أننا كائنات بيولوجية تعرف بفنائها. هذه المعرفة، التي تميزنا عن الكائنات الأخرى، تجعلنا ننكر - في أعمق أعماقنا - هذا المصير المحتوم. تحملنا على التطلع إلى الخلود على نحوٍ أو آخر. نحن لا نسعى فقط لمعالجة مشكلة البقاء مثل الكائنات الأخرى، وإنما أيضًا لحل معضلة الفناء. إنها معضلة تنتجها أدمغتنا الواعية بمصيرها. نحن نعرف أننا لا نستطيع هزيمة البيولوجيا في العالم المادي. لا حل لمعضلة الموت سوى في الأدمغة أيضًا.. عبر الخيال الذي يمكننا من السفر بعيدًا إلى ما وراء العالم، وإلى ما بعد الحياة نفسها.

تدبري أيضًا تأثيرًا آخر مهمًّا لظاهرة الأحلام. في الحلم نخرج من ذواتنا لندخل في عوالم أخرى عجيبة. نعبر الخط الرهيب الفاصل بين الحياة وما وراءها. نلتقي أيضًا بأناس عبروا إلى وادي الموت المظلم. نرى أقاربنا وأحباءنا الذين رحلوا عنَّا. نراهم ونكلمهم ويكلموننا في تجربة مترعة بالحيوية، نابضة بالحياة، تبدو لنا - أثناء الحلم - حقيقية تمامًا!

لا شك أن ظاهرة الأحلام أوحت لأسلافنا القدماء أن ثمَّة عالمًا آخر بخلاف هذا الذي نراه ونشعر به. أدخلت في عقولهم تصورًا عن مستوى آخر للوعي، لا يمكن إدراكه في الحياة العادية، ولكنه موجود من دون شك.. بدليل أننا نراه، ويمكن أن نتحدث عنه ونصفه باستخدام «شفرتنا» العبقرية الطيعة: اللغة!

غرس الشفرة

بالتدريج يمكننا تخيُّل بروز أشخاص داخل الجماعة يظهرون قدرة استثنائية على الاتصال بهذا المستوى الآخر من الوعي. بالعالم الخفي للأرواح الهائمة، والأسلاف الراحلين الذين «يظهرون» فقط لهؤلاء الأشخاص للتحذير من أمرٍ ما أو التوصية بشيء. هؤلاء، وبواقع قدراتهم الخارقة تلك على الاتصال بالعوالم الأخرى، تصير لهم سلطة كبيرة في الجماعة، خاصة عندما تكبر لتصير قبيلة تضم أعدادًا أكبر من البشر (آلاف على الأقل). يُطلق على مَن يقوم بهذه المهمة في الجماعات البدائية مسمى «الشامان».

السحر والاتصال بالقوى الخفية ممارسة موجودة في الحضارات والمجتمعات البشرية كافة عبر التاريخ. لا أعرف رأيكِ في السحر، ولكننا أمام أحد احتمالين لا ثالث لهما: إما أن السحر موجود بالفعل (وأن قصة هاري بوتر يمكن أن تحدث في الواقع!) أو - وهو الاحتمال الأرجح - أن أدمغتنا مجهزة لاستقبال السحر والإيمان بحدوثه وتأثيره على مجريات الواقع. إلى اليوم، ومع كل التقدم العلمي، ما زال السحر قادرًا على إدهاشنا؛ لأنه يُدخلنا في عالمٍ يصير فيه المستحيل ممكنًا، كأن يطير البشر، أو تلتئم الأجساد بعد أن بدا لنا أنها تقطَّعت إربًا. الساحر يستطيع خداعنا لأنه يعرف كيف تعمل عقولنا ونفسيتنا.

الساحر القديم كان أيضًا بارعًا في قراءة العقول. هو شخص يستطيع ابتداع علاقات غير تقليدية بين الأشياء. سيقول لكِ، مثلًا، إن السماء تبكي لأنها حزينة على وفاة أحد أعضاء القبيلة. يُمكنه أيضًا أن يُقنعكِ بأن دم الغزال هو الشفاء لنوبات التشنج التي تنتاب صديقتك، أو أن نقشًا معينًا على عظمة حيوان يجلب الحظ. الإيحاء، والاقتناع بقدراته، قد يكون لهما أثر في شفاء البعض فعلًا بـ «أدويته»، تمامًا مثلما يحدث اليوم مع ما يُعرف بـ «الدواء الوهمي»، أو «البلاسيبو»، وهو عبارة عن دواء بلا أي مادة فعَّالة (كحبَّات من السكر) يُستخدم في إجراء التجارب على العقاقير الطبية. المدهش أن هذا الدواء الوهمي ينجح في علاج نسبة من المرضى تصل على الأقل إلى 30% بسبب الأثر النفسي!

ربما كان زعماء المجتمعات البدائية من هؤلاء الحكماء الذين يجيدون إيجاد علاقات بين أنماط الطبيعة، حتى لو كانت هذه العلاقات مصطنعة في معظم الأحيان، أو من هؤلاء السحرة القادرين على عبور الخط الفاصل مع العالم غير المرئي. لو أنكِ عرفتِ أن زعيم القبيلة شخص عادي مثلكِ فلن يتولد لديكِ دافع كبير لطاعته. لكن إذا عرفتِ أنه يستطيع التخاطب مع أرواح الأسلاف، واستدعاءهم لعقابك، فإن رادعًا قويًّا سوف يحملكِ على الطاعة

وتجنب الخروج على القواعد. هذا الرادع يتحول بالتدريج إلى عاطفة قوية بداخلك. يصبح صوتًا ينبع من ذاتك.

وبالمثل.. لو أنكِ مقتنعة بأن الآلهة أو أرواح الأسلاف الراحلين – أو مَن يُزعم الحديث باسمهم - تستطيع قراءة دوافعكِ الدفينة، فإن ذلك سيُشكل قيدًا ملازمًا على تصرفاتكِ وسلوكك. قد ترتكبين ذنوبًا أو أخطاء، ولكنكِ ساعتها ستعرفين في داخلكِ أنكِ تمارسين شيئًا منكرًا ومستهجنًا، وأن ما فعلته ليس خافيًا على القوة الخفية أو على الأشخاص الذين يتحدثون باسمها. ها هنا تنبت البذرة الأولى للضمير. هذا الصوت الداخلي الذي يميز بين الصواب والخطأ. قوته تكمُن في أنه نابع من داخلنا، ومرتبط، في الوقت نفسه، بحياتنا في الجماعة. مرتبط بشعورنا بالعار والتقصير، أمام أنفسنا وأمام الآخرين، إن نحن أسكتناه وكتمناه.

لذلك فإن كافة المنظومات الدينية تنشد تربية الضمير اليقظ. ثمَّة تحذير متكرر من عاقبة الانغماس في خداع الذات. الإله مطلع على كل شيء ولا يمكن خداعه. حتى وإن لم يطلع أحد على ما نعمله أو ما نفكر فيه ونخطط له.. فنحن مطلعون! نحن نشاهد أنفسنا طول الوقت، ونشهد على أفعالها.

تستخدم المجتمعات إذن مزيجًا من الردع الداخلي، وردع الجماعة لكي تفرض «شفرتها» الخاصة على أعضائها. وكما هو الحال مع «الشفرة البيولوجية» للأفراد التي تكون متماثلة في أغلبها، مع مساحة من الاختلاف، فإن «الشفرة الاجتماعية» للجماعات المختلفة تعمل بطرق متشابهة للغاية.

ما هو ذلك الجزء المتماثل الذي نجده في شفرة أي جماعة؟

نجد أولًا مبادئ أخلاقية بسيطة لا تعيش أي جماعة من دونها: رفض السلوك الذي ينطوي على إيذاء الآخرين أو التعامل معهم بإجحاف. القاعدة الأساسية للجماعات كافة، كما قلت لكِ، هي المعاملة بالمثل (أو القاعدة الذهبية).

هناك أيضًا، لدى كل جماعة، أعراف وقواعد تميز بين المسموح والممنوع. أول طائفة من هذه القواعد يتعلق بالقرابة: مَن هم الأقرباء؟ ما حقوقهم في ممتلكات المرء عندما يموت؟ مَن من الأقارب يمكن الزواج منهم؟ في مصر القديمة، مثلًا، كان زواج الأخ من الأخت مسموحًا، وإن كان ذلك يحدث في الأسر الحاكمة فقط بغية الحفاظ على الدم الملكي. وإلى اليوم، تلاحظين أن بعض المجتمعات تبيح الزواج بين أبناء العمومة والخالات، في حين ترفضه مجتمعات أخرى.

هناك مجموعة أخرى من القواعد في الجماعات كافة تتعلق بالملكية: مَن يملك ماذا؟ هل الأرض والأدوات ملك للجماعة أم للفرد أم للعائلة الممتدة؟

وثمة مجموعة ثالثة من القواعد تتصل بالأمن: متى، وتحت أي ظروف، يمكن للإنسان أن يقتل إنسانًا آخر؟ في بعض الجماعات – مثلًا - أي غريب عن الجماعة كان هدفًا مشروعًا للقتل! في مجتمعات كثيرة كان قتل الأب لأبنائه - وغالبًا من الإناث - إجراءً مشروعًا ومقبولًا من الناحية الأخلاقية. وفي حضارة قرطاج (تونس الآن) كان الأطفال يُقدَّمون كقرابين للآلهة. غير أننا لم نجد - في أي وقت - حضارة تُحلُّ القتل من حيث المبدأ، أو تعتبره شأنًا مقبولًا على إطلاقه. رفض القتل، إذن، «شفرة عالمية»، عابرة للجماعات، إذ من دونها لا يصبح للجماعة، أي جماعة، وجود من الأصل!

من أين يأتي هذا التشابه والتماثل في عناصر «الشفرة الاجتماعية»؟

مرجع التشابه هو أن جميع «الشفرات» مكتوبة بمكونات واحدة ورموز متشابهة. كل المجتمعات تستخدم اللغة كمكون أساسي لصناعة الشفرة الخاصة بها. اللغات تختلف. على أن منطق عمل اللغات، كما رأينا، واحد. كل لغة تتكون من أصوات تدل على كلمات. اللغات متباينة في أصواتها وقواعدها، ولكنها تعمل بالطريقة نفسها وتؤدي ذات الوظائف. كل اللغات يمكن توظيفها للحديث عن أشياء مجردة وأفكار وتصورات، أو حتى أشياء لا وجود لها. لقد عرفنا أن هذا ما يوصلنا في النهاية إلى الولوج إلى «العالم الما ورائي»، ومن ثمَّ بناء منظومة كاملة تعتمد على المشاعر الدينية التي تغرس في أفراد الجماعة بذرة الضمير. كل الجماعات تقريبًا، وبمرور الوقت، سارت في هذا الطريق، فانتهت إلى نتائج متشابهة للغاية.

تواجه المجتمعات كافة كذلك تحديات متشابهة. الأزمات الطبيعية وانعدام اليقين يدفعان للتعاضد والالتحام بالجماعة. تقلبات الحياة ومحنها تحتم اللجوء لقوى من خارج العالم. ومع توسع حجم الجماعة - وهذا حدث بصورة أكبر مع الزراعة كما سأخبركِ في رسالتي التالية - صار الحل الوحيد للعيش المشترك هو وضع «قواعد» معينة للمجتمع لفض المنازعات بين أعضائه، وتجريم الاعتداءات والحفاظ على الحياة. هذه القواعد، على تباينها من جماعة لأخرى، حملت سمات مشتركة لأن المشكلات التي واجهها البشر في كل مكان كانت متشابهة.

ويمكنكِ ملاحظة أن شفرة الجماعة لا تُناقض الشفرة البيولوجية التي تشغل الكائنات الحية، وتغرس بداخلها غريزة البقاء وحفظ النوع. الحقيقة أنها تكملها. شفرة الجماعة موجهة أيضًا نحو البقاء، وأهم مكوناتها هي العاطفة الدينية. الدِّين كان يغلف كل شيء تقريبًا في حياة أسلافنا، وخاصة ما يتعلق بحفظ الحياة واستمرارها؛ لذلك تجدين دائمًا النظم الدينية تهتم بمؤسسة الزواج، وتبسط قواعدها على عملية الميلاد وتربية الأطفال، أي حفظ النوع. كما تجدين الأديان تهتم بمظاهر معينة مثل الاعتناء بالجسد والغذاء، وكأنها

تكمل الشفرة البيولوجية الموجهة لهدف البقاء. نحن عبارة عن جين وبروتين، نحمي أنفسنا من العالم الخارجي بالجلد الذي يغطي أجسادنا، وأيضًا بالثقافة والدِّين اللذين يغلفان مجتمعاتنا!

تخاطب شفرة كل جماعة أيضًا أسئلة كبرى من عينة: ما القيم الأهم؟ ما مفهوم العدالة والإنصاف؟ ما واجبنا حيال الإله؟ ما الأفعال المحرمة التي لا يجوز أن نأتي بها أبدًا؟ ما الملبس الذي يُعد محتشمًا؟ كيف نتعامل مع الأغراب؟ ما دور الرجال والنساء؟ ما سُلطة كبار السن على مَن هم أصغر؟ ما سُلطة الأقارب؟ كيف نربي الأبناء؟

هذه الشفرة المعقدة تتسرب إلينا منذ اللحظة الأولى لميلادنا داخل الجماعة. لا نتعلمها في المدرسة. نتعلمها من كل شخص وكل حدث وكل شيء تقريبًا حولنا. من لمحات بسيطة. من حركات الجسد، وردود الأفعال، وتعبيرات الوجوه في المواقف المختلفة. من نظرات وإيماءات تكشف عن انفعالات محددة في لحظات بعينها (غضب/ اشمئزاز/ فرح/ حزن/ خوف). من استعارات اللغة والكلمات الحاملة لأكثر من معنى، والألعاب اللغوية المسلية. من وقائع ومواقف نسمع تعليقات أهلنا عليها. من حكايات متوارثة ترويها الجدات. من الأغاني والأشعار والأمثال والحكم والنكات والبذاءات. من الطقوس والاحتفالات والمناسبات الاجتماعية المختلفة..

الشفرة تتسرب إلينا - دون أن ندري - من كل هذه الينابيع المتدفقة. تنساب إلى وعينا - ولا وعينا - تيارًا مستمرًّا بغير انقطاع. تداهمنا بعنف حينًا، وبرفق حينًا، مستقرة في عمق أدمغتنا. هذه الشفرة هي طريقة حياة الجماعة. هي ما يسمى بالثقافة. الأطفال لا يلقنون الثقافة، وإنما هم يشاركون فيها منذ لحظة الولادة. يتعلمونها بالملاحظة والممارسة، تمامًا مثل «شفرة اللغة» التي يتعلمها الأطفال بصورة طبيعية في أي مجتمع. من دون مجهود أو معلم. أنتِ لم تتعلمي لغتكِ الأم في المدرسة بل من أسرتكِ والمحيطين بك. لا بد أن يحدث هذا في وقت مبكر من حياتك. لو نشأ طفل تعيس الحظ في بيئة ليس فيها أناس يلتقط منهم اللغة (كأن ينشأ حبيسًا في قبو، أو مفقودًا في غابة مثلًا)، فإنه بعد مرور عدد من السنوات بعيدًا عن المجتمع لن يكون قادرًا على تعلُّم أي لغة أبدًا مهما حاول لاحقًا. سيظل عاجزًا عن تركيب الجمل واستعمال النحو.

وكما أن اللغة هي «شفرة» مشتركة بين جماعة بعينها، لا يمكن على الآخرين من خارج الجماعة «كسرها» سوى بتعلمها، فإن ثقافة الجماعة وطريقة عيشها هي أيضًا «شفرة» بين أعضائها يستعصي على الآخرين فهم معانيها سوى بمعايشة الجماعة، وفك الرموز الكثيرة التي تحفل بها حياتها

المشتركة، كإشارات اليدين التي يستخدمونها للتعبير عن موقف بعينه، أو السبب الذي يدعوهم للضحك من سلوكٍ ما..

عندما تسمعين كلمة مثل «دي كوسة»! ما الذي تفهمينه؟ في سياق معين، سيصل إليكِ معنى ما يتعلق بالمحسوبية والواسطة. لو سمعكِ شخص أمريكي تتحدثين مع صديقتكِ وتذكرين هذه الكلمة، وحتى لو ترجمتِ له كلمة «كوسة» فإنه لن يفهم ما ترمين إليه. إنها «شفرة» بيننا في مصر. ستحتاجين إلى ترجمة المعنى، وليس فقط الكلمة.. أي إلى إعطاء هذا الأجنبي «مفتاح الشفرة». وربما يسألكِ الأمريكي لو كان فضوليًّا: ولكن لماذا تطلقون على الواسطة «كوسة»؟ أغلب الظن أنكِ لن تعرفي الإجابة!

لا أعتقد أنكِ تعرفين أن تجار الخضار في العصر المملوكي في مصر كانوا يضطرون للوقوف في طابور طويل آخر النهار لكي تُحصَّل منهم الضرائب والمكوس قبل دخول المدينة. كان يُستثنى من ذلك تجار الكوسة لأنها تفسد بسرعة، فكان يُسمح لهم بالدخول مباشرة دون الوقوف في الطابور. وعندما كان يعترض أحد على هذا الاستثناء يرفع التاجر يده قائلًا: «كووووسة». هذا هو أصل التسمية. جرى استخدام الكلمة بعد ذلك لتُشير إلى كل ما هو استثناء من القاعدة وخروج على «الطابور»، ليس فقط طابور تجار الخضار، ولكن أي «طابور» آخر من طوابير الحياة! ولكنكِ لا تحتاجين لمعرفة كل هذا لاستخدام كلمة «كوسة» في موضعها، تمامًا كما لا تحتاجين لمعرفة أي شيء عن نظرية المعلومات لاستخدام هاتفكِ النقال. نحن، كما تعلمين، نستخدم «شفرات» كثيرة لا نعرف أساس عملها، ولكننا نعرف بالضبط كيف نستخدمها، وفي أي شيء نوظفها، مثلنا مثل الفلاح القديم الذي طبق قوانين «مندل» دون أن يعرف شيئًا عن الوراثة. الشفرة الاجتماعية تعمل بالطريقة نفسها.

الثقافة هي الحل الذي أوجدته الجماعة - كل جماعة - لمواجهة معضلة زيادة عدد أعضائها. مع وجود الثقافة المشتركة، تصير بين جميع الأعضاء «شفرة» يفهمونها ويتعاملون على أساسها. يغدو تبادل المعلومات أسرع كثيرًا. كلمة واحدة مثل «كوسة» تغنيك عن شرح مستفيض. كذلك يصبح من الأسهل توقع سلوك الآخرين لأن الجميع يفهم الشفرة ذاتها ويتعامل بها. هذا يجعل التعاون بين الأعضاء في حالٍ أفضل. الثقة تتزايد. الأعراف تترسخ فيصير بالإمكان معاقبة المخادعين الذين يستغلون الآخرين، وردعهم. هكذا يمكن أن تتوسع الجماعة أكثر وأكثر فتصير قبيلة كبيرة العدد لا يعرف جميع أعضائها بعضهم بعضًا بشكل مباشر (بعض القبائل تضم مئات الآلاف).

ثمَّة تكتيكات معروفة استخدمتها الجماعات كافة لترسيخ «شفرتها»، وغرس الشعور لدى أفرادها بالانصهار في المجموع. الطقوس واحدة من أهم هذه

التكتيكات..

لماذا ندفن موتانا؟

الطقوس هي أفعال تتشارك فيها الجماعة، وتكون لها رمزية معينة. الرقص والغناء المشترك يُحدث هذا الشعور بالاندماج في المجموع. بعض القبائل يحتفظ بطقوس من «المعاناة المشتركة» لبث شعور الانصهار. يمكنكِ رؤية هذا إلى اليوم – مثلًا - في الطقس الشيعي الأشهر وهو «جلد الذات» الجماعي لإحياء ذكرى مقتل الحسين في كربلاء في يوم عاشوراء من كل عام. الشعور بالمعاناة يولد تعاطفًا مشتركًا. ويندر أن تجدي مجتمعًا، في الزمان الحاضر أو الغابر، من دون طقوس اجتماعية أو دينية أو وطنية. الأعياد الدينية توحد أبناء الدِّين الواحد خلال أيام معينة في العام، وتُشعرهم بالانتماء وبروح الجماعة.

كل عيد يكون مناسبة لاستذكار ركن مؤسس في العقيدة التي تدين بها الجماعة. الأعياد طريقة فعالة لنقل «الشفرة» وتوريثها إلى الجيل الأصغر. المقصود بالأعياد أن تكون أيامًا «غير عادية». لا تأكلين فيها ما تأكلين طوال العام، بل تأكلين طعامًا خاصًّا ومميزًا يحفر له حضورًا استثنائيًّا في ذائقتك، ومن ثمَّ في وعيكِ وهو بعدُ يتفتح على الدنيا. وأحيانًا تلبسين لباسًا معينًا، لا ترتدينه سوى في هذا اليوم. الطقوس التي نمارسها تتكرر كل عام فنشعر بامتداد جماعتنا عبر الزمن. الأطفال بالذات يتوقفون بالتساؤل أمام مغزى هذا اليوم «غير العادي» في حياة المجتمع.

تمنح المجتمعات أهمية خاصة، وتصوغ طقوسًا مميزة، لثلاث مناسبات مهمة في حياة كل فرد: دخول الحياة، وإعادة إنتاجها، والخروج منها! أي الميلاد والزواج والوفاة. إنها مناسبات مهمة لكل جماعة؛ لأنها تتعلق بالترحيب بالقادمين الجدد، أو وداع الراحلين. ربما لهذا السبب ظهر التأثير المفجع لوباء كورونا على المجتمعات التي ضربها بشدة. لقد حال الوباء، في ذروة تفشيه، دون أداء طقوس مهمة تتعلق بالجماعة. شاهدنا، في حزن وألم، أفرادًا يموتون وحيدين، من دون حتى وجود أحبائهم إلى جوارهم، ومن دون طقوس جنائزية. نحن غير معتادين على هذا. نحن لا نغادر جماعاتنا هكذا.. في هدوء قاس وبارد بلا وداع. نحن نبني القبور، وندفن موتانا في طقوس مهيبة، مفعمة بالجلال والرهبة.

بعض الكائنات، مثل الفيل والشمبانزي، يدفن الموتى من جماعته أيضًا. على أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي ابتدع طقوسًا معقدة لدفن موتاه. وإذا كانت جماعة «البارسيين»، وهم بقايا الزرادشتيين الذي يقطنون الهند حاليًّا، تمارس طقسًا عجيبًا بترك جثث المتوفين فوق أسطح المنازل لتحللها أشعة

الشمس أو تلتهما الطيور الجارحة، فإن أغلب الجماعات عبر التاريخ كانت تدفن موتاها في باطن الأرض. لا يرغب البشر في رؤية أجساد أحبائهم تتحلل. تذكري أننا لا نريد الاعتراف بحقيقتنا ككائنات بيولوجية فانية. إنها حيلة لإنكار الموت. الطقوس التي نمارسها في وداع الراحلين هي جزء مهم من «شفرة الجماعة» التي ننتمي إليها. هدفها أن نشعر نحن أيضًا أن جماعتنا لن تنسانا حين نرحل عنها، فنحصل على قبس، ولو ضئيل، من الخلود!

«شفرة الجماعة» هي أعز ما تملك. لماذا؟ لأنها الضامن لاستمرار الجماعة ذاتها عبر الزمن. الفرد له عمر محدد، بعده يفنى ويموت. الجماعة تبقى وتستمر. الفرد قد ينجح في صناعة نسخ أخرى تحمل الـ«دي إن إيه» الخاص به. الجماعة تحافظ على الـ«دي إن إيه» الخاص بها عبر استنساخ ثقافتها بتسريبها إلى أدمغة القادمين الجدد إليها.

عندما تكونين عضوة في جماعة، فأنتِ تعرفين أنكِ ستغادرين الحياة في لحظةٍ ما، وأن الجماعة ستبقى من بعدك؛ لذلك فإن الجماعة تبدو لنا ككيان راسخ كالطود، يكاد يقترب من ظواهر الطبيعة من حيث القوة والتأثير. كان موجودًا وقت ولدنا. هو مستمر بعد انسحابنا من المسرح وإسدال الستار. نحن مجرد «عابرين في كلامٍ عابر» كما قال الشاعر محمود درويش ذات مرة. هذا التصور يصيبنا بالرهبة الشديدة حيال المجتمع الذي نعيش فيه. الفرد بالنسبة للمجتمع الجبار، ليس سوى كائن صغير لا حول له ولا قوة. إنه مثل ترس في ماكينة ضخمة، أو كنحلة في مستعمرة نحل كبرى. المجتمع نفسه لا يتوانى عن تعميق وتكثيف هذا الشعور داخلنا بالضآلة والقزمية أمام هذا الكيان الكبير الخالد عبر الزمن.

ولكن كيف يحدث هذا؟ أليس المجتمع هو مجموع أفراده؟ كيف تولد، من الأفراد أنفسهم، تلك الآلة العملاقة ذات السطوة والهيمنة على حياتهم ومصائرهم وطرق تفكيرهم ووعيهم العميق؟

لقد رأينا في السابق كيف تتحول الأشياء البسيطة إلى مركبة. تابعنا كيف ينبثق نظام جديد، من العلاقات بين المكونات. المجتمع هو درجة أخرى من التركيب في قصتنا. من الأفضل عند هذه المرحلة أن تبدئي في تصور المجتمع بوصفه «كائنًا» مستقلًّا بذاته. إنه «نظام» يتجاوز مجرد مجموع أفراده. تمامًا كما أن الدماغ البشري نظام يتجاوز عدد الخلايا العصبية المكونة له. تعقُّد الوصلات بين الخلايا العصبية يُنتج لنا خاصية جديدة تمامًا في الدماغ (لا وجود لها في أي خلية عصبية على حدة) هي الوعي والتفكير. بالمثل، فإن تعقُّد وتداخُل العلاقات التي تربط الأفراد في المجتمع يُنتج لنا خصائص جديدة لهذا «النظام». لا يمكن فهم هذه الخصائص – فقط - من خلال فهم الأفراد، تمامًا كما لا نستطيع فهم عمل الدماغ من خلال فهم الخلية العصبية. لا بد أن

ننظر إلى «النظام» ككل. المجتمع كائن له كيان، وذاكرة، وعقل، وطريقة عمل، وشفرة تشغيل.

لذلك عندما تحدث ظاهرة على مستوى المجتمع، كأن تظهر عادة جديدة، أو صرعة مفاجئة، أو ينتشر نوع معين من الجرائم.. فإننا لا نبحث عن تفسير لهذه الظواهر على مستوى الأفراد، وإنما في نظام المجتمع نفسه. تكرار جرائم معينة مثلًا لا يكون سببه أن الأفراد صاروا فجأة أكثر ميلًا للانحراف. غالبًا ما يكمُن التفسير في خللٍ ما أو تغييرٍ طارئ في تفاعلات النظام والعلاقات بين أجزائه.. أي على مستوى المجتمع (زيادة التفاوت بين الطبقات مثلًا). في هذه الحالة فإن الحصول على «دي إن إيه» الأفراد يمكن أن يقودنا إلى مرتكب هذه الجريمة أو تلك. ولكن معرفة السبب الأصلي لتكرار جرائم بعينها يقتضي معرفة بـ «دي إن إيه» المجتمع.

ومن أجل الحفاظ على الشفرة، فإن الجماعات تعمد إلى استخدام «البرنامج» الأعمق تأثيرًا في النفس البشرية: الخوف..

نحن نتبع أعراف الجماعة وقواعدها لسبب بسيط: الخوف من الانعزال والرغبة في التماثل. أسوأ موقف يمكن أن يواجهكِ في فصلكِ الدراسي هو أن تجدي نفسكِ وحدكِ في مواجهة الفصل كله. أن يخرج الجميع، مثلًا، في رحلة من دونك. نحن نسعى دومًا لأن ننضم إلى «القطيع». نريد أن نكون مثل الآخرين، ولا نختلف عنهم. نشعر بالألفة عندما «نشبه» جماعتنا. هذا ما يحملنا على الالتزام بالقواعد التي وضعها المجتمع. نحن لا نتفاوض على هذه القواعد في كل موقف. فقط نتبع. الاتباع ركن مهم في الطبيعة البشرية. البشر لا يتوقفون أمام كل قاعدة أو عُرف بالتساؤل عن أصله وسببه العقلاني، ومدى الفائدة من ورائه. قواعد الجماعة وأعرافها وشفرتها تصبح شيئًا عاديًّا تمامًا بالنسبة لنا.

هل تعرفين مثلًا لماذا نعاف أكل الفئران؟ هل ثمَّة تفسير لهذا السلوك؟ إنه ليس سلوكًا فطريًّا في البشر جميعًا، بدليل أن ثمَّة شعوبًا أخرى تُقبل على أكل الفئران. نحن نشمئز من الفئران لأن هذا مستقر في شفرة جماعتنا. إنه سلوك نُقدم عليه من دون تفكير عقلاني في مدى فائدته من عدمها.

ثمَّة تجربة شهيرة في علم النفس أجراها العالم سولمون آش. هو قام بتوجيه أسئلة بسيطة إلى ستة أشخاص مثل تمييز الخط الأطول بين ثلاثة خطوط. الإجابة الصحيحة كانت واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار. خمسة من الأشخاص يكونون متواطئين في التجربة، والسادس هو موضوعها. الخمسة يعطون إجابة خاطئة متماثلة عن السؤال. أخمن أنكِ توقعتِ ما سيحدث:

عندما يأتي الدور على الشخص السادس (موضوع التجربة) نراه في الأغلب يتماشى مع إجابة الجماعة برغم علمه اليقيني بخطئها!

بعض مَن شارك في التجربة برَّر ذلك بأنه، وبرغم علمه بالإجابة الصحيحة، تردد في مخالفة الرأي السائد. البعض الآخر قال إنه اقتنع فعلًا – وبصدق - بأن إجابة الأشخاص الخمسة هي الإجابة الصحيحة! تصوري إلى أي مدى يمكن أن تذهب قوة الجماعة في تشويه رؤية الأفراد للواقع!

الرغبة في التماشي مع الجماعة شعور طاغٍ ومؤثر على أفعالنا. هو يبرز مبكرًا في حياتنا. أصل هذا الشعور يعود إلى جماعتنا القديمة في السافانا. الخروج عليها كان يعني البقاء في العراء. بلا سند في مواجهة المخاطر أو ظهر للحماية وقت الحاجة.

باستطاعة الجماعة أيضًا أن تغرس فينا فيروس الخوف غرسًا. الخوف، كما عرفتِ، هو برنامج قديم جدًّا زودتنا به الطبيعة حتى نستطيع البقاء في بيئة خطرة وقاتلة. غير أن الخوف يمكن أن يُصنع أيضًا..

تأملي قصة فيلم «ترومان شو» التي تدور حول مدينة مصطنعة بالكامل تقوم على جزيرة. أناسها جميعًا ممثلون في برنامج يُبث على مدار الساعة من نوعية «تلفزيون الواقع». «ترومان»، الذي قام بدوره الممثل جيم كاري، هو الشخص الوحيد الذي لا يعرف ذلك ويتصور أن حياته حقيقية في هذه المدينة/الأستوديو، وأن مَن حوله جميعًا أناس حقيقيون وليسوا ممثلين. هو بطل هذا البرنامج الذي يشاهده الناس على سبيل التسلية. ولكن كيف يمكن الإبقاء على «ترومان» في هذه المدينة طول حياته؟ ماذا لو فكر في السفر؟ هنا يأتي دور فيروس الخوف. لقد اختلق مخرج البرنامج موقفًا مصطنعًا وتمثيليًّا يفقد فيه «ترومان» والده غرقًا وهو طفل. هكذا تولدت لديه عقدة شديدة من ركوب البحر، فلم يفكر أبدًا في مغادرة المدينة/الجزيرة!

الجماعات تتبع الأسلوب نفسه في غرس مخاوف معينة في أعضائها منذ الطفولة الباكرة. نحن نحمل معنا هذه المخاوف عبر رحلة الحياة دون أن نشعر بها لأنها تمتزج بوجداننا بصورة يستحيل معها التعرف على أصلها الغائر أو إدراك طبيعتها وتأثيرها البالغ علينا.

«شخصية الإنسان» يمكن أن تُصنع وتُشكل بواسطة المجتمع. هذا يحدث بصورة طبيعية. «أعطني طفلًا في السابعة من عمره وسوف أريك الرجل». هذه العبارة المنسوبة للقديس إيجناسيوس لويولا - مؤسس النظام اليسوعي المعروف بصرامته الشديدة - تعكس بالضبط ما يمكن للمجتمع، باستخدام شفرته الخارقة، أن يفعله في الفرد. هل خطر ببالكِ يومًا أن كل خطوة تخطينها في حياتكِ تكون على طريق مرسوم بواسطة آخرين؟ في المدرسة

ثم في العمل والحياة والزواج.. كلنا نسير على طرق رسمها وعبَّدها لنا المجتمع قبل أن نولد. نحن لا نصنع مسارات، وإنما نسير في مسارات مصنوعة بالفعل. ربما كان هذا أحد أسباب شعورِكِ بالقلق وأنتِ على وشك إنهاء الدراسة الثانوية وولوج مرحلة جديدة في حياتك. أنتِ ترفضين في داخلكِ أن تكوني مجرد عابرة جديدة في طرق صنعها آخرون!

في الجماعة نتعلم أيضًا السيطرة على الذات والتحكم في سلوكنا. بل نتعلم التحكم في طريقة تفكيرنا، وفي مشاعرنا تجاه الأشياء. نحن نفعل ذلك لكي نلبي ما هو مطلوب منَّا، ولكي نكون على مستوى توقعات الجماعة، التي توفر لنا الأمان والبقاء. إلى يومنا هذا، ما زالت الجماعة هي سبب بقائنا حرفيًّا. فكري في الأمر: أنتِ لا تُعالجين نفسكِ بنفسكِ في حال المرض. لا تأكلين غذاءً زرعته بيديك. بقاؤكِ حيَّة يعتمد على الآخرين.. على المجتمع؛ لذلك عندما تتوقع منكِ الجماعة سلوكًا معينًا، عليكِ أن تتحكمي في ذاتكِ لتلبية هذا التوقع. في الجماعة نحن نُلزم أنفسنا بأشياء قد لا تروق لنا بالضرورة.

نحن نمارس هذا التحكم الذاتي في سلوكنا في كل لحظة. هي عملية بالغة الأهمية لأننا نعيش في مجتمعات لها قواعد معينة. لا شيء ينجح في المجتمع من دون قواعد، أي «نظام تشغيل» متفق عليه. الحقيقة أنه في غياب القواعد لا يوجد مجتمع من الأصل!

الشعور بوطأة القواعد في الحياة يداهمنا في لحظة مبكرة من حياتنا. مرة ثانية: راقبي أخاكِ الصغير وهو يمارس اللعب مع أقرانه. ستلاحظين أنه لا يستطيع تقبل فكرة وجود قواعد للعب في كل الأحيان. لا يلتزم بالدور في لعبة «الاستغماية» أو «الغُميضة» كما يسميها البعض. يريد أن يكون في دور المختبئ لا الباحث في كل مرة. صعب أن نقنعه بأن ما يفعله لا ينسجم والقواعد. لن يفهم. عندما يصبح عمره ست أو سبع سنوات ستتكون عنده فكرة مبسطة عن الإنصاف والقواعد. كيف يكتسبها؟ من التفاعل مع أطفال آخرين واللعب معهم. سوف يدرك شيئًا فشيئًا أن هناك قواعد للعب لا بد من احترامها وإلا فسدت اللعبة كلها. ساعتها، سيتكون عنده رفض تلقائي لمَن يخرقون القواعد باعتبارهم يأتون بفعل «غير أخلاقي». سيُدرك أن لعبته البسيطة هي أيضًا «مؤسسة» لها قواعد مستقرة ليس من السهل تغييرها. أول دروسنا في المؤسسات والقواعد نتلقاه في اللعب ونحن أطفال!

المجتمع الذي تعيشين فيه يتكون من مجموعة من المؤسسات: (المدرسة والجيش والشركة التجارية والنادي الرياضي.. إلخ). المؤسسات هي قواعد معينة، مستقرة ومتفق عليها، لتنظيم العلاقة بين مجموعة من البشر لإنجاز مهمة ما. أبسط المهام في المجتمع يحتاج إنجازها إلى قواعد. عندما تذهبين

إلى «ماكدونالدز» ثمَّة قواعد معينة: تقفين في الصف، يتم استدعاؤك، تحملين طبقك.. هذه كلها قواعد متفق عليها لإنجاز مهمة معينة. ستلاحظين أن أنجح المؤسسات، عبر التاريخ، هي تلك التي لها قواعد واضحة مستمرة أو «نظام تشغيل» ثابت عبر فترة ممتدة من الزمن، مثل المعبد الفرعوني والكتيبة الرومانية والأديرة المسيحية ومدارس المساجد الإسلامية والبيروقراطية الصينية ونظام المصنع في العصر الحديث.

القانون والأخلاق وسيلتان مهمتان لضبط السلوك. هما ليسا الشيء نفسه، ولكن بينهما مشترك: كلاهما يهدف إلى ضبط سلوك الأفراد وإلى دفعهم دفعًا إلى تحمل المسئولية عن أفعالهم الذاتية (فكرة المسئولية هذه هي جوهر أي منظومة قانونية). هكذا نجحنا في استئناس أهم كائن في قصتنا: أنفسنا! نحن لم نستأنس النبات والحيوان فحسب، وإنما استأنسنا الإنسان نفسه عبر «أدوات اجتماعية» مختلفة. بسبب العيش في جماعة لها قواعد، صرنا طيعين وودعاء، ويُمكن توقع سلوكنا إلى حد بعيد.

ربما تكون قصتنا على الأرض، في آخر الأمر، قصة جماعات وليس أفرادًا. هناك سبب قوي كما ترين للتفكير على هذا النحو. قوة البشر الأساسية تكمُن في الطريقة التي يعيشون بها في جماعات ظل حجمها يتسع باستمرار. هذه الطريقة في العيش تتيح تراكمًا في المعارف والخبرات عبر فترة زمنية تتجاوز عمر الإنسان الواحد. الجماعة البشرية لا تتطور بالطفرات الجينية، كالكائنات الحية، وإنما بالتراكم في الثقافة. بمعنى ما، حياتنا أكبر كثيرًا من أعمارنا على الأرض. نحن نبدأ من حيث انتهى الجيل السابق. وفي لحظات معينة تحدث طفرات في «شفرة المجتمع» تؤدي إلى تغيير الطريقة التي نحيا بها، بدليل أننا لا نحيا اليوم بالطريقة نفسها التي كانت تعيش بها الجماعة التي سكنت الأرض نفسها، أرض مصر، في زمن الحضارات القديمة. نحن نتكلم لغة مختلفة، وندين بعقائد غير عقائد المصريين القدماء. كيف حدث هذا؟ عبر «طفرات اجتماعية» متتابعة جرت عبر ألفي عام تقريبًا تفصلنا عن زمن احتضار الحضارة المصرية القديمة. نحن نستطيع «إعادة اختراع» طريقة حياتنا على أي نحوٍ نريد تقريبًا. أليس ذلك رائعًا يا عزيزتي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بابا العزيز..

الحقيقة أن ذلك ليس رائعًا على الإطلاق!

كلامك عن «الشفرة الاجتماعية» التي أحملها في داخلي ملأني خوفًا، وأصابني باليأس. معنى ما تقول هو أنني مبرمجة بشفرة بيولوجية وأخرى اجتماعية. أين أنا من هذا؟ أين إرادتي الحرة في اختيار الطريق التي أريد، إن كانت الطرق كلها مصنوعة سلفًا، والقرارات والاختيارات مبرمجة في داخلنا دون أن ندري؟ نحن نحب ونكره ما تريده لنا الجماعة، ونأسى ونفرح لما تريده لنا الجماعة. قصتنا، كما قلت، هي قصة جماعات وليس أفرادًا. هي قصة «نحن» وليس «أنا».

مع ذلك فإن هناك أمرًا ما زال غامضًا بالنسبة لي: لماذا لا تحتفظ المجتمعات كافة بـ «شفرة اجتماعية» واحدة؟ هل الشفرة التي تشغل مجتمعًا من المجتمعات لا تصلح لآخر؟ ولماذا عشنا، ولا نزال، في جماعات مختلفة؟ إذا اتفقنا في أن طبيعة البشر واحدة، وأن الفروق الجينية بينهم لا تُذكر، فلماذا إذن لا يعيشون في جماعة واحدة كبيرة؟

ليلى

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الرسالة السادسة

الجماعة ضد الجماعة

«من الجيد أن تكون الحرب بهذه البشاعة،

وإلا كنَّا أحببناها بشدة»

الجنرال الأمريكي روبرت لي

(1807م-1870م)

ابنتي الحبيبة..

تساؤلكِ في محله. الإجابة عنه ليست سهلة؛ لأنها ستأخذنا إلى مناطق مظلمة للغاية في قصتنا. مناطق نخجل منها، بل وننكر وجودها أحيانًا. مع ذلك، فإذا أردتِ أن تعرفي الإجابة عن أسئلتك، عليكِ التحلي بالشجاعة الكافية لمواجهة جانبنا المظلم. ربما تكون نقطة البداية هي الأزمة الإنسانية الأسوأ والأشد قسوةً في زماننا..

عدن مدينة مأساة. هي من النماذج الحية القليلة الباقية على قسوة ماكينة التاريخ. داهمها فرسان الموت الأربعة المذكورون في سفر الرؤيا ليوحنا: الحرب والمجاعة والوباء والموت.. في الوقت نفسه! الجفاف يؤدي للصراع، والصراع يقود للمجاعة، والمجاعة تُضعف المناعة، فتتفشى الأوبئة. الحرب الأهلية في اليمن مستمرة منذ عام 2015م، وحتى كتابة سطور هذه الرسالة. الحكومة المركزية لا وجود لها تقريبًا. في مايو 2020م أُعلنت عدن مدينة موبوءة. فيروس كورونا كان ينتشر بسرعة مخيفة. آلاف المصابين سقطوا ضحايا له. الأطباء فرُّوا خوفًا من الإصابة. أُغلقت مستشفيات عدن، ولم تعُد تقبل حالات الكورونا خوفًا من العدوى. غير أن طبيبة وحيدة، اسمها «زُهى»، رفضت الفرار وظلت تعالج الحالات المصابة. «زُهى» كانت استثناءً في مدينتها.

مئات الآلاف من الطواقم الطبية، عبر العالم، تصرفوا على هذا النحو الشجاع والنبيل. خاطروا بحياتهم. عرَّضوا أنفسهم وأحباءهم لخطر داهم. تضحيات الأطباء وأطقم التمريض كانت حاسمة في إنقاذ مئات الآلاف من موت محقق على يد الفيروس الفتَّاك.

الآن دعيني أسألكِ: لماذا فعلت «زُهى» ذلك؟ ما الذي يدفع المرء للمغامرة بحياته على هذا النحو من أجل الآخرين؟ لماذا وضع عشرات الآلاف من الأطباء عبر العالم حياتهم على المحك، مثل «زُهى»، من أجل إنقاذ الأرواح؟

لا توجد هنا علاقة تبادل مثل تلك التي تحدثنا عنها وفق مبدأ «واحدة بواحدة»، فالأطباء يخاطرون بحياتهم نفسها. هذا هو نفس ما يفعله الجنود في المعركة. يذهبون إلى الموت من أجل الآخرين. حياة المرء لا يمكن أن يكون لها سعر محدد مهما غلا. هي، بالنسبة للفرد، لا تُقدَّر بثمن. لا يمكن مبادلتها بأي شيء. لو قدَّم المرء حياته ذاتها، فلن يكون في وضع يسمح له بالحصول على أي شيء في المقابل!

هذا السلوك يبدو مناقضًا لمسار قصتنا على طول الخط. كيف تتعطل غريزة البقاء على هذا النحو العجيب لدى بعض البشر على الأقل؟

الإيثار يعني أن تفعلي شيئًا للآخرين، حتى ولو جاء على حسابك. هو سلوك عجيب لأنه يناقض فكرة الصراع وانتخاب الطبيعة للأصلح كما ذكرتِ أنتِ في رسالتك. لقد رسم «داروين» صورة قاسية للطبيعة. الكائنات تعيش «بالأسنان والأظافر» في منافسة شرسة من أجل البقاء. الهدف هو توريث الجينات للجيل التالي. في عالمٍ كهذا.. الإيثار يضر ولا يفيد. التعاون مع الآخرين لا يساعدكِ في معركة البقاء. فكيف نفسر الإيثار؟ كيف نفسر تلك النزعة لمعاونة الآخرين؟ على أي وجه نفهم مشاعر التعاطف السائدة بيننا في مجتمعاتنا؟

الحقيقة أن هذا اللغز حيَّر «داروين» لأنه هدد بهدم نظريته كلها. قال في كتابه «نشأة الإنسان»: «إن هذا الذي يُبدي الاستعداد للتضحية بحياته، عِوضًا عن خيانة رفاقه، لن يخلف ذرية وراءه ترث طبيعته النبيلة تلك».

المدهش أن السلوك الإيثاري موجود في الطبيعة. الخفافيش، مثلًا، تقوم بالصيد عبر مص دم الضحايا في ساعات الليل. ولكن يحدث كثيرًا أن يعود خفاش من دون صيد. لو ظل الخفاش من دون طعام أكثر من 60 ساعة فإنه يُفارق الحياة على الفور. ما تفعله جماعة الخفافيش لتجنب هذا المصير هو أمر مدهش حقًّا. يقوم الخفاش الذي ظفر بالصيد بنقل الدم من فمه إلى فم الخفاش الذي خاب سعيه. بهذا تحيا الجماعة.. جماعة الخفافيش. يقدر العلماء أنه في غياب هذا السلوك، كانت الجماعة ستفقد 80% من أفرادها في عام. قمة الإيثار!

تأملي أيضًا عالم الحشرات الاجتماعية، مثل النمل والنحل. هذه الحشرات تعيش في جماعات كبيرة مثل الإنسان، ولديها تقسيم صارم للعمل. النحلات العاملات تكون عقيمة، ولكنها ترعى صغار النحل الذي لم تلده! وثمة نحلات تكون مهمتها البحث عن الغذاء، وأخرى تدافع عن المستعمرة عبر قرص المهاجمين. ولكن العجيب أنها تموت خلال العملية، أي إنها تقوم بعملية «انتحارية» بتعريفنا العسكري المعاصر. هذه المجموعة العقيمة تضحي

بحياتها من أجل الجماعة من دون تحقيق الهدف الأعلى لكافة الكائنات الحية التي صادفناها في قصتنا، من الفيروس إلى الإنسان، وهو إنتاج مزيد من النسخ من ذاتها. إنها تُظهر أعلى درجات الإيثار من أجل الآخرين. النحل العامل والنمل المقاتل الذي يدافع عن المستعمرة يفعل الشيء نفسه: يُضحي بنفسه من أجل بقاء الجماعة، دون أن يُنتج ذرية. الأعجب أن هذا السلوك الإيثاري ينتقل أيضًا من جيلٍ إلى جيل، فتظهر في كل جيل نحلات مستعدات للتضحية من أجل الخلية، ونمل مستعد للموت من أجل بقاء المستعمرة!

يبدو أن هناك مستوى آخر لمبدأ «البقاء للأصلح». مستوى الجماعة وليس الفرد. الجماعات التي يسود بين أفرادها هذا السلوك الإيثاري تكون لديها فرصة أفضل للبقاء من غيرها. الجماعات التي تعمها الأنانية وحب الذات.. تندثر. هذا هو الحل نفسه الذي توصل إليه «داروين» فيما بعد لهذا اللغز المحير.. لغز الإيثار. كتب يقول: «لا شك في أن القبيلة التي تضم عددًا كبيرًا من الأعضاء المستعدين دومًا لمساعدة بعضهم بعضًا، وللتضحية بحياتهم من أجل المصلحة العامة.. سيُكتب لها الانتصار على معظم القبائل الأخرى».

هذا ما يفسر سلوك الطبيبة «زُهى» في عدن. هو أيضًا السبب وراء تضحية الجنود بحياتهم في المعارك. ولكن يبقى السؤال: كيف تستطيع الجماعة توليد مثل هذا السلوك، المنافي للفطرة، في بعض أفرادها؟ بعبارةٍ أخرى: كيف تُنتج المجتمعات البشرية «النحل المضحي» الخاص بها؟

من الواضح أن المجتمعات تفعل هذا تحت ضغط صراع رهيب. إنه صراع أشبه بالصراع القائم في الطبيعة نفسها بين المخلوقات، والذي أفرز قانون «البقاء للأصلح».. أعني هنا صراع الجماعة البشرية ضد الجماعة البشرية.

جذور الكراهية

لماذا تتصارع الجماعات البشرية؟

ثمَّة سبب مباشر يسهُل عليكِ تصوره يتعلق بالمنافسة على موارد محدودة، وهو نفس سبب الصراع والمنافسة في عالم الحيوان في الطبيعة. ولكنْ هناك سر آخر يكمُن في الشفرة!

لقد رأيتِ أن «الشفرة الاجتماعية» للجماعات المختلفة تعمل بطرق متشابهة للغاية، وأن الجزء الأغلب منها متماثل. على أن قسمًا معتبرًا يحمل اختلافات تميز المجتمعات عن بعضها بعضًا.

لماذا لا تتبنى المجتمعات كلها «شفرة اجتماعية» واحدة؟

إنه السبب نفسه وراء التنوع البيولوجي: كل بيئة تفرز تحدياتها. المجتمعات أيضًا تستجيب لتحديات البيئة بصور شتى. التفاعل بين المجتمع والبيئة، يُشبه إلى حد كبير التفاعل بين الكائن الحي وبيئته المحيطة. المجتمعات تستخدم قواعد متشابهة، ولكنْ كل منها يطوِّر «تنويعات» مختلفة للشفرة الاجتماعية. المجتمع الواحد يمكن أيضًا أن يطور «شفرته» عبر الزمن في صورة «طفرات»، ولكن هذا يحدث بصعوبة شديدة وتكلفة عالية.

مثلًا: في المجتمعات التي تسكن الجبال تتولد «شفرة اجتماعية» انعزالية ومكتفية ذاتيًّا. الجبل كان دومًا صديق الهاربين العازفين عن الاتصال بالآخرين. في المجتمعات النهرية تجدين «الشفرة الاجتماعية» تقوم على التراتبية الصارمة بسبب الحاجة إلى التنظيم والقيادة المرتبطة بالري. تظهر تلك النزعة بوضوح في الصين ومصر والهند وبلاد الرافدين. في المجتمعات الرعوية الرحَّالة نلمس دورًا أكبر لروابط الدم والقرابة، ولغرس مهارات القتال من أجل التعامل مع قسوة البيئة. لا وجود في مثل هذه المجتمعات للدولة المركزية، كما عرفتها الحضارات النهرية مثلًا؛ لذلك تسودها ثقافة الثأر والانتقام، كطريقة لردع التجاوز والاعتداء. أما في المجتمعات الساحلية فتجدي «الشفرة الاجتماعية» منفتحة، ترحب بالغريب الوافد، سواء كان هذا الغريب شخصًا، أو سلعة، أو فكرة؛ لذلك ظهر الكثير من الأفكار الكبرى - كالفلسفة اليونانية مثلًا - في مدن الساحل.

هذه التنويعات من المجتمعات تختلف فيما بينها في أجزاء من الـ«دي إن إيه» الاجتماعي. اختلافات قد تكون ضئيلة ولكنها حاسمة. مع الوقت، يزداد التباعد بين المجتمعات. يتعمق شعور كل مجتمع بتميزه واستثنائيته. ينمو الاقتناع بداخله بتفرده وتفرد «الشفرة الاجتماعية» التي يعمل على أساسها.

وإذا كنا كأفراد نشعر بأننا في مركز العالم، فالمجتمعات بدورها تشعر بذات الشعور. كل جماعة تشعر بأنها – حرفيًّا - في مركز الكون. بل ترى أن الكون خُلق من أجلها! ومثلما يُمثل شعورنا بهذه المركزية جزءًا مهمًّا من شخصيتنا، فإن المجتمع أيضًا يستمد قوة هائلة من شعور المركزية والتميز. كل مجتمع من المجتمعات لا يرى أن لديه «شفرة» خاصة به. إنما يرى أن «شفرته» الخاصة هي شفرة كونية! هناك الآلاف من قصص خلق الكون أنتجتها الجماعات المختلفة عبر التاريخ. المشترك بينها جميعًا أن الجماعة المنتجة للقصة تكون غالبًا في مركز عملية الخلق هذه!

اليابانيون شعروا بأن بلادهم هي العالم بأسره، ولم يفكروا أبدًا في أنهم معزولون عن الآخرين، بل ظنوا أنه لا يوجد عالم خارج جزيرتهم. حتى الصينيون، أقرب جيرانهم، لم يتواصلوا معهم حتى سنة 600 ميلادية. الصين كانت تطلق على نفسها «المملكة الوسطى» لأن الصينيين تصوروا أن بلادهم

تقع في مركز العالم. الجغرافيا لا تهم هنا. إلى اليوم، ستلاحظين أن الخرائط الصينية للعالم تختلف عن الخرائط كما نعرفها، إذ تقع الصين في الصدارة! عبر التاريخ، نظر الصينيون لمَن هم خارج حدودهم باعتبارهم متوحشين برابرة. لفظ «برابرة» جاء من اليونانية. أصله مَن لا يستطيع نُطق اللغة اليونانية فيكون كلامه غير مفهوم «بر بر بر». لقد تصور اليونانيون أنهم المتحضرون والباقون «برابرة»! امتد الوصف ليشمل كل مَن هو خارج المجتمع «المتحضر». يندر أن تجدي إمبراطورية كبرى من دون «برابرة غير متحضرين» يتربصون على حدودها، ويسعون لنهب خيراتها.

الشعور بمركزية المجتمع وبعالمية «شفرته الاجتماعية» الخاصة، هو ما يدفعكِ لاستغراب عادات الآخرين، أو حتى رفضها بالكامل. رفضنا للجماعات الأخرى يرتبط، على نحوٍ خفي وتلقائي، بالانتماء لجماعتنا. هو بذرة تنمو بداخلنا منذ لحظة الميلاد. العنصر الأساسي فيها هو «الشفرة الخارقة» التي تستخدمها كل المجتمعات في صناعة ثقافتها.. أقصد اللغة. التحدث بألسنة مختلفة حاجز صلد بين البشر؛ إذ إن «شفرة» اللغة تُشكل المادة الأساسية التي يستخدمها كل مجتمع في تشييد بناء معقد هو ثقافته الخاصة.

تبين أن الطفل الصغير، وعمره عشرة شهور، يمكنه أن يقبل دُميةً من شخص غريب، لا ينتمي إلى عِرقه نفسه، ويختلف في صفاته الجسدية والشكلية عن جماعته، طالما كان هذا الشخص يتحدث لغته نفسها. لاحظي أن الطفل في هذا العمر لا يتحدث أي لغة. غير أنه يقيم علاقة ألفة مع «لغته الأم» لتكرار سماعه لأنغامها وجرسها المميز ممَّن حوله. اللغة مكون جوهري في شعور الجماعة بذاتها. الشاعر محمود درويش لخص هذا المعنى في عبارة بارعة موحية: «أنا لغتي».

كراهية الجماعات الأخرى تحدث ببساطة مرعبة. أظهرت تجارب علم النفس أيضًا أن تقسيم مجموعة من الأشخاص إلى جماعتين، وفقًا لأي معيار، كفيل بشحذ شعور المنافسة والخوف والشك لدى كل جماعة إزاء الأخرى. هل تتصورين هذا؟ يعني لو قسَّمنا فصلكِ الدراسي لجماعتين على أساس عشوائي، ثم اخترنا أن يرتدي أحد الفريقين قمصانًا زرقاء، والآخر قمصانًا برتقالية.. فما يحدث هو أن شعورًا تلقائيًّا بالألفة يتولد لدى أصحاب الزي الأزرق تجاه بعضهم بعضًا، مع شكوك وعدم ارتياح لأصحاب الزي البرتقالي!

الكراهية تعمل وفق آلية بسيطة للغاية: نحن نتعاطف ونتواصل بسهولة أكبر مع مَن يشبهوننا، ونتشكك ونتوجس من المختلفين والأغراب. أهم أوجه الشبه التي تجذبنا لمَن هم شبهنا ليس التقارب في الشكل الخارجي فحسب، بل تقارب «الشفرة الاجتماعية»، أي اللغة والقيم والثقافة.. كما رأينا في حالة

الطفل الوليد الذي يقبل الهدية ممَّن يتحدث لغته، حتى ولو كان يختلف عن بني جلدته في الشكل الخارجي.

لهذا السبب ستلاحظين مثلًا أن قسمًا لا بأس به من المشكلات التي تتناولها نشرة الأخبار كل يوم يتعلق بتوترات تحدث بين المهاجرين وأبناء البلد الذين يعيشون فيه. هناك نحو ربع مليار مهاجر في العالم اليوم. المهاجر هو شخص يقطن بصفة دائمة في بلد غير ذلك الذي ولد فيه. أصل مشكلات المهاجرين هو التنافر بين «الشفرة الاجتماعية» التي يحملونها، وتلك السائدة بين أبناء المجتمع الذي يهاجرون إليه. لو أن المهاجرين تمسكوا بشفرة المجتمعات التي جاءوا منها، لأصبحوا أغرابًا في موطنهم الجديد. لو أنهم بدلوا «الشفرة»، لصاروا أغرابًا عن أنفسهم!

ولو أن المشكلات بين الجماعات تقف عند حد الكراهية لهان الأمر. ولكن الكراهية تولِّد ما هو أقسى وأشد مرارة: العنف والدم. تحت وطأة هذه الضغوط والمخاوف تُولد، ويا للعجب، عواطف المحبة والإيثار والتضامن بين أبناء الجماعة الواحدة، التي تُتيح للجماعة البشرية أن تُنتج أشخاصًا مثل الطبيبة «زُهى». تعالي ندلف أكثر إلى السراديب المعتمة في قصتنا، ففي هذه السراديب سنصادف أيضًا مصابيح مدهشة..

الحرب

نحن جنس خطير للغاية. ليس أدل على ذلك من أننا استطعنا تسلق السلسلة الغذائية. تحولنا من فريسة إلى مفترس. تمكنَّا من محق المنافسين كافة، بما في ذلك هؤلاء الذين ينتمون إلى أجناس بشرية شبيهة بنا، مثل إنسان نياندرتال الذي عاش لآلاف السنين في أوروبا، قبل أن يختفي على نحو غامض منذ 40 ألف سنة، أي في نفس توقيت وصولنا، نحن البشر، إلى هذه القارة.

نحن أيضًا نُشكل خطرًا على بعضنا بعضًا. ليس فقط على مستوى الأفراد، ولكن على مستوى جماعي. نحن نمارس العنف كجماعات. نُطلق على هذا السلوك الدموي العجيب مسمى الحرب. أغلب الظن أننا تعلمنا ممارسة هذا القدر من العنف القاتل من النشاط الأساسي في حياتنا قبل الزراعة: الصيد.

الصيد دفعنا لابتداع أدوات تصلح للقتل. فكري في الأمر: كيف تقتل الكائنات الحية بعضها بعضًا؟ يحتاج الكائن المفترس إلى أن يقترب من الفريسة، ثم يقتلها بأظافره وأسنانه. الآن.. انظري إلى أظافركِ وأسنانك. إنها ليست مجهزة لهذه العملية الدموية. لهذا السبب احتجنا إلى استخدام أدوات في قتل الحيوانات. الأفضل بالطبع هو أن نفعل ذلك من مسافة ودون التحام قدر

الإمكان.. أي إننا احتجنا إلى أسلحة. سرعان ما أدرك بعضنا أن السلاح، حجرًا كان أو رُمحًا أو سهمًا، يمكن أن يُستخدم أيضًا في قتل كائن بشري.

الصيد علمنا أيضًا التعاون والعمل الجماعي من أجل ممارسة القتل. ذلك هو تعريف الحرب! إنها نشاط ينطوي على أعلى درجات التعاون والتنسيق من أجل ممارسة القتل. الفارق الأساسي بين الحرب وغيرها من أشكال العنف، مثل الشجار في الشارع، هو أن الحرب نشاط منظم غاية التنظيم تمارسه جماعة بشرية في مواجهة جماعة بشرية أخرى. البعض اعتبر أن ضحايا العمل العسكري (بين دولتين) لا بد أن تصل إلى ألفٍ على الأقل حتى يُسمى حربًا.

القتال الجماعي سلوك عجيب لأننا لا نجده في مملكة الحيوان. الشمبانزي يمارس العنف. هو أيضًا يعيش مثلنا في جماعات، ولكن جماعات صغيرة العدد؛ لأنه لا يملك «شفرة» اللغة التي تمكنه من تضخيم حجم الجماعة. تمارس جماعات الشمبانزي العنف، ولكن ليس بأسلوب المعارك الجماعية المنظمة الذي يتفرد به البشر. لا كائن يمارس القتل الجماعي مثلنا. لا يوجد حيوان قادر على هذا المستوى المعقد من التعاون الذي تتطلبه الحرب!

لا نعرف على نحو قاطع إن كانت جماعات الصيد والالتقاط قد تورطت في ممارسة العنف الدموي على نطاق واسع. على أننا نعرف يقينًا أن ممارسة العنف اتخذت منحنى أخطر بكثير مع الزراعة كما ستعرفين لو واصلتِ قراءة رسالتي القادمة. عندما تعيشين حياة الاستقرار التي تربطكِ بقطعة معينة من الأرض، تصبحين أكثر عرضة للهجمات. ثمَّة وسيلتان لا ثالث لهما للحصول على الموارد. أن تُنتجي غذاءكِ بنفسك، زراعة أو رعيًا للحيوان، أو أن تحصلي على موارد الآخرين، سلبًا ونهبًا. المزارع لديه مخزون يمكن أن يكون عرضة للنهب. عنده ما يخشى عليه، ويحتاج لحمايته. هذا ما جعل صراعات عصر الزراعة أشد ضراوة ودموية.

من جانبٍ آخر، فإن التعرض للعنف هو ما يدفع إلى التعاون بين عدد أكبر من الناس. قدرة البشر على التعاون ليست نقيضًا لنزعتهم إلى العنف، بل إن التعاون - ولغرابة الأمر - هو شرط ممارسة العنف على نحو أكثر كفاءة وتنظيمًا!

لهذا كانت القبيلة، وليس الجماعة الصغيرة، التنظيم الاجتماعي الأكثر استمرارًا عبر التاريخ، ذلك أن القبيلة يمكنها تكوين جماعة محاربة كبيرة العدد نسبيًّا، ولها قائد. في وقت الحرب تكون لهذا القائد سُلطة «الحياة والموت» على الناس. تتحلق حوله مجموعة من المحاربين، أو الفتوات، تقوم بحمايته. يمكنكِ أن ترصدي هذا المشهد نفسه اليوم بين أمراء الحرب

والعصابات. هذه المجموعة تحصل على مكانتها في المجتمع بسبب قدرتها الخاصة على استخدام السلاح والتنظيم وقت الحرب.

القبائل ظلت لفترة طويلة جدًّا، وبسبب قدراتها العسكرية، قوة هائلة في التاريخ، خاصة إذا توفر لها الحصان. المغول غزوا العالم بهذه الطريقة في القرن الثالث عشر الميلادي، وكذا فعل الموحدون في إسبانيا في القرن الثاني عشر، وقبل هؤلاء وأولئك لعبت قبائل الهون دورًا حاسمًا في تدمير الإمبراطورية الرومانية، بعد أن زحفت من الشرق فدفعت في طريقها قبائل أخرى، مثل القوط، لتهاجم روما بداية من القرن الثالث الميلادي. ويمكنكِ أن تلاحظي بسهولة أن الدول الأوروبية الحديثة مثل ألمانيا وإنجلترا، تستمد أسماءها من قبائل أوروبية قديمة هي الألمان والإنجليز.

القبائل لديها ميزة أخرى مهمة هي أنها توفر الضمان الاجتماعي لأعضائها. أنتِ اليوم تسعين للحصول على وظيفة جيدة لأسباب كثيرة من بينها ما توفره لكِ من مزايا ومساعدات عندما تصبحين غير قادرة على العمل لأي سبب كالمرض مثلًا، أو عندما تصلين إلى سن المعاش وتحتاجين للرعاية الصحية. نحن ندفع الضرائب أيضًا لهذا السبب؛ لأننا في يوم ما سوف نستفيد من نظام الرعاية الاجتماعية والمعاشات الذي توفره الدولة. في الزمن القديم، كانت القبيلة هي التي توفر لكِ هذا الضمان. من مصلحتكِ أن تكوني عضوة في قبيلة ضخمة وقوية ومترابطة؛ لأن هذا ما يمنحكِ ضمانًا معقولًا في مواجهة تقلبات الدهر والزمن. ستجدين مَن يقف إلى جوارِكِ ويأخذ بيدكِ في وقت الشدة. عندما تولدين في قبيلة، فأنتِ تنشئين بين أبنائها صغيرة، تعرفين أقرانكِ واحدًا واحدًا، تكبرون معًا وتتوطد بينكم رابطة أبدية. هذه الرابطة هي الصورة القديمة لنظام «الضمان الاجتماعي» والمعاشات الذي نعرفه اليوم في دولنا المعاصرة وفي الشركات والمؤسسات التي نعمل بها.

الضمان الذي توفره القبيلة عبر الحياة، والرابطة الإنسانية الوطيدة بين أفرادها، هي ما تجعلهم مستعدين للتضحية من أجلها أيضًا في ساحات القتال. في الحرب، يفعل البشر شيئًا عجيبًا جدًّا: إنهم يقتلون بشرًا لا يعرفونهم! يقتلونهم ليس لشخصهم، فقد يكونون أشخاصًا جيدين، بل ويمكن مصادقتهم لو صادفوهم في ظرف آخر، ولكن بسبب القبيلة التي ينتمون إليها. هذا ما يجعل رابطتنا مع القبيلة بالغة القوة لأننا يمكن أن نقتُل ونُقتل لمجرد الانتماء إليها.

وبرغم أن القبيلة لديها ميزة مهمة في حشد أعداد كبيرة من الرجال للقتال، إلا أنها لا تتمتع بمزايا الدول المركزية في التنظيم. غالبًا ما يأتي انهيار القبائل سريعًا بعد الصعود والتوسع، وخلال جيلين أو ثلاثة، نتيجة للخلافات داخل الأسر الحاكمة والتنافس على الثروات والسلطة. أغلب القبائل التي لم

تتحول إلى دول، انهارت سريعًا، خاصة عندما وجدت نفسها في مواجهة مع دول مركزية.

صراعات القبائل تعود لزمن موغل في القدم..

في عام 1983م تم الكشف عن مقبرة بموقع «تالهايم» بألمانيا. المقبرة تعود لسبعة آلاف عام. مدفون بها 34 شخصًا قُتلوا في وقتٍ واحد. هي من أقدم المقابر الجماعية التي عثرنا عليها. ما من تفسير لدفن أشخاص على هذا النحو سوى أن هذا الموقع تعرض لهجوم كان غرضه الإبادة الكاملة. في صراعاتٍ كهذه، الهزيمة كانت تعني أيضًا سبي النساء وخطف الأطفال. الجماعة المنتصرة تستفيد من هذه «الغنائم البشرية» في تضخيم مجتمعها، لتصير أكثر قوة في الهجمات القادمة. في الصراعات بين الجماعات، إما أن تقضي جماعة تمامًا على أخرى، أو أنها تبتلعها في داخلها وتستوعبها وتفرض على أعضائها الجدد «شفرتها الاجتماعية».

لا ينبغي لكِ أن تنظري لهذا السلوك الوحشي بوصفه شيئًا غابرًا وبعيدًا عنَّا اليوم. الحال أن جيشًا من الإرهابيين، تحت راية جماعة «داعش» المتطرفة، قد مارس السلوك نفسه في أيامنا هذه. في 3 أغسطس 2014م هاجمت داعش قضاء سنجار في العراق، وهي مدينة تقع على بُعد 80 كم شمال غرب مدينة الموصل، وفيها مكونات من الأزيديين والمسيحيين والمسلمين والكرد والتركمان والعرب.. وبها أيضًا حقل كبير للنفط! ما فعله مقاتلو داعش هو نفس ما فعله أسلافهم منذ آلاف السنين: لقد أسروا 6500 من نساء وأطفال هذه المدينة المنكوبة، وحولوهم إلى رقيق!

لو أننا نعيش في «تالهايم» أو في سنجار وقت هذه الهجمات الدموية لوجدنا أنفسنا أمام عدد من الخيارات. أحد هذه الخيارات - وأفضلها لو فكرتِ في الأمر! – هو التصدي للهجوم، ومحاولة دفع المهاجمين الأغراب. عندما تكون حياتكِ على المحك تفكرين وتتصرفين بطريقة مختلفة قد تدهشكِ أنتِ شخصيًّا. تشحذ طاقاتكِ الذهنية كافة من أجل البقاء. البقاء يقتضي الابتكار. المجتمع الذي يتمكن من العثور على سلاح أشد فتكًا، أو وسيلة للحماية من الأسلحة الفتاكة لدى المهاجمين، يُكتب له البقاء.

النشاط الوحشي، المسمى بالحرب، لعب دورًا هائلًا في دفع الابتكار والتكنولوجيا. سباق التسلح ظاهرة مهمة في قصتنا، ومحرك رئيسي في أحداثها. كثيرًا ما ابتكرت تكنولوجيا معينة للأغراض الحربية، ثم ظهرت لها تطبيقات أهم كثيرًا في النشاطات الأخرى العادية. الجيل الأول من الكمبيوتر ظهر في الحرب العالمية الثانية من أجل كسر الشفرة الألمانية. بفضل المنافسة الشرسة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، أفرزت الحرب

الباردة فورة في الابتكار التكنولوجي. الإنترنت ونظام (GPS) والهاتف النقَّال، كلها تكنولوجيات ذات أصل عسكري توفرت عليها وكالة الأبحاث المتقدمة التابعة لوزارة الدفاع الأمريكية «داربا». بعد انتهاء الحرب، أُفرج عن هذه الابتكارات وتوجهت إلى المجال الاقتصادي المدني. فورة النمو الاقتصادي خلال عقد التسعينيات، وإلى يومنا هذا، تعود أصولها إلى هذه الابتكارات.

أنتِ تعيشين اليوم في أكثر فترات العالم سلمية في التاريخ البشري. هذا من حسن حظك. 2% فقط ممَّن يموتون في العالم كل عام يكون سبب موتهم متعلقًا بالعنف والقتل، سواء في حروب بين دول أو داخل دول، أو حتى في جرائم. تلك هي نفس نسبة مَن يقضون بسبب حوادث السيارات!

القتل تراجع بشدة في الفترة الأخيرة. الحروب، التي طالما أزهقت أرواح الملايين، صارت أقل احتمالًا. لم تختفِ تمامًا، ولكن أصبحت أقل تواترًا واتساعًا. آخر الحروب بين القوى الكبرى في القرن العشرين، وبرغم استمرارها أكثر من 40 عامًا، انتهت دون إطلاق رصاصة واحدة وأُطلق عليها مسمى الحرب الباردة. أرجو أن تنعمي في حياتكِ بهذا السلم النسبي. غير أنني لست واثقًا من هذا للأسف. لماذا؟ لأن تاريخنا الكبير كله ملطخ بدمٍ أراقته جماعات قاتلت جماعاتٍ أخرى. ميل الإنسان للعنف لم يتغير. الأسبابُ العميقة التي جعلت الجماعات تحارب بعضها بعضًا عبر التاريخ وتُريق كل هذه الدماء لم تختفِ أو تزول.

ولكن ما هي تلك الأسباب العميقة؟ هل تكفي الكراهية بين الجماعات لتبرير كل هذا القتل؟

لا.. ليست الكراهية وحدها مسئولة عن كل هذا العنف الذي نمارسه ضد بعضنا بعضًا. الحب والتعاطف والتضحية أيضًا مسئولون مثل الكراهية وأكثر..

الموت من أجل الأحجار

تدور أحداث قصة «الموجة» للكاتب الأمريكي تود ستراسر، في إحدى المدارس الأمريكية الثانوية في عام 1969م. القصة بدأت عندما تساءل الطلاب في درس التاريخ عن السبب الذي دعا الشعب الألماني لاعتناق النازية والسير خلف «هتلر»، وكيف قبلوا، وهم شعب متحضر ومثقف أخرج «بيتهوفن» و«جوته»، كل الفظائع التي ارتُكبت في هذه الفترة. قرر مدرس التاريخ أن يُنفذ تجربة عملية للإجابة عن سؤالهم الصعب. بدأ يفرض على طلاب الفصل قواعد معينة من السلوك الصارم في الانضباط وفي كيفية الجلوس والكلام، على نحوٍ يحمل تبجيلًا زائدًا له.

أقنع المدرس الطلاب بأنه يؤسس لجماعة جديدة تُدعى «الموجة» وهو قائدها. هذه الجماعة لها طقوس خاصة، وتحية مميزة يؤدونها لبعضهم بعضًا، وشعار مميز هو: «القوة من خلال الجماعة». اندهش المدرس لحماس الطلاب المتزايد لهذه التجربة التي بدأت تتوسع شيئًا فشيئًا لتصبح جماعة حقيقية يشعر الطلاب بالانتماء لها. وفي حين ترفض إحدى الطالبات ما يجري لشعورها بأن شيئًا ما خطأ، فإنها تجد نفسها وحيدة وسط حماس جارف يلف المجموعة كلها، بعد أن شعر أعضاؤها بأنهم ينتمون بالفعل لشيءٍ أكبر منهم. لقد بدأ الطلاب يرفضون أي شخص يقف ضد «الموجة»، بل وصار لديهم استعداد لاستعمال البلطجة والعنف. في النهاية، يكشف لهم المدرس أن الأمر لم يكن سوى تجربة ابتدعها لكي يُثبت لهم أنهم هم أيضًا يُمكن أن يتصرفوا مثل النازيين لو تخلوا عن عقولهم لصالح الجماعة على نحو ما فعلوا خلال أيام التجربة!

القصة تحمل دلالة مرعبة: الجماعة بإمكانها أن تعيد «صياغتنا»، لكي نقوم – طوعًا - بأفعال شنيعة تناقض شخصياتنا وقد تصل إلى مستويات مرعبة من العنف لو خرجت عن السيطرة.

ربما تساعدنا القصة في حل هذا التناقض الغريب: البشر، مثل الطبيبة اليمنية «زُهى»، ومثل النحلات العاملات، يقدمون على التضحية من أجل الآخرين عن طيب خاطر.. ولكن البشر هم أنفسهم أيضًا مَن يمارسون أعلى مستويات العنف ضد بعضهم بعضًا!

كيف نفسر هذا التناقض؟

لو تأملتِ الأمر مليًّا، لألفيتِ السلوكين متكاملين وليسا متناقضين. هما وجهان لنفس العملة!

نحن رحماء ومضحون بذواتنا من أجل الآخرين.. فقط من أبناء جماعتنا! السبب أنه في خضم الصراع المميت الضاري مع الجماعات الأخرى، يُكتب البقاء غالبًا لتلك الجماعات التي يتحلى أبناؤها بالإيثار ويُقدِمون على التضحية. الانتصار في حفلات القتل البشري المجنون (المسماة بالحرب) مرهون بممارسة أعلى درجات السمو والنبل البشري: الإيثار إلى حد التضحية بالحياة ذاتها من أجل الآخرين. «داروين» كان على حق. هناك مستوى آخر من قانون «البقاء للأصلح» يتعلق بالجماعات لا الأفراد.

قوة الجماعة، إذن، تكمُن في قدرتها على شحذ هذا «الاستعداد» بالتضحية لدى أبنائها. وأيضًا، وبنفس الدرجة، شحن الأفراد بمشاعر الكراهية والعداء للآخرين. كيف تفعل الجماعات ذلك؟

ثمَّة تكتيكات وأساليب مختلفة. على أن هذه التكتيكات جميعًا، كما سنرى، تنطلق من الكيفية التي يعمل بها الدماغ البشري. أي من نفسيتنا. وأيضًا من الطريقة التي تتفاعل بها «الشفرة الاجتماعية».. أي من ثقافتنا.

الشعور بانتمائنا للجماعة ليس شيئًا عقلانيًّا. ليس حسبة مكسب وخسارة. إنه، كما رأيتِ، بذرة غائرة شديدة التأثير تُغرس فينا منذ لحظة الميلاد، فتكبر معنا، حسًّا وشعورًا طبيعيًّا. ينطبع الشعور على أرواحنا، ويصير جزءًا مكونًا في أعمق أعماق وجداننا. نتلقاه دون أن نشعر بأنه مسرب لنا في «الشفرة الاجتماعية»، ويتعزز الإيمان به عبر التقليد والاتباع، وليس التفكير أو الاقتناع.

إذا حدث وسبَّ أحدهم والدتك، فإن ردَّ فعلكِ لا يكون عقلانيًّا، بل عاطفيًّا. السبب أن هذه الإهانة لا تتعلق بتهديد مصلحة لكِ أو مورد معين يخص معيشتك، وإنما بقيم أعز وأثمن لديكِ. كذلك الجماعة لديها «قيم مقدسة». أعلى مقدس لدى أي جماعة - كما رأينا - هو «الشفرة الاجتماعية» التي تشغلها. هذه الشفرة ليست شيئًا ماديًّا ملموسًا، فمحل وجودها هو الأدمغة. ولما كان البشر يعشقون الأشياء الملموسة المحسوسة، فقد طفقت كل جماعة تعبر عن «شفرتها» بصورٍ شتى: رسوم وأعلام وتماثيل وبنايات شاهقة وأضرحة مقدسة. هذه الأشياء والأماكن هي «أدوات اجتماعية». إنها تصير مقدسة فقط بما تسبغه عليها الجماعة من معنى، فتكتسب رمزية أعلى من قيمتها المادية. ولدى البشر هذه القدرة الفذة على خلق رموز مجردة تحتوي على معانٍ كبيرة. الأخطر أنهم كثيرًا ما يخلطون بين المعنى والرمز، فيصيرا شيئًا واحدًا!

بخلاف جماعات الشمبانزي التي تتقاتل من أجل الموارد والإناث.. نحن البشر نحمل في داخلنا قيمة كبرى للأشياء المقدسة، ونقاتل من أجلها. تذكري أننا، بخلاف الحيوانات الأخرى، نسعى وراء المعنى، ونسبغ معاني ورموزًا على الأشياء المادية من حولنا. قد يكون المقدس بالنسبة لجماعتكِ طوطمًا، كما في حالة القبائل البدائية (والطوطم هو شيء مجسم أو مرسوم أو حتى نبات أو حيوان تعتقد جماعة ما أنه يحتوي على صفات روحية خارقة، وتتخذه رمزًا لها). وقد يكون المقدس لجماعتكِ مجرد قطعة من القماش نسميها علمًا، كما في حالة الدولة القومية الحديثة. ولأن هذه الأشياء تُعبر عن «الشفرة الاجتماعية» الخاصة بجماعتنا، فإننا قلما نقبل التفاوض بشأنها أو المساومة عليها. هل يفاوض أحد على محبته لأبيه أو أمه؟ هل يفكر شخص ويحسب المكسب والخسارة قبل أن يدافع عن أبنائه؟ بعبارةٍ أخرى: هذه الرموز تصبح أكثر أهمية منَّا. أكثر قيمة من حياتنا ذاتها. فهي مثل الجماعة، كانت قبل أن نوجد، وستبقى بعد أن نذهب. هي رموز خالدة على نحوٍ ما. أما نحن، فمثل

النحل العامل والنمل المضحي.. ينبغي أن نقوم بما يجب علينا القيام به من أجل بقاء جماعتنا ورموزها!

وليس صعبًا عليكِ ملاحظة المفارقة الكبرى في هذا الوضع: ما نراه نحن «رموزًا مقدسة»، تراه الجماعات الأخرى مجرد أشياء عادية لا قيمة لها. طرائق معيشتنا تبدو للآخرين غريبة وشاذة وغير مقبولة. أعلامنا لا يثير مرآها في نفوسهم شيئًا، وأناشيدنا الوطنية لا تحرك داخلهم شعورًا. لا تفكري في العالم اليوم، بعد قرون طوال من التلاقي والتواصل بين البشر. فكري في الطريقة التي عاش بها البشر عبر الأغلبية الساحقة من تاريخهم الكبير على الأرض. بالنسبة لكل جماعة كانت عقائد الجماعات الأخرى مجرد أساطير عبثية. الفيلسوف اليوناني «زينوفون» سجَّل ملاحظة بارعة هي أن آلهة كل جماعة تشبهها، وقال إنه لو كان في إمكان الحمير أن ترسم لرسمت آلهتها على صورة حمار!

لهذا السبب على وجه التحديد كان الصراع بين الجماعات البشرية أكثر عنفًا وقسوة من مثيله في الطبيعة. نحن نتصارع حول قيم مجردة.. قيم كونية من وجهة نظرنا. يزعجنا جدًّا أن تتعرض هذه القيم للإهانة أو التجاهل. نحن أيضًا نسعى لاعتراف الآخرين بقيمنا. يزعجنا ألا نحصل على ما نستحق من اعتراف بمكانتنا. تمامًا كما يزعجكِ ألا تحصلي على اعتراف أقرانكِ في الصف الدراسي أو زملائكِ في العمل بتميزكِ وجدارتك. الجماعات تعمل بالطريقة نفسها.. لا تكتفي باتباع «الشفرة الاجتماعية» الخاصة بها، ولكن تسعى إلى نيل اعتراف الآخرين الأغراب برموزها المقدسة الحاملة لهذه الشفرة. هذا يحملنا على الذهاب في الدفاع عن قيمنا المقدسة إلى أبعد مدى ممكن.. إلى حد القتل الجماعي والتضحية بالأنفس. وفي المعارك القديمة كان أقسى ما يتعرض له مجتمع مهزوم هو التنكيل بآلهته وتدنيس معابده، وتحطيم تماثيل أربابه.

بعض من هذا تراجع بسبب الاتجاه المتواصل والمتسارع للتواصل البشري. لكن ليس من الصعب عليكِ ملاحظة بقايا واضحة لهذه الطبيعة البشرية المتأصلة..

يظهر ذلك بوضوح في الصراعات المشتعلة في عالم اليوم. ستلاحظين أن أعقد الصراعات وأكثرها استعصاءً على الحل هي تلك التي تتعلق بقيم مطلقة يصعب أن تكون محلًّا للتفاوض. مثلًا: الصراع حول مدينة القدس بين الفلسطينيين والإسرائيليين.. قد يبدو غير مفهوم على الإطلاق لشخصٍ بوذي. كيف يتصارع ملايين البشر، ويفقد الآلاف حياتهم، بسبب جدار حجريٍ يُطلق عليه المسلمون «حائط البراق»، فيما يُطلق عليه اليهود «حائط المبكى»؟ صعب على البوذي أن يفهم أن أصل الصراع ليس الحجر، ولكن رمزيته لكل

جماعة. باعث الصعوبة ليس عدم تمتع البوذي – مثلًا - بالذكاء الكافي، ولكن لأن الأمر كله يتعلق بالعاطفة والوجدان، وليس بالعقل أو الحساب. كل من الفلسطينيين والإسرائيليين ينظرون إلى هذه «البقعة» من الأرض بوصفها مركزية لبقاء جماعتهم. من دونها تفقد الجماعة أعز ما تملك.. شعورها بذاتها وخلودها. تفقد الصمغ الرابط بين أعضائها، والخط الواصل بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها. تصير مجرد «مجموعة» من البشر تعيش في اللحظة الحاضرة، وليس جماعة ممتدة عبر الزمن؛ لذلك عندما تفاوض الفلسطينيون والإسرائيليون حول مسألة السيادة على البلدة القديمة في القدس (ومساحتها تقريبًا واحد كيلو متر مربع) في يناير 2001م فشلت كل الصيغ التي طُرحت للتوفيق بينهما، بما في ذلك صيغة إبداعية طرحها الرئيس الأمريكي وقتها بأن تبقى السيادة على الحرم القُدسي لله وحده!

تخوض الجماعات الصراعات الدامية من أجل القيم المادية والرمزية على حدٍّ سواء. في هذه الصراعات تكون التضحيات المطلوبة من أجل بقاء الجماعة شديدة الإيلام على أفرادها. الإيثار والتضحية أفعال صعبة لأنها تناقض الغريزة. تذكري أننا نطالب الأفراد - الذكور لحسن حظك! – بالمخاطرة بحياتهم في صراعات دموية من أجل الجماعة. هنا يوظف المجتمع تكتيكًا آخر مهمًّا: توليد الشعور بالعار لدى أفراده إن هم تخلوا عن الجماعة. الهدف أن يتغلب شعور العار على مشاعر الخوف التي تنتاب البشر لدى خوض معارك دموية تقتضي المخاطرة بالحياة. العار شعور بالغ القوة والتأثير في نفس الإنسان..

هل الخير والشر وجهان لعملةٍ واحدة؟

هل يمكن لثلاثمائة مقاتل الصمود في مواجهة جيش من 100 ألف جندي؟

إسبرطة مدينة يونانية اشتهرت بالتفوق العسكري، وازدهرت خلال القرنين السادس والخامس قبل الميلاد. من المأثور عن الأم الإسبرطية أنها كانت تقول لابنها عند الذهاب إلى المعركة: «اذهب إلى المعركة.. وإما أن تعود بدرعك.. أو أن ترجع محمولًا عليه»! المعنى: عُد منتصرًا أو جثة هامدة!

تصوري قوة «الشفرة الاجتماعية» التي تحمل الأم - بغريزتها الفياضة تجاه أبنائها - على تمني الموت لهم على هذا النحو العجيب. العودة من دون درع لم تكن تعني سوى شيءٍ واحد: الفرار من المعركة. لا قبل لجندي إسبرطي بالهرب حاملًا درعه. وزن الدرع لا يسمح بذلك. إذن.. مَن ترك درعه وسط القتال هو لا شك جبان ومتخاذل. هذا الشخص يصبح منبوذًا من المدينة. تتحاشاه الناس في كل مكان، فلا يُقدِّم له أحد عملًا أو خدمة. بل إن بناته كانت تلاحقهن اللعنة فلا يُقدِم أحد على الزواج منهن!

ذهبت «إسبرطة» في غرس النزعة العسكرية إلى مدى لم ينافسها فيه أحد فيما سبق أو لحق من التاريخ الذي نعرفه. خلقت نظامًا متكاملًا يتمحور حول تلك النزعة. كان الأطفال يؤخذون من عائلاتهم في سن السابعة؛ ليعيشوا حياة عسكرية كاملة فيما يُشبه المدرسة الحربية. في هذه المدرسة كان الأطفال يتعرضون لنظام بالغ القسوة في التربية. يتعلمون العيش بالحد الأدنى وفي ظروف بالغة القسوة؛ لأن هذا ما سيصادفونه في المعركة. الهدف من النظام كله يتلخص في خلق هذه الرابطة بين الجنود. رابطة تفوق رابطة الأسرة نفسها..

لم يكن يُسمح للإسبرطي بأن يتزوج سوى في سن العشرين. وحتى عند هذه السن لم يكن يعيش مع زوجته، بل يعيش في الثكنة العسكرية ويتسلل لزيارة زوجته من حين لآخر! وفي سن الثلاثين يُسمح للإسبرطي بأن يغادر الثكنة ليعيش مع زوجته. ولكن لم يكن يُسمح له بتناول طعام العشاء مع الزوجة. بل يعود لوحدته العسكرية لتناول طعام العشاء كل يوم مع زملائه في الوحدة! تصوري قوة الرابطة التي تنشأ بين مقاتلين يقضون جُل أعمارهم مع بعضهم بعضًا. لا عجب، والحال هذه، أن يسطر الإسبرطيون معجزة مثل الصمود الأسطوري في ممر «ثيرموبيلاي» في عام 480 ق.م.

في هذا الممر الإستراتيجي، كان على 300 إسبرطي فقط، تحت قيادة الملك «ليونيداس» إعاقة تقدم الجيش الفارسي الذي بلغ عدده 100 ألف مقاتل. قرار «ليونيداس» بحماية الممر حتى النهاية كان هدفه التغطية على انسحاب بقية الجيش اليوناني الذي يضم نحو 3000 مقاتل. لثلاثة أيام كاملة صمد الإسبرطيون. عندما حوصروا، وتأكدوا من أنهم مقضي عليهم لا محالة، قاتلوا ببسالة صارت مضرب المثل، حتى ماتوا عن آخرهم. كُتب على شاهد قبور هؤلاء الجنود: «أيها العابر.. اذهب قُل للإسبرطيين، إننا ها هنا نرقد بعد أن سقطنا ملبين الأوامر حتى الرمق الأخير». القانون الإسبرطي كان يحظر الانسحاب تحت أي ظرف. المجد أو الموت.. كان الرجال مبرمجين على هذا الشعار منذ سن السابعة.

إسبرطة كانت تجربة لا مثيل لها في إخضاع الفرد للجماعة، وذوبانه في كيانها إلى حد الانصهار الكامل. التجربة اعتمدت بالأساس على غرس «شفرة اجتماعية» لا مكان فيها تقريبًا للنزعة الفردية. صحيح أن إسبرطة هُزمت في آخر الأمر، وبادت حضارتها واندثرت معها تجربتها في القرن الرابع قبل الميلاد، إلا أن التجربة عاشت على الأقل لثلاثمائة عام. يشير ذلك إلى حقيقة خطيرة ومرعبة: المجتمعات قادرة على غرس «الشفرة الاجتماعية» التي تريد في أدمغة الأفراد، تمامًا كما فعل المدرس مع تلاميذه في قصة الموجة.

حتى لو كانت هذه الشفرة تجعلهم يتصرفون على نحوٍ يناقض مصلحتهم الذاتية أو شعورهم الشخصي بالسعادة.

إسبرطة، ومثلها ألمانيا النازية في القرن العشرين، تمثل صورًا متطرفة من التجارب الاجتماعية. غير أن المجتمعات كافة احتاجت لتطعيم «الشفرة الاجتماعية» الخاصة بها بعناصر تساعد على صهر الفرد في المجموع. ظلت هذه العناصر ضرورية - كما رأيتِ - من أجل بقاء الجماعة ذاتها في حلبة الصراع المميت مع الجماعات الأخرى. المحصلة هي سجلنا الدموي الذي نخجل منه: أن مئات الملايين من البشر قضوا على يد بشرٍ آخرين!

تذكري أننا لم نُرِق كل تلك الدماء لأننا أشرار، بل لأننا نبلاء ونُقبل على التضحية من أجل آخرين من جماعتنا!

وسط غبار المعارك تفيض نفوس الجنود بأسمى مشاعر التعاطف الإنساني. تنشأ حالة نادرة من التعاضد يُطلق عليها «أخوة السلاح». من وحي الشعور الفياض بالانصهار في الجماعة، يُقدِم البشر على بطولاتٍ لا تُصدَّق، وتضحياتٍ تفوق الوصف من أجل إخوانهم في السلاح.. كنحل عامل يفنى راضيًا من أجل بقاء المستعمرة. هذه التضحيات النادرة، عندما تنظرين إليها من الضفة الأخرى، وبعيون الخصوم، ليست سوى وحشية ودموية بلا حدود!

ربما نحن نجمع النقيضين في نفوسنا. لو أننا لم نكن أنانيين وقادرين على الخداع والقتل ما وصلنا إلى هنا اليوم. ولو أننا لم نكن رحماء ومضحين من أجل الآخرين ما وصلنا إلى هنا اليوم! حضارتنا هي محصلة لأنانيتنا المفرطة، ولقدرتنا - في الوقت نفسه - على التعاطف مع بشر آخرين إلى حد التضحية من أجلهم أحيانًا بالحياة ذاتها.

صراعات الجماعة ضد الجماعة قد تكشف لكِ عن حقيقة أخرى مخيفة: أن الخير والشر ربما يكونان وجهين لعملةٍ واحدة. قمة التضحية وذروة الوحشية تتفاعلان معًا في تضافرٍ عجيب لتدفعا إلى نتيجةٍ واحدة: العنف الدموي، والحروب والآلام التي غلّفت قصتنا، وحفرت ندوبًا غائرة في وجه حضارتنا. أيمكن أن يكون الخير والشر مرتبطين معًا في نسيج واحد، ومجدولين ببعضهما بعضًا بحيث يستحيل الفصل بينهما أو تمييز أحدهما عن الآخر؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

والدي العزيز..

قرأت رسالتك الأخيرة، بينما أعراض الكورونا تصيبني بدوارٍ مستمر. ربما لهذا السبب لم أفهم ما ترمي إليه. بالنسبة لي.. الخير خير والشر شر. أرفض أن يكونا متمازجين ومتداخلين على هذا النحو.

أنا أشعر بانتماء كبير لبلدي، أو جماعتي كما تسميها، ولكنني لا أكره الآخرين لهذا السبب. ليس هناك مبرر يدفعنا لأن نكون وحشيين إلى هذا الحد مع بعضنا بعضًا.

الآن أفهم لماذا لا نعيش في جماعة بشرية واحدة. غير أنني لا أفهم السبب وراء اختيارنا العيش في جماعات كبيرة العدد على هذا النحو. لا أفهم لماذا أنتمي اليوم لجماعة، أو دولة، لا أعرف سوى القليل جدًّا من أعضائها. الحياة في الجماعات الصغيرة كانت صعبة بما يكفي، فما بالنا بالمجتمعات الكبيرة التي نسكنها اليوم؟

ألم يكن من المنطقي أن نعيش في جماعات صغيرة العدد يعرف الناس فيها بعضهم بعضًا؟ على الأقل لم يكن هذا الوضع ليقود للنزاعات الدموية التي وصفتها في رسالتك، وكانت الحياة ستكون أكثر احتمالًا مما هي عليه في تلك المجتمعات الضخمة التي يتوه المرء في تلافيفها، غريبًا بين أغراب. أحيانًا أشعر بأن حياتنا كانت ستكون أكثر ثراءً وسعادةً لو أن عالمنا كان أبسط، ولو أن التجمعات التي نعيش فيها كانت أصغر، وأكثر ألفة. لا أظن أن نوبات القلق كانت لتهاجمني في عالم كهذا.

ليلى

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الرسالة السابعة

كيف تصنعين حضارة؟

«هزمَتْكَ يا موت الفنونُ جميعها.

هزمَتْكَ يا موت الأغاني في بلاد الرافدين..

مِسلَّةُ المصري، مقبرةُ الفراعنةِ،

النقوشُ على حجارة معبدٍ هزمَتْك

وانتصرتْ، وأفْلَتَ من كمائنكَ الخلود»

محمود درويش

عزيزتي ليلى..

إن بدت لكِ الجماعة الصغيرة أكثر رومانسية، فربما يعود ذلك إلى أنكِ لم تُجرِّبي العيش في أسرةٍ ممتدةٍ كبيرة العدد، أو في قبيلةٍ يعرف أغلب أعضائها بعضهم بعضًا. هذا النمط من الحياة له مشاكله أيضًا، أبسطها التعدي المستمر على الخصوصية، والتهديد المتواصل لأي مظهرٍ من مظاهر الفردية. الأهم أن العيش في جماعات صغيرة لم يكن ليصنع مسارَ التقدم الذي أوصلنا إلى هذه اللحظة، حيث نتبادل الرسائل الإلكترونية، أنا وأنت، على بُعد آلاف الكيلو مترات. ولكنْ لكل شيءٍ في قصتنا وجهان كما تعرفين. لو أننا ظللنا نعيش في جماعات صغيرة ربما لم نكن لنُصاب بالفيروس الذي يسكن جسدينا الآن، فالأوبئة ظاهرة لصيقة بالمجتمعات الكبيرة العدد.

إنها مبادلة صعبة تلك التي وجدنا أنفسنا مدفوعين إليها دفعًا ونحن نصنع شيئًا عجيبًا لم نكن نعرف إلى أين يقودنا. هذا الشيء اسمه الحضارة. الحكاية كلها بدأت بالمفاضلة بين الحركة والاستقرار.. أيهما تختارين؟

اليوم نحن نعيش في مدن وقرى مستقرة. نخرج صباحًا للعمل أو الدراسة، ثم نعود إلى بيوتنا في المساء. نعيش أغلب حياتنا في مكانٍ واحد، مدينة أو قرية واحدة. إنها طريقة عيشٍ جديدةٍ علينا كبشر، وتعود فقط إلى نحو 10 آلاف عام خلت. بالتحديد عندما تحولنا إلى الزراعة. خلال السواد الأعظم من التاريخ، لم تعهد الجماعات البشرية الثبات أو السكون. كان ديدنها الحركة المستمرة. مفهوم البيت، ناهيكِ عن القرية أو البلدة أو المدينة، هو مفهوم حديث مقارنة بتاريخنا الطويل على الأرض. البشر، في الأصل، رحَّالة. هم عاشوا أغلب حياتهم على الأرض في جماعاتٍ صغيرةٍ تضم ثلاثين إلى خمسين شخصًا.

ما يقوله لنا علم الآثار القديمة أن البشر تناثروا في المعمورة كلها. آثار بني الإنسان متناثرة في القارات جميعها. الإنسان العاقل ظهر لأول مرة في مكان واحد، هو إفريقيا، ومنها زحف إلى أرجاء الدنيا. هذه حقيقة مهمة للغاية. الإنسان كائن متحرك. ما يُحركه، في الأساس، هو عطشه المستمر للطاقة والسعرات الحرارية. الحركة - حركة الجماعات البشرية - هي إحدى القوانين السحرية للتاريخ. صعب أن تفهمي التاريخ من دون استيعاب هذه الحقيقة. الجماعات والشعوب لا تستقر في مكان. المكان ثابت، ولكنَّ قبائل وشعوبًا مختلفة تتناوب عليه. ينطبق هذا على أغلب الدول التي نعرفها في عصرنا الحاضر، مثل تركيا وروسيا وإيران وبريطانيا. هذه الدول سكنتها شعوب مختلفة عبر التاريخ. قدمت إليها شعوب من مناطق بعيدة واستقرت بها. طردت أهلها، أو أبادتهم، أو تعايشت وتمازجت معهم.

هجرة الأفراد والجماعات والشعوب هي المحرك الذي يدفع الأحداث. لو كانت كل جماعة ثابتة في محلها، لكان لدينا «تواريخ» مختلفة معزولة عن بعضها بعضًا. لا علاقة بينها. لا احتكاك. لا تنافس أو حروب. ولكن البشر أظهروا، منذ البداية الباكرة، ميلًا غريزيًّا للحركة. هذه الحركة ستجلب في أحيان كثيرة المآسي. ستدفن إمبراطوريات وتُفني شعوبًا. غير أنها ستكون سببًا مهمًّا في إثراء «التجربة الإنسانية» عبر تعزيز الشبكات بين البشر، وتسريع عملية «التعلم الجماعي» التي تحدثنا عنها.

تأملي الأمر من زاوية أوسع: الثبات هو الجمود. هو التكرار، والرتابة والركود. هو - في أقصى صورة له - الموت. في المقابل، الحركة هي المغامرة. ارتياد المجهول. هي الحياة ذاتها. فيما يخص صديقنا، إنسان العصر الحجري، كانت الحركة مرادفًا للنجاة من الموت. كانت السر في البقاء على قيد الحياة.

يمتد العصر الحجري القديم منذ نحو 3.3 مليون سنة وحتى 11500 عام مضت تقريبًا. إنها فترة العصور الجليدية. وجد العلماء آثارًا لأدوات حجرية كانت تستخدمها أجناس إنسانية تشبهنا، مثل الإنسان المنتصب (هومو إراكتاس)، في أنحاء مختلفة من آسيا وإفريقيا. «هومو إركتاس» نوع بشري قريب الشبه بنا ظهر في إفريقيا منذ حوالي 1.8 مليون سنة، واختفى منذ 100 ألف سنة مضت، أي إنه عاش على الأرض نحو ستة أضعاف الفترة التي عاشها جنسنا البشري، ونجح في اكتشاف النار.

لماذا كانت إفريقيا بالذات محل ظهور الأجناس البشرية المختلفة، انتهاءً بالإنسان العاقل؟ ربما لأن المناخ كان متقلبًا ومتنوعًا. في شرق إفريقيا بالتحديد حيث ازدهر نوعنا البشري، كانت البحيرات تفيض ثم تجف، وظروف البيئة في حال من التغير المستمر. هذه التحديات ربما دفعت لتعاونٍ أكبر بين جماعتنا. التعاون، كما تعلمين، يحتاج بدوره لأدوات اجتماعية، ولدماغ أكبر

وأكثر تركيبًا، يستطيع العيش في جماعةٍ كبيرة. هكذا صار نوعنا أذكى من الأنواع الأخرى.

لقد عاش سلفنا القديم على الجمع والصيد. الجمع يقتضي أن يتحرك الإنسان باستمرار مع المواسم المختلفة خلف الثمرات. والصيد يتطلب الحركة الدائبة في أثر الطرائد. سرعان ما لاحظ الإنسان القديم أن الطبيعة ليست منظومة ثابتة. الطبيعة متغيرة، وكثيرًا ما تكون غادرة. لكي يحافظ على حياته، كان على الإنسان أن يحاكي هذه الحركة الدائبة في الطبيعة. كان عليه أن يتحرك هو الآخر.

مع كل تغير في المناخ، تتغير البيئة التي يعيش فيها الإنسان، وكذا النباتات والحيوانات التي يعتمد عليها في غذائه. كان على الإنسان القديم أن يتحرك أحيانًا لمسافات بعيدة، إما تجنبًا لكارثة (فيضان/جفاف.. إلخ)، أو بحثًا عن غذاء أفضل، وسعراتٍ أكثر تساعده في نضاله من أجل البقاء والتكاثر. هكذا نشأت الهجرات، وهي تحركات لمسافات بعيدة. الحركة البشرية جرت ببطء، تمامًا كما كانت تجري تغيرات المناخ. تخيلي أن كل قبيلة تزحف بضعة كيلو مترات في هذا الاتجاه أو ذاك. عبر هذه الحركة الوئيدة، لعشرات الآلاف من السنين، استعمر الإنسان الأرض، وبدأ في إظهار قدراته اللا محدودة على التكيف مع تحديات البيئة والمناخ.

رواد الهجرات الأولى، خرجوا من إفريقيا ربما منذ أكثر من 120 ألف سنة، ثم هاجروا مرة أخرى منذ 60 ألف سنة. هم سلكوا طريقين، إما عبر سيناء سيرًا، أو عبر أضيق نقاط البحر الأحمر عند مضيق باب المندب. هؤلاء هم المغامرون الأوائل الذين لم نسمع بهم. بعض المغامرات القديمة كان ممعنًا في المخاطرة وتحدي المجهول. علم الآثار القديمة يخبرنا بأن الإنسان وصل إلى أستراليا منذ 50 ألف عام تقريبًا. لا شك أن هذه كانت قفزة هائلة في الظلام. ليس بمقدور إنسان السباحة من شواطئ جنوب شرق آسيا (إندونيسيا) إلى أستراليا. المسافة تصل إلى 100 كيلو متر على الأقل. يقتضي الأمر صناعة قارب أو طوف. لا بد أن مجموعة البشر التي أقدمت على هذه المخاطرة كانت على درجة متقدمة من الخيال، والميل إلى المجازفة، فضلًا عن التمكن من صناعة القوارب والأدوات. أغلب الظن أن المهاجرين إلى أستراليا كانوا مجتمعًا بحريًّا قديمًا يقوم على صيد الأسماك والإبحار. هذا كان يحدث منذ خمسين ألف عام!

وحتى وقت قريب، كان يُظن أن أول جماعة بشرية عبرت إلى أمريكا الشمالية منذ 16 ألف سنة تقريبًا، على جسر من الجليد امتد من سيبيريا إلى آلاسكا عند ممر «بيرينج»، ثم ما لبث هذا الجسر أن ذاب بعد أن صار المناخ أدفء وارتفع مستوى البحر مع نهاية عصور الجليد، فكُتبت العزلة على البشر

في الأمريكتين حتى قام البشر بمغامرة جديدة بقيادة «كولومبوس» عام 1492م. غير أن اكتشافًا جديدًا في عام 2021م غيَّر هذه الصورة. عُثر على آثار أقدام بشرية في شمال أمريكا تعود إلى 23 ألف سنة مضت، بما يعني أن البشر ذهبوا إلى هناك قبل وقتٍ طويلٍ جدًّا ممَّا كان يُعتقد. ربما خاضوا هذه المغامرة عبر المحيط الهادئ أو الشريط الساحلي.. لا نعلم.

انتشار البشر في هذه الأصقاع البعيدة ترك أثرًا هائلًا على مسار التطور في القارات المختلفة. على سبيل المثال، خلال 200 سنة فقط من تواجد الإنسان في أستراليا، تم القضاء على 23 من أصل 24 نوعًا من الثدييات الكبيرة التي كانت تقطن هذه القارة/الجزيرة. لم يُبقِ الإنسان سوى على «الكنغر». استخدام النار في الصيد هو ما تسبب في هذا الانقراض. تكرر الأمر في أمريكا. أُبيدت 75% من أنواع الثدييات الكبيرة هناك. سيكون لذلك أثر حاسم على مسار تطور حياة البشر في هذه القارات المعزولة. عندما يتغير نمط معيشة الإنسان، ويتحول إلى الزراعة واستئناس الحيوانات، سيلتفت سكان أمريكا وأستراليا حولهم ولن يجدوا أمامهم الكثير من الثدييات التي تصلح للاستئناس. من هنا نبتت البذرة الأولى للتفاوت الهائل في مستويات تطور القارات والمناطق عبر التاريخ. هذا التفاوت سوف يسمح، فيما بعد، لمجتمعات بالسيطرة على مجتمعات أخرى، بل ومحوها كليًّا.

الآثار التي خلفها إنسان العصر الحجري القديم تكشف عن ذكاء وسعة حيلة. عن معرفة واسعة بالطبيعة وكيفية التفاعل معها، ومناورتها ومداورتها اتقاءً لشرٍّ أو جلبًا لنفع. يندر أن تجدي بيننا اليوم مَن لديه حجم الخبرات المتنوعة لهذا الإنسان القديم، بداية من المعرفة المدققة بطبائع الحيوانات وآثارها وروائحها وخصائص النباتات المختلفة، وانتهاءً بفنون حياكة الثياب وصناعة السكاكين والحراب والرماح وتوليد النار والاحتفاظ بها مشتعلة. هذه مهارات أساسية كان يحتاج كل إنسان تقريبًا لإتقانها من أجل البقاء. في عالم بلا تخصص أو تقسيم للعمل، لا مجال أمامكِ سوى الاعتماد على ذاتكِ في الحفاظ على حياتك.

لم يكن هناك ما يمنع أن تستمر حياتنا على هذا النحو إلى الأبد. غير أن قصتنا لا تعرف الثبات كما تعلمين. إن سلسلة من الأحداث، غير المتوقعة، وضعت الإنسان على مسار أفضى به في نهاية المطاف إلى طريقة جديدة تمامًا للعيش على الأرض..

مزارعون رغم أنوفنا!

كانت تلك ثورة لا نعرف لها مخططين أو أبطالًا. نعرف فقط نتائجها المذهلة. لقد تحولنا من حياة الترحال إلى الاستقرار. من الصيد والالتقاط إلى الزراعة.

هذا التحول، الذي جرى منذ 10 آلاف سنة تقريبًا، مهَّد السبيل للطريقة التي تعيشين بها حياتكِ اليوم.

لماذا حدث هذا التحول الحاسم في تاريخ البشر؟

الإجابة القصيرة هي: المناخ.

نحن أسرى الطبيعة. منذ 11 ألف سنة تقريبًا انتهت العصور الجليدية. اتجه المناخ إلى الدفء. هذا الدفء أدى إلى زيادة البخر من المحيطات، وبالتالي إلى تزايد الأمطار. أصبح المناخ بصورة عامة أكثر استقرارًا ويمكن التنبؤ به والاعتماد عليه. كان في الأفق ما يُبشِّر بنمط حياة مختلف.

حياة الالتقاط والصيد كانت إستراتيجية مثالية للبقاء في الأزمنة الباردة. كان مستحيلًا أن تظهر الزراعة في العصور الجليدية. لم يعُد الحال كذلك مع دفء المناخ. الغابات حلَّت محل مراعي الحشائش التي كانت أماكن مفتوحة لصيد الثيران والماموث. جرى التحول في حياة البشر بصورة تدريجية. كانت الخطوة الأولى هي التخلي عن حياة الترحال. حدث هذا للمرة الأولى في منطقة الهلال الخصيب (جنوب غرب آسيا - وتضم اليوم أجزاءً من تركيا وسوريا وفلسطين وإسرائيل والأردن). في هذه المنطقة، صار بالإمكان الاعتماد على جمع الطعام من النباتات التي تنمو بصورة طبيعية بسبب دفء المناخ. اعتمادًا على هذا المورد الجديد، لم تعُد هناك حاجة للترحال، وتحولت بعض الجماعات إلى الاستقرار، من دون أن تتبنى الزراعة. جرى هذا في مناطق أخرى أيضًا مثل مصر التي عاشت فيها بعض الجماعات حياة الاستقرار منذ أكثر من عشرة آلاف سنة من دون أن تمارس الزراعة.

منذ هذه اللحظة، لحظة الاستقرار، كان الإنسان كمَن دخل طريقًا يسير في اتجاه واحد. كمَن دلف إلى فخ لا فكاك منه. كيف؟

تعالي نتصور السيناريو الذي جعل من اللجوء للزراعة، في نهاية المطاف، اختيارًا حتميًّا للبشر..

نحن الآن في الهلال الخصيب حوالي 10 آلاف قبل الميلاد. الإنسان اكتشف أنه يستطيع العيش على جمع النباتات التي تنمو بريًّا، مثل القمح أو الشعير. ثمَّة آثار لعملية الطحن تعود إلى هذه الفترة في مناطق الهلال الخصيب والشام. الإنسان عرف الخبز قبل أن يعرف الزراعة. العيش على النباتات البرية، مع بعض الصيد، يمثل خيارًا مثاليًّا. إنها حياة أشبه بالعيش في الجنة، مقارنة بعذابات الترحال ومخاطره. قد لا يكون من قبيل المصادفة أن التوراة تتحدث عن «جنة عدن» في مكان ما حول هذه المنطقة!

لماذا لم يكن ممكنًا أن تستمر هذه الحياة إلى الأبد؟

هذا النوع من الحياة يقوم على الاستقرار في مكان واحد. يقتضي ذلك بناء منازل متجاورة، بحيث تعيش أكثر من عائلة في مكان معين لفترة زمنية طويلة. الاستقرار يؤدي حتمًا إلى زيادة الإنجاب. حياة الترحال كانت تحول دون زيادة السكان لأن المرأة لا تستطيع إنجاب الكثير من الأطفال أثناء فترات التنقل والرحلات الطويلة. ربما كانت جماعات الرحالة تتخلص أحيانًا من الأطفال وكبار السن، وتخلفهم وراءها لتواصل حركتها الدائبة.

حياة الاستقرار مهدت لحدوث أول أزمة انفجار سكاني على ظهر الكوكب! الانفجار حدث عندما صارت الفترات بين مرات حمل المرأة أقصر. المرأة صارت تحمل ستة أطفال في المتوسط. السبب وراء ذلك أن نصف الأطفال على الأقل كانوا يموتون في عمرٍ مبكر. منذ عشرة آلاف عام تقريبًا، وعندما بلغ عدد سكان الأرض نحو عشرة ملايين، كان على الإنسان أن يبحث عن موارد جديدة تلبي الحاجات. حقيقة الأمر أنه كان يبحث عن السُّعرات الحرارية، أي عن الطاقة كما تذكرين. جمع النباتات البرية لم يعُد يكفي لتوفير الطاقة لمجتمع تزايد عدد سكانه. الصيد لم يعُد يصلح كمورد وحيد لحياة الاستقرار. العودة لحياة الترحال لم تعُد كذلك خيارًا ممكنًا. المناخ تغير والبيئة تبدلت. المهارات التي كان يعتمد عليها الإنسان لمتابعة هذا النمط من الحياة فُقدت بمرور الوقت وتعاقُب الأجيال. ما العمل؟

أغلب الظن أن أحدهم قد لاحظَ - ربما بالمصادفة - نمو النبات من بذرة سقطت عرضًا في الطين، ففكر في القيام بهذه العملية بشكل متعمد. هذا بالطبع مجرد افتراض. المؤكد أن الزراعة لم تظهر في مكان واحد ثم انتقلت منه إلى بقية أرجاء المعمورة. الزراعة بدأت في أكثر من مكان في أوقات مختلفة، من دون أن يكون لهذه الأماكن صلة ببعضها بعضًا. ما نعرفه على وجه اليقين أن سكان أمريكا الوسطى والجنوبية مارسوها دون أن يكون لديهم أي اتصال بسكان أوراسيا أو إفريقيا. الظروف دفعت البشر، في أكثر من مكان، في هذا الاتجاه.

ولكن ما هي الزراعة؟

هي عملية استغلال للنباتات والحيوانات من خلال «تكنولوجيا الاستئناس» بغرض الحصول على مزيد من الطاقة. عندما نمارس الزراعة، نحن نسيطر على البيئة المحيطة. نستأنسها لتصبح رفيقًا طيعًا، ونستخرج منها الطاقة الغذائية. لقد عرفنا أن كافة أشكال الطاقة الموجودة على الأرض مصدرها الشمس. النبات يستخدم طاقة الشمس، مع الماء، للنمو عن طريق عملية «التمثيل الضوئي». هذه العملية، كما رأينا، تُعد محرك الحياة على سطح الكوكب؛ لأنها المصنع الوحيد للغذاء. الزراعة هي طريقة أوجدها الإنسان للسيطرة على هذه العملية لصالحه. تلك السيطرة لا تتيح كميات أكبر من

الغذاء فحسب، وإنما تحقق قدرًا من الاستقرار في الحياة بشكل عام. هي، بعكس الصيد والالتقاط، عملية يمكن التخطيط لجميع مراحلها. فيها قدر أكبر من اليقين الذي نبحث عنه باستمرار منذ بداية قصتنا.

بعض المناطق كان، بحكم الطبيعة، أكثر مناسبة للزراعة من مناطق أخرى. ثمَّة مائة صنف من النباتات التي تصلح للاستئناس من خلال الزراعة. ينطبق الأمر ذاته على الحيوانات: من بين 148 حيوانًا ثدييًّا، هناك 14 فقط تصلح للاستئناس. هذه النباتات والحيوانات تواجدت بصورة أكبر في مناطق بعينها مثل الهلال الخصيب، وفي قارات آسيا وإفريقيا وأوروبا. في الأمريكتين كان عدد النباتات الصالح للزراعة محدودًا. وباستثناء «اللاما» لم تكن هناك حيوانات يمكن استئناسها بعد أن قضى عليها الصيد الجائر كما رأينا. كان لذلك أبلغ الأثر في المسار الذي سلكته الحضارة في هذه المناطق الجغرافية. الزراعة بدأت في أمريكا في وقت متأخر (حوالي 2500 ق.م)، ولم تصل أبدًا إلى أستراليا (باستثناء غينيا الجديدة). عندما وصل المكتشفون الأوروبيون إلى أستراليا في القرن الثامن عشر وجدوا أن السكان ما زالوا يعتاشون على الجمع والصيد، وأنهم لم يعرفوا حياة الزراعة. من خلال مراقبة حياة هؤلاء ودراستها عرف العلماء الكثير من الأسرار عن حياة البشر قبل الزراعة.

لستة آلاف سنة تقريبًا (من 9000 ق.م وحتى 3000 ق.م) عاش الإنسان على الزراعة البدائية. استخدم أدوات بسيطة: مجرفة، وفأس، ومنجل. لم يعرف المعادن. لم يعرف أن السماد (مخلفات البشر والحيوانات) يمكن أن يساعد في خصوبة التربة. لم يقم، مثلًا، بأي مشاريع للري. مع ذلك، فقد حدثت تغيرات محورية في طريقة حياته. تذكرين أن الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على تغيير الطريقة التي يعيش بها، من دون أن يتغير شيء في تركيبه الجيني.

أول هذه التغيرات أن الزراعة - كطريقة حياة - أخذت تتسع وتتسع. الهجرات ساعدت على ذلك. المجتمعات الزراعية أزاحت تلك التي تعيش على الالتقاط والصيد خطوة بعد خطوة. منذ 7000 سنة (أي في 5000 ق.م) صار أغلبية البشر على ظهر الأرض يعيشون على الزراعة. كان هذا تغيرًا حاسمًا. حياتنا تبدلت للأبد. هذه كانت «أم الثورات»؛ لأن كل ثورة تالية هي وليدة لها، ونتيجة لطريقة الحياة التي صرنا مجبرين عليها بسبب الاستقرار بجوار محاصيلنا وحيواناتنا الداجنة.

الأهم أنه لم تعُد هناك إمكانية للعودة للوراء. مجتمعات الزراعة، سواء تلك التي تقوم على استئناس النبات أو استئناس الحيوان (الرعي)، تستطيع دائمًا

مراكمة موارد أكبر، وفائضًا من المقاتلين، تتغلب بهم على مجتمعات الصيد والالتقاط. لهذا سارت تلك الأخيرة في طريق محتوم نحو الاندثار.

لقد انزلق الإنسان إلى الفخ، طوعًا في البداية، ولم يعُد أمامه بعد ذلك سوى إكمال الطريق إلى آخره. العودة إلى حياة الترحال لم تعُد خيارًا وقتها، تمامًا كما هي ليست خيارًا اليوم، حتى لو أردنا ذلك!

علاقة الإنسان بالطبيعة تغيُّر آخر مهم. في حياة الالتقاط والصيد، يكون الإنسان أسيرًا للطبيعة بشكلٍ كامل. حياة الزراعة، في المقابل، تعطيه قدرًا من السيطرة. إنها سيطرة، بطبيعة الحال، لها حدود. ولكنها تظل مرحلة متقدمة من التحكم في الحياة ومسارها. خطوة أخرى نحو تقليص مساحة انعدام اليقين. يظهر هذا التحكم بصورة أوضح في عملية استئناس الحيوانات..

كان الكلب أول صديق رضي بالعيش في كنفنا منذ أن نجحنا في استئناسه منذ 15 ألف سنة. واقع الحال أن الكلب صار خادمًا لنا. نعم.. الحيوانات المستأنسة لا تعيش معنا كأعضاء متساوين في المجتمع الإنساني. هم يخدموننا. نحن نسيطر عليهم، نستخدمهم في الحركة (كالأحصنة) أو كطعام (الخراف والدجاج). ما الذي دفعنا إلى هذا؟ وكيف حققنا مثل هذه السيطرة؟

تربية الحيوانات الآكلة للعشب تُعد إستراتيجية أفضل من الصيد لأنها تُتيح سيطرة أكبر على «مصادر الطاقة» التي نحتاج إليها، وتُسهل الحصول عليها بشكل منتظم. منذ أكثر من عشرة آلاف سنة قام البشر بتدجين البقرة التي نعرفها من سلالة الأبقار الوحشية (أوراكس) في سهول الحشائش الواقعة بين تركيا وإيران. ثمَّة طريقة بسيطة للقيام بهذا: تختارين من بين صغار البقر الوحشي مَن يبدو أكثر طاعة وانصياعًا، وتُتيحين أمامها فرصة أكبر للتزاوج، وتوريث هذه الصفات للجيل التالي. مع الوقت، وبتعاقب الأجيال، تتغير الصفات الجينية للأبقار التي جرى تدجينها. تصبح خاضعة مستأنسة. تقبل بحياتها كعضو تابع في مجتمع البشر. هكذا تظهر «سلالات» جديدة..

الأبقار التي ترينها في العالم اليوم، وعددها نحو مليار بقرة، لم يكن لها وجود في الطبيعة. إنها نتاج «هندسة بشرية»، ويعود أصلها إلى نحو 80 بقرة قام أسلافنا باستئناسها. كذلك الحمار، الذي استؤنس في بلدنا مصر من صنف الحمار الوحشي، الذي تشاهدينه اليوم في حديقة الحيوان والذي ما زال يعيش في غابات إفريقيا. الأمر ذاته حدث مع الدجاج الذي تم استئناسه في آسيا. منذ عشرة آلاف سنة، لم يكن الإنسان يعرف شيئًا عن الجينات، غير أنه كان قد تعلم أشياء كثيرة بالتجريب الذي فرضته ضرورات البقاء. وقد عرفتِ

من قبل أن في إمكاننا الاستفادة من «شفرة» معينة، دون أن ننجح بالضرورة في فهمها أو كسرها.

عملية التدجين تشبه عملية الزراعة. كلا العمليتين ينطوي على تغيير جيني متعمد في تكاثر السلالات، النباتية أو الحيوانية، بتدخل الإنسان. النتيجة هي مزيد من الطاقة والسعرات الحرارية. الإنسان كان يختار الحيوانات الصالحة للتدجين. من الصعب تدجين الأسود والفهود. نحن نُشبِّه الإنسان القوي بالأسد؛ لأن الأسد لا يقبل التدجين. ليس خانعًا مثل الحمار الذي نضرب به المثل في التحمل والصبر. وحتى لو فرضنا أن الإنسان أخضع هذه الحيوانات (كما يحدث في السيرك)، فإن إطعامها يظل مكلفًا لأنها تتغذى على اللحوم. لقد كنَّا نبحث عن حيوانات نستطيع أن نبني معها علاقة مصلحة متبادلة. نطعمها ونتيح لها التكاثر، وهي في المقابل تحملنا وتحمل حاجياتنا أو تمنحنا حياتها!

تاريخ البشر لم يكن ليسير في ذات المسار من دون تدجين الحيوانات. قصتنا مع الحصان أبلغ مثال..

الحصان ظهر أول الأمر في القارة الأمريكية. وكما عرفنا، فإن البشر مارسوا الصيد هناك حتى انقرضت الثدييات القابلة للاستئناس تقريبًا. بعض الأحصنة كانت محظوظة. هاجرت في اتجاه عكسي من أمريكا إلى آسيا مستقلة الجسر الذي كان قائمًا في عصور الجليد.

في سهول آسيا الوسطى قامت بعض القبائل الرحالة بتدجين الحصان للمرة الأولى منذ نحو أربعة آلاف عام. منذ أن اعتلى البشر ظهر الحصان أدركوا أنه كنز: سرعة فائقة (ستة أضعاف سرعة البشر)، مع سلوك طيع ألوف، وقدرة مذهلة على التحمل.

الحصان له علاقة باللغات التي يتكلمها نصف البشر اليوم تقريبًا. أصل لغات كثيرة، مثل الروسية والألمانية والهندية والفارسية، يعود إلى لغة واحدة كانت تتكلمها قبائل آسيا الوسطى التي روَّضت الحصان، واعتلت ظهره، للمرة الأولى. لهذا انتشرت لغتهم، وصار يُطلق على هذه العائلة من اللغات مسمى: «الهندوأوروبية». للحصان أيضًا صلة بلباسنا. أغلب الظن أن البنطلون قد اختُرع للمرة الأولى ليُناسب ركوب الخيل!

الإنسان وقع في غرام الحصان. العرب، مثلًا، دبجوا الشعر في مديح تكوينه الفذ وحركته المتناسقة البديعة (مِكرٍّ مِفرٍّ مُقبلٍ مُدبرٍ معًا). لقد صار هذا الكائن الفريد أهم وسيلة مواصلات حتى قرن مضى. أصبح أيضًا السلاح الأكثر فتكًا لدى الجيوش. الحصان هو أحد الأبطال الرئيسيين في صناعة الإمبراطورية. من دون الحصان، لم تكن لتظهر الإمبراطوريات التي بسطت

سيطرتها على ملايين الكيلو مترات. بسبب غياب الحصان، غابت الإمبراطوريات الكبرى عن أمريكا ما قبل «كولومبوس». ظلت دولها صغيرة المساحة، ولم تبلغ أبدًا المدى الذي بلغه الفُرس واليونان والرومان والعرب والمغول. كل الأحصنة التي يعتليها الهنود الحمر (سكان أمريكا الأصليون) التي نشاهدها في أفلام الغرب الأمريكي جاءت مع «كولومبوس». عندما وقع بصر السكان المحليين عليها، وأدركوا أثرها الحاسم في القتال، قاموا على الفور بترويضها.

عبر محطات تاريخية مختلفة، سيظهر أقوام يتقنون فن ركوب الخيل وتتمحور ثقافتهم حول الرعي، يقومون بالإغارة على المزارعين المستقرين ويدمرون حضارتهم. سهول الإستبس في آسيا الوسطى كانت، عبر التاريخ، «منصة إطلاق» وخزانًا لا ينفد لهذا النوع من الغزوات المدمرة التي عانى منها الصينيون والرومان والعرب وغيرهم.

سيظل الحصان أسرع وسيلة لنقل البشر، وبالتالي المعلومات، حتى عام 1815م، عندما بدأ استخدام المحرك البخاري كوسيلة مواصلات؛ لذلك، فإن جيوش نابليون في القرن التاسع عشر تحركت بنفس سرعة جيوش يوليوس قيصر في القرن الأول قبل الميلاد. ووفاءً منَّا لهذا الصديق القديم ما زلنا، إلى اليوم، نقيس قوة المحركات بـ «الحصان»!

على أن العلاقة مع الحيوانات المستأنسة ليست صفقة رابحة على طول الخط. ثمَّة جانب مظلم للقصة. أغلب الأمراض التي عانى منها البشر انتقلت إليهم من الحيوانات التي عاشت في كنفهم. تحتاج الفيروسات، كما ذكرت لكِ في رسالتي الأولى، إلى «عائل»؛ أي كائن تعيش فيه لتمارس عملية احتلال الخلايا. هي وجدت هذا العائل في الحيوان. وعندما صارت بعض الحيوانات تعيش لصيقة بالبشر، انتقلت الفيروسات من الحيوان إلى الإنسان. عندما تُغير الفيروسات العائل، فإنها تتصرف بصورة مختلفة كليًّا. تصير أشد فتكًا.

لاحظي أيضًا أن البشر كانوا يعيشون بجوار فضلاتهم وفضلات الحيوانات، وأن الري الضروري للزراعة كان يُخلف الكثير من المياه الراكدة، وهي بيئة مثالية للبكتيريا الناقلة للمرض. ربما كانت المستوطنة البشرية هي أكبر بؤرة لتجمُّع الجراثيم على وجه الأرض. بعض هذه الأمراض كان خطيرًا للغاية، مثل الجُدري والسُّل، وبعضها الآخر يبدو لنا اليوم بسيطًا، مثل أمراض الأمعاء كالإسهال والدوسنتريا. على أن هذه الفئة الأخيرة ظلت حتى وقتٍ قريب جدًّا سببًا رئيسيًّا في ارتفاع وفيات الأطفال؛ لأنهم يمثلون الجماعة العمرية الأقل مناعة في أي مجتمع.

هكذا بدأت رحلتنا مع الأمراض المعدية والفتَّاكة. المرض عدو للحضارة، وأحد نتائجها الجانبية في الوقت نفسه!

المرض ليس مصدر المعاناة الوحيد الذي تسرب إلينا مع حياة الزراعة. هذه الحياة، إذا نظرتِ لها من زاوية محايدة، كلها معاناة في معاناة. الزراعة، وما يرتبط بها من أعمال، نشاط شاق. مجهد للبدن. يورث متاعب مزمنة في الظهر والمفاصل. يتطلب العمل لساعات طوال. قدر العلماء أن حياة الجمع والصيد تتطلب عددًا أقل من الساعات للحصول على الغذاء. هم عرفوا ذلك من مراقبة حياة بعض قبائل السن (البوشمان) التي ما زالت تعيش على الصيد والجمع في صحراء كلهاري الإفريقية.

قبل الزراعة، كان لدينا وقت فراغ أكبر. كانت صحتنا أفضل بسبب الغذاء المتنوع. الاعتماد على الحبوب في الغذاء جعل البشر أكثر عرضة للأمراض، وأورثهم متاعب الأسنان أيضًا. أغلبية المومياوات في مصر القديمة تكشف عن أن أصحابها عانوا متاعب في الأسنان بسبب خشونة الخبز. حتى الملوك أظهرت مومياواتهم تشكيلات متنوعة من الأمراض. الأخطر أن الزراعة، وإن كانت تمنحنا تحكمًا أكبر في حياتنا، إلا أنها تتركنا أيضًا عرضة لمساحة مخيفة من المجهول. فشل المحصول هو مرادف للموت جوعًا. الآفات والأعاصير والفيضانات يمكن أن تقضي على حياتك بعد أن صارت مربوطة بمكان بعينه، وبمصدر واحد للغذاء. ربما نكون قد فقدنا «سعادتنا» الأولى إلى غير رجعة!

لقد ارتضى البشر «الصفقة الجديدة» في أي حال. رأوا في مزاياها ما يعوض متاعبها وآلامها. كان تضخم المجتمعات الإنسانية جيلًا بعد جيل هو أهم بشائر نجاح الصفقة. في 3000 ق.م، صار سكان الأرض خمسين مليونًا. الزيادة السكانية لها تبعات. المجتمع الصغير المتنقل، المكوَّن من عدة أسر، يعتمد على «نظام تشغيل» يختلف عن ذلك الذي يعمل به المجتمع الكبير في قرية أو مدينة.. أو دولة. المسألة ليست مجرد تزايد العدد. المعضلة ترتبط أيضًا بنمط الحياة المستقرة نفسه وما يحمله من مشكلات..

لماذا نطيع السُّلطة؟

هل تتصورين أن تدخلي بيتكِ من فتحة في السقف؟ هل تتخيلين العيش في بيوت متلاصقة تلاصقًا تامًّا.. بلا حارات أو حتى ممرات صغيرة تفصل بينها؟ هل تتصورين العيش مع الأموات في مكان واحد؟

كان هذا هو حال مدينة «كاتال هويوك» التي يمكنكِ زيارة أطلالها اليوم في وادي قونيا بتركيا. في هذه المدينة، التي يعود تاريخها إلى أكثر من 9000 سنة مضت، عاش البشر حياة أشبه بالمساواة الكاملة، والتجاور اللصيق.. بما في ذلك مع الموتى!

«كاتال هويوك» قد تكون أقدم المستوطنات التي سكنها البشر. لم تكن بالبلدة شوارع أو أزقة. كانت حوائط البيوت متلاصقة، بلا نوافذ ولا حتى أبواب! كانت الناس تدخل البيوت عبر سلالم خشبية تتدلى من الأسطح. يخبركِ هذا بأن أفكارًا بسيطة، مثل الباب والنافذة والزقاق.. ليست واضحة وطبيعية على نحو ما قد تتصورين. عاش السكان على الزراعة والرعي والتجارة. توفر بالقرب من البلدة مخزون من حجر أسود بركاني يسمى السبج (أو الأوبسيديان)، الذي كان سلعة تجارية رائجة في هذا العصر البعيد. دائمًا ثمَّة عنصر جذب للبشر يدفعهم للاستقرار في موقع معين.

هذا المجتمع كان يقوم على المساواة إلى حد بعيد. نعرف ذلك من آثار البيوت المتطابقة في «كاتال هويوك»، وكذلك من مقابرها المتماثلة. لا وجود لصروح ضخمة كتلك التي ستميز المدن فيما بعد، كالمعابد وغيرها. اعتاد الناس أن يسلكوا سلوكًا غريبًا مع موتاهم، إذ كانوا يدفنونهم تحت تراب البيوت نفسها التي يقطنونها، ربما ليشعروا باستمرار وجودهم معهم. لا فضل لأفراد على آخرين في هذا المجتمع. بل إن المساواة في «كاتال هايوك» امتدت لتشمل النساء والرجال الذين كانوا يقومون بأعمال متشابهة، ويقضون أوقاتًا متساوية في المنزل.

هذه المساواة لن تستمر طويلًا في التجمعات البشرية. عندما يزيد عدد سكان مجتمع ما عن حد معين تظهر على الفور مشكلة تنظيم كما رأينا. ليس هذا عيبًا في الأفراد. لا يعني أن الناس تكره النظام أو تميل بطبعها للفوضى. المشكلة أعمق من ذلك. البشر لا يستطيعون إدارة أي جماعة كبيرة سوى من خلال هيكل للسلطة.

في كل مؤسساتنا، المدرسة والمستشفى وفريق الكرة وأماكن العمل الحكومي، نصادف ما يسمى بهيكل السُّلطة. هناك شخص أو مجموعة أشخاص لهم سيطرة على الآخرين بصورة تفوق غيرهم. لديهم سلطة. في حياتنا اليومية، نذعن لأصحاب السُّلطة ونتبع تعليماتهم في هذه الأماكن المختلفة. نفعل هذا بصورة طبيعية، وغالبًا من دون تذمر أو شعور بالغبن. لماذا ننظم حياتنا بهذه الطريقة التي تبدو ظالمة للأغلبية العظمى من الأشخاص ولا يفيد منها سوى القلة؟

إنها معضلة مزمنة تواجه المجتمعات المستقرة التي يزداد عدد أفرادها. حياة الاستقرار تخلق مشاكل حتمية. مشاكل يمكن تصورها بين أي مجموعة أسر تقطن بيوتًا متجاورة: خلافات، منافسات، مشاحنات، جرائم. ظاهرة السُّلطة هي طريقتنا كبشر في التعامل مع هذه المعضلة ومحاولة حلها.

عندما ازداد عدد البيوت والعائلات، ظهر أول مجتمع بشري مستقر: القرية. القرية هي تجمع من عدد من العائلات. عدد قاطنيها لا يتجاوز في معظم الأحيان عدة مئات. البلدة أكبر من القرية، وقد يقطنها آلاف. يمكنكِ أن تتصوري أن هذه التجمعات البشرية الأولية بدأت تشهد التوترات المرتبطة بالحياة الجماعية المستقرة. أهم هذه التوترات قاطبة ينشأ عن التناقض بين مصلحة الفرد وأسرته المباشرة من ناحية، ومصلحة الجماعة من ناحية أخرى. هذا التناقض الجوهري في المجتمعات البشرية هو سبب مهم وراء ظاهرة السُّلطة. هو الأصل أيضًا وراء أفكار مركبة ستظهر تدريجيًّا عن الأخلاق والقانون والعدالة والنظام والطبقات الاجتماعية. هو الجذر القديم جدًّا لمبانٍ ترينها حولكِ اليوم في كل بلاد الدنيا: قصور الحكام ومقار الرؤساء والمحاكم والبرلمانات.

الإنسان مجبول على السعي وراء مصلحته الخاصة كما أخبرنا آدم سميث. غير أن هذه المصلحة الخاصة قد تتعارض في بعض الأحيان مع آخرين، بل قد تتصادم مع مصلحة الجماعة التي يعيش بينها. مثلًا: بناء سور حول المدينة لحمايتها من الطامعين قد يقتضي الجور على أرض زراعية تعتاش منها إحدى الأسر. السور مصلحة مشتركة للبلدة، فيما قطعة الأرض تمثل شريان الحياة لهذه الأسرة. إنها معضلة صعبة. بالتدريج، تبلورت ظاهرة السُّلطة في المجتمعات لمعالجة مثل هذا النوع من المعضلات المتكررة.

السُّلطة هي علاقة بين طرفين تنطوي على سيطرة لطرف على آخر. المجتمعات الزراعية كلها شهدت مولد هذه الظاهرة التي أصبحت لصيقة بالتاريخ البشري منذ ذلك الحين وإلى اليوم. أحد الطرق التقليدية في النظر للتاريخ هي تقصي سير أصحاب السُّلطة والتأثير. لهذا السبب، نعرف الكثير عن أسماء الملوك والزعماء والأنبياء، وليس عن المزارعين أو المقاتلين. القادة، بما لديهم من سلطة على الناس والموارد، يستطيعون تغيير مجرى الأحداث. الأغلبية الكاسحة من البشر ليس لديهم هذا القدر من النفوذ أو التأثير حتى لو كانوا هم مَن يُحرِّك الأحداث فعليًّا في الحقول وساحات المعارك، بالعرق والدماء!

السؤال هنا: كيف يصير البعض أصحاب سُلطة بينما ترضى الأغلبية بدور التابع؟

الإجابة تكمُن في طبيعة المجتمعات الزراعية نفسها. هذه المجتمعات، بعكس جماعات الرحالة، لديها «أشياء» تخشى عليها. هناك المحصول الذي يتم جمعه، ثم تخزينه للعيش عليه طول العام حتى موسم الحصاد القادم. هناك أيضًا أدوات الزراعة، والآنية الفخارية، والحيوانات المستأنسة. بخلاف الإنسان الصيَّاد الرحَّال، فإن الإنسان المزارع يفهم فكرة الملكية. ومع ظهور الملكية

تبرز الحاجة لحمايتها في مواجهة الطامعين. الملكية تصاحبها، وكما هو الحال في مجتمعاتنا اليوم، منازعات. صاحب السُّلطة هو شخص يتوافق الناس على أنه الأقدر على تسوية هذه المنازعات بين أعضاء المجتمع.

في البداية، تتحقق السُّلطة بطريقة توافقية: من أسفل لأعلى، تمامًا كما يظهر في شلتكِ شخص يستمع له الآخرون أكثر من غيره، ويُظهر مواهب قيادية. ثم لا تلبث أن تصبح السُّلطة، بمرور الوقت، فوقية وجبرية: من أعلى لأسفل. كيف؟

الناس يقبلون بالسُّلطة لأنهم يحرزون من ورائها منافع: الأمن الشخصي، والحفاظ على الملكية، واستقرار المجتمع الذي يعيشون فيه. بخلاف صديقنا توماس هوبز الذي تصور أن السُّلطة نشأت لتحول دون قتلنا لبعضنا بعضًا، فإن فيلسوفًا إنجليزيًّا آخر هو جون لوك (1632م-1704م) اعتبر أن السُّلطة قامت في الأساس لحماية الملكية.

إن الأسباب التي دفعت البشر للقبول بسُلطة آخرين عليهم في هذا الزمن البعيد، هي ذاتها تقريبًا الأسباب التي تحمل البشر على القبول بسُلطان الحكومات إلى اليوم. قد تذكرين ما أشعر به من تذمر وغضب عندما أتلقى مخالفة سير من شرطي المرور. مع تذمري، إلا أنني في نهاية الأمر أدرك أن منظومة السُّلطة نفسها مفيدة لحياتي ومعيشتي، كما هي مفيدة للمجتمع في مجموعه.

على أن أصحاب السُّلطة هم الطرف الرابح قطعًا في هذه المعادلة. ما إن يستتب الأمر لهؤلاء في مجتمع من المجتمعات، حتى تجديهم يعمدون إلى تعزيز سلطانهم والحصول على مزيد من النفوذ والسيطرة على الناس والموارد. القانون الذهبي للسلطة في كل الأزمنة والأماكن هو أن مَن يحوزها يركز كل همه أولًا في الحفاظ عليها، ثم ثانيًا في الحصول على المزيد منها. ولكي يحافظ صاحب السُّلطة على نفوذه لا مناص أمامه من اللجوء إلى درجة معينة من الإجبار. معنى السُّلطة ذاته متصل بالإجبار.. وأحيانًا بالعنف.

مَن يمارس العنف والإجبار هم بعض الأفراد الذين يعملون لدى صاحب السُّلطة أو يتحالفون معه. هؤلاء ليس لديهم سلطة فعلية. إنهم يستمدون قوتهم من نفوذ صاحب السُّلطة الأصلي؛ شيخ القبيلة أو زعيم القرية.. أو الملك عندما يتوسع حجم المجتمع. بالتدريج، يبرز عنصر الإجبار أكثر، وتترسخ سُلطة شيخ القبيلة بصورة أشد. شيئًا فشيئًا، يتوارى الأصل التوافقي القديم لبزوغ السُّلطة كذكرى بعيدة، أو كقصة منسية تتلاشى من عقل الجماعة.ما يستقر في أذهان الناس هو أن صاحب السُّلطة شخص مميز عن الآخرين، لسببٍ أو لآخر. شخص لديه الحق في الحكم والسيطرة. قد يكون هذا

الشخص محاربًا ذا شجاعة نادرة. قد يكون رجل دين يتصل بالعالم الآخر. في النهاية، هو شخص تتواضع الجماعة على أنه صاحب السُّلطة الأعلى فيها. تقبل بهذا وتقره كحقيقة ثابتة. قبول الناس بأحقية الحاكم في الحكم هو الوجه الآخر - وربما الأهم - لظاهرة السُّلطة. هذا ما نسميه بلغتنا المعاصرة «الشرعية». عندما تسمعين اليوم أن حكومة أو حاكمًا فقد شرعيته، فإن ذلك يعني أن الناس لم تعُد تُقر طوعًا بسلطته.

وكما تعرفين، فإنه قد يحدث أحيانًا أن تتمرد الأغلبية على الأقلية. هذا ما نطلق عليه «ثورة»، وهي ظاهرة حاضرة بقوة في التاريخ، وإن كانت تشكل الاستثناء وليس القاعدة. السبب أن الأقلية الحاكمة كانت دائمًا منظمة، فيما الأغلبية تفتقر إلى التنظيم. لدى الأقلية أيضًا، وكما سنرى، وسائل أفضل لتبادل المعلومات فيما بينها، قد لا تتوفر للأغلبية. في الصراع بين الأغلبية غير المنظمة من الفلاحين الثائرين، والأقلية المدججة بالسلاح والتنظيم والمعلومات.. كثيرًا ما هُزمت الأغلبية. غير أن السبب الأعمق لقبول الأغلبية بهذا الوضع ربما يكمُن في تراكم الخبرة الإنسانية حول خطورة الثورة، وما يمكن أن تفضي إليه الثورات من الزج بالمجتمعات في أتون العنف والفوضى الشاملة.

في أي نظام للسلطة، مهما كان ظالمًا، يسود قدر من اليقين والقدرة على التنبؤ بمسار الحياة. أما عندما تعربد الفوضى، فلا يمكنكِ التنبؤ بما سيحدث لكِ. لو أنكِ فلاحة تعيشين في مصر القديمة أو روما، فإنكِ ستفكرين مرتين قبل الانضمام لتمرد على الحكام وأصحاب السُّلطة. صحيح أن السُّلطة تشارككِ نصيبًا كبيرًا من إنتاجكِ بما تحصل عليه جبرًا من خلال الجباية، وصحيح أنه سيسعدكِ كثيرًا أن تتخلصي من قسوة جامعي الضرائب وقهر جنود الحاكم. غير أنكِ ستفكرين أيضًا فيما يمكن أن يحدث لكِ لو أن السُّلطة ذاتها لم تعُد موجودة. ساعتها ربما يصير القليل الذي تملكينه من حطام الدنيا عرضة للنهب على يد الأقوياء والفتوات الذين سيعيثون في الأرض فسادًا، وهو ما يحدث عادة بعد الثورات والاضطرابات الكبرى.

من مفارقات ظاهرة السُّلطة أنها تفيد الضعفاء في المجتمع على نحوٍ ما. هذا هو السبب وراء تنظيمنا لمجتمعاتنا، إلى اليوم، بهذه الطريقة التي تنطوي على قدرٍ غير قليل من الظلم. إنه السبب أيضًا وراء قبول الأغلبية من الفقراء والفلاحين الكادحين، عبر العصور وفي مختلف الأماكن والحضارات، بهذا الترتيب المجحف للمجتمع.

هكذا يمكنكِ أن تفهمي لماذا حرصت المجتمعات حرصًا شديدًا على تماسك نظام السُّلطة واتصال سلسلتها المستمرة عبر الأجيال. عندما يواري صاحب السُّلطة التراب، فأغلب الظن أن ابنه الذكر الأكبر سوف يخلفه. هذا هو

أفضل حل يضمن أن تستمر الأوضاع كما هي، فمَن أكثر شبهًا بالأب من الابن؟ لو أنكِ تعملين وزيرة لدى أحد الملوك القدماء، فإن مصلحتكِ هي أن يتولى ابن الملك العرش بعد وفاته. هذا ما يضمن لكِ الأمان، وربما الاستمرار في وظيفتك! توريث الحكم يحفظ استقرار الحياة في أي مجتمع من دون صراعات أو خلافات. الناس تهفو إلى الاستقرار وتكره التغيير. هكذا تكونت البذرة الأولى للعائلات الحاكمة التي تتوارث الحكم في نسلها. بعض العائلات كان يستمر في الحكم قرونًا وقرونًا، قبل أن تبزغ سلالة أخرى لتزيح القديمة وتؤسس لخط وراثي جديد. توريث الحكم، وكذا الثروة، ظاهرة جوهرية في فهم المجتمعات وحركة التاريخ. إلى اليوم، ما زالت العائلة هي الوحدة الأساسية، أو الخلية الأولى، التي تتكون منها المجتمعات، وإن لم تعُد هي أساس السُّلطة سوى في عددٍ محدود من الدول في عالمنا.

إن اللحظة التي جرى فيها الانتقال من حياة المساواة، كما في «كاتال هويوك»، إلى مجتمعات بها هيكل لسُلطة عُليا يُقرها الناس ويقبلون بها كأمر واقع، هي لحظة فارقة في تاريخ البشر. سيعود إليها كثير من الفلاسفة فيما بعد لكي يكشفوا لنا أن المجتمعات التي نعيش في ظلها ليست «طبيعية»، وإنما مصنوعة. البشر هم مَن صنعوها منذ وقتٍ طويلٍ جدًّا. هم مَن بثُّوا فيها بذور انعدام المساواة من البداية. «خُلق الإنسان حرًّا، ولكنه مُقيد بأغلال العبودية في كل مكان»، هكذا يقول لنا الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو (1712م-1778م).

إن أكثر مكانٍ يمكنكِ أن تشعري فيه بهذا المجتمع المصنوع هو المدينة..

المدينة: ورشة ابتكار أم مصيدة؟

في عام 2007م صار عدد سكان المدن في العالم، ولأول مرة في التاريخ، أكثر من عدد سكان الريف. الاتجاه العام هو تزايد عدد قاطني المدن باستمرار. في عام 2050م، من المتوقع أن يبلغ عدد سكان الأرض نحو 10 مليارات إنسان يقطن نحو 75% منهم في المدن. يعني ذلك أن ملياري إنسان، أغلبهم من الصين والهند وإفريقيا، سوف يتحركون من القرى إلى المدن خلال السنوات الثلاثين القادمة. أي إن عددًا يوازي عدد سكان مدينة القاهرة اليوم، سوف يتحرك من الريف إلى الحضر كل شهرين! إنه اتجاه جديد يميز عصرنا. عبر التاريخ، كان السواد الأعظم من الناس يعيشون في القرى. قلة قليلة، لم تتعدَّ 10% من البشر، كانت تسكن المدن.

هل تذكرين قانون الجاذبية الذي دفع الأشياء في الكون للتجمع في تركيبات أكبر، فتكونت النجوم والمجرات؟ القانون يعمل على نحوٍ ما على كوكبنا أيضًا. المدن يمكن اعتبارها أماكن ذات كثافة عالية من المادة والطاقة. لذلك

هي «تجذب» الناس إليها. لو نظرتِ إلى خريطة مصر كما تظهر على الأقمار الصناعية من الفضاء ستلاحظين شريطًا ضيقًا مشعًّا ومتلألئًا بالضياء. تلك هي المدن التي تُرصِّع وادينا الطيب. هي مراكز مترعة بالطاقة (بالذات الطاقة الكهربائية التي تضيء المدن)، فيما تغرق الصحراء حولها في ظلام دامس. داخل المدن أيضًا هناك مراكز للجذب. تتحلق تلك غالبًا حول أبنية ضخمة: دور العبادة، أو الأسواق، أو ملاعب كبرى، أو مؤسسات مختلفة. هذه المراكز «تجذب» الناس، وكلما زاد عدد الناس المتحلقين حولها، أصبحت أكثر قدرة على جذب المزيد (مثل الجاذبية التي تزيد مع الكتلة). المدن على ظهر الأرض مثل النجوم في الفضاء: المكان الذي يحدث حوله النشاط وتتركز فيه الإثارة.

المدينة هي تجمُّع بشري يسكنه عدد كبير من السكان، عشرات الآلاف وأحيانًا مئات الآلاف، وفي أحيان قليلة عبر التاريخ، كان العدد يتجاوز المليون. غير أن المدن ليست مجرد تجمعات لأعداد أكبر من الناس. هي مكان يختلف جذريًّا عن القرية. في المدينة يمارس البشر أنشطة مختلفة ومتنوعة. هناك الحدادون والنجارون وصانعو الأحذية والكهنة والملوك والجنود والحكماء وجامعو الضرائب وقارئو الطالع واللصوص والنصابون. هؤلاء الناس يتفاعلون مع بعضهم بعضًا. يبيعون ويشترون ويتناقشون ويتخاصمون. محصلة هذا التفاعل تكون شيئًا أكبر من مجموع السكان أنفسهم. السبب أن الناس في المدينة يقومون بمهام مختلفة، ويرتبطون معًا بشبكات متداخلة ومعقدة.

يمكنكِ ملاحظة هذه الشبكات بسهولة في المدينة التي تعيشين فيها اليوم. إنها شبكات تمتد فوق الأرض في صورة طرق وخطوط سكك حديدية، وتحت الأرض في صورة نظام للصرف الصحي وإمدادات الطاقة، بل وفي الجو على هيئة موجات الراديو والواي فاي التي تربط هاتفكِ النقال بشبكة أخرى، هي الإنترنت.

على أن الشبكة الأهم التي «تلضم» كل ذلك هي شبكة المصالح والعلاقات المتبادلة التي تربط سكان المدينة بعضهم ببعض. المدينة تمثل مستوى آخر من التركيب في قصتنا. تمامًا مثل تريليونات الخلايا التي انبثق منها شيء جديد له خصائص تختلف عن أي خلية هو «الكائن الحي»، فإن المدينة هي أيضًا «كائن اجتماعي» مركب له خصائص جديدة تختلف عن أيٍّ من مكوناته. إنها ظاهرة مركبة «تنبثق» من تجاور البشر الذين يقومون بأدوار ووظائف مختلفة في مكان واحد.

المدن مراكز مكثفة للتعلم الجماعي وتبادل الخبرات. هي أيضًا بيئة خصبة للمنافسة في الصنائع والممارسات. الأفكار الجديدة تظهر دائمًا في المدن وليس القرى. «كاسرو الشفرات» يظهرون دائمًا في المدن كما ذكرنا.

ستلاحظين، من الآن فصاعدًا، أن الأماكن التي سنأتي على ذكرها في قصتنا هي أسماء لمدن. ورغم أن قاطنيها طوال التاريخ كانوا دائمًا قلة، إلا أن الدراما البشرية تصل إلى ذروتها في المدن.

ومثلها مثل أي شيء مركب في قصتنا، تحتاج المدينة إلى طاقة لتشغيل نظامها وتغذية شبكاتها المعقدة. فمن أين تأتي هذه الطاقة؟

المدن تمتص الطاقة من خارجها. «تشفطها» من عدد من القرى المحيطة. المدينة تعتاش على الريف. هذه حقيقة مفصلية ومهمة في فهم ظاهرة المدينة ذاتها، وطريقة عملها. سكان المدن لا يزرعون، وإنما يحصلون على غذائهم من الآخرين.

المشكلة الأبدية لأي مدينة هي كيفية توفير الغذاء والماء لقاطنيها الذين لا يعمل غالبيتهم في الزراعة؛ لذلك فإن معرفة أعداد السكان في المدن تُعد مؤشرًا يكشف عن مدى تركيب وتقدم الحضارة في أي مجتمع. كلما زاد عدد سكان المدينة كان هذا دليلًا على قدرة المجتمع على إيجاد طرق مبتكرة لإعاشة أعداد كبيرة من البشر في مكان واحد. نعرف مثلًا أن سكان روما قد بلغوا مليون نسمة في القرن الأول الميلادي، وقاطني بغداد كانوا مليونًا حول الألفية الأولى، وسكان لندن بلغوا المليون في عام 1800م. في عالم اليوم، لم يعُد عدد سكان المدن مؤشرًا على قوة التركيبة الحضارية؛ لأن التحديات الخطيرة التي كانت تواجه عيش أعداد كبيرة معًا وتأمين احتياجاتهم جرى حلها بواسطة التكنولوجيا. لذلك تجدين اليوم أن أكبر مدينة في العالم هي طوكيو يقطنها نحو 38 مليون إنسان، أي إنها أكبر نحو 40 مرة من روما، وهي كانت من أكبر المدن التي عرفتها العصور القديمة!

عبر التاريخ، كان على المدن الكبيرة في أحيان كثيرة ابتداع طرق ووسائل لتأمين حاجاتها من مناطق بعيدة. أثينا كانت تعتمد على المستعمرات في آسيا الصغرى وأوكرانيا في توفير غذائها. روما كانت تحصل على قمحها من مصر وصقلية. القاعدة - عبر التاريخ - أن كل ساكن في المدينة يحتاج إلى عمل تسعة من المزارعين لكي يحصل على غذائه. المدن تبدأ في الظهور عندما يتحقق فائض من المحاصيل يسمح بأن يعيش قسم من السكان على أنشطة أخرى بخلاف الزراعة. توفر الفائض يعني أنه لم يعُد على جميع السكان العمل في الزراعة لكي يحصلوا على الغذاء الذي يُبقيهم على قيد الحياة.

للمدينة، كما تعلمين، وجه آخر قبيح، ذلك أنها أيضًا المكان الذي تظهر فيه الجرائم بصورة أكبر، وتنتشر فيه الأمراض والأوبئة بسهولة وسرعة مخيفة

بسبب كثافة شبكات الاتصال بين البشر. الشبكات هي التي تجعل المدينة شيئًا ناجحًا مبهرًا، وهي ذاتها التي تجعلها مكانًا مفعمًا بالخطر.. والموت.

المدن ساعدت على تحويل الأمراض إلى أوبئة. عندما يتجاوز عدد البشر الذين يعيشون في مكان واحد كتلة حرجة معينة يصبح المجتمع عرضة لتفشي الأمراض بصورة وبائية. القاعدة العامة أنه إذا كانت الحالة الأولى قادرة على إصابة أكثر من حالة واحدة بالعدوى، فإن التفشي يصبح ممكنًا. التفشي يعطي الفيروسات قوة أكبر لأنها تتحول جينيًّا على نحو سريع جدًّا.

المدن لم تكن مكانًا صحيًّا بأي معيار، خاصة بالمقارنة بالريف حيث كثافة السكان أقل. ظل معدل الوفيات في أغلبية المدن يتجاوز معدل الميلاد، وكانت المدن تحتاج دومًا لهجرات من الريف للحفاظ على عدد سكانها. ظل هذا هو الحال في لندن، مثلًا، حتى عام 1800م. المشكلة الرئيسية للمدن تمثلت دومًا في الحصول على المياه النظيفة، وأيضًا في التخلص من الفضلات التي تمثل بيئة مثالية لانتشار الجراثيم. عندما زاد عدد سكان بعض المدن القليلة على المليون، كما حدث في روما في القرن الأول الميلادي، بدأ التفكير في إنشاء نُظم للصرف وجلب المياه النظيفة. على أن أول نظام صرف حديث، كما نعرفه اليوم، ظهر في بريطانيا في القرن التاسع عشر، وفي أعقاب اكتشاف «جون سنو» (1813م-1858م) أن مضخة مياه واحدة في وسط مدينة لندن هي المسئولة عن تفشي الكوليرا.

وتتميز المدينة عن الريف بالصروح والبنايات. هذه الصروح، مثل المعابد وقصور الحكام وغيرها من المباني، لها صلة بطبيعة الحياة في المدن. المدينة مكان صاخب حافل بكل ما قد تتخيلينه من مصادر القلق والتوتر الناتج عن المنافسات والمشاحنات. العيش في المدينة يضطركِ للتعامل باستمرار مع أغراب لا تعرفينهم. هكذا تظهر الحاجة لشيء يجمع الناس. إلى مشترك يمثل رابطًا بينهم ويهدئ من نوازع القلق والتوتر في نفوسهم. بدون هذا «المشترك» يصبح العيش الجماعي، في مدنٍ يسكنها عشرات ومئات الآلاف من الأغراب، مستحيلًا. المعتقدات الدينية واحدة من أهم الدوافع التي تجعل التعاون ممكنًا بين أغراب لا ينتمون لعائلة أو قبيلة واحدة. الصروح الشاهقة والمعابد الباسقة هي تجسيد مرئي للأساطير المشتركة التي تنسجها المجتمعات عبر الأجيال. هي تجلٍّ حاضر للآلهة التي تسكنها. البناء يحول المعتقدات إلى طوب نلمسه وحجر نراه ماثلًا أمام ناظرينا. يجعل المدينة أكبر من أن تكون مجرد محل لسكننا. يحولها إلى معنى يسكن فينا قبل أن تكون مكانًا نسكن فيه.

لهذا السبب لا تكاد تخلو مدينة قديمة من معبد وساحة عامة. المدينة الحديثة، التي تعيشين فيها اليوم، لا تخلو كذلك من مبانٍ لها رمزيتها (المحكمة العليا/

المسرح الأقدم/ مبنى الحكومة/قبر الجندي المجهول/ الجامع والكنيسة الأكبر). هذه الصروح هي التي تصل حاضر المدينة بماضيها. هي التي تجعل المدينة ماثلة على الدوام في وعيكِ ووجدانك. تذكركِ بها، حتى لو ارتحلتِ بعيدًا عنها. إنها صروح تمثل شيئًا متشركًا بينكِ وبين الآخرين من سكان المدينة نفسها، في الحاضر والماضي أيضًا.

المعتقدات و«الشفرة الاجتماعية» المميزة، المستقرة في وجدان أهل المدينة تظل الصمغ الحقيقي الذي «يلضم» الأحجار جنبًا إلى جنب. هي ما تكسو الأحجار بالمعنى. من دون أساطير مشتركة يجتمع الناس على الإيمان بها، يستحيل إنجاز صروح بهذه الضخامة. ومن دون الصروح الضخمة يصعب استمرار الأساطير من جيل لجيل.

المدن الأولى بدأت في الظهور في بلاد الرافدين (بين نهري دجلة والفرات) خلال الألفية الرابعة قبل الميلاد (4000ق.م-3000ق.م). المناخ بدأ يتجه إلى الجفاف تدريجيًّا. لم يعُد ممكنًا الاعتماد على مياه الأمطار وحدها للزراعة. في أماكن كثيرة سنرى النمط نفسه يتكرر: الناس تهبط من المناطق العالية حيث الأمطار، إلى الوديان حيث الأنهار. تتطلب الزراعة، بالاعتماد على الأنهار، وسائل مختلفة عن الزراعة المطرية. يقتضي الأمر ابتداع تكنولوجيا معينة لنقل المياه وتوزيعها للاستفادة منها. هنا ظهرت الحاجة إلى منظومة الري، أي إلى الترع والقنوات التي يشقها الإنسان، والسدود التي يبنيها، لكي يُخزن المياه ويسيطر عليها. هذه المنظومة تتطلب بدورها درجة عالية من تنظيم العمل الجماعي. بعبارة أخرى؛ تحتاج إلى تركيز أكبر للسُّلطة يسمح بتحقيق تعاون مثمر بين عدد كبير من البشر.

المدن الأولى نشأت على ضفاف الأنهار. الحضارات القديمة الرئيسية ارتبطت - في أغلب الحالات وليس كلها - بالأنهار. لم تبزغ الحضارات، ومراكزها المدنية، كلها في نفس الوقت. إليكِ صورة إجمالية حول بزوغ الحضارات الأولى:

* حضارة بلاد الرافدين - نهرا دجلة والفرات (لذلك تُسمَّى حضارة بين النهرين) - حول 3000 قبل الميلاد.

* حضارة مصر - نهر النيل - حول 3000 قبل الميلاد.

* حضارة الهند - نهر السند، ونهرالغانج - حول 2500 قبل الميلاد.

* حضارة الصين - نهر اليانغتسي، والنهر الأصفر (هوانج هي) - حول 1500 قبل الميلاد.

تلك هي أهم الحضارات القديمة التي نشأ كل منها - إلى حد بعيد - بصورة مستقلة. الحضارات التالية ستستفيد من مزايا الاتصال بالآخرين والتعلم منهم والبناء على ما أنجزوه. كل منها اشتقت لنفسها نمطًا خاصًّا للعيش وتنظيم المجتمع (شفرة اجتماعية). مع ذلك، سترصدين بسهولة عناصر مشتركة بينها. هذه العناصر هي التي تهمنا هنا؛ لأنها تمثل أساس تنظيم أي مجتمع إنساني. أساس بناء الحضارة.

لقد تمثلت المشكلة التي واجهت البشر في الأماكن كافة في كيفية ابتداع «نظام ما» يضمن استمرار تدفق الطاقة من القرى إلى المدن من دون انقطاع.. نظام يجمع عددًا من القرى والمدن في وحدة واحدة..

بزوغ الدولة

الدولة كيان حاضر بقوة في حياتنا من المهد إلى اللحد. في المدرسة نتعلم تحية العلم، والنشيد الوطني. في الفصول تطالعنا صور لرئيس الدولة. في الشوارع ثمَّة رجال يرتدون زيًّا موحدًا يقومون على مهام التنظيم والأمن. بعد ولادتكِ بيومين احتجنا لتسجيل هذا الحدث الفارق - في حياتنا وحياتكِ على الأقل - في مكتب مخصوص يتبع منظومة كبيرة هي الدولة. إضافة اسمكِ في السجل المدني هو ما جعل وجودكِ «رسميًّا». هو اعتراف من جانب المجتمع بانضمام عضو جديد له. عندما تصلين لسن السادسة عشرة، تحصلين على ورقة أخرى - بطاقة شخصية - تشهد بأنكِ عضو له حقوق معينة. في نهاية حياتنا، نحصل - أو بالأحرى يحصل آخرون نيابة عنَّا! - على ورقة أخرى (شهادة وفاة) تشير إلى أننا لم نعُد موجودين في المجتمع، وأننا عشنا من سنة كذا إلى سنة كيت. دورة الميلاد والحياة، والحال هذه، تبدو وثيقة الاتصال بالدولة. إنه شيء عجيب حقًّا أن يتمتع كيان ما بمثل هذا القدر من الحضور والتأثير في حياتنا من دون أن يكون له وجود مادي ملموس!

لا يمكن الحديث عن الدولة كما نتحدث عن بحر أو نهر أو جبل أو أي شيء ملموس حولنا. أقسام الشرطة ومباني الحكومة والمحاكم والسجون والسجل المدني وقصر رئيس الجمهورية كلها مظاهر للدولة ولكنها ليست الدولة نفسها. بل إن البشر الذين يعملون في هذه المؤسسات، من أصغر الموظفين إلى الحاكم الأعلى، ليسوا الدولة كذلك. آية ذلك أن الرؤساء يتغيرون والدول تبقى. أتذكرين عندما عرضت عليكِ صورة العلم المصري القديم ذي الهلال والنجوم الثلاثة؟ الأعلام يمكن أن تتغير أيضًا، والحكومات تجيء وتذهب، ولكن الدول لا تزول باختفاء هذه المظاهر التي تتغير وتتبدل. الدولة فكرة أكبر من كل البشر الذين يمثلونها. أشمل من جميع الرموز التي تعبر عنها، والمباني التي تسكن فيها. أكبر من الملك أو الرئيس أو الوزير أو ضابط الشرطة أو القاضي في المحكمة.

الدولة هي قفزة أخرى في مستوى التركيب والتعقيد، بهدف تنظيم مجتمع معقد يضم عشرات ومئات الآلاف، بل ملايين، من الأفراد. ظهرت الدولة، في ست مناطق من العالم بشكل مستقل، أي من دون أن تنتقل «الفكرة» من مكان لآخر. أي دولة تستمد وجودها من إيمان الناس بفكرة جوهرية وحاسمة: أن ثمَّة طائفة قليلة من البشر تستحق، لسببٍ أو لآخر، أن تكون في موقع السُّلطة، بحيث تتحكم في أغلبية أعضاء المجتمع الآخرين وموارده، وتقوم على أمر توزيع هذه الموارد وتنظيم الناس وحسم المنازعات بينهم وإدارة حياتهم المشتركة.

ما السبب الذي يمكن أن يبرر هذا الاستحقاق؟ ما الدافع وراء إقرار المجتمعات به؟

في الحضارات النهرية كافة، أفرزت الحاجة إلى تنسيق مشروعات الري احتياجًا للقيادة. الأنهار تواجه الناس بتحديات الفيضان التي تداهم القرى والمدن. مواجهة الفيضانات تحتاج تخطيطًا وتنظيمًا وعملًا مشتركًا. الأنهار دافع للوحدة والاتصال والتجانس. درء مخاطرها وجني مغانمها يدفع الوحدات السكانية الأصغر للتلاصق والالتحام في وحدات أكبر. تذكري حاجة الخلايا إلى الاتحاد والتعاون معًا لتشكيل كيانات أكبر - هي الكائنات الحية - للحصول على المزيد من الطاقة من البيئة. إنها الظاهرة نفسها تقريبًا.

هذا ما جرى في مصر حول 3100 ق.م عندما وحَّد ملك يُدعى «مينا نارمر» شطري البلاد (مصر العليا ومصر السفلى) في مملكة واحدة. في الصين، ثمَّة قصة أسطورية تعيد أصل الأسرة الحاكمة الأولى إلى مهندس اسمه «دا يو» (Da Yu) - أو «يو» العظيم - ظل يعمل لسنوات من أجل ابتداع حل لترويض النهر الأصفر وفيضاناته المدمرة التي لم تستطع السدود الصمود أمامها. بعد أن نجح «دا يو» في ابتداع أساليب هندسية (شبكة من القنوات تحوِّل مجرى النهر) اعتلى المهندس العظيم سُدَّة الحكم. نجاحه كان مرهونًا باكتشافه السر: لا قِبَل للعائلات والقبائل والقرى بمواجهة الفيضانات فرادى. الاستجابة الحاسمة لهذه المشكلة المتكررة تقتضي تنسيق عمل جماعي على امتداد شاسع، بين قبائل وقرى ومدن مختلفة. نجاح «دا يو» لم يكن في حقيقة الأمر «هندسيًّا» بقدر ما كان سياسيًّا ودبلوماسيًّا. ثمَّة علاقة وطيدة بين الأنهار كظاهرة جغرافية، ونشوء السُّلطة المركزية كظاهرة اجتماعية وسياسية. الأنهار مهدت لبسط السُّلطة على مناطق أوسع، وعلى أعداد أكبر من السكان.

ترويض الأنهار ليس المشكلة الوحيدة التي تواجه القرى كبيرة العدد. هناك مشاكل أخرى تتعلق بتخزين الحبوب بغرض الاستهلاك طول العام، ومن أجل الطوارئ والسنوات العجاف. التخزين يجلب على الفور مشكلة التوزيع (مَن

يحصل على ماذا؟ ومَن يقرر ذلك؟) هكذا ظهرت مراكز للسُّلطة تقوم بتنسيق أعمال الزراعة والري، وكذلك التخزين والتوزيع، على نطاق واسع في عدد من القرى المحيطة. هذه المراكز ستصبح مع الوقت مدنًا يقطنها عدد أكبر من البشر.

الحضارة الأولى لبلاد الرافدين كان أبطالها يُدعون السومريين. لا نعرف من أين جاء هؤلاء بالضبط، ولا السبب وراء استقرارهم في الأراضي الخصبة التي تُشكل دلتا جنوب دجلة والفرات (حول مدينة الناصرية بالعراق اليوم). إلا أننا نعرف، من آثار المدن التي خلفوها، أنهم كانوا مبدعين وعباقرة.

«الوركاء»، أو «أوروك»، من أوائل المدن المعروفة في جنوب بلاد الرافدين. كانت «الوركاء» دولة/ مدينة تتحكم في ما حولها من أراضٍ وقرى. عدد سكانها بلغ نحو عشرة آلاف في 3500 ق.م، أقدم آثارها هو المعبد في مركز المدينة. المعبد عنصر رئيسي في أي مدينة. هو الذي يجعل منها مركزًا للسلطة والعبادة في آنٍ معًا. يشير البعض إلى أن المعابد الأولى ربما كانت تستخدم في الأساس في تخزين الحبوب وتوزيع الفائض. التحكم في الفائض هو مصدر سُلطة الحاكم؛ لذلك فأغلب الظن أن القادة الأوائل في بلاد الرافدين كانوا كهنة لا ملوكًا.

ليس صدفة أن آثار المعابد في «الوركاء» أقدم من آثار القصور (مقر الملوك) التي لم تظهر قبل عام 3000 ق.م. عندما يحوز الكهنة السُّلطة في مجتمع ما فهذا ما يُدعى «ثيوقراطية»، أي حكم رجال الدين. إنها ظاهرة ستستمر عبر التاريخ بأشكال وصور متباينة، وتجدين بعض آثارها باقية إلى اليوم في دول مثل إيران. المزج بين الدين والحكم كان من أقدم صور السُّلطة في المجتمعات الإنسانية.

إذا أردتِ أن تفهمي المجتمعات القديمة عليكِ أن تضعي نفسكِ في مكان أبنائها. تصوري أنكِ تعملين مزارعة في «الوركاء». إنها منطقة تواجه فيضانات متكررة. الفيضان كفيل بتدمير محصولكِ لعام أو أكثر. من أين يأتي الفيضان؟ مَن الذي يتحكم فيه؟ لا بد أن تلك ستكون من أول القضايا التي تشغل بالك. أغلب الظن أن تفكيركِ سوف يتجه إلى قوى علوية. قوى أكبر من البشر. هي ذاتها القوى التي تتحكم في تتابع الفصول. في بزوغ الشمس كل يوم. في دورة القمر العجيبة. الخطوة التالية هي التفكير في كيفية التعامل مع هذه القوى من أجل الحفاظ على انتظام الدورات الطبيعية المرتبطة بالحياة. يتطلب الأمر التوصل إلى طريقة ما لاسترضاء هذه القوى العلوية الجبارة، وتفادي غضبها الذي يستحيل شرًّا مستطيرًا يهلك الحرث والنسل. ولكن كيف نسترضي قوى لا نراها، وإن كنَّا نشعر بأثرها البالغ في حياتنا؟

هنا، شرع الناس في تجسيد هذه القوى الغامضة في صورة آلهة تشبه إلى حد بعيد البشر. الفارق الجوهري بينها وبين البشر أنها أكثر قوة وقدرة، ولا تخضع لقانون الفناء الذي يخضع له الإنسان. الآلهة خالدة لا تموت. في خلودها الأبدي تعبير عن استمرار الجماعة نفسها عبر الزمن. ذكرت لكِ في رسالتي الأخيرة أن الناس يموتون ولكن الجماعة نفسها – مثل الآلهة - تبقى. مكان الآلهة، إذن، في قمة المجتمع. هي أعلى مراتبه. إنها القوى الأشد أثرًا والأعمق تأثيرًا في حياة الناس.

لا وجود لأي مجتمع قديم من دون منظومة معتقدات تتضمن -في الغالب- عددًا من الآلهة. إنها العنصر الأهم في تنظيم أي مجتمع. تعدُّد الآلهة سبق الإيمان بالإله الواحد. في هذا الزمن البعيد كانت فكرة الآلهة المتعددة منطقية تمامًا بالنسبة لمعتنقيها: إله للشمس، إله للحصاد، إله للفيضان، إله للتكاثر، إله للحرب.. إلخ.

الكهنة هم أشخاص يقومون بدور الوساطة بين الناس والآلهة. من خلال هذه المهمة الخطيرة يستمدون سلطانهم. هم يشرفون على تخزين الفائض من الحبوب، وتقديم الأضحيات للآلهة. الأضحية ممارسة متكررة في الكثير من المعتقدات القديمة (ولها حضور بارز في الأديان التوحيدية كذلك). لقد تعرفنا على أصلها القديم عندما تحدثنا عن «واحدة بواحدة» كقانون أساسي عرفته كل الجماعات البشرية. غاية الأضحية هي أن تهبي قسمًا من رزقكِ شكرًا للإله، في مقابل استمرار الرزق في المستقبل. إنها طريقة للتواصل مع القوى العلوية التي تؤثر على مصائر الناس. سبيل لاسترضائها وتجنب غضبها العارم، الكفيل بمحو الحضارة نفسها بين عشيةٍ وضحاها.

الأضحية تحتاج إلى أماكن مخصوصة لتقديمها. هكذا بدأت الصروح الحجرية الضخمة في الظهور لأول مرة في قلب المدن. لا تخلو مدينة من هذا الضرب من البناء الحجري الضخم الذي يستغرق سنوات وسنوات لإنجازه. المعبد القديم في «الوركاء» تطلب عمل 1500 شخص، واستغرق بناؤه خمس سنوات على الأقل.

غير أن الكهنة لم يستمروا في السُّلطة طويلًا. مع توسع المجتمعات زادت الثروات التي تتحقق من فائض أكبر من الغذاء بسبب استخدام أساليب الري وتخصيب التربة. الثروة تجلب الأعداء والطامعين. هنا ظهر المحاربون..

في البداية، استعان الكهنة بهؤلاء المحاربين بصورة مؤقتة لرد عدوان أو الدفاع عن المجتمع في مواجهة جماعة غازية. المحاربون لعبوا دورًا مركزيًّا في تكوين الدول لأن الدولة نشأت أساسًا بسبب الخوف من عنف الجماعات الأخرى. القبائل احتاجت للتحول إلى دول حتى لا تبتلعها قبائل أخرى. السبب

أن الدولة، بتنظيمها المركزي، تستطيع تكوين قوة مقاتلة أشد ضراوة وفتكًا من تلك التي تكونها القبيلة. ما يدفع الناس إلى التخلي عن المساواة التي تمتعوا بقدر كبير منها في ظل القبيلة هو حاجتهم إلى الأمن في ظل كيان أكبر هو الدولة.

الحرب ليست مجرد ممارسة العنف. جوهر الحرب، كما ذكرتُ لك، هو العنف المنظم. التنظيم في الحرب ضرورة لأنكِ لو خضتِ الحرب كما تخوضين خناقة، فسوف تعرضين نفسكِ وجماعتكِ لخطر الموت بأعداد كبيرة منذ اللحظة الأولى. وإذا نظرتِ إلى الحرب اليوم سيدهشكِ ما تتطلبه من تنسيق معقد بين أعداد هائلة من البشر، من مخابرات إلى أسلحة مختلفة على الأرض وفي الجو والبحر، وعمليات إمداد وتموين.. إلخ. وفي الزمن البعيد اقتضت الحرب أيضًا إحصاءات ومعلومات عمَّا ينتجه الناس، وقدرة على حشد الجنود، وتزويدهم بالسلاح وتدريبهم.

على أن الحرب تتطلب، في المقام الأول، نظامًا صارمًا من الطاعة. في ساحة المعركة، طاعة الأوامر هي الفارق بين الحياة والموت. لقد أدركت المجتمعات البشرية حاجتها لتنظيم نفسها بطريقة معينة لشن حرب ناجحة. امتد هذا التنظيم من زمن الحرب إلى زمن السلم، فصارت المجتمعات منظمة في تراتبية هرمية تشبه تراتبية الضباط والجنود في ساحات المعارك. هذه التراتبية هي أساس نظام الدولة. لقد صنعت الحروب الدول، ثم قامت الدول بشن الحروب!

مع الوقت، أصبح القادة العسكريون، وهم أناس لديهم خبرة بالقتال، وبتنظيم الناس في المعارك، حلفاء دائمين للكهنة. ثم ما لبث العسكريون أن تمكنوا من إزاحة الكهنة وجعلهم يعملون لصالحهم. هكذا حلَّ زمن الملوك المحاربين. توطد سلطانهم بصورة مستقلة عن رجال الدين. غير أن الملوك ظلوا دائمًا في حاجة إلى الكهنة. لا غنى عن إقرار رجال الدين بأن الآلهة اختارت أشخاصًا بالذات ليصيروا ملوكًا، أو أن هؤلاء الملوك من نسل الآلهة، أو أنهم أنفسهم آلهة! هكذا ظهر التحالف الممتد لفترة طويلة جدًّا من التاريخ بين رجال الدين والملوك. إنه تحالف حاسم لترسيخ «فكرة الدولة»، كنظام مستقر للسلطة، في أذهان الناس. الأغلبية الساحقة من الدول التي عرفها التاريخ لها دين رسمي.. دين الدولة.

غير أن الدولة، في نهاية الأمر، تظل نظامًا «غير مرئي» لتشغيل المجتمع؛ إذ إن جوهرها يعتمد على علاقات السُّلطة والطاعة وامتثال عدد من الأشخاص لأوامر آخرين؛ لذلك احتاجت الدول لأن تجعل سلطتها وقوتها «مرئية» على نحوٍ ما. احتاجت إلى أشياء تبرز هذه السُّلطة القاهرة، وبحيث يفكر الناس مرتين قبل تحديها أو العمل ضدها..

سر الأهرام

هل فكرتِ يومًا في السبب الذي حمل البشر على بناء الصروح الحجرية الهائلة التي ترين أطلالها اليوم في المدن القديمة كافة؟ ما الذي دعاهم دائمًا للسعي إلى الارتفاع بصروحهم تلك إلى أعلى وأعلى، على ما يفرضه ذلك من صعوبات في تحدي قانون الجاذبية؟

السبب له علاقة بالدولة كطريقة ننظم بها حياتنا، وبالتراتبية اللصيقة بفكرة الدولة. الصروح الحجرية تجسد هذه التراتبية على نحو مدهش وعجيب. كيف؟

لا تتصوري الدول القديمة كملعب كرة واسع يقف الناس فيه جنبًا إلى جنب على أرض مستوية. تخيلي، بدلًا من ذلك، بناية من عدة طوابق. هناك مَن يسكنون الأدوار العليا وهناك مَن يقبعون في «البدروم»!

العمود الفقري لفكرة الدولة هو هذه التراتبية التي يتربع بفضلها شخص واحد عادةً على قمة المجتمع. وبعكس القبيلة، الدولة تنظيم فيه قدر أكبر من التراتبية والتمييز بين الطبقات، وبخاصة طبقة الحكم.

لقد رأينا من قبل أن الجماعات تستطيع إنتاج «شفرة اجتماعية» تغرسها في أبنائها منذ الصغر، لإقناعهم بأن النظام الذي يعيشون في ظله ليس شيئًا مصنوعًا وإنما هو يعبر عن طبيعة الأشياء ونظام العالم.

في حالة الدولة القديمة - كل دولة تقريبًا - ارتكزت «الشفرة الاجتماعية» على غرس الاعتقاد بأن الناس لم يخلقوا متساوين، وأن التراتبية في المجتمع تعكس حقائق كونية ثابتة. نظام الطبقات في الهند يُعد مثالًا كاشفًا..

في شمال شرقي الهند (باكستان حاليًّا) نشأت حضارة قديمة جدًّا حول 2500 قبل الميلاد. ازدهرت هذه الحضارة في مدن مثل «هارابا» و«ماهينجودارو» حول نهر السند. من عجائب هذه الحضارة أنها ابتكرت، ربما لأول مرة، نظامًا للصرف الصحي. تُشير أطلالها إلى وجود حمَّامات في البيوت! غير أن حضارة السند القديمة ما لبثت أن تدهورت وتراجعت لسبب غير مفهوم. حول عام 1750 ق.م، تعرضت الهند لغزو من القبائل المعروفة في التاريخ باسم «الهندو أوروبية» التي كانت تسكن المنطقة الواقعة في وسط آسيا. هل تذكرينهم؟ إنهم أولئك الرعاة الذين روضوا الخيل للمرة الأولى. مجموعة من هؤلاء الرعاة اتجهت إلى الهند، وقسم منهم استقر في إيران، وتوجه قسم آخر منهم شطر أوروبا. لهذا السبب نلاحظ، إلى اليوم، قواسم متشركة بين اللغات في هذه المناطق.

ما يهمنا هنا هم القبائل التي قدمت للهند واستوطنت فيها، والتي تسمى بالقبائل الآرية. هؤلاء جاءوا حاملين لغتهم وثقافتهم وأساطيرهم. تلك الأساطير أصبحت نواة ديانة رئيسية يدين بها اليوم نحو مليار شخص هي الهندوسية. أهم نص في الهندوسية هو «الفيدا». «الفيدا» تعني المعرفة. لقد كان رجال الدين الهندوس - يُطلق عليهم البراهمة - يحفظون ترانيم «الفيدا» عن ظهر قلب، ولم يتم تدوين هذه الترانيم إلا حول عام 1000 قبل الميلاد.

تطورت العقيدة الهندوسية من رحم هذه الترانيم. اتخذت مع الوقت صورًا أكثر تعقيدًا. إله الخلق، براهما، خلق العالم. مطلوب أن ينخرط البشر في تقديم الأضحيات والقرابين حتى يحافظوا على استمراره. مَن يقوم على تنظيم هذه المهمة المقدسة هم «البراهمة». هؤلاء كانوا النواة الصلبة لمنظومة اجتماعية وسياسية متكاملة..

لقد أنشأ الآريون نظامًا اجتماعيًّا مركزه هذه العقيدة. كان طبيعيًّا أن يمنحوا أنفسهم، في ظل هذا النظام، مكانة الأسياد. ساعد في ذلك كون بشرتهم أفتح من بشرة السكان المحليين. كلمة «آري» تعني السيد. سيعود الزعيم الألماني أدولف هتلر لتطويع هذا المفهوم مجددًا في القرن العشرين لكي يبرر تفوق الجنس الأوروبي الأبيض (الآري) واستحقاقه للسيادة المطلقة على العالم باعتباره ينحدر من هذه السلالة العرقية!

تطور النظام الذي وضعه الغزاة الآريون الذين استقروا حول نهر الغانج. بالتدريج، لم يعُد هذا النظام قاصرًا على التمييز بينهم وبين السكان الأصليين. لقد استحال طريقة حياة شاملة مستقرة تسمى «نظام الطبقات». ستعجبين إذا علمتِ أن بعض آثار هذه المنظومة ما زالت باقية في الهند إلى اليوم. في محاولة لطلاء هذه المنظومة غير الطبيعية بطلاء طبيعي، جرى تشبيكها بالأساطير والآلهة.

تتصور الهندوسية أن الآلهة أنشأت المجتمع في طبقات. هي وظفت استعارة بسيطة بغرض تقريب هذه «النشأة المقدسة» للنظام الاجتماعي إلى الأفهام. جرى تشبيه نظام الطبقات الهندي بأجزاء الجسد: «بوروشا» (Purusha) هو عملاق هائل عرض نفسه على الآلهة لكي يقطعوا جسده. من هذا الجسد المقدس تشكل الكون والطبقات التي يتألف منها المجتمع. «البراهما» يتكلم من خلال أفواه البراهمة ويتحرك بأذرع الملوك والمحاربين (المعنى: البراهمة والملوك يُشكلان الطبقة العُليا، مثل الدماغ في الجسد، والعسكريون هم الذراع، أي القوة)، الفخذ تمثل الطبقة التجارية، فيما القدم ترمز للفلاحين وأرباب الحرف. وفي أسفل السلم هناك طبقة: المنبوذين، وهي أحط درجات التراتبية في المجتمع الهندوسي التقليدي.

شيئًا فشيئًا، اتخذ النظام صورة جامدة لا تسمح بانتقال المرء من طبقة إلى أخرى. مَن يولد في طبقة من هذه الطبقات محكوم عليه بالعيش فيها طول عمره. التزاوج بين الطبقات غير جائز. بل لا يمكن أن يأكل المرء من طعام طُبخ على يد أبناء إحدى الطبقات الأخرى. أما المنبوذون فلا يجوز حتى لمسهم لأنهم «ملوثون»!

بالطبع أنتِ ترين هذا المنطق مجحفًا ولا يمكن قبوله. مع ذلك، فقد جرى توظيفه، بنسخ مختلفة بين الحضارات، لتفسير التراتبية في المجتمعات وإقناع الناس بقبولها كحقيقة مقدسة لآلاف السنين. كل حضارة ابتدعت أسطورتها الخاصة لتبرير سيطرة فئات بعينها على الحكم. الأسطورة تجعل هذه التراتبية مقبولة من المجتمع حتى تصير كأنها «النظام الطبيعي للأشياء». الأسهل من إجبار الناس باستمرار على قبول مكانهم الأدنى في الهرم الاجتماعي، هو أن يقتنعوا من تلقاء أنفسهم بأنهم مستحقون بالفعل لهذا المكان، وأن الآلهة هي مَن قررت ذلك.

أنتِ تنظرين اليوم بعين النقد لنظام الطبقات الهندوسي، أو لنظام العبودية الذي ساد الغالبية الكاسحة من الحضارات القديمة؛ لأنكِ خارج الأسطورة التي صنعت كل نظام منها، ولم تُغرس في داخلكِ «الشفرة الاجتماعية» التي تشغل هذا النظام وتضع قواعده. عندما ننظر للأسطورة من خارجها تبدو لنا ساذجة وغير منطقية. عندما نكون داخلها يستحيل علينا كسرها أو تصور العالم خارجها. «نُظم الاعتقاد» تستمد قوتها من ذاتها. المعتقدات التي يؤمن بها البشر مختلفة للغاية كما تلاحظين. على أن الطريقة أو الآلية التي تعمل بها «نظم الاعتقاد» متشابهة، بل تكاد تكون متماثلة. هي تحصن نفسها ضد النقد والمساءلة بأدوات وآليات مختلفة.

ربما يساعدكِ أن تجربي الأمر على نحو معكوس. جربي مثلًا أن تعلني على أصدقائكِ أنكِ تعتقدين أن البشر ليسوا متساوين بالضرورة، وأن العبودية لا تبدو نظامًا سيئًا لهذه الدرجة، وأن علينا أن نستعيد هذا النظام في زماننا الحاضر. جادلي، مثلًا، بأن العبيد يمكن أن يساعدونا في إنجاز الأعمال الشاقة، وأن هذا يوفر لنا الوقت لإبداع أشياء أكثر نفعًا. أغلب الظن أن مَن يسمعكِ تتفوهين بمثل هذا الكلام سينفجر في وجهكِ غضبًا، وسينكر عليكِ أن تفكري بمثل هذه الطريقة المجردة من الإنسانية. السبب أننا نحن أيضًا نشأنا في ظل منظومة لها «شفرة اجتماعية» شاملة تهيمن على تفكيرنا ووعينا المشترك. صعب للغاية أن نفكر خارج هذا الإطار أو نتصور تراتبية مختلفة للمجتمع. بالمثل، لا بد أن نتفهم أن الأساطير القديمة، وما أنتجته من طرق للحياة والعيش، كانت من القوة بحيث أن الجميع صدقوها وآمنوا بها ورأوا فيها انعكاسًا للعدالة الكونية والترتيب الطبيعي للأشياء.

من الصعب أن تجدي دولة أو مجتمعًا قديمًا لم يعرف الطبقات أو التراتبية بصورة أو بأخرى. في روما كان هناك تمييز بين طبقتي الأعيانِ والعوام، ثم يأتي العبيد كالعادة في أسفل السلم. وفي العصور الوسطى، مثلًا، تجدين في أوروبا نظامًا من ثلاث طبقات جامدة: رجال الدين والفرسان والفلاحين. وجميع المجتمعات، بلا استثناء تقريبًا، وضعت الرجال في مرتبة أعلى من النساء.

أحسب أنكِ تتساءلين عن السبب الذي حملنا على تنظيم مجتمعاتنا على هذه الصورة المجحفة. السبب الأعمق يمكنكِ تخمينه بسهولة. نحن البشر - بالفعل ومهما ساءكِ ذلك أو أزعجك - لسنا متساوين. ثمَّة تفاوت بيننا في القدرات، العقلية والجسدية، وفي الحظوظ في الحياة، وفي الغنى والفقر. طبيعي أن تعكس مجتمعاتنا هذا التفاوت. حياتنا في الأسرة الصغيرة تنطوي أيضًا على نوعٍ من التراتبية حتى بين الإخوة على أساس السن. غير أن سببًا آخر مهمًّا يكمُن وراء تكريس التراتبية الجديدة في المجتمعات. إن الذين يقبعون على القمة هم غالبًا مَن يحددون «قواعد اللعبة» في المجتمع، وهم يعمدون عادة إلى تصميم هذه القواعد وتحصينها بحيث تبقيهم، وذريتهم من بعدهم، على القمة باستمرار.

إن كنتِ تجدين أن العيش في المجتمعات القديمة جذابًا، حيث تختفي تعقيدات حياتنا المعاصرة، فعليكِ مراجعة نفسك. في هذه المجتمعات فرصتكِ لأن تكوني في قمة الهرم، زوجة لكاهن مصري أو لفارس هندي أو ابنة لواحدٍ من أعيان روما، هي 10% على أفضل الفروض. وإذا ولدتِ في مكان ما بالسفح، فلا طريق أمامكِ للصعود. مشكلة المجتمعات القديمة تمثلت في افتقارها إلى «سلالم» للصعود الاجتماعي إلا في حالات استثنائية نادرة.

لقد بذلت المجتمعات القديمة جهدًا متواصلًا لإقناع أبنائها برسوخ «الهرم الاجتماعي» وأبديته عبر أساطير تبرر التفاوت الفادح بين البشر. وبرغم هذه الجهود الحثيثة، فإن الهيكل التراتبي الذي تقوم عليه فكرة الدولة ظل دائمًا هيكلًا هشًّا. إذ لا وجود لهذا «البناء» سوى في الخيال المشترك للبشر وفي أساطيرهم المتوارثة. لهذا احتاجت المجتمعات والدول إلى أن تكسو هذا الخيال الهش لحمًا وعظمًا. أن تجعل منه شيئًا ملموسًا ظاهرًا للعيان..

الصروح الحجرية الضخمة اختيار مثالي لتحقيق الغرض. هذه الصروح تجسد الرابطة بين الملك والآلهة. هي دائمًا تتجه إلى أعلى. إلى السماء. كلما امتد طولها إلى أعلى كان أثرها في النفوس والأفئدة أوقع. الإنسان يخشى الأشياء المرتفعة والضخمة. إنه الشعور نفسه الذي يراودكِ عندما تقفين وحيدة في قاعة ضخمة مترامية ذات أسقف بالغة الارتفاع. شعور بأنكِ ضعيفة وضئيلة

في حضرة شيء مهيب وطاغٍ. إنه شعور ربما ورثه عقلنا اللا واعي أيضًا من حياتنا الطويلة على الصيد والالتقاط. الحيوانات الأضخم والأطول هي الأشد ضراوة والأكثر خطرًا. بالمثل: البناء العالي علامة قوة ودليل سيادة.

في حضارة بلاد الرافدين شُيِّدت المعابد المدرجة ذات البرج التي تسمى بالزقورات. هي مصاطب مبنية على مستويات مثل الهرم المدرج. في قمتها يستقر المعبد. لو نظرتِ إليها لوجدتِ أنها بناء يحاكي الجبل في ارتفاعه لأعلى، وتدرجه من السفح الواسع إلى القمة الضيقة. ليس في بلاد الرافدين جبال. السومريون، ومن بعدهم البابليون، أرادوا أن تستقر معابدهم فوق جبل مصطنع. الجبال هي الظاهرة الطبيعية الأكثر تعبيرًا عن معاني المنعة والرسوخ. هي أقرب النقاط في الأرض.. إلى السماء. في القرآن الكريم – مثلًا - تحذير لاغترار الإنسان بقوته يستحضر صورة الجبل: إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا . عندما لم يجد السومريون جبالًا حولهم، قرروا أن يشيدوها بأنفسهم في هيئة صروح شاهقة تشبهها!

المعابد المدرجة، وكذلك الأهرام التي شيدها المصريون، هي محاولة الإنسان لمحاكاة الجبال في رسوخها السامق واختراقها المهيب لعنان السماء. هذا ما يفسر ظهور الأهرام - وهي أقرب الأشكال الهندسية شبهًا بالجبل - في أماكن كثيرة بالعالم دون أن يكون لهذه الأماكن صلة ببعضها بعضًا. لقد عُثر على نحو 5000 هرم مبعثرة ما بين قارات العالم المختلفة، بما في ذلك أمريكا الوسطى برغم انقطاع اتصالها بالعالم القديم. الحقيقة أن حضارات أمريكا ما قبل «كولومبس» (المايا والأزتيك والإنكا) شيدت عددًا كبيرًا من الأهرام، يفوق ما عُثر عليه في بقية أنحاء العالم مجتمعة. إنها ليست ببهاء أهرام الجيزة بالطبع، ولا حتى تدانيها في ارتفاعها وضخامتها، غير أنها مثلت لغزًا كبيرًا للبشر عندما عُثر عليها في القرن التاسع عشر. ظهرت نظريات ساعتها تشير إلى أن هذه الحضارات كانت مستعمرات مصرية! فسر البعض وجود أهرام أخرى في الصين بالطريقة نفسها. الحقيقة أن هذه التفسيرات كانت تغفل شيئًا مهمًّا: عندما يبدأ الإنسان في الانشغال بالتفكير المركب في الوجود والآلهة ونظام المجتمع، فإن عقله يقوده في اتجاهات تذهلنا بتشابهها، بل وتطابقها في أحيان كثيرة.

تأملي ما كرَّسه البشر في هذه الحضارات المختلفة من موارد هائلة وعملًا شاقًّا مضنيًا من أجل إنجاز مشروعات ليس لها عائد اقتصادي واضح. أهرام مصر نموذج صارخ في تعبيره عن هذا النشاط الإنساني العجيب. إنها تبدو كمخزن هائل للطاقة المعطلة أو المهدرة. هي طاقة لا تُستخدم من أجل البقاء، كما الحال في فصول قصتنا من بدايتها، بل تهدف إلى شيءٍ آخر..

جربي أن تذهبي إلى هرم الجيزة الأكبر (الأعجوبة الوحيدة الباقية من العجائب السبع للعالم القديم). جربي أن تنظري إليه عن قرب.. من السفح. يا له من مشهد مهيب يلقي الروع في النفس! أتذكر عندما اصطحبتكِ طفلة صغيرة لتشاهدي الهرم. لا أنسى علامات الدهشة والانبهار التي ارتسمت على وجهك. لا شك أن هذا هو رد فعل جدك الأكبر نفسه، المصري القديم، عندما اصطحبه والده طفلًا لزيارة «منف» للمرة الأولى. ربما سأل الطفل والده عن مغزى هذا الشيء المهول، الذي يبدو أضخم من كل ما رآه في حياته. (ظل هرم خوفو الأكبر أعلى بناء شيَّده بشر على ظهر الأرض حتى بناء برج إيفل في فرنسا عام 1889م). قد لا نعرف إجابة الوالد بالضبط، ولكني أكاد أخمن أنها ستدور حول أمرين: الفرعون الذي بُني هذا الصرح من أجله، والآلهة التي تجعل هذا البناء المهول له معنى. الهرم له علاقة بالفرعون والآلهة. هو بناء يحقق الرابط بين الاثنين؛ بين الملك والإله. يجعل منهما شيئًا واحدًا تقريبًا. يصطنع لهما تجسيدًا ماديًّا على الأرض. تجسيدًا ملموسًا ومرئيًّا وعميق التأثير في نفس كل مَن يمد بصره إليه.

الأهرام ليست مجرد مقابر للفراعنة. هي نموذج حي على سلطانهم الأبدي. الذين خططوا بناءها بهذه الصورة العملاقة أرادوا لها أن تتحدى الزمن، وكان لهم ما أرادوا. هم كانوا يعلمون أنهم سيغادرون الحياة في يومٍ ما. البناء الحجري الضخم لا يعصم من الموت، ولكنه يجعل فرعون حاضرًا في أذهان الناس، بصورة أو بأخرى. يحافظ على «فكرة السُّلطة» واستمرارها ورسوخها. الهرم الأكبر يشي بالسلطة التي تقف وراءه. السُّلطة التي استطاعت حشد عدد هائل من البشر لسنوات لإنجاز بناء بهذا الحجم. هذه السُّلطة - هكذا سيفكر مَن يطالع بناءً من2.3 مليون حجر - لا بد أنها «فوق البشر» على نحوٍ ما. لا بد أنها «إلهية». لا عجب، والحال هذه، أن تتحلق الحضارة المصرية القديمة حول هذه العلاقة الخاصة التي تربط الفرعون بالآلهة.

الأهرام والمعابد المدرجة في بلاد الرافدين مشيدة أيضًا لتحاكي صورة الدول والتراتبية في المجتمعات. هناك قاعدة واسعة، تضيق بالتدريج حتى تصل إلى القمة. هذه المباني كانت تعبر عن الطريقة التي يفكر بها الناس ويرون بها مجتمعاتهم. في أعلى سلم التراتبية هناك الآلهة، وبعدهم الملوك، فالكهنة.. ثم تتسع القاعدة كلما هبطنا إلى أسفل، حيث يقبع أغلبية البشر في السفح. هكذا يتحول «الهرم الاجتماعي» إلى هرم فعلي. من ممارسة يومية إلى واقع حقيقي وملموس. ربما كان هذا هو سر ظهور الأهرام في أكثر من مكان. هي ليست طاقة معطلة، وإنما «أداة اجتماعية» هائلة الحجم تهدف إلى خلق رابطة مشتركة، راسخة كالطود ومستمرة في الزمن إلى حد الخلود، بين أعضاء جماعة كبيرة.

غير أن هذه المباني العملاقة، وكذا كل مظاهر الدولة الأخرى، ليست هي الدولة نفسها. الدولة هي النظام الذي يربط كل هذه المظاهر معًا. بلغة الكمبيوتر، هي «نظام التشغيل».. فأين يوجد هذا النظام؟ انتظري رسالتي التالية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بابا العزيز..

لماذا يبدو كل شيءٍ في قصتك هذه حتميًّا؟

البشر تركوا حياة الترحال؛ لأن تغير المناخ دفعهم للزراعة. ثم زادت أعدادهم، فظهرت السُّلطة، ثم بزغت الدولة التي جلبت معها العنف والإجبار والتراتبية الهرمية والمباني الشاهقة. كل شيءٍ يبدو حتميًّا تمامًا. أين اختيارات البشر في هذه القصة؟

أحسبك تروي القصة من زاوية واحدة. زاوية الدول التي خلَّفت وراءها صروحًا تدل على عظمتها، وكتابات تروي قصة مجدها. يُخيل إليَّ أن ثمَّة الكثير من الأصوات التي لم تصلنا. لماذا لا نفترض أن هناك مَن رفض تلك الصفقة التي قامت عليها السُّلطة والدولة، وفضَّل حياة الحرية بعيدًا عن الجيوش والسُّخرة وانعدام المساواة والمباني العالية؟ أؤكد لك أنني، لو شهدت هذا العصر، لما اخترت العيش في أي دولة!

أنت يا بابا أيضًا جزء من الأسطورة نفسها؛ لذلك ترى أن نظام الدولة هو الحضارة، وما عداه هو التخلف والبربرية.. أنا لا أرى الأمور على هذا النحو. نظام الدول الذي وصفته في رسالتك أدى إلى تعاسة الغالبية العظمى من البشر الذين صار عليهم أن يكدحوا لصالح القلة القليلة. لقد جلبنا لأنفسنا الأمراض والمعاناة وسوء التغذية بسبب حماقتنا. عُزلتي في الغرفة اليوم بسبب هذا الفيروس اللعين هي نتيجة مباشرة لاختيارات حمقاء أقدم عليها أسلافي. كان بإمكان الناس أن ينظموا أنفسهم بطرقٍ مختلفة لا تنطوي على هذا القدر الهائل من الظلم.

ليلى

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الرسالة الثامنة

بيت من ورق اللعب

«بعض أكاذيب الحياة يتفجر صدقًا»

نجيب محفوظ

عزيزتي ليلى..

أنتِ محقة تمامًا في أن الكثير من الأصوات لم تصلنا. الكثير من الناس، كما قُلتِ، فضَّلوا حياة الحرية. ظل في إمكان البشر أن يرتحلوا بعيدًا عن سلطان الملوك والدول. أن يعيشوا في الجبال أو البراري حياة أكثر حرية. غير أن شيئًا ما لا بد أنه اجتذب غالبية البشر لطريقة الحياة التي تقوم على المدن والتراتبية، ثم الدول، شيئًا ما أشعرهم أن الصفقة المسماة بالحضارة هي صفقة رابحة. لا أقول إن الطريق كان حتميًّا، ولكن الارتحال عبره كان تذكرة ذهاب بلا عودة. ورغم أن نظام الحضارة هذا يبدو لكِ منيعًا راسخًا وحتميًّا، فسوف يُدهشكِ مدى الهشاشة الكامنة في داخله.

لم يخطط للحضارة شخص جهبذ، ولم تسر في طريق مرسوم من البداية. خطوة جرَّت خطوة، ولبنة انتظمت فوق أخرى حتى صار لدينا هذا البناء الفذ والمعقد الذي نسميه الحضارة. فائض الزراعة استدعى الجيوش، والجيوش صنعت الدول، والدول احتاجت للجباية لتمويل الجيوش.. وهكذا.

كل ذلك صار ممكنًا فقط بسبب فائض الزراعة. من دون هذا الفائض يستحيل أن تبزغ الدولة. هذا ما يفسر، مثلًا، عدم نشأة الدول في إفريقيا جنوب الصحراء، حيث 8% فقط من الأراضي تستقبل كمية مناسبة من الأمطار، فيما 50% من المساحة عبارة عن أرضٍ قاحلة لا تصلح لأي شيء.

حضارتنا، إذن، تتكون من أشياء مادية: محاصيل زراعية، حيوانات مستأنسة، أدوات، معادن.. إلخ. ولكن هي تقوم في الأساس على «نظام» للتحكم في هذه الأشياء، وتوزيعها في المجتمع، وطريقة لتنظيم المجتمع لكي يتعامل مع هذه الأشياء وينتجها، ويعيد إنتاجها.. ويحصل لنفسه خلال هذه العملية على قدرٍ من الطاقة يسمح بتشغيل هذه المنظومة نفسها.

الدولة هي «نظام تشغيل» أبدعه البشر لكي يقيموا مجتمعات مركبة. وكما أنكِ لا تجدين الوعي أو العقل إذا فتشتِ داخل تجاويف المخ وفي خلاياه العصبية، وكما لا يمكنكِ أن تضعي يدكِ على «نظام تشغيل» الكمبيوتر، «ويندوز» أو «آبل» مثلًا، إذا فككتِ أجزاءه، فإنكِ أيضًا لا تستطيعين العثور

على «الدولة» في أي شيء مادي ملموس من عناصرها. لن تجدي الدولة في قصور الحكام، ولا في المعابد الشامخة، ولا في فيالق الجيوش. هذه كلها من مظاهر الدولة، ولكن الدولة نفسها شيء آخر. هي قواعد ومؤسسات غير مرئية، ولا ملموسة، ينسجها المجتمع ويعيش بها، جيلًا بعد جيل.

لقد رأينا من قبل أن الكثير من الأشياء المركبة في قصتنا يعتمد على المعلومات في الحصول على الطاقة. الدولة تفعل الشيء نفسه. إنها «نظام تشغيل» معقد يعتمد أيضًا على المعلومات من أجل تأمين تدفقات منتظمة من الطاقة تسمح بإعاشة عدد كبير من السكان، من بينهم نسبة لا تعمل بالزراعة، وتسكن في المدن.

ثمَّة طريقة ناجحة لمعالجة المعلومات. هي الطريقة ذاتها التي اتبعتها الخلية الأولى للتكاثر.. والطريقة نفسها التي يتبعها الدماغ في صناعة الوعي: أن تتحول المعلومات إلى شفرة.

من أجل أن تصبح الدولة «نظام تشغيل» ناجح وفعَّال، فإنها كانت في حاجة إلى «شفرات»..

«دي إن إيه» الحضارة

أول ما يلفت الانتباه في مجتمع الزراعة والمدن والدول هو حجم ومستوى التعقيد. من مظاهر هذا التعقيد زيادة عدد الأشياء: الدواب والمحاصيل والأحجار والمنازل والأواني الفخارية. فضلًا عن تزايد عدد الناس أنفسهم، وتنوع الأنشطة التي ينخرطون في ممارستها. أول ما احتجنا إليه للتعاطي مع تلك الوفرة في الأشياء هو وسيلة لإحصائها.

العد فكرة قديمة للغاية تعود لما قبل حياة الزراعة بآلاف السنين. العين تستطيع تمييز أشياء كثيرة في لمحة واحدة (مثل التعرُّف على الوجوه)، ولكنها قاصرة عندما يتعلق الأمر بتعداد وحدات يزيد عددها على خمسة أو عشرة. جربي أن تحاولي بنظرة واحدة حساب عدد حزمة من أعواد ثقاب سقطت على الأرض. لا أحد بمقدوره فعل ذلك، اللهم إلا بطل فيلم «رجل المطر» ذو المهارات الخاصة والمصاب بمرض التوحد!

لهذا السبب، توصل الإنسان مبكرًا جدًّا إلى فكرة عد الأشياء. الفكرة ليست بسيطة تمامًا. إنها تتصل بمستوى معين من التفكير التجريدي. في البداية، يربط الإنسان الأعداد بالأشياء: ثلاث شجرات، أربع غزالات. هذا هو نفس ما يفعله الطفل في بداية تعلمه للعد. لا يقول الطفل «ثلاثة» كرقم مجرد، ولكن يقول ثلاث تفاحات. أتذكر جيدًا اليوم الذي سألتكِ فيه أن تحصي أربع برتقالات، فصرختِ معترضة أنكم لم تتعلموا في المدرسة سوى عد التفاح!

بعد فترة، تعلم الإنسان أن يفصل العدد عن المعدود. هنا يتحول ثلاثة وأربعة إلى رموز مجردة.. إلى شفرة. عندما نعد الأشياء فنحن أيضًا نرتبها، خمسة أكبر من أربعة، وأقل من ستة. العد يعتبر أن الأشياء لها بداية (واحد)، وليس لها نهاية، وأن الأرقام تتحرك في خط مستقيم، وتزيد واحدًا في كل مرة. إنه نظام شامل يتيح ترتيب الأشياء التي تحيط بنا في الحياة وحصر كمياتها، والمقارنة بين هذه الكميات.

الإنسان بدأ رحلته مع العد - كما بدأتِ أنتِ رحلتك - مستخدمًا أصابعه. الحقيقة أنه لم يستخدم فقط أصابع اليدين، وإنما القدمين أيضًا، وعُقلات الأصابع، بل وأجزاء أخرى من الجسم. من المذهل حقًّا أن نعرف الأرقام التي استطاع الإنسان أن يصل إليها بابتداع نُظم بسيطة للعد تعتمد على أجزاء الجسد. أحد المحاسبين الصينيين تمكن، في القرن السادس عشر، من ابتداع نظام للعد يعتمد على أصابع اليدين فقط، ويصل إلى ما بعد المليون!

إن أي منظومة للعد، مثلها مثل الشفرات التي صادفناها، تستخدم عددًا محدودًا من الرموز. غير أن هذه الرموز يمكن توظيفها للإشارة إلى عدد لا نهائي من الأرقام. السر هو أن الأرقام الكبيرة مكونة من وحدات أصغر، مثل ثمانية عشرة، ومائة وثمانية عشرة.. إلخ. هل يذكركِ هذا بشيء؟ إنها تشبه منظومة اللغة: مكونات بسيطة جدًّا تُنتج نظامًا مركبًا ولا نهائيًّا. إنها «شفرة» أخرى نستخدمها في صناعة المزيد من التركيب. الأعداد هي أيضًا لغة.. لغة عالمية. استخدم البشر هذه اللغة في إيجاد علاقات عجيبة بين الأعداد نفسها، وبين الكميات والمساحات. هذا ما نسميه بالرياضيات. من دون رياضيات لا مجال للهندسة أو الفيزياء.. أي لا وجود للحضارة كما نعرفها. اعتبر عالم الفلك الإيطالي جاليليو جاليلي (1564م-1642م) أن الكون لو كان كتابًا، فهو مكتوب بلغة الرياضيات. أي إنه رأى أن الرياضيات تمثل «شفرة» الكون نفسه!

الحقيقة أن ثمة أسبابًا قوية تدعو للاعتقاد بهذا. إليكِ هذا السؤال المحير: هل الرياضيات موجودة من الأصل في الطبيعة وفي نسيج الكون، وما فعله البشر هو اكتشافها، تمامًا كما يكتشفون جزيرة نائية موجودة في المحيط؟ أم إن الرياضيات هي شيء اخترعه البشر وصنعوه بعقولهم، مثلها في ذلك مثل اللغة وقواعد النحو؟

ما أهمية السؤال؟ الحقيقة أنه مهم جدًّا. لو كانت الرياضيات شيئًا اكتشفناه، فأين يوجد بالضبط؟ من الواضح أنكِ لا تستطيعين، مثلًا، أن تلتقي بالرقم اثنين في أي مكان. لا يمكنكِ الإمساك بين يديكِ بالرقم ثلاثة. الأعداد والأرقام هي مفاهيم ليس لها وجود مادي. هي ليست مثل الأشجار أو الأحجار. ولكن.. أين توجد؟ هل هي محض خيال اخترعته عقولنا، ولا وجود لها سوى في داخل

هذه العقول؟ أم إنها موجودة في نطاق آخر من الواقع.. خارج الزمان والمكان؟

هذه المعضلة حيرت الفلاسفة منذ زمن بعيد. «فيثاغورث» وأتباعه، في القرن الخامس قبل الميلاد، تصوروا أن العدد هو أصل العالم، وبالذات الرقم واحد الذي تتكون منه الأعداد الأخرى كافة. هم اعتبروا الأرقام أشياء حيَّة، وأضفوا على الرياضيات مسحة من القداسة والغموض، كما سأروي لكِ في رسالة لاحقة.

هل 2 + 2 = 4 هي حقيقة رياضية تظل صحيحة بغض النظر عن اكتشاف البشر لها من عدمه؟ هل تظل هذه الحقيقة صحيحة بالنسبة لكائنات أخرى تعيش خارج الأرض (بفرض وجود مثل هذه الكائنات)؟ هل مجموع زوايا المثلث هو حقيقة كونية ثابتة، بصرف النظر عن إدراكنا لها؟

ثمة أسباب للاعتقاد بأن الحقائق الرياضية موجودة في نسيج الكون نفسه. في الطبيعة حولنا. هذا ما تكشف عنه، مثلًا، «متتالية فيبوناتشي». و«فيبوناتشي» هذا هو عالم رياضيات إيطالي شهير عاش في العصور الوسطى، وهو الذي أسهم في نقل الأرقام العربية/الهندية إلى أوروبا. المتتالية الشهيرة التي اكتشفها تأتي على النحو التالي: 1-1-2-3-5-8-13-21-34. كل عدد هو مجموع العددين السابقين كما ترين. المُدهش أن هذه المتتالية تكشف عن نفسها في ظواهر طبيعية كثيرة: التفاحة بها خمسة أجزاء. لو قطعتِ ثمرة الموز لقطع صغيرة لوجدتِ أن كل قطعة تنقسم لثلاثة أجزاء. عدد أوراق أي زهرة سيكون غالبًا أحد أعداد «فيبوناتشي» العجيبة،؛ 13 أو 21 مثلًا!

هذه الظواهر الطبيعية، ومثلها كثير، تكشف عن وجود الرياضيات في نسيج الكون. هذا ما دعا «إقليدس»، الذي ندرس هندسته صغارًا إلى اليوم، إلى القول بأن الطبيعة ذاتها هي تعبير عن القوانين الرياضية.

مرة ثانية: هل اكتشفنا الرياضيات أم اخترعناها؟ لكِ أن تفكري بنفسك؛ لأن العلماء والفلاسفة ما زالوا محتارين إلى اليوم في هذا السؤال الملغز!

ومثلما هو الحال مع النحو بالنسبة لشفرة اللغة، فإن الأعداد لها قواعدها الخاصة. عبر التاريخ، ظهرت «منظومات» مختلفة للعد في أماكن مختلفة. المبدأ المشترك الذي يجمع هذه المنظومات أن كلًّا منها ينطلق من «أساس». مثلًا: أساس العد في النظام العالمي الذي نستخدمه اليوم هو الرقم (10)، ولذلك هو يسمى النظام العشري. في هذا النظام، نحن لا نعطي أسماء لكل الأرقام. الوحدات الأهم في هذا النظام هي الأرقام من واحد إلى تسعة، فضلًا عن الصفر. المجموعات التالية يتم تقسيمها في عشرات. إنه

نظام عبقري. قوته تكمُن في مرونته وبساطته الهائلة. لا تتصوري أن الإنسان وصل إلى هذا النظام من البداية أو بضربة حظ. استغرق الأمر آلاف السنين وتجارب لا حصر لها مع ابتداع منظومات مختلفة للعد.

النظام العشري يعتمد على فكرة بسيطة: قيمة العدد تُستمد من مكانه. تأملي الرقم 49 مثلًا. قيمة العدد (4) هي في واقع الأمر 40؛ لأنه واقع في خانة العشرات. هكذا يمكن التعبير ببساطة ووضوح عن عدد لا نهائي من الأرقام. فكرة عبقرية أليس كذلك؟ هي فكرة كان تصورها مستحيلًا من دون فكرة أخرى أكثر عبقرية: الصفر! النظام العشري يحتاج إلى الصفر للتعبير عن خلو مكان معين كما هو الحال مع الرقم 101. الصفر هنا يشير إلى أن خانة العشرات خاوية. أساس النظام العشري إذن هو الصفر. على أن هذا العدد العجيب راوغ الخيال الإنساني لآلاف السنين. إنه مفهوم بالغ التركيب، إذ كيف نتصور أن «اللا شيء» هو، في حقيقة الأمر، شيء؟ يتطلب ذلك مستوى عاليًا من التفكير التجريدي. الحضارات القديمة، ربما باستثناء البابلية، خلت من الصفر. أول ظهور لهذا الرمز الملغز جاء على يد الهنود في القرن الخامس الميلادي. ومن الهنود انتقل إلى العرب، ومن العرب إلى أوروبا، وهكذا ولد نظامنا العشري الحالي. الرموز التي نستخدمها اليوم للتعبير عن الأرقام تدعى «الأعداد العربية»، وموطن نشأتها الأول هو الهند.

ثمَّة تشكيلات مختلفة من نظم للعد تشي بعبقرية مَن ابتدعوها. مثلًا: حضارة المايا، في أمريكا الوسطى، لها نظام مبتكر أساسه العدد خمسة الذي يتم التعبير عنه بخط أفقي. هكذا كتبوا الأعداد من 1 إلى 6: (* ** *** **** ـــــ *). أما أصدقاؤنا السومريون، أصحاب الإبداعات الأولى، فقد أنتجوا نظامًا آخر عجيبًا أساسه الرقم 60. لم يأتِ هذا الاختيار خبط عشواء. الرقم 60 يكاد يكون سحريًّا. هو يقبل القسمة على عدد كبير من الأعداد والأرقام. هذا يجعل منه اختيارًا مثاليًّا للتعاملات الحسابية. من هذا الأصل الموغل في القدم يعود تقسيم الساعة إلى ستين دقيقة، والدقيقة إلى ستين ثانية. السومريون، والبابليون من بعدهم، هم أصحاب هذا التقسيم. هم أيضًا قسموا اليوم إلى 24 ساعة، والدائرة إلى 360 درجة، وهو أيضًا من مضاعفات الرقم السحري 60!

إن مجتمع المدينة المركب يحتاج إلى الكثير من المعلومات من أجل تنظيم عملية الحصول على الطاقة. في المدينة، تحتاجين لمعرفة مساحات الأراضي الزراعية، وعدد الأحجار المطلوبة لبناء حجري معين، وقدر الجباية اللازمة لإعاشة المعبد. لا مجال للتعامل مع هذا التضخم من دون منظومة معينة لتسجيل هذه المعلومات.

الذاكرة البشرية لها حد أقصى في حفظ الأشياء. هذا ما أدركه الناس عندما زحفت تعقيدات جديدة على حياتهم. عند نقطة معينة، يفقد الدماغ البشري قدرته على اختزان المعلومات. يظهر هذا بجلاء فيما يتعلق بالأرقام. لو تلوت عليكِ عشرة أرقام الآن، أغلب الظن أنكِ لن تستطيعي تذكر سوى خمسة أو سبعة بعد دقيقة. في الغد قد تستطيعين استرجاع رقمين أو ثلاثة. بعد أسبوع ستكون هذه الأرقام قد مُحيت من ذهنكِ كأن لم تكن. يستحيل تنظيم مجتمع مركب اعتمادًا على الذاكرة وحدها. الكتابة هي الحل الوحيد لهذه المعضلة..

إنها اختراع عبقري آخر يُتيح تضخيمًا لا نهائيًّا لذاكرة الإنسان. الكتابة ذاكرة خارج الدماغ. هي تعالج هذا العجز البشري عن تذكر كم المعلومات المطلوب لإدارة مجتمع مركب. هي أيضًا منظومة عبقرية تُتيح الاتصال بين طرفين منفصلين عن بعضهما بعضًا، زمانًا ومكانًا. اليوم، أنتِ لا تحتاجين لمجالسة «شكسبير» لتعرفي منه ما حدث لأمير الدنمارك «هاملت». بفضل الكتابة، يستطيع هذا المؤلف الإنجليزي أن يخاطبنا ويسرد علينا رواياته الممتعة حتى بعد وفاته بقرون. الكتابة تجعل اتصال المجتمع، عبر الزمن، أكثر متانة واستمرارًا. الكلمة المنطوقة لا تلبث أن تطير في الهواء بعد أن تخرج من الحلق. هي تحتاج لدماغ آخر يلقفها ويخزنها. نقل المعلومات شفهيًّا، وتخزينها في الأدمغة، عملية منهكة للغاية. لا سيما لو كانت هذه المعلومات مشفرة في صورة أعداد وأرقام.

لم تكن الكتابات الأولى بروعة مسرحيات «شكسبير» أو في جلال آيات القرآن الكريم والكتاب المقدس. إبداع الكتابة جاء أساسًا لمواجهة مشكلة بعينها هي الحاجة لتسجيل الأعداد. الكتابات الأولى كانت حصرًا عدديًّا لأشياء، كالماشية والمحاصيل. ولكن سرعان ما ظهرت فوائد استخدام هذه التكنولوجيا في أشياء أخرى غير الحصر العددي للأشياء. هذا النمط تكرر كثيرًا في تاريخ البشر، إذ يحدث أن تظهر تكنولوجيا معينة لحل مشكلة محددة، فإذا بها تفتح بابًا لاستخدامات أخرى مختلفة كليًّا لم تكن في الحسبان. لقد كان الأسكتلندي جراهام بل (1847م-1922م) يظن أنه اخترع جهازًا يُتيح للناس سماع الموسيقى الكلاسيكية، فإذا باختراعه يتحول إلى أكبر ثورة اتصالات في أواخر القرن التاسع عشر: التليفون!

الكتابة ظهرت على يد السومريين، وربما في مصر القديمة في الوقت نفسه، في الفترة بين 3500-3000 قبل الميلاد. الكتابة لم تُخترع مرة واحدة، وإنما عدة مرات في أماكن وأزمنة مختلفة. في الصين، ظهرت الكتابة في وقتٍ ما خلال الألفية الثانية قبل الميلاد. هي ظهرت أيضًا في أمريكا الوسطى حول الألفية الأولى قبل الميلاد. هذه المجتمعات لم تتواصل مع بعضها بعضًا، إلا أنها واجهت تحديًا متماثلًا يتعلق بالحاجة إلى إدارة مجتمع معقد. من دون الكتابة،

كان ظهور البيروقراطية مستحيلًا، وهي طريقة أخرى للتعامل بشكل منظم ومركزي مع مشكلات المجتمع المعقد كما سنرى بعد قليل.

في مدينة «الوركاء» اخترع السومريون تكنولوجيا للكتابة بالدق على الطين بعصا مدببة، لهذا تُسمى الكتابة المسمارية. ألواح الطين استطاعت الصمود في مواجهة الزمن بسبب جفاف المناخ، ولهذا لدينا مخزون كبير من كتابات بلاد الرافدين. في المقابل، اكتشف المصريون القدماء أداة أخرى أسهل في استخدامها، ولكن أكثر عرضة للتلف (البردي). لاحظي أن الورق اختراع حديث نسبيًّا، أخذه العرب عن الصينيين في القرن الثامن الميلادي. القسم الأكبر من تاريخ البشر مع الكتابة (خمسة آلاف عام) هو إما على ألواح الطين أو الأحجار أو البردي.. وليس على الورق!

أول نظم الكتابة كانت تصويرية. إذا أردتِ مثلًا أن تعبري عن الفعل «يأكل»، فإنكِ ترسمين فمًا مفتوحًا ويدًا تمد الطعام. مع الوقت، بدأت الكتابة تتجه أكثر إلى الرموز، أي إلى «التشفير». صعوبة رسم أشكال مركبة بدقة على الطين دفعت إلى هذا الاتجاه نحو الرمزية. تمامًا كما هو الحال مع الأعداد، ستلاحظين أن النمط المتكرر هو ابتداع منظومات أكثر تجريدًا وتبسيطًا للتعبير عن أشياء معقدة. كلما كانت الشفرة أسهل، وأكثر تجريدًا، صارت أكثر مرونة وأيسر في استخدامها.

المصريون القدماء لم يواجهوا الصعوبات نفسها في الكتابة على البردي؛ لذلك ظلت الكتابة المصرية، وتسمى الهيروغليفية (النقش المقدس) تصويرية في معظمها (وإن تضمنت أيضًا نظامًا للصوتيات). المشكلة أن المرء يحتاج حفظ آلاف الرموز لإتقان الكتابة بالرسم التي يعبر فيها كل رمز عن كلمة، أو مفهوم. كان هذا سرًّا من أسرار قوة البيروقراطية في مصر القديمة. الكَتَبة صار لهم مكانة مميزة في المجتمع بواقع مهاراتهم النادرة التي يستلزم إتقانها سنوات طوال. العائلات صارت تورث أبناءها هذه الصنعة المهمة. لم يزد عدد مَن يُتقنون الكتابة في مصر القديمة على 1-5% من السكان. أصبح هؤلاء يلعبون دورًا لا غنى عنه بالنسبة للحاكم، خاصة فيما يتعلق بجمع الضرائب وتنظيم عمليات الري والمشاريع الإنشائية الكبرى من معابد وأهرام، فضلًا عن أداء الطقوس الدينية. شيء مماثل جرى في الصين التي ما زالت تستخدم نوعًا من الكتابة الرمزية إلى يومنا هذا. يُعد ذلك سببًا جوهريًّا في ظهور طبقة البيروقراطية المميزة والمسيطرة في الصين، وتأثيرها الكبير في مسار هذه الحضارة ذات الامتداد العجيب في الزمن.. كما سنرى.

القفزة الحاسمة في تاريخ الكتابة هي الانتقال من الكتابة بالرسم والتصوير إلى الأبجدية..

هذه القفزة استغرقت ما يقرب من 1500 سنة أو يزيد. الفينيقيون، الذين أقاموا مركز حضارتهم في مدن تقع شرق المتوسط مثل صور وصيدا وجبيل هم أصحاب هذا الاختراع الفذ الذي طوروه حول 1200 ق.م. لم تكن فينيقيا إمبراطورية موحدة، وإنما مجموعة من المدن التي تعتمد طريقة واحدة في العيش من التبادل التجاري.

الحضارة الفينيقية ازدهرت في المنطقة التي توجد فيها لبنان حاليًّا. وربما يدهشكِ أن تعرفي أن التجارة ما زالت النشاط الرئيسي في لبنان إلى اليوم. يحصل لبنان على 90% ممَّا يستهلكه من الخارج. وقد بلغ من مهارة اللبنانيين بالتجارة، خاصة في المهجر، حدًّا أنْ قيل في وصفهم إن «اللبناني مهنة وليست جنسية»! كانت الحضارة الفينيقية أيضًا طريقة عيش، أو طريقة فريدة لكسب العيش!

توسعت فينيقيا إلى المتوسط، وأنشأت مستعمرات لها وصل بعضها إلى فرنسا الحالية. ومن أجل تسجيل عمليات التبادل التجاري، وتجنب ضرورة وجود شاهد على العقود، اخترع الفينيقيون نظامًا مبسطًا يمكن استخدامه في كتابة العقود التجارية. هذا النظام نُطلق عليه اليوم الأبجدية.

الأبجدية شفرة أكثر تجريدًا وأبسط كثيرًا للكتابة. من فرط بساطتها ومرونتها، يمكن من خلال هذه الشفرة كتابة أي لغة. الفكرة هي ابتداع رموز للتعبير عن الأصوات والمقاطع الصوتية بدلًا من الرسوم التي تعبر عن الكلمات والمعاني. إذا حفظتِ هذه الرموز صار بإمكانكِ كتابة أي كلمة وقراءة أي نص. إنها أعظم وأبسط «شفرة» ابتدعها البشر، بعد شفرة اللغة نفسها. يندر أن تجدي من بين «كاسري الشفرات» في قصتنا مَن لا يستخدم هذه الشفرة في عمله.

الأبجدية الفينيقية بها 22 حرفًا فقط. من هذه الأبجدية ولدت جميع الأبجديات المعروفة تقريبًا. اليونانيون تلقفوها حول 800 قبل الميلاد، وطوروا بها كتابتهم، بعد إضافة الحروف المتحركة. الآرامية والعبرية، ومن بعدهما العربية، يعود أصلها إلى هذه الأبجدية كذلك. أول حروف الأبجدية الفينيقية هي: ألف، بيت، جيميل، داليت. هل لاحظتِ التشابه مع لغتنا العربية.. ألف، باء، جيم؟ فلتعلمي أيضًا أن هذه الحروف لها معانٍ: ألف تعني ثور، وبيت تعني بيت (كما في العربية والعبرية أيضًا!)، وجيميل تعني جمل (أيضًا في العربية والعبرية). هذا التشابه بين اللغات العتيقة في منطقة الشرق الأدنى راجع إلى أصلها المشترك القديم. أغلب هذه اللغات اندثر، ولكن العربية والعبرية ما زالا مستخدمتين. ستجدين أن الكلمات التي تعبر عن الظواهر الكبرى في الكون والحياة - مثل البحر والشمس والدم - متقاربة للغاية بين اللغتين: (يم) هي بحر بالعبرية، وهي أيضًا الكلمة نفسها المستخدمة في العربية الفصحى،

وشيميش هي شمس بالعبرية، و(دم) وهي الكلمة نفسها المستخدمة في اللغتين!

مع صقل هاتين الشفرتين الطيعتين، العد والكتابة، صار ممكنًا استخدامهما في تحقيق قدر أكبر من التنظيم وإدارة العيش المشترك في المجتمع المركب من أجل الحصول على تدفقات مستمرة للطاقة تسمح بتشغيله. العد والكتابة هي منظومات تتيح متابعة الظواهر عبر الزمن، وتسجيل وحفظ الملاحظات عن الأنماط التي تتكرر. هكذا تولدت لدينا معرفة أفضل بالظواهر الطبيعية المحيطة بنا، وبواقع المجتمع الذي نعيش فيه. الكتابة لا تتيح فحسب التسجيل (ذاكرة خارج الدماغ)، ولكنها تسمح بالمراجعة والمقارنة والنقد. هكذا شرعت نوافذ على آفاق بلا حدود. نوافذ يمارس من خلالها العقل البشري التفكير والتأمل في شتى الظواهر المحيطة، ومن ثم كسر الشفرات.

مثلًا.. عندما نبدأ في العد فإن أول ما نرغب في إحصائه هو الزمن. الوعي بمرور الوقت دليل لإدراك المجتمع لوجوده. هو علامة مهمة على التمييز بين الماضي والحاضر والمستقبل في حياة الجماعة. نحن هنا نتحدث عن «التقويم»، أي حساب الأيام والشهور والسنين. من أوائل ملاحظات الإنسان هو أن الزمن يتتابع في دورات متكررة: هناك دورة قصيرة بين شروق الشمس وغروبها تصنع اليوم (دوران الأرض حول محورها)، ودورة أخرى طويلة تتعلق بتتابع الفصول (دوران الأرض حول الشمس، وعودة الأرض لمكانها وتستغرق 365 يومًا وربع اليوم). ثمَّة دورة ثالثة هي دورة القمر من الذبول إلى الاكتمال وتستغرق 29 يومًا ونصف اليوم. التقويم غايته إيجاد نظام منطقي لهذه الدورات بصورة مفهومة بحيث يمكن حسابها والتنبؤ بها. إنه ليس رفاهية، ولكن ضرورة حياة لمَن يعيشون على الزراعة التي تعتمد مواقيت معينة للبذر والحصاد. هو أداة أخرى لتقليص حالة انعدام اليقين المصاحبة لوجودنا.

الإنسان فُتن بالقمر منذ زمنٍ بعيدٍ جدًّا. في إفريقيا، عُثر على عظمة يعود تاريخها لعشرين ألف سنة مضت. على العظمة تظهر خربشات وعلامات منتظمة، فسَّرها البعض بأنها تُطابق عدة دورات للقمر. ربما كانت العظمة تعود لصياد أراد حساب موعد العودة من رحلة صيد، أو لامرأة رغبت في حساب دورة الحيض لديها. لا نعرف. نحن نغفل القمر كثيرًا في أيامنا هذه لأن لياليا في المدينة صارت مضاءة بالكهرباء وكأنها نهارات. في الزمن القديم، كان للقمر بهاؤه وغموضه الساحر. المزارعون كانوا يراقبون القمر بدقة. عند الاعتدال الخريفي في سبتمبر يظهر «قمر الحصاد» في ذروة لمعانه بعد غروب الشمس مباشرة، ممَّا يتيح وقتًا أكبر لجمع المحصول. التقويمات

القديمة اعتمدت في الأساس على دورة القمر. هكذا ابتدعت منظومة الشهور والأسابيع. السومريون هم مَن توصلوا أيضًا إلى هذا التقسيم. أغلب التقويمات الدينية هي تقويمات قمرية. التقويمات اليهودية والإسلامية والهندوسية، كلها تعتمد على دورة القمر. ظلت المعضلة دائمًا هي كيفية التوفيق بين السنة القمرية والسنة الشمسية.

المصريون القدماء قسموا السنة إلى اثني عشر شهرًا، والشهر إلى ثلاثة أسابيع، طول كل منها عشرة أيام. معنى ذلك أن عدد أيام السنة المصرية هو 360 يومًا فقط. ماذا عن الأيام الخمسة المتبقية لتكتمل دورة الأرض حول الشمس؟ لقد حسب المصريون أيام السنة بدقة عجيبة، وكانوا يعرفون بالفعل أنها 365 يومًا وربع اليوم. كان الحل المصري هو اعتبار هذه الأيام الزائدة أيامًا لتعظيم الآلهة. التقويم الذي نستخدمه اليوم على نطاق عالمي يعتمد على حسابٍ أكثر سهولة ابتدعه يوليوس قيصر في 45 ق.م من وحي «السنة المصرية». الحل الذي توصل إليه «قيصر» لمعالجة مشكلة الأيام الإضافية تمثل في ما صار يُعرَف بالسنة الكبيسة.

رويدًا رويدًا، بدأ الغموض الكوني يتكشف أمام الناس: تتابع الحياة على الأرض تحكمه ظواهر تحدث في السماء. ملاحظة ومتابعة «نظام السماء»، ورصد الأنماط المتكررة (كما يفعل كاسرو الشفرات) صار ضرورة لا غنى عنها. في القلب من هذا النظام تستقر الشمس. ليس صدفة أن حضارات كثيرة اتخذت منها مركزًا لعبادتها كما ذكرت لكِ. الكثير من الصروح الحجرية لم تكن فقط معابد، وإنما مراصد لحركة الشمس عبر العام. المسلات المصرية القديمة تساعد في رصد هذه الحركة من خلال قياس طول الظل، عبر أوقات اليوم وطول السنة.

عندما تنظرين إلى السماء في مساءٍ صافٍ بالصحراء، بعيدًا عن صخب المدينة وكهربائها، فإن أول ما ينطبع في ذهنكِ هو أن الأرض ثابتة، والنجوم في السماء هي التي تتحرك. الأرض في المركز وكل شيء يدور حولها. تعرفين بالطبع أن هذا ليس سوى وهم نقع فيه بسبب حركة الأرض نفسها. القدماء وجدوا صعوبة كبيرة في التخلص من هذا الوهم. «الشفرة» الكامنة في تشكيلات الأجرام وحركتها في السماء، كانت أصعب من أن يكسرها شخص واحد بمفرده، مهما بلغ ذكاؤه، أو أن تفكها حضارة واحدة مهما بلغ تقدمها. الحل الوحيد كان تخزين ومراكمة المعلومات التي توصل إليها أذكى البشر حول «نظام السماء» وأنماطه المتكررة..

كان ذلك ممكنًا فقط باستخدام «شفرة الكتابة». مع تراكم المعلومات والملاحظات، تظهر الأنماط وتتكشف، شيئًا فشيئًا، الأسرار الكامنة في نظام الكون. رحلة كسر هذه الشفرة الصعبة استغرقت 4500 سنة تقريبًا.

الملاحظة لم تكن أداتنا الوحيدة لأن ملاحظاتنا المباشرة قد توقعنا في الوهم، كما يحدث لكِ وأنتِ تنظرين إلى السماء. الدماغ البشري كثيرًا ما يرى أنماطًا لا وجود لها. الرياضيات كانت دائمًا رفيقًا أصدق. مثلًا: اليونانيون عرفوا أن الأرض منحنية من الشكل الذي يظهر لظل الأرض في ظاهرة خسوف القمر. هم أيضًا حسبوا حجم الأرض، باستخدام الظل وقواعد الهندسة، بهامش خطأ بسيط جدًّا.

عندما تنظرين إلى السماء تدركين أيضًا أنها ساعة معقدة للغاية. يمكنكِ بتراكم الملاحظات التنبؤ ببعض الأشياء، مثل مواقع النجوم وحركة الكواكب. البابليون نجحوا في التنبؤ بخسوف القمر حول 1000 ق.م. التنبؤ بشيء لا يعني أنك، بالضرورة، نجحتِ في فهم نظام عمله أو المبدأ الأساسي الذي يحركه.

دورة النجوم والكواكب تمثل أيضًا مكوِّنًا رئيسيًّا في عملية التقويم. القدماء، وبالذات البابليين، سجلوا بالملاحظة خمسة كواكب في المجموعة الشمسية (المريخ، وزحل، والزهرة، والمشتري، وعطارد). أسماء أيام الأسبوع باللغة اللاتينية، وهي أصل الكثير من اللغات الأوروبية، مستمدة من هذه الكواكب، فضلًا عن الشمس والقمر. (Sunday) بالإنجليزية هو «يوم الشمس»، و(Monday) «يوم القمر». (Mercoledi) الأربعاء بالإيطالية مرتبط بـ«كوكب عطارد» (Mercury)، و(Venerdi) - يوم الجمعة بالإيطالية - مرتبط بـ«كوكب الزهرة» (Venus). السبب وراء ذلك أن هذه الكواكب صارت أيضًا رموزًا للآلهة عند حضارات مختلفة، وبخاصة اليونان والرومان.

هكذا ترين أن «نظام السماء» صار مربوطًا بالآلهة. الأهم أنه امتزج بدورة الحياة نفسها على الأرض. بالزراعة والحصاد. بل بمصائر البشر أنفسهم، ذلك أن الفلك والتنجيم ظلا لفترة طويلة جدًّا مجالًا واحدًا. التنجيم هو اعتقاد بأن حركة الأجرام السماوية تحدد الأحداث ومصائر البشر على الأرض. وهو اعتقاد ما زال البعض يتبنونه إلى اليوم، بدليل أن بإمكانكِ الاطلاع على باب «حظك اليوم» في الجرائد والمجلات ومواقع الإنترنت المختلفة. ليس هذا سوى دليل على ولعنا القديم، والمستمر، باستخراج الأنماط والعلاقات بين الأشياء، حتى لو لم يكن لهذه العلاقات أي أساس في الواقع.

إن نظم العد والكتابة والتقويمات الفلكية كانت كلها «شفرات» استخدمتها المجتمعات الإنسانية في معالجة المعلومات المتدفقة من أجل صناعة النظام من الفوضى، تمامًا كما فعلت الخلية في بداية قصتنا. لو أن الحضارة كانت كائنًا حيًّا، فإن الـ«دي إن إيه» الخاص بها سيكون مكونًا من شفرة الأعداد والأبجدية. هي أشياء ليس لها وجود مادي، وإنما نحن البشر اتفقنا على أن نمنحها معنًى معينًا، تمامًا مثلما هو الحال مع المال..

وهم المال

كيف كان الناس يتبادلون الأشياء والسلع والخدماتِ في العصور القديمة؟ نظام المقايضة هو أبسط صور التبادل. أُعطيكِ جوالًا من الشعير في مقابل رداءين من الصوف. أحصل منكِ على بقرة في مقابل خمسة خناجر وجوالين من القمح. نظام بسيط ومنصف إلى حد بعيد. لماذا لم يستمر هذا النظام؟

المشكلة هي التركيب والتعقيد. المجتمعات المركبة تحتاج، كما رأينا، إلى شفرات متفق عليها لتسهيل الحياة داخلها. السوق أيضًا، مثله مثل المجتمع نفسه، نظام مركب..

التجارة يمكن أن تزدهر بين الأمم بنظام المقايضة. وبعض صور المقايضة بين الدول ما زالت تجري إلى اليوم. المشكلة أن هذا النظام لا يصلح لإدارة الاقتصاد في داخل الدولة نفسها. ما حدث أن المعادن والسلع الجديدة فتحت المجال أيضًا أمام التخصص. في مجتمع المدينة هناك كما ذكرنا مهن مختلفة مثل الحداد والنجار والصائغ والحلاق. المشكلة دائمًا، وكما هو الحال مع كل الظواهر المرتبطة بالحضارة، هي التركيب المتنامي باستمرار..

تأملي المعضلة التالية: أنتِ فلاحة تقومين بزراعة الشعير. تذهبين للمدينة لشراء زوجين من الأحذية، تضعين على حمارِكِ أجولة من الشعير (الشيء الوحيد الذي تقومين بإنتاجه)، قاصدة دكان صانع الأحذية. الصفقة يمكن إنجازها إن كان صانع الأحذية يحتاج إلى الشعير. ولكن ماذا لو افترضنا، وهو فرض محتمل جدًّا، أنه يحتاج إلى شيءٍ آخر في هذه اللحظة بالذات؟ ماذا إن كان ما يحتاجه صانع الأحذية في هذه اللحظة بالذات هو «تعويذة سحرية» تساعد زوجته على الإنجاب؟ بالطبع، في إمكان صانع الأحذية أن يقايضكِ بالحذاء مقابل الشعير، ثم يذهب بالشعير إلى كاهن المعبد للحصول على التعويذة المطلوبة. ولكن ماذا إن كان كاهن المعبد يطلب أضحية محددة مقابل التعويذات، لنقل مثلًا: يطلب عجلًا! هنا تصير المعضلة أكثر تعقيدًا..

جوهر العقدة هو عدم معرفتنا بقيمة السلع والخدمات المختلفة بالنسبة لبعضها بعضًا. زارع التفاح لا يعرف كم تفاحةً تساوي منضدة خشبية. النجار لا يعرف كم كرسيًّا يحتاج لصنعها في مقابل الحصول على تميمة لإنقاذ أبيه المريض من الموت. «مؤلف التمائم» لا يعرف كم تميمة يحتاج لبيعها ليتمكن من استئجار عمال لبناء بيت.. وهكذا. المشكلة تصير أصعب لو كنتِ تقومين، مثلًا، بزراعة الطماطم بدلًا من الشعير. هنا سوف تحتاجين لبيع محصولكِ في وقتٍ معين، وإلا فسد. لن تكون عندكِ وسيلة لتخزين «قيمة» محصولكِ إلا بمبادلته حالًا بشيءٍ آخر.

في اقتصاد مركب يقوم على التخصص، كما هو الحال في المدن، من المستحيل أن نضع نظامًا شاملًا لتسعير كل سلعة في مقابل السلع الأخرى. يقتضي ذلك إعلانًا بأن حلاقة الشعر تساوي ثلاث تفاحات، وخمسة أرغفة، ونصف أرنب، وربع آنية فخارية، وتسعة أحذية.. إلخ. الأكثر تعقيدًا: أن الأمر يتطلب الإعلان عن قيم هذه السلع - في مقابل بعضها بعضًا - كل يوم تقريبًا؛ لأن الأسعار تتغير بحسب ندرة الأشياء أو توفرها. كلما كانت السلعة متوفرة (العرض كبير) انخفض سعرها، والعكس بالعكس. إن ثلاث سلع تحتاج إلى تحديد ثلاثة معدلات للتبادل بينها، بينما خمس سلع تحتاج إلى تحديد عشرة معدلات للتبادل. أما مائة سلعة فتحتاج إلى تحديد خمسة آلاف سعر للتبادل فيما بينها!

في مواجهة هذه الاستحالة العملية، ظهرت بالتدريج فكرة النقود. إنها «شفرة» فذة تتيح لنا مبادلة أي شيء في مقابل أي شيء. هي أيضًا، شأنها شأن الشفرات البارعة، تمكنكِ من التعامل بسهولة مع شخص لا تعرفينه معرفة مباشرة، طالما كان كلاكما عارفًا بالشفرة. إنها «أداة اجتماعية» جديدة تُيسر تعامل الغرباء مع بعضهم بعضًا في مجتمعات كبيرة الحجم.

النقود الأولى ظهرت في بلاد الرافدين حول 3000 ق.م. لو أنكِ كنتِ تعيشين في مجتمع يعتمد على المقايضة لفكرتِ في الحصول على سلعة يستهلكها الجميع، كالأسلحة أو الشعير، ليس بغرض استهلاكها حالًا، وإنما بغرض مبادلتها في وقتٍ لاحقٍ مقابل أشياء تحتاجينها. النقود الأولى كانت أشياء لها قيمة في ذاتها ويمكن استهلاكها كالحبوب. في إمكان المرء أن يستخدم الشعير كطعام، أو أن يبادله – كنقود - في مقابل أي شيء آخر. إذا توافق مجتمع ما على أن يكون الشعير هو النقود المتداولة، يصير ممكنًا تحديد قيمة كل شيءٍ في مقابل كميات معينة من الشعير. ما يجعل من سلعةٍ ما «نقودًا» هو قابليتها للتحويل إلى أي سلعة أخرى. لهذا السبب، فقد تلاحظ أن المساجين أو الأسرى الذين لا تتوفر لهم النقود في محبسهم، يبتدعون فورًا «نقودًا» خاصة بهم هي السجائر! مَن يتعامل بنقود السجن (السجائر) لا يتعين أن يكون مدخنًا بالضرورة. المهم أن يتولد اتفاق عام بين المساجين حول مبادلة السجائر مقابل السلع الأخرى المتوفرة في السجن. مثلًا: رشوة الحارس لغض البصر عن وقت إضافي للزيارة الشهرية للسجين ثمنها خمس سجائر، بينما الحصول على شفرة حلاقة جديدة قيمتها عشرين سيجارة.. وهكذا.

أي سلعة، والحال هذه، يمكن أن تصبح نقودًا. العامل الحاسم هو توافق المجتمع، أي قبوله بهذه السلعة كـ «شفرة» متفق عليها لتحديد قيمة الأشياء ومبادلتها. لهذا السبب، ليس غريبًا أن نعرف أن الجنود الرومان كانوا يقبضون

رواتبهم ملحًا! المدهش أن كلمة (Salary) الإنجليزية (وتعني الراتب)، والتي صارت تجري على الألسن في ثقافات ولغات مختلفة اليوم، يعود أصلها إلى كلمة (Slaris) اللاتينية، وهذه الأخيرة مشتقة من كلمة (Sale).. أي ملح!

بالتدريج يتلاشى الرابط بين السلعة التي يقع عليها الاختيار كي تصير نقودًا، وبين استخداماتها الفعلية. هنا تتخذ النقود شكلًا أكثر تجريدًا. ينسجم ذلك مع القانون العام للشفرات التي تتكون منها الحضارة، مثل اللغة والأعداد والأبجدية. هذه القفزة حدثت أيضًا في بلاد الرافدين حول 2500 ق.م. ظهرت النقود التي لا تحمل قيمة في ذاتها، وإنما تستمد قيمتها من إمكانية تحويلها إلى سلع وخدمات. النقود، مثلها مثل الأعداد، تمثل شفرة عالمية شاملة. اليوم كل شخص تقريبًا يفهم معنى الدولار الأمريكي. السبب أن هناك «توافقًا» – على مستوى كوكبنا - على أنه يمكن مبادلة الدولار بأي سلعة أو خدمة. غير أن الدولار، في واقع الأمر، ليس سوى قطعة من الورق الملون!

كيف تحدث هذه المعجزة؟

كلمة السر هي الثقة. نحن نسعى للحصول على هذه الأوراق بالذات لأننا «نثق» في أنه يمكن مبادلتها مقابل السلع والخدمات التي نرغب فيها. النقود هي منظومة اجتماعية شاملة من الثقة المتبادلة. من تصديقنا الجماعي في وهم.. الوهم هو أن قطعًا من الورق يمكن أن تتحول إلى سيارات أو رحلات سياحية أو ملابس جديدة. «وهمنا المشترك»، والحال هذه، هو ما يعطي النقود قيمتها. هذه صورة أخرى من صور «الشفرة» التي يصنعها المجتمع المركب. إن رقم اثنين لا يعني شيئًا سوى لأننا منحناه هذا المعنى في عقولنا. ورقة المائة جنيه هي أيضًا شيء له معنى وقيمة لأننا اتفقنا على هذه «الشفرة» بيننا.

الشفرات تُستخدم دائمًا في صناعة أشياء أكثر تركيبًا. الأعداد جعلت الرياضيات ممكنة، والأبجدية استُخدمت في نظم الشعر وتسجيل التاريخ والنصوص الدينية. المال أيضًا «شفرة» طيعة، يمكن استخدامها بوسائل شتى. مثلًا: عرفت أغلب الحضارات نظام الائتمان وأيضًا إقراض الأموال بفائدة، وهي ممارسة رفضها عدد من الأديان وأطلق عليها مسمى «الربا». غير أنها كانت ممارسة مهمة في الحضارات الزراعية لأنه لو فسد محصولكِ هذا العام، فلن يكون هناك حل أمامكِ سوى الاقتراض.

عندما تحصلين على المال الآن لمواجهة أزمة فإن ذلك، كما أدرك البشر، له ثمن؛ لذلك فإن المرابي أو مَن يعمل في إقراض المال سوف يحصل على ماله منكِ في العام القادم، مع نسبة إضافية تسمى الفائدة. هذه النسبة هي مكسبه من وراء العملية. هي سعر المال نفسه. وليس صعبًا عليكِ أن تدركي

أن هذا المرابي لو كان لطيفًا متسامحًا مع المتعثرين، فإن «البزنس» الخاص به سوف يفشل ويفلس بعد فترة قصيرة؛ لذلك تظهر شخصية المرابي دائمًا بصورة سلبية في ثقافات كثيرة، حيث كان الناس يضطرون في بعض الأحيان لبيع أبنائهم لسداد الدين.

إن «شفرة» المال تربط بين مكونات مختلفة في نظام الحضارة المركبة الذي أقامه البشر. لو أنكِ أمعنتِ النظر في أي عملة ورقية في جيبكِ لوجدتِ عليها إمضاء شخص بعينه. هذا الشخص هو رئيس البنك المركزي. إنه الموظف المسئول في الدولة المصرية عن الأموال. إمضاؤه هو اعتراف حكومي بأن هذه الورقة الملونة قيمتها تكافئ عشرة جنيهات، وأنه يمكن مبادلتها بهذه القيمة في مقابل أي سلعة. المعنى أن الحكومة هي التي تضمن لكِ هذا. لهذا السبب طالما ظهرت على العملات صور الملوك والحكام. الوشائج التي تربط الظاهرتين - النقود والدولة - قديمة.

كيف؟

عند مرحلة معينة، تطورت النقود إلى العملات المعدنية. في البداية، وقع الاختيار على الذهب. الذهب استُخدم قبل الفضة كعملة نقدية. هو دائمًا كان أعلى قيمة. هل فكرتِ يومًا في السبب؟

السبب يعود للنجوم!

عناصر قصتنا ومكوناتها التي ستصنع الدراما فيها، بدأت مع تفاعلات للطاقة وانفجارات نجوم حدثت قبل مليارات السنين من أحداث القصة ذاتها، ومن ظهورنا على مسرح الأحداث..

تخلَّق الذهب، مثله مثل باقي المعادن، عبر عملية الاندماج النووي داخل النجوم التي حدثتُكِ عنها في رسالتي الثانية. على أن ظروف تكوُّن الذهب أصعب وأقل احتمالًا من الفضة، إذ يتكون الذهب إما في انفجارات النجوم (سوبرنوفا) أو في حالة اصطدام نجمين. وصل الذهب إلى الأرض محمولًا في النيازك التي دكتها في مرحلة مبكرة من تكوينها. في باطن الأرض من الذهب والمعادن النفيسة ما يمكنه تغطية سطحها كله بطبقة سمكها 4 كيلو مترات. أما الفضة فهي أكثر توفرًا في الكون لأن ظروف تكوينها أسهل. كمية الفضة على الأرض عشرة أضعاف كمية الذهب. قيمة الذهب مستمدة من ندرته في الأساس.. كمية الذهب التي عثرنا عليها عبر التاريخ تملأ بالكاد حوضًا أولمبيًّا للسباحة! للذهب ميزة أخرى هي أنه لا يصدأ ولا يبلى، ومن ثمَّ يُجسِّد الولع بالخلود الذي طالما أرَّق الملوك. لكن بسبب ندرته، كان لا بد من العثور على معدن آخر يتوفر بصورة أكبر لمجاراة الطلب المستمر على النقود. لهذا

استُخدمت الفضة كعملة بصورة أوسع، واحتفظ الذهب بمكانته الأسطورية المبجلة.

كلما كانت السلعة نادرة، ارتفعت قيمتها. السلع النادرة لا يحصل عليها سوى القلة. هؤلاء المحظوظون يعلنون عن مكانتهم في المجتمع عبر امتلاك هذه السلع النادرة والتباهي بها أمام الآخرين. من هنا صار الذهب، وارتداؤه في صورة حلي ومجوهرات، دليلًا على المكانة والغنى. إلى يومنا هذا، يُعد الذهب «لغة عالمية» عابرة للثقافات والقارات والعصور. نحن نقول «فرصة ذهبية»، و«السكوت من ذهب»، و«ذهب المُعِز»؛ لأن الذهب ارتبط في وعينا بالأشياء عالية القيمة. يُستثنى من هذا الثقافة الصينية وبعض ثقافات أمريكا الوسطى (الأولميك والأزيتيك) التي كانت تقدر «اليشم» (وهو أحد الأحجار الكريمة) أكثر من الذهب.

لجأ البشر بصورة أكبر إلى الفضة لسك النقود المعدنية. في بلاد ما بين النهرين أيضًا ظهرت لأول مرة فكرة وضع مقياس شامل وموحد لسك العملة. الإمبراطورية الآشورية - في شمال بلاد الرافدين - توصلت إلى هذا النظام حوالي 800 ق.م، ربما لدفع رواتب الجند. أما مملكة «ليديا» في الأناضول (تركيا حاليًّا) فربما كانت أول مَن قام بسك العملة باستخدام سبيكة طبيعية من الذهب والفضة تدعى «إليكتروم» في القرن السادس قبل الميلاد. على أحد وجهي العملة ترين صورة للملك كرويسيوس (الذي سأروي لكِ قصته العجيبة في رسالتي القادمة)، وعلى الوجه الآخر تجسيد للآلهة.. قطعة بسيطة من المعدن تجسد النسيج الرابط للنظام كله في وحدة واحدة: آلهة + دولة + نقود. المال يبدو ككذبة أو وهم، ولكنها كذبة نصدقها جميعًا.. «كذبة صادقة» إن جاز التعبير!

المال، إذن، عنصر آخر في منظومة الحضارة. إن الهدف كان دائمًا التهام المزيد من الطاقة، والحل كان استخدام هذه الشفرات - اللغة والكتابة والأعداد والتقويم والمال - في صناعة «نظام تشغيل» شامل، مستقر ومستمر، يمكن نقله من جيل إلى جيل، مثلما تنقل الخلايا المعلومات اللازمة لصناعة خلايا جديدة عبر الجينات..

«نظام التشغيل».. القانون والبيروقراطية

إذا حدث وهاجمكِ شخص وسرق دراجتك، فهل يكون من حقكِ أن تنتقمي منه بإحراق منزله مثلًا؟ بالطبع لا. هناك سُلطة «شرعية» تقوم بتعقبه والقبض عليه، وهناك محاكم مهمتها معاقبته بما يستحق وعلى قدر الجُرم الذي ارتكبه. سُلطات الدولة هي المخولة بمواجهة هذا الشخص المغتصب – بالعنف إن لزم الأمر - لكي تُعيد إليكِ حقك. مهم كذلك أن يرى الآخرون في

المجتمع أن المغتصب لم يفلت من العقاب. هكذا يتحقق الردع المناسب، فتتراجع الجرائم. الدولة هي القوة الوحيدة التي تحتكر حق حمل السلاح وممارسة العنف والفصل في النزاعات.

هذه الممارسة تمثل قفزة كبيرة في تنظيم البشر. القبيلة، على سبيل المثال، لا تنظم المجتمع بهذه الطريقة. يتحقق الأمن في القبيلة بوسيلة مختلفة هي «ثأر الدم»، أي الإقرار بحق الشخص في إنزال العقاب بمَن اقترف جُرمًا في حقه، أو في حق قريبٍ له. الخوف من التعرُّض للثأر يصير الرادع الذي يمنع الجرائم. عُرف القبيلة يجري تطبيقه عبر جلسات تحكيم سُلطتها تكون في الغالب غير ملزمة لأنها لا تملك قوة كافية لتنفيذ الأحكام. أما الدولة فهي تمارس عنفًا «منظمًا».. عنفًا «شرعيًّا» لأن المجتمع، في مجموعه، يقره ويقبل به.

الدولة لديها قوة كبيرة ليس فقط بسبب جيوشها، ولكن أيضًا بسبب الطريقة التي تنظم بها عملها. هذه الطريقة تسمى البيروقراطية. إنها ممارسة ظهرت في وقت متقارب جدًّا مع اختراع الكتابة. وظيفة البيروقراطية هي تنظيم وتسجيل وحفظ المعلومات الكثيرة التي تتعلق بإدارة مجتمعات مركبة. إذا كانت الكتابة تعمل كذاكرة خارج الدماغ، فإننا نحتاج لتنظيم هذه الذاكرة بصورة تمكننا من توظيف المعلومات في إدارة المجتمع. هذا ما يسمى بالأرشيف، وهو أسلوب لتسجيل وتصنيف معلومات كثيرة عبر فترات زمنية ممتدة. يقوم على هذا الأمر رجال يعملون عند الدولة كموظفين.

العنصر المهم في البيروقراطية هو أن كل «مكتب»، أي كل منصب، له مهام محددة بغض النظر عمَّن يتولاه. كلمة البيروقراطية تعني حرفيًّا: حكم المكاتب. الموظف البيروقراطي ينبغي أن يلم بالشفرتين الأساسيتين، العد والكتابة، كما أنه يعرف بالضبط المهمة المحددة التي يقوم بها. هو ينفذ أوامر موظفين أعلى منه، وصولًا إلى الوزراء المسئولين عن قطاعات كبرى، فالحاكم الأعلى. كل الموظفين، مهما صغرت مهامهم، يستمدون سُلطتهم من الحاكم الأعلى في تراتبية هرمية.

البيروقراطية تحتاج إلى موارد لتدفع رواتب الموظفين والجند الذين لا ينتجون غذاءهم بأنفهسم. من أين لها بهذه الموارد؟ ثمَّة حاجة لفرض الضرائب، أو بلغة العصور القديمة «الجباية». لاحظي أن الإنتاج، في الأساس، زراعي. الجباية هي جزء من ناتج الفرد تحصل عليه الدولة لـ«تشغيل» نظامها. هي تحصل، في واقع الأمر، على جزء من «طاقة» العمل والشغل التي يبذلها الفلاحون لتحويل طاقة الشمس إلى محاصيل زراعية. الجباية هي «عمل مضغوط» في صورة محاصيل. وفي بعض الحضارات، مثل «الإنكا» في أمريكا ما قبل «كولومبوس»، كانت الجباية تؤدَّى في صورة عمل مباشر

يقوم به الفلاحون أيامًا محددة في الأسبوع لصالح الدولة، في بناء معبد أو زراعة حقول مملوكة للكهنة أو الملوك بلا مقابل. وكان يطلق على هذا النظام مسمى «ميتا». وقد استغل الغزاة الإسبان وجود هذا النظام في تشغيل السكان المحليين بالسخرة لاستخراج الفضة من المناجم عندما وصلوا إلى العالم الجديد في القرن السادس عشر.

من الطبيعي أن الفلاحين لن يعطوا جزءًا من ناتج عملهم طوعًا؛ لذلك تستخدم الدول الإجبار في تحصيل الجباية. أغلب الثورات عبر التاريخ اندلعت شرارتها بسبب إفراط الحكومات في تحصيل الجباية. الحرب الأهلية الإنجليزية في القرن السابع عشر أصلها صراع بين الملك والبرلمان حول الضرائب، والثورة الأمريكية في القرن الثامن عشر اشتعلت بسبب ضرائب فرضها الإنجليز على الشاي.

مع ذلك، فبإمكان الدولة تجنب الثورات إن هي استطاعت تحديد نسبة معقولة من الإنتاج الزراعي والحيواني لكي تذهب للحاكم أو للمعبد. كيف تحدد هذه النسبة؟ وهل تكون النسبة المفروضة واحدة على الأفراد جميعًا، غنيهم وفقيرهم؟ وما العمل مع مَن فسد محصوله أو مَن بارت تجارته؟

هذا أمر يحتاج إلى معلومات عن مساحات الأراضي التي يملكها كل شخص يعيش على الأرض التابعة للدولة. مهم كذلك أن تعرف الدولة مَن الذي أدى ما عليه من الجباية، ومَن الذي امتنع أو تهرب. البيروقراطية تقوم على تسجيل هذه المعلومات كلها بطريقة منظمة تسهل الوصول إليها عبر السنوات. البيروقراطية هي ذاكرة الدولة. هي التي تصنع منها كائنًا حيًّا له أرجل يسير عليها، وأيادٍ يحقق بها أهدافه. له وجود مستمر في الزمن. الدول لا تموت بموت موظفيها أو حكامها لأن «عقلها البيروقراطي» يظل يعمل ليمنحها الاستمرارية والديمومة.

من خلال البيروقراطية والكتابة، وباستخدام وتوظيف الفائض الزراعي في تحقيق مزيد من السيطرة على المجتمع، انطلقت الدول الأولى نحو ترسيخ سلطانها وتوسيعه.

حضارة سومر نشأت في جنوب بلاد الرافدين حول العام 3300 ق.م. تحدثنا من قبل عن «الوركاء»، إحدى المدن الأولى التي تنتمي للحضارة السومرية. هذه الحضارة استمرت حتى 2000 ق.م. أي نحو 1300 عام. إنها تقريبًا الفترة نفسها التي تفصلنا عن فترة ظهور الإسلام. البابليون ورثوا الحضارة السومرية. في وقت ما كانت بابل، في جنوب بلاد الرافدين، هي أهم وأكبر مدينة في العالم، وأسست لإمبراطورية كانت تحكم مليون شخص. غير أن

بابل ترتبط في الأذهان بإسهام آخر مهم، وله علاقة وثيقة بفكرة الدولة: قوانين حمورابي.

«حمورابي» وصل إلى الحكم في عام 1792 ق.م، وهو الملك السادس من أسرة ملوك بابل. وسع «حمورابي» نطاق الإمبراطورية بالدبلوماسية والحرب، حتى صارت تضم في داخلها 31 دولة/مدينة. خلال الفترة من 1755-1750 ق.م وضع «حمورابي» لوحه الشهير الذي يضم 282 مادة تشكل ما صار يسمى بقانون حمورابي. أغلب الظن أن ممالك الرافدين كانت لها قوانينها أيضًا، ولكن «حمورابي» اهتم للمرة الأولى بتسجيل هذه القوانين وإعلانها للجميع على لوح حجري. هو لم يسِن هذه القوانين أو يخترعها، ولكنه جمع الأعراف السائدة بالفعل ودوَّنها في صورة مبادئ قانونية شاملة.

المصدر الأول للقانون هو العُرف السائد؛ أي «الشفرة الاجتماعية» التي وقفنا عليها من قبل. القواعد العامة التي تواضع عليها المجتمع عبر الأجيال في تنظيم الشئون المتعلقة بالحقوق والجرائم والعقوبات. القواعد، كما تعرفين، هي عنصر أساسي في قصتنا. لا شيء مركبًا يحدث من دون قواعد و«نظام تشغيل»؛ لأن القاعدة هي التي تتيح لكِ التنبؤ بالأشياء، ومن ثم بناء النظام.

القانون هو أهم أنواع القواعد في المجتمع المركب؛ لأنه لا يخاطب وضعًا محددًا، أو حادثة بعينها، أو أشخاصًا بأسمائهم، وإنما ينظم حياة المجتمع كلها عبر وضع قواعد عامة تسري على كل الحالات المتشابهة وكل الأشخاص، نظريًّا على الأقل. عندما يتم تدوين القانون يكتسب سلطة كبيرة على حياة البشر. بدلًا من الاعتماد على الذاكرة في استدعاء الوقائع الشبيهة (عندما حصل كذا، حكمنا بكيت)، يصبح النص القانوني المدوَّن هو الفيصل في حسم المنازعات. وجود النص القانوني، المعروف للجميع، يقلل من منسوب انعدام اليقين في المجتمع لأنه يتناول أحداثًا لا تقع الآن بالضرورة، وإنما في المستقبل.

لقد جمع «حمورابي» الأعراف السائدة وفق صيغة «إذا حدث كذا، فالحكم هو كيت». هذه الأعراف تكونت عبر تراكم القضايا والنزاعات وتكرارها بحيث أمكن تصنيفها، واستخلاص مبادئ عامة منها. من ذلك مثلًا مبدأ المسئولية القانونية الذي نبع من مشكلات من عينة قيام ثور مملوك لأحد الأشخاص بنطح ثور مملوك لجاره ممَّا تسبب بمقتله. صاحب الثور «المعتدي» سيدفع غالبًا بأنه ليس مسئولًا عمَّا يفعله ثوره، وأنه لم يقصد أبدًا قتل ثور جاره. بالتدريج، وحسمًا لمثل هذه النوعية من المشكلات المتكررة، يستقر – مثلًا - مبدأ أن المرء «مسئول عمَّا يفعله ثوره» أمام القانون!

أهم مبدأ في قانون حمورابي هو: «العين بالعين والسن بالسن». هذا المبدأ سوف يهيمن على نظرة البشر للقانون والعدالة زمنًا طويلًا، خاصة وأنه ورد في التوراة بالنص نفسه، ثم جاء ذكره في القرآن الكريم أيضًا. الفكرة وراء هذا المبدأ بسيطة: العدالة تتحقق عندما تُنزل بالمجرم أو المتجاوز عقابًا من نفس عينة الجُرم الذي ارتكبه أو التجاوز الذي اقترفه. إنها صورة أخرى من صور قاعدة «واحدة بواحدة» التي تعرفنا عليها من قبل. يمكنكِ النظر إلى هذا المبدأ، من جانب آخر، بوصفه دعوة لعدم الإسراف في الانتقام، الذي عادة ما يميل إليه البشر عندما يتعرضون للاعتداء. العين مقابلها عين، لا أكثر. ولكن «عيون البشر» - بالنسبة للبابليين - لم تكن سواء!

تأملي المبادئ التالية في قانون حمورابي:

196- إذا قام رجل من علية القوم بفقء عين رجل من علية القوم، فلا بد أن تُفقأ عينه.

197- إذا قام رجل من علية القوم بكسر عظمة لرجل من علية القوم، فتُكسر له عظمة.

198- إذا حدث وقام رجل من علية القوم بفقء عين، أو كسر عظمة لرجل من عوام الناس، فإنه يقوم بدفع 60 شيكلًا من الفضة (على سبيل التعويض).

199-إذا فقأ رجل من علية القوم عينًا لعبد مملوك لسيد آخر من الأعيان، أو كسر لهذا العبد عظمة من عظامه، فواجب عليه أن يدفع نصف قيمته (قيمة العبد) للسيد.

209-إذا حدث وقام رجل من الأعيان بضرب امرأة من علية القوم، فتسبب في إسقاط حملها، عليه أن يدفع عشرة شيكلات كتعويض، ولكن إذا ماتت المرأة (مادة 210)... فمن الواجب قتل ابنة الرجل الذي ارتكب القتل. ولو كانت المرأة القتيلة من العبيد (مادة 214) فيُكتفى بدفع 20 شيكلًا من الفضة.

أكاد أسمعكِ تصرخين: هذه ليست عدالة على الإطلاق! لديكِ حق. ولكنكِ تنظرين للأمور من داخل «الشفرة الاجتماعية» التي غُرست فيك. عليكِ أن تقتربي من زمن «حمورابي» لكي تفهمي لماذا وضع النصوص القانونية بهذه الصورة. الفكرة الجوهرية هنا أن القانون لا يُعامل الناس باعتبارهم متساوين. هو يؤسس هيكل العدالة على قاعدة تنطلق من تناسب العقوبة مع مكانة كل من الجاني والمجني عليه في الهرم الاجتماعي. السبب وراء ذلك أن المجتمع نفسه كان، مثله مثل المجتمع الهندوسي، مقسم إلى ثلاث طبقات جامدة: الأعيان (الذين يملكون الأرض)، وعوام الناس(الفلاحين وأرباب الصناعات

والحرف)، وفي الدرك الأسفل يقبع العبيد كالعادة. انتماء المرء لطبقة من هذه الطبقات هو الذي يحدد نوعية العقوبة أو التعويض المستحق.

ثمَّة تقسيم آخر شامل لأفراد المجتمع لا شك أنكِ استنتجته من قراءة المواد: التمييز بين النساء والرجال. السبب وراء العقوبة الغريبة الواردة في المادة 210 (قتل ابنة الرجل الذي تسبب في مقتل امرأة حامل، برغم أن هذه الابنة المسالمة لا دخل لها بالجريمة) هو أن الابنة ليس لها «شخصية قانونية». هي تُعد مملوكة للأب. هذا التصور ظل متغلغلًا ومهيمنًا على أغلب المجتمعات حتى وقتٍ قريب؛ لذلك توصف المجتمعات القديمة بأنها «أبوية»، أي إن السُّلطة العليا فيها للأب؛ رب العائلة. كانت هذه المجتمعات تعامل النساء والرجال بمعايير صارخة الاختلاف. هذه الحقيقة قد تسبب لكِ احباطًا، ولكنها تظل حقيقة تاريخية. ربما يساعدكِ استيعابها في إدراك مغزى الكثير من الظواهر والمعتقدات والممارسات الباقية، بخاصة في المجتمعات التقليدية، إلى اليوم، والتي تنطوي على تمييز ضد النساء.

تلاحظين أيضًا أن «قيمة عين» الشخص في قانون حمورابي تختلف بحسب الطبقة التي ينتمي إليها، إن كان من الأعيان أو عوام الناس أو العبيد. حياة امرأة من العبيد تساوي عشرين شيكلًا لا غير. العبودية كانت شأنًا مقبولًا في المجتمعات القديمة. من أين جاء العبيد؟ عبر التاريخ، كان هناك مصدران رئيسيان للعبيد: أسرى الحروب، والغارمون الذين لا يستطيعون تسديد الديون. أغلب الحروب في العصور القديمة كانت تُشن من أجل السيطرة على البشر لا الأراضي. العبيد كان يُنظر إليهم كبشر، ولكنهم لم يكونوا كاملي الأهلية أو الحقوق. لا تنسي أن القوة العضلية للبشر كانت مصدرًا أساسيًّا للطاقة حتى وقت قريب جدًّا. العبودية، والحال هذه، هي نوع من تسخير هذه الطاقة قهرًا؛ أي باستخدام العنف والإجبار. هي صورة أخرى، ممعنة في القسوة، من صور «نظام الجباية» الشامل الذي قامت عليه الحضارات الزراعية القديمة.

«حمورابي» لم يكن، إذن، صاحب فكرٍ غير مألوف. المواد التي سجلها تعكس، في واقع الأمر، «الشفرة الاجتماعية» السائدة في مجتمعه والمجتمعات القديمة بصفة عامة. التاريخ مفعم بالظلم. مليء بصور شتى للإجحاف والتمييز كما ذكرتِ في رسائلك. ربما كان ذلك هو الثمن الذي دفعه البشر في مقابل الحصول على الحضارة!

والحال، كما ترين، أن البشر قد صاغوا نظامًا كاملًا للحياة على أساس من شفرات اخترعوها وتوافقوا عليها. الطريقة أو النظام و«قواعد التشغيل» أهم من الأشياء نفسها: التراتبية، الآلهة، التخصص، السوق، التجارة، القانون.. هذه كلها ليست أشياء ملموسة، ولكنها علاقات و«مؤسسات». أي «أدوات

اجتماعية» وقواعد نعمل بها لنتحكم في الأشياء، وننظم حياتنا معًا في مجتمع. الأشياء المادية والقواعد، كلاهما معًا، يصنعان ما نسميه الحضارة.

الحضارة، في المحصلة، هي «توليفة» ناجحة من عناصر مادية، وأخرى غير مادية. هي تبدو نظامًا فعَّالًا ومنتجًا. الحقيقة أننا، وبصورةٍ ما، ما زلنا نعيش في كنف هذا النظام. ما زلنا نطبق هذه «التوليفة» السحرية. الفارق الجوهري أن لدينا إمكانيات تكنولوجية أعلى لاستخراج كميات أكبر من الطاقة. بالتالي، حضارتنا أكثر اتساعًا، والقواعد والشفرات التي تشغلها أكثر تعقيدًا.

وإذا كان النظام كله مشيدًا على هذا «الاتفاق الجماعي» على المال والدولة، وعلى الأعداد والأبجدية.. وغيرها من الشفرات التي اخترعها البشر أنفسهم، فهو - في الواقع - أوهن من خيوط العنكبوت. هو قابل للانهيار، ولو بعد حين.

«لعبة الحضارة» شديدة التناقض والمراوغة. هي لا تكشف أسرارها وقوانين عملها بسهولة. نظام الحضارة كان من القوة والمنعة بحيث أن الدول والحضارات كانت تستمر لقرون وقرون. في المقابل، كان هذا النظام هشًّا مثلنا نحن البشر. كان عرضة للمرض المفاجئ. للضعف التدريجي، والشيخوخة المحتمومة.. ثم للموت والفناء. كان عرضة ككل شيء في الكون، وككل الأشياء في قصتنا، إلى «الإنتروبيا»، تلك القوة الخفية الكامنة في أي منظومة مركبة..

ما جرى في العام 1177 ق.م

حدث غامض ضرب حضارات المشرق، من اليونان وحتى أفغانستان. الوثائق المصرية تتحدث عن «شعوب البحر». جحافل من المهاجمين داهموا الحضارات الكبرى في الوقت نفسه. الانهيار حدث في كل مكان تقريبًا. الحيثيون والمصريون كانوا يمثلون قطبي العالم القديم في ذاك الزمان. تعرضت الحضارة المصرية لتخريب وتدمير مروع. حضارة الحيثيين انهارت بالكامل، واندثرت إلى غير رجعة. حضارة أخرى في بلاد اليونان كانت تسمى بـ«الميسينية» صارت أثرًا بعد عين. اختفت من الوجود.

العالم في سنة 1000 ق.م، صار غير ذلك الذي كان في عام 1200ق.م. الحضارات كافة تلقت ضربات موجعة. أمم وشعوب طواها النسيان. الصروح درست. حتى معرفة القراءة والكتابة ذهبت إلى الظلام الذي ابتلع كل شيء. كيف حدثت هذه الكارثة؟ كيف لنظام مركب أن ينهار على هذا النحو المروع؟

نحن بارعون في بناء الحضارة، وهدمها، ثم بنائها من جديد، مرات ومرات. المعضلة كالتالي: ذات العناصر التي نستخدمها لبناء الحضارة، تحمل بين

طياتها بذور انحدارها وتدميرها.. ربما مثلما يطوي الكون في داخله ظاهرة الإنتروبيا!

العصر البرونزي، الذي يمتد من عام 3000 ق.م تقريبًا، وحتى عام 1000 ق.م يسمى بهذا الاسم لأن البرونز صار يُستخدم على نطاق واسع في صناعة الأدوات والأسلحة. البرونز سبيكة لا وجود لها في الطبيعة. هي تُصنع بصهر معدني النحاس والقصدير، باستخدام النار. السبيكة تُصاغ بنسبة معينة: 90% تقريبًا للنحاس، و10% للقصدير. المعدنان لا يتواجدان معًا في الأماكن نفسها. معنى ذلك أن صناعة البرونز تحتاج إلى شبكات تجارة لجمع المعدنين معًا.

النحاس تواجد بكثرة في قبرص وأماكن أخرى، والقصدير في أفغانستان. القصدير كان بمثابة «بترول العصور القديمة». وجود الأدوات البرونزية بكثرة يكشف عن ازدهار تجارة المسافات الطويلة. نعرف هذا من حطام السفن التي اكتشفناها في العصر الحديث، مثل السفينة «أولبورون» التي عُثر على حطامها قرب سواحل تركيا. حملت السفينة الكثير من النفائس من الفخار والعاج والنبيذ، ويعود تاريخ غرقها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد (حول العام 1300 ق.م). إن حمولة بعينها على ظهر هذه السفينة تكشف عن سر تجارة العصور القديمة: 10 أطنان من النحاس، وطن واحد من القصدير. إنها نفس النسبة المطلوبة لعمل البرونز!

ولكن لماذا سعى الناس وراء البرونز؟ النحاس كان رخوًا، ويبلى بسرعة. أما البرونز فأكثر متانة، ولا يبلى بسهولة. الأمر يتوقف على إيجاد النسبة المضبوطة بين معدني السبيكة. القليل من القصدير لا يكفي لمنح السبيكة الصلابة المطلوبة. الكثير منه يجعل السبيكة هشَّة. التكنولوجيا هي «علاقة جديدة» بين شيئين. البراعة لا تكمُن فقط في إيجاد العلاقة، ولكن في ضبطها والتحكم فيها بصورة تجعل من الناتج الجديد شيئًا مفيدًا للاستخدام.

إضافة القصدير إلى النحاس تجعله أكثر متانة مرتين على الأقل. كان هذا فتحًا كبيرًا في تكنولوجيا صناعة الأسلحة لأنه جعل حد الجزء المعدني في الخنجر خطيرًا وقاتلًا مثل نصله. هذا أفضى، تلقائيًّا، إلى فكرة أخرى هي تطويل الخنجر ليصبح سيفًا. كلما كان السلاح أطول وأمضى كان أفضل وأنفع لأنه يساعدكِ على إنزال القتل بالخصم من مسافة أبعد، وبحيث يتوفر لكِ الأمان. هذا هو السبب الذي يجعل الجيوش اليوم تعتمد على الطائرة المسيرة (الدرون) التي تحمل الموت للأعداء على بعد آلاف الكيلو مترات. السهام والسيوف البرونزية القاتلة كانت «الدرون» في ذلك العصر البعيد!

البرونز كان ثورة في التسلح. المنطقة التي تُعرف اليوم بالشرق الأوسط كانت مسرحًا لمنافسات وصراعات دامية بين الدول. رقعة الصراع توسعت

باستمرار. الأكاديون، قضى عليهم العموريون. ثم ظهر ندان متنافسان في بلاد الرافدين: بابل في الجنوب، وآشور في الشمال. تصارعا فيما بينهما. ثم جاء الحيثيون من الأناضول وقضوا على بابل حول 1500 ق.م. ودخل الحيثيون في صراعات مع المصريين من أجل السيطرة على منطقة كنعان (فلسطين/ إسرائيل حاليًّا). إحدى المعارك بينهم دارت في قادش في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وكانت الأكبر في العصور القديمة، إذ خاضتها نحو 6000 عجلة حربية!

لا تتصوري أن هذه الحروب صبغت العصر كله بالدم. إلى جانب الحروب، نشطت التجارة. ربطت شبكة من التبادل في البضائع بين الحضارات جميعها. القصدير كان يأتي من أفغانستان بالقوافل إلى ميناء «أوغاريت» (أطلالها تقع قرب اللاذقية بسوريا حاليًّا)، ثم يتم تحميله على سفن في البحر المتوسط. مصر كانت تستورد العاج والذهب والعبيد من إثيوبيا. رحلات بحرية مصرية جابت البحر الأحمر. ازدهرت تجارة التوابل مع الهند عبر محطات في ديلم (البحرين الآن). هذه الشبكة التجارية اقتضت اعتماد لغة مشتركة للمراسلات. كانت تلك هي اللغة الأكادية (كما هو الحال مع اللاتينية والعربية في مراحل لاحقة، ومع الإنجليزية اليوم). الفراعنة، على سبيل المثال، كانوا يكاتبون الحيثيين بخطابات باللغة الهيروغليفية المصرية مع ترجمة أكادية.

مع توسع الشبكة، صار الكل معتمدًا عليها. الموانئ ازدهرت على ضفتي المتوسط مستقبلة سفنًا من أصقاع بعيدة. تأسست صناعات، وعمرت مدن - مثل أوغاريت - على أساس هذه التجارة. هذا الاعتماد المتبادل كان هو ذاته مكمن ضعف النظام. عندما تنهار الشبكة، فإن الكل يسقطون معًا!

هجمات شعوب البحر دمرت النظام في الشرق الأدنى كله. أحدثت خروقًا في الشبكة ومزقت نسيجها. عرف ذلك بـ «انهيار العصر البرونزي». ليس صعبًا أن تتصوري ما حدث لأنه شبيه بتوقف العالم بعد كورونا. عندما تتوقف المصانع في الصين، يحدث كساد في أوروبا، وتغلق محال أبوابها في أمريكا وإفريقيا. حضارتنا المعاصرة تعيش على الاعتماد المتبادل بصورة لا سابقة لها في التاريخ. أزمة في العقارات في أمريكا أشعلت أزمة مالية عالمية في 2007م و2008م، استمرت لسنوات. انهيار حضارة واحدة مثل سقوط قطعة دومينو تدفع القطع الباقية للسقوط.

الظاهرة نفسها تقريبًا حدثت حول العام 1177 ق.م: السفن التي كانت تجوب البحار توقفت فجأة. الموانئ ذوت. صناعات كانت تقوم على التجارة بارت وأصابها الكساد.

من أين جاء هؤلاء المهاجمون؟

لا نعرف على وجه اليقين. تتحدث النصوص المصرية عن هجمات متتالية على موجتين يفصل بينهما ثلاثون عامًا. الموجة الثانية داهمت البلاد في 1177 ق.م. المهاجمون غير معروفين، ويضمون قبائل مختلفة. المصريون هم مَن أطلق عليهم شعوب البحر. هم اجتاحوا المتوسط كله من الغرب إلى الشرق. من اليونان إلى تركيا إلى قبرص، ثم إلى مصر. هاجموا الحيثيين في الأناضول، والمايسينيين في اليونان، والكنعانيين في فلسطين والشام. الدمار كان شاملًا. بعض الحضارات لم تفق من الضربة أبدًا.

ما الذي كان يريده هؤلاء؟ هل كانت غايتهم تدمير الحضارة؟

أغلب الظن أن هذا لم يكن هدفهم. بعض الباحثين في علم الآثار خرج مؤخرًا بنظرية عجيبة. هؤلاء المهاجمون لم يسعوا إلى الغزو. بل كانوا يهربون من شيءٍ ما، بدليل أنهم جاءوا حاملين معهم نساءهم وأطفالهم بغرض الاستيطان. لا بد أنهم كانوا يفرون من شيءٍ مدمر وخطير. ربما سلسلة من الزلازل، وهناك دلائل بالفعل على أن زلازل ضربت منطقة المتوسط (وهي في حزام الزلازل إلى اليوم) في الفترة من 1190 إلى1185 ق.م، أو أن زلزالًا كبيرًا أحدث سلسلة متتابعة من الزلازل الأصغر.

محتمل كذلك أن مجاعة ممتدة قد ضربت عددًا من هذه البلدان. السجلات القديمة تتحدث بالفعل عن قحط استمر لسنوات طويلة في هذه الفترة. المناخ صار أكثر جفافًا في الفترة 1200- 950 ق.م. يمكن للشعوب أن تتحمل القحط عامًا أو اثنين، أما الجفاف الطويل فيُنتج مجاعات مدمرة للمجتمعات. «توليفة الحضارة» تُصاب في مقتل. عندما يكون مصدر دخلكِ الوحيد هو الزراعة، فإن فساد المحصول يعني الجوع. وعندما يفسد محصول السنة، فإن أسعار الغذاء ترتفع بشدة. وبالتالي، لا تتوفر لديكِ أموال لشراء أشياء أخرى بخلاف الطعام. يمثل ذلك كارثة بالنسبة لمَن يُنتجون هذه الأشياء الأخرى، إذ لا يستطيعون بيعها، وبالتالي تتراجع قدرتهم على البقاء.

الجوع يجعلكِ أيضًا أكثر عرضة لغزو الأمراض، كما أن قدرتكِ على الإنتاج تتراجع هي الأخرى. عندما تحصلين على أقل من 2000 سعر حراري في اليوم، فإن قدرتكِ على العمل تتدنى إلى النصف. هكذا تغلق هذه الدائرة الجهنمية بإحكام. من المدهش، والمحزن، أن التداعي يحدث على نحو متسارع. الحضارة تبنى في عقود وقرون، ولكنها تنهار بخفة عجيبة وتواتر مروع، كبيت مبني من أوراق اللعب (الكوتشينة)!

مع المجاعة يتولد اليأس. يصير الناس أكثر ميلًا للعنف، وتصبح الأرض معبأة بجو التمرد. الفترة نفسها التي شهدت هجمات شعوب البحر، شهدت تمردًا من عمال المقابر في مصر. نعرف أن رمسيس الثالث، البطل الذي هزم

شعوب البحر، مات مقتولًا في مؤامرة قصر. تشي مومياؤه بآثار خنق بواسطة شيء يشبه الإيشارب الحريري الذي ترتديه النساء. الحيثيون أيضًا تعرضوا لانتفاضات داخلية، وضاعت وحدة ملكهم. المجاعة كانت من الحدة أن حدت بملك الحيثيين أن يرسل في طلب النجدة من ألد أعدائه: المصريين! الأعجب من ذلك أن المصريين لبوا النداء وأرسلوا «مساعدات غذائية»، ربما لإدراكهم فداحة الكارثة على الجميع!

انهيار الحضارة له سمات محددة، أهمها على الإطلاق الفوضى. الحضارة، في جوهرها، هي نوع من النظام الذي يضم أعدادًا كبيرة من البشر في وحدات كبيرة. تفكك النظام يعني انفراط العقد الرابط بين أجزاء التوليفة، والتحلل إلى وحدات أصغر. آية ذلك أن أغلب الحضارات التي أتينا على ذكرها حتى الآن لم يعُد لها وجود اليوم. قصة واحدة من أهم هذه الحضارات تلقي ضوءًا كاشفًا على هذا التناقض العجيب بين القوة العتيدة للمجتمعات المركبة، والهشاشة الكامنة في أعماقها..

لماذا انهارت حضارة مصر القديمة؟

منذ 10 آلاف عام كانت منطقة الصحراء الكبرى غنية بالحشائش والأمطار والبحيرات. كان المناخ معتدلًا، وازدهرت في هذا الوقت مجتمعات مستقرة تعيش على الصيد وجني الحبوب من النباتات البرية. ومع اتجاه المناخ للجفاف، هبط الناس في اتجاه وادي النيل، حيث ازدهرت الزراعة منذ 4000 ق.م. بالتدريج، تجمع الناس في قرى وبلدات حول الأسواق. وظهر زعماء للعشائر والقبائل. حول 3500 ق.م صارت هناك مملكتان (أو دولتان): واحدة في الدلتا في الشمال، وأخرى في الوادي في الجنوب. في 3100 ق.م توحدت مصر في مملكة واحدة على يد مينا نارمر.

في لوحه الشهير، يظهر الملك نارمر ممسكًا برأس أسير، ويده الأخرى على وشك أن تهوي عليه بمطرقة. إنه إعلان، صادم ومؤثر، عن ركيزة الدولة في المجتمعات القديمة كلها: العنف والقوة.

برغم أن مغامرة الحضارة بدأت في مصر في وقت متقارب مع بلاد الرافدين، إلا أنها سبقتها بسبعمائة عام على الأقل في تكوين الدولة الموحدة. وعلى عكس بلاد الرافدين، لم تمر مصر بمرحلة المدن والمراكز الحضرية الكبيرة. هي انتقلت من مرحلة البلدات الصغيرة والقرى إلى مرحلة المملكة في قفزة واحدة تقريبًا. لماذا جرى الأمر بهذه الطريقة؟

السر في الجغرافيا..

النيل يخترق مصر لمسافة 1600 كم تقريبًا حتى البحر المتوسط. حدود مصر تبدأ جنوبًا عند الشلال الأول قرب أسوان الآن. هناك ستة شلالات أو جنادل على النيل، وهي عبارة عن صخور حجرية ضخمة تجعل الملاحة مستحيلة جنوبًا بعدها. لهذا تنتهي حدود مصر الطبيعية عند الشلال (وقد ظلت هذه الحدود ثابتة تقريبًا إلى اليوم!) نهر النيل ليس مجرد ظاهرة جغرافية، هو «نظام حياة» شامل.

الأمطار تسقط على الهضبة الإثيوبية في الصيف، وهو وقت الفيضان في مصر. الفيضان يحمل معه من الهضبة المعادن المخصِّبة للتربة (الطمي). هو أيضًا يكسح في طريقه الأملاح التي تتسبب في بوار الأرض على المدى الطويل. جميع المجتمعات الزراعية القديمة تقريبًا واجهت هذه المشكلة المزمنة؛ مشكلة تمليح التربة. مصر كانت محظوظة أن نجت منها بفضل الفيضان. النيل، أيضًا، شريان ملاحي. تياره يجري من الجنوب إلى الشمال، بينما الرياح تهب من الشمال إلى الجنوب. معنى ذلك أن الملاحة ممكنة في الاتجاهين. في العصور القديمة كان من الممكن قطع المسافة إبحارًا من أقصى شمال مصر إلى أقصى جنوبها - وبالعكس - في أسبوع.

النيل هو الذي منح مصر منظومة كاملة ومترابطة من الحياة المستقرة، والقابلة للتنبؤ بسبب انتظام موعد الفيضان. هو أيضًا هيأ خط الاتصال الذي قامت عليه وحدة الدولة. أما الصحاري المحيطة بالنيل شرقًا وغربًا، فقد ساعدت الحكومة في تحقيق قدر أكبر من السيطرة، إذ لا مجال للناس للهروب من سلطتها. الدول تنشأ عادة وسط جغرافيا لا تُمكِّن الناس من الهرب، حتى لو حاولوا!

في نفس الوقت، فرضت الصحاري على مصر نوعًا من العزلة عن الآخرين، وقدرًا لا بأس به من الاكتفاء الذاتي. في الجنوب، وضعت الشلالات حدًّا طبيعيًّا بين حضارتين: حضارة مصر وحضارة النوبة. صحيح أن الاتصال توطد بينهما في فترات مختلفة، إلا أنهما ظلتا دومًا منظومتين منفصلتين. في الشمال، كان البحر المتوسط في الأغلب مصدر خطر، وليس مجالًا للتجارة أو الاتصال المستمر. منه جاء الغزاة الذين أطلق عليهم المصريون شعوب البحر كما رأيتِ.

كل هذه العوامل الطبيعية تضافرت لتفرز منظومة خاصة جدًّا. منظومة حياة مكتملة، مكتفية بذاتها، مغلقة إلى حد بعيد في مواجهة العالم المحيط. تكرار الدورة السنوية للفيضان أسبغ على الحياة معنى الاستقرار والانتظام. منحها مسحة من الرتابة الأبدية والاستمرارية في الزمن. الحياة المصرية مركزها هذا النزوع إلى الاستقرار والاستمرارية. يتحقق الاستقرار على يد الفرعون، الذي إرتبط شخصه بجلب الفيضان. العقيدة الدينية المصرية لم تكن نظامًا

مستقلًا عن الحياة، بل هي متغلغلة بعمق في تفاصيلها كافة، ضابطة لإيقاعها الكلي.

ربما لاحظتِ من تأمل الآثار الفرعونية أن العقيدة المصرية احتفت كثيرًا بالموت. بخلاف تصور حضارات الرافدين عن الموت باعتباره مكانًا موحشًا وكئيبًا، تصور المصريون الموت مكانًا يمكن أن يحظى فيه المرء بحياة سعيدة إذا استعد له استعدادًا جيدًا. إنها استراتيجية بارعة في تجاوز معضلة الفناء المؤرقة. احتفظ المصري على ضفاف النيل بنظرة للعالم ملؤها الاستقرار والأمل. ولِمَ لا؟ هي حياة تتهادى على نحو هادئ، آمن، كمركب شراعي تتقاذفه تيارات النيل الحانية. الغذاء متوفر، وكذلك الثروات، إذ ظل بإمكان المصريين الحصول على الذهب من النوبة، والنحاس ومعادن أخرى من سيناء. وحتى عندما تعرضت مصر للغزو، فإنها، وبحكم تكوينها الجغرافي وتماسك نظامها الحضاري، كانت تستوعب الغازي وتذيبه في كيانها.

ربما بدافعٍ من هذا الأمل والرغبة في اغتراف «المزيد من الحياة»، والهلع لفراقها، ولدت لدى المصريين فكرة التحنيط، وتجهيز المتوفى بالأدوات والأشياء التي يستخدمها في العالم الآخر. الانشغال المكثف والاستثنائي بالموت يعكس روح الحضارة المصرية. يجسد جوهرها كنظام مغلق ومتكامل يصل الحياة في الدنيا بما بعدها في وحدة كلية شاملة غير مجتزأة. أغلب الظن أنكِ لو عُدتِ إلى هذا الزمن، واستوقفتِ مصريًّا من أجدادكِ لتسأليه عن دينه، فإنه لن يفهم السؤال من الأصل. بالنسبة للمصري، لم يكُن الدين شيئًا منفصلًا عن الحياة، بل هو الحياة ذاتها.. هو الحياة كلها!

الدولة المصرية، شأنها شأن أي دولة، قامت على تراتبية اجتماعية معينة. استقر في أعلى سلم هذه التراتبية الفرعون في مكانة إلهية/بشرية، وبعده - بمسافة واسعة - الكهنة. هؤلاء يقومون على ضمان استمرار هذه «المنظومة» عبر الأحقاب. ثم تأتي طبقة الكتبة والموظفين التي توارثت سر الكتابة الهيروغليفية. قد يكون ذلك التمييز، بين مَن يعرفون الكتابة وبين مَن يجهلونها، هو أهم تمييز طبقي في مصر القديمة. هي في ذلك أشبه ما تكون بالحضارة الصينية التي عرفت تمييزًا مماثلًا لصالح الموظفين الذين يتقنون القراءة والكتابة.

«المنظومة المصرية»، بكل عناصرها، مصممة من أجل هدف وحيد: الحفاظ على الاستقرار. ربما تذكرين ما رويته لكِ عن حياة المدن، وما تزخر به من محركات التغيير والتطور من خلال التعلم والمنافسة. باستثناء مراكز حضرية قليلة - مثل «ممفيس» في مكان ليس بعيدًا عن العاصمة المصرية اليوم - افتقدت مصر حياة المدينة. ربما كان هذا واحدًا من أسباب بطء التغيير في مصر القديمة. عبر التاريخ وفي كل الأماكن، يجري التغيير في المدن لا القرى

كما رأينا. الريف يجنح إلى المحافظة والاستقرار، يرفض الأفكار الجديدة ويهضمها - إن فعل - في وقت طويل. هكذا نفهم سر الاستقرار الرتيب الذي نعم به المصريون.

الحضارة المصرية تذهلكِ باستمرارها المديد. الزمن الذي يفصل «كليوباترا» عن عصر بناة الأهرام، أكبر من الزمن الذي يفصلنا نحن عن «كليوباترا»! بالنسبة للقدماء أنفسهم، كانت الحضارة المصرية عتيقة وبعيدة جدًّا وغامضة. الأكثر إثارة للدهشة أن المصريين عاشوا عبر هذا الزمن المتطاول بطريقة واحدة تقريبًا. لم تتغير أفكارهم بصورة جذرية عن الآلهة أو الدولة أو العالم ، سوى في حالات استثنائية نادرة كما سنرى بعد قليل.

على أن مسار الحضارة المصرية لم يمضِ في خط مستقيم. فترات الاستقرار، كان يعقبها أزمنة تحلل واضمحلال. برغم طول الفترات المستقرة وتشابهها، فإنها كانت تفضي في آخر الأمر إلى خاتمة واحدة: ضمور تدريجي ينتهي إلى تفسخ وفوضى، ثم رحلة بناء جديدة.

لا مجال في هذه الرسائل لاختصار تاريخ الحضارة المصرية الطويل. يكفي أن تعرفي أن هذا التاريخ انقسم إلى ثلاث فترات أساسية كبرى: المملكة القديمة والوسطى والحديثة. بين كل عهد والعهد التالي له، سادت فترة من الفوضى أو الاحتلال الأجنبي. المملكة القديمة استمرت نحو 500 عام (من 2700 وحتى 2200 ق.م تقريبًا) في استقرار عظيم، وعزلة شبه كاملة عن العالم المحيط. ذلك كان العصر المؤسس للحضارة. الزمن النموذجي الذي وضع لها المسار الذي صارت فيما بعد أسيرة له. إنه عصر تكوين الدولة وتوحيدها وابتداع النظم البيروقراطية والاقتصادية المختلفة التي تهيئ لشخص واحد (فرعون)، يسنده جيش من الكتبة والكهنة والجنود والعمال، أن يحكم مصر، ككيان موحد متجانس، من الشلال حتى البحر. لا شك أن الأهرام، التي بدأ تشييدها في عصر الأسرة الرابعة حوالي 2650 ق.م، هي أفضل تجسيد ماثل للعيان إلى اليوم لقوة هذا العصر الذهبي الأسطوري.

في نهاية الدولة القديمة سادت فترة من الفوضى امتدت 150 عامًا احتُلَّت خلالها الدلتا على يد بعض القبائل القادمة من آسيا. ما الذي حدث؟ لا نعرف على وجه اليقين. ولكن بعض العلماء يعتقد أن تغيرًا مناخيًّا كبيرًا كان هو السبب. صحيح أن الفيضان يزور مصر كل عام في الموعد نفسه، ولكن كمية مياهه ليست ثابتة. العلماء لاحظوا أن الفترة التي شهدت انهيار المملكة القديمة (حول 2200 ق.م) تتطابق مع تتابع عدد من الفيضانات الهزيلة. ثمَّة إشارات لمجاعة واسعة داهمت البلاد. على مقبرة «أنحتيفي»، حاكم إدفو، هناك نقش يشير إلى أن «مصر العليا كلها تموت من الجوع إلى حد أن الناس كانوا يأكلون أبناءهم»!

ثمَّة دلائل أخرى على أن درجات الحرارة شهدت انخفاضًا استثنائيًّا خلال هذه الفترة. كان الوضع أشبه بعصر جليدي صغير. قد يكون ذلك سببًا آخر أسهم في فساد المحاصيل، ومن ثم اشتداد المجاعة.

استجمعت مصر شتات نفسها مجددًا حول 2000 ق.م. كانت هذه بداية «المملكة الوسطى» التي ازدهرت لنحو 400 عام (من 2030 إلى 1650 ق.م). انهمكت مصر خلالها في التوسع شرقًا في الشام، ووصلت جنوبًا إلى مملكة «كوش» في السودان حاليًّا. غير أن شبح التفكك وانفراط العقد ما لبث أن أطل من جديد. انتهت المملكة الوسطى بفوضى واضمحلال استمر بدوره لمائتي عام. أفضى الضعف العام في الحكم إلى احتلال الدلتا بواسطة قبائل الهكسوس القادمة من آسيا حوالي 1700 ق.م، قبل أن ينتهي هذا الاحتلال على أثر حرب تحرير شعبية بدأت من الجنوب بقيادة «كاموس» ثم «أحمس»، وأسست في النهاية المملكة الحديثة حوالي 1570 ق.م.

كان هذا العصر هو قمة ازدهار حضارة مصر القديمة، واستمر نحو 400 عام شهدت خلالها البلاد توسعًا في التجارة على يد ملكة عظيمة هي «حتشبسوت». بل ونجحت مصر في تأسيس إمبراطورية في الشام على يد تحتمس الثالث الذي وصلت جيوشه إلى الفرات. وحققت الدولة أقصى توسع لها في زمن أمنحتب الثالث (1400-1362 ق.م). لم يخلُ هذا العصر الذهبي بدوره من القلاقل والاضطرابات الكبرى.

لسببٍ غامض، تبنى الفرعون الذي خلف أمنحتب الثالث - واسمه كما هو متوقعٌ أمنحتب الرابع - إلهًا جديدًا من خارج «مجمع الآلهة» الذي تواتر المصريون على عبادتهم لآلاف السنين..

في عام 1353 ق.م وصل أمنحتب الرابع إلى الحكم. قد يكون هو أكثر الفراعنة غموضًا وتفردًا. بعد عصر من الازدهار والامتداد العسكري في الشرق قاده أمنحتب الثالث، جاء خلفه ليقلب نظام الأشياء رأسًا على عقب. ربما بدافع من الازدهار الذي وفر الوقت للتأمل والتفكير، أظهر أمنحتب الرابع تشككًا في الآلهة المصرية وعلى رأسها «آمون» إله الخلق المرتبط بـ«رع». قدَّم إلهًا جديدًا ليحل محل جميع الآلهة المصرية. كان إلهه هو «آتون»، أو قرص الشمس، مصدر كل الحياة والنماء في العالم. سمى أمنحتب الرابع نفسه «أخناتون»، أو «العائش في الحقيقة». لم يكتفِ «أخناتون» بذلك بل انهمك في مشروع كاسح لتحويل رؤيته إلى واقع.

في العام الخامس من حكمه أعلن عن إنشاء عاصمة جديدة. في العام الثامن كانت هذه المدينة قد شُيدت بالفعل في تل العمارنة (محافظة المنيا حاليًّا). في العام التاسع جرى حظر جميع الآلهة القديمة، ومُحيت أسماؤها من

المعابد. في العام السابع عشر.. توفي «أخناتون» وانهار كل شيء! اختفى هذا الفرعون المتمرد من السجلات في عام 1336 ق.م. مُحي اسمه من على المعابد. هُجرت مدينته وصارت أثرًا بعد عين. بين أطلالها عثر أحد علماء الآثار الألمان في عام 1912م على تمثال لوجه «نفرتيتي»، زوجة «أخناتون» الجميلة الغامضة، التي كانت شريكته في مشروعه العجيب. بل ويعتقد البعض أنها تولت الحكم لوقتٍ قصير بعد وفاته.

محاولة «أخناتون» كانت فريدة حقًّا. من النادر أن يتحدى شخص «نظام التشغيل» والشفرة الاجتماعية، وفي القلب منها الأسطورة الدينية، على نحو ما فعل. اليوم، تبدو تأملات «أخناتون» أقرب إلى أديانا التوحيدية. هو كان يُناجي إلهه قائلًا: «مهما تعدَّدت أعمالك، إلا أنك واحد متفرد.. أنت مَن خلقت كل هذا». هذه لغة نفهمها لأنها قريبة بالفعل من تفكيرنا ومعتقداتنا، على أنها كانت أبعد ما تكون عن الأساطير والمعتقدات التي آمن بها المصريون. العقل الذي نشأ على فكرة تعدد الآلهة يجد صعوبة كبيرة في تصور نظام بديل ينطلق من فكرة التوحيد. الأهم أن الأساطير القديمة ترتبط بمؤسسات ومصالح مستقرة. عندما بشر «أخناتون» بالإله الجديد فقد كان يوجِّه ضربة قاصمة لسلطان الكهنة ونفوذهم. ما الحاجة إليهم إذا كان «أخناتون» هو الوحيد الذي يستطيع مخاطبة إلهه؟

ما حدث كان مروعًا. توت عنخ آمون -الذي يُعتقد أنه أحد أبناء «أخناتون»- تولى الحكم وعمره عشر سنوات تقريبًا. السُّلطة الحقيقية كانت في يد الوزير والكاهن الأكبر «آي»، والقائد العسكري «حور محب». عهد توت عنخ آمون– كما يبدو من اسمه - شهد موجة عكسية محمومة لإعادة كل شيء إلى أصله، ومحو أي ذكر لإله «أخناتون». في التاسعة عشر من عمره توفي توت عنخ آمون بصورة غامضة هو الآخر. آلت السُّلطة إلى «آي»، ومن بعده إلى «حور محب».

عندما اعتلى «حور محب» سدة الحكم أمر بهدم «تل العمارنة» وتسويتها بالأرض. ربما لهذا السبب، غير المتوقع، حفظت قصة «أخناتون» العجيبة من الضياع. الرمال حفظت الآثار التي دفنت بداخلها، وموقع المدينة هجر للأبد.

لقد كشف هذا الفرعون، بفعله الاستثنائي، عن مكامن الخطر المختبئة في أعمق أعماق الحضارات القديمة. التهديد لم يأتِ هذه المرة من فيضان هادر أو مجاعة مميتة أو إحدى غزوات الأجانب المتوحشين. التهديد للنظام أتاه من داخله. من قمته!

بعد فترة ازدهار على يد ملوك الأسرة التاسعة عشرة، وأهمهم رمسيس الثاني (1279-1213 ق.م)، عانت مصر من «عصر الظلام» الذي خيم على

مسرح الشرق كله حول 1200 ق.م، ثم دخلت البلاد في الألفية الأولى قبل الميلاد في طور سبات ممتد، تخللته عهود متتابعة من الاحتلال الأجنبي. هكذا اعتلى الحكم أسر من الليبيين الذين استقروا بالدلتا وكونوا الأسرة الثانية والعشرين، والنوبيين الذين أسسوا الأسرة الخامسة والعشرين. ثم تعرضت البلاد لغزو الآشوريين الذي تخللته محاولة أخيرة لجمع شتات مصر قادها «بسماتيك» الذي تمرد ورفض الوفاء بالجزية للآشوريين وأسس الأسرة السادسة والعشرين في 664 ق.م. كانت هذه هي آخر أسرة عظيمة في تاريخ مصر، واستمرت في الحكم نحو 150 عامًا. كان هذا العصر مثل تغريدة أخيرة أطلقتها البجعة المصرية قبل أن تستسلم لمصيرها المحتوم.

السؤال هنا: هل كان هذا المصير محتومًا بالفعل؟

انهيار الحضارات ليس حدثًا عارضًا في رحلتنا الطويلة. أحد التفسيرات لحالات الانهيار المفاجئ تكمُن في التغيرات المناخية أو الكوارث الطبيعية كما رأينا. إلا أن الأسباب الأعمق للتحلل التدريجي غالبًا ما تكون مختبئة في مكانٍ ما في قلب «توليفة الحضارة» ذاتها. هي تنجح في الاختفاء عن أعين المعاصرين للحدث فيستعصي عليهم ملاحظتها وهي ماثلة أمامهم. ربما في الثبات المذهل لحضارة مصر القديمة، اختبأت جرثومة التآكل والتدهور..

كمنت هذه الجرثومة كفأرة تعمل بدأب في قرض سور هائل من الخشب. الحفاظ على التقاليد قد يجنب المجتمعات، إلى حين، شرور التقلبات والانهيارات. على أنه يورثها نوعًا من الجمود يحول بينها وبين التجاوب مع المتغيرات. المشكلة أن الشفرات الاجتماعية والمؤسسات متى استقرت، يصعب جدًّا تغييرها لأنها تكتسب نوعًا من القداسة.

المشكلة الأخرى أن المتغيرات كانت تجري ببطء شديد في العصور القديمة، ولهذا نعمت الحضارة المصرية بهذا العمر المديد متحصنة وراء عزلتها ومكتفية بخيرات نيلها. عند نقطة معينة لم تعُد الطرق القديمة تصلح لصناعة المجد الغابر. سبق آخرون في مضمار القوة والهيمنة. مثلًا: الحيثيون تمكنوا من صناعة الحديد. هذا منحهم ميزة عسكرية حاسمة. تمامًا كما كانت العربة الحربية التي تجرها الخيول سببًا جوهريًّا في انتصار الهكسوس من قبل.

النظم المغلقة على ذاتها تواجه - عند نقطة معينة - أخطارًا وتهديدات من الخارج. تجد نفسها فجأة عرضة لأطماع منافسين تجتمع لهم أسباب القوة. إلا أن التهديد الأكبر لهذه النظم يكون مطويًّا داخلها، كفيروس مثابر بطيء المفعول. يكمُن التهديد في هذا الانغلاق وتلك العزلة. ستتكرر تلك القصة كثيرًا مع حضارات مختلفة اضطرت، بعد سنوات من العزلة المديدة، أن تفتح

نوافذها أمام رياح التغيير، فعصفت هذه الرياح ببنيانها الهش المغلق على ذاته.

على أن ثمَّة تفسيرًا مهمًّا آخر للتدهور والانهيار..

تأملي هذه المنظومة التي أقامها المصريون، وغيرهم. منظومة الحضارة التي تقوم على الدول والبيروقراطيات لتنظيم المجتمعات، وعلى المعابد التي تصل الناس بالآلهة. هذا «النظام المركب» هو في واقع الأمر نظام هش للغاية. قابل للكسر والانهيار المفاجئ. هو يعتمد، في الأساس، على العلاقات بين أجزائه: بين ساكن المدينة وساكن القرية، بين المعبد والجيش، بين النقود والحكم، بين الآلهة والحاكم، بين المناخ والطاقة..

لو حدث واختلت إحدى عناصر المنظومة، فإنها تتوقف فورًا عن العمل ويحدث الاضطراب. سبب هشاشة النظام راجع إلى طبيعته نفسها. حقيقة كونه «نظامًا مصنوعًا»، ومركبًا من أشياء أبسط. هو يستقر ويستمر بقدر اقتناع الناس بالشفرة الاجتماعية التي تشغله، بقدر قبولهم بالترتيب الاجتماعي القائم، وبنظام الأشياء السائد. لهذا، فإن بذرة التوتر الاجتماعي والاضطراب تظل كامنة في أي مجتمع بشري. الأخطر من فساد المحاصيل وبوار الأراضي، هو الصراع، المحتمل والكامن، على توزيع الفائض.. الصراع على السُّلطة.

الصراع ينشب عندما يبدأ بعض البشر بالتشكك في «نظام التشغيل»، أو المطالبة بتغيير «الشفرة الاجتماعية» أو مراجعتها (كما فعل مثلًا الفرعون المتمرد «أخناتون»، وكما فعل الآلاف من الرواد والثائرين عبر التاريخ). يشتعل الصراع كذلك عندما يسعى البعض في المجتمع إلى الحصول على نصيب أكبر من الكعكة ممَّا هو مقرر لهم بحسب التقليد المستقر. في هذه اللحظة الخطيرة يصير البناء الاجتماعي والسياسي عرضة للانهيار والفوضى. من رحم الفوضى تتأسس نظم جديدة بأساطير مختلفة وشفرات اجتماعية جديدة.. وهكذا في دورات متتابعة لا تنتهي.

المصريون القدماء أظهروا قدرات أسطورية على الحشد والتنظيم. هم أعطوا فكرة الدولة معنى خالدًا. ارتكز نظامهم على امتزاج الدين والحكم وتجسيدهما في شخص واحد هو الفرعون. المشكلة الكبرى لهذه المنظومة تكمن في ارتكانها - إلى حد بعيد - على حكمة وقدرة مَن يستقر على قمتها. من عيوب المنظومة التراتبية هو التأثير الكبير والاستثنائي لرأسها على مسارها ومصيرها. كثيرًا ما تفسد هذه المنظومة، كالسمكة، من رأسها. الفراعنة الضعاف أو العاجزون أو الطماعون أو اللا مبالون يصيرون شرًّا مستطيرًا على بقاء المنظومة بأسرها.

ليس من قبيل الصدفة أن عصر الانهيار الأول بعد عهد المملكة القديمة الذهبي جاء على أثر موت فرعون طال بقاؤه في السُّلطة حتى بلغ عمره المائة! إنه بيبي الثاني (2278-2184 ق.م) آخر ملوك الأسرة السادسة. عند وفاته ظهر مطالبون كُثر بالعرش. تذكر حوليات التاريخ أن مصر شهدت، في خضم الفوضى بعد بيبي الثاني، «70 ملكًا في 70 يومًا»! تآكل النظام المرهون بشخص الملك، المستند إلى قوته وسيطرته على مَن حوله. من هذه السيطرة، وبواقع الثقة في دوامها للأبد، يستمد المحيطون بالملك إيمانهم بالنظام القائم ودفاعهم المستميت عنه. اذا اختلت الثقة، تضعضع البنيان، وتهشمت المجتمعات إلى شظايا كزجاجة كسرها لا يُجبر.

السياسة هي فن وليست علمًا لأنه يصعب قياس قوة العلاقة بين الملك والمحيطين به، ومَن يأتمرون بأمره. يستحيل معرفة مدى ولائهم الحقيقي له، واستعدادهم للدفاع عنه للنهاية. في لحظة حاسمة قد تتغير الولاءات، فيتغير كل شيء فجأة. وقد حمل لنا التاريخ المصري القديم رسالة نادرة قادمة من العالم الآخر، عالم الموتى، تشير إلى هذه اللحظة المشبعة بالمطامع والدم..

الملك أمنمحات الأول (2000-1975 ق.م) تعرض لمؤامرة خطيرة، انتهت باغتياله في سريره على يد حُرَّاسه. المثير أنه كشف عن خيوط المؤامرة في رسالة وجهها إلى ابنه «سنوسرت»..بعد موته! اليوم، تُعتبر الرسالة تزييفًا قام به الابن على الأغلب لتثبيت أركان حكمه الجديد. مع ذلك فالرسالة، التي جاءت في صورة وصايا من الملك لابنه الوريث، تكشف عن المخاطر المحدقة بصاحب السُّلطة. تأملي وصية «أمنمحات»: «أنت يا مَن أصبحت ملكًا (...) خُذ الحذر من مرءوسيك؛ لأن الناس يُصغون لمَن يرهبهم، ولا تقتربن منهم على انفراد، ولا تثقن بأخ، ولا تعرفن لنفسك صديقًا، ولا تصطفين لك خلانًا؛ لأن ذلك لا فائدة منه.. وعندما تكون نائمًا كُن الحارس لشخصك»!

من المدهش حقًّا أن تعرفي أن هذه اللحظة الدموية قد تكررت آلاف المرات في المجتمعات المختلفة عبر التاريخ. تغير الولاء ليس وقفًا على الأتباع والحراس المسلحين، وإنما يشمل الزوجات والآباء والأبناء. لحظة الصراع على السُّلطة تمثل استثناءً صارخًا لقاعدة الجينات التي تحدثنا عنها من قبل، والتي تربط بين الولاء والعاطفة وبين عدد الجينات المشتركة (القرابة).

ارتبط انهيار الحضارة المصرية القديمة بتكرار مثل هذه الصراعات، والتآكل التدريجي في سلطة الفرعون (محور النظام ونواته الصلبة). الأسرة العشرون شهدت عددًا من «الرعامسة» - جمع رمسيس - الضعاف. السُّلطة تسربت من قبضة الملك، إلى الوزراء والجنرالات والكهنة وحكام الأقاليم والموظفين. في نهاية حكم الأسرة العشرين، كان قائد عسكري يدعى

«حيرحور» - نصب نفسه أيضًا كاهنًا أكبر - هو الحاكم الفعلي لمصر. رمسيس الحادي عشر (المتوفى عام 1069 ق.م) كان فعليًّا حبيس قصره، لا يملك من أمر نفسه شيئًا. في فتراتٍ لاحقة، لم يعُد من منصب الفرعون سوى اسمه. بل أصبح هناك أكثر من فرعون في الوقت نفسه.

هذه الحالة من الفوضى والصراع على السُّلطة ستُصاحب المجتمعات البشرية عبر قصتنا. ستمر على الإمبراطورية الرومانية بعد ذلك «سنة الأباطرة الأربعة» و«سنة الأباطرة الخمسة»، ستُعاني روما من مؤامرات وثورات وانقلابات لا تنتهي. سنقرأ في تاريخ الإمبراطورية الإسلامية عن صراعات دموية على منصب الخلافة بدأت بعد سنوات قليلة من وفاة الرسول ( ). الصراع على السُّلطة هو الوجه الآخر لحالة الاستقرار التي تُعد غاية المجتمعات الزراعية، والمثال الذي تصبو إليه. هذا الصراع هو آفة الحضارة، ولم تنجُ منه دولة أو إمبراطورية.

لو أنعمتِ النظر في أساطير الحضارات القديمة، التي تُعبر عن الطريقة التي فسر بها القدماء ظواهر العالم من حولهم، لوجدتِ هذا التصور الثنائي عن النظام والفوضى حاضرًا بقوة. الأساطير هي «شفرة التشغيل الكبرى» للمجتمعات. نحن نعشق الرموز كما تعرفين. الأسطورة تُعبر بطريقة رمزية ومجردة، وفي صورة قصصية، عن تصور حضارة من الحضارات للقوانين الكونية الكبرى التي تحرك الأحداث وتصنع المصائر في العالم..

لم تعرف الحضارات القديمة الإله الواحد، وإنما «مجمع الآلهة»، الخيرة والشريرة، النافعة والضارة. على هذا النحو يتحول عالم الآلهة إلى حلبة صراع كوني. إنه صراع يعكس التناقضات القائمة في العالم البشري نفسه.

هذا التعدُّد في الآلهة، الذي أُطلق عليه فيما بعد «الوثنية»، أتاح للبشر إظهار الامتنان الواجب لمظاهر الخير والوفرة في حياتهم، بنفس القدر الذي يُظهرون به الاحترام والخشية لقوى الشر والخراب. تعدُّد الآلهة هيأ للبشر الاحتفال بالحياة في تجددها ونعمها التي لا تحصى. هو ساعدهم، في ذات الوقت، على الانحناء في رهبة وخشوع أمام الأقدار المحتومة. الديانة الهندوسية مثلًا تعتبر إله الدمار «شيفا» واحدًا من ثلاثة آلهة رئيسية. عملية التدمير، كما يرمز لها «شيفا»، مهمة من أجل الخلق الجديد.

في أغلب الأساطير القديمة نلمس ظلالًا لهذا الصراع الأبدي. المصريون اعتقدوا أن الحياة بدأت في محيط هائل مضطرب من الفوضى (أي إن الأصل في الأشياء هو الفوضى لا النظام)، ثم خلق «رع» - إله الشمس - نفسه من العدم. وبرزت الأرض – مصر - كمصطبة عالية من رحم هذه الفوضى والماء المحيط بكل شيء. الأرض تزوجت من السماء، وأنجبا أربعة أبناء، أشهرهم

أوزوريس وإيزيس وست (أو سيث). أوزوريس تزوج من إيزيس. من هذه النقطة بدأ الصراع..

«ست» شعر بنقمة إزاء «أوزوريس» فقتله، ولكن «إيزيس» ظلت تجمع أوصاله التي توزعت على أقاليم مصر. «أوزوريس» لم يمت، بل صار، بمساعدة «رع»، إلهًا للعالم السفلي. الصراع لم ينتهِ. «إيزيس» أنجبت «حورس»، وخبأته حتى يكبر وينتقم لوالده. هكذا دخل «حورس» معركة حامية مع «ست» انتهت باندحار الأخير وهزيمته. صار «حورس» حاكمًا على مصر!

عند هذه النقطة تلتقي الأسطورة بالعالم الواقعي، ذلك أن كل فرعون هو تجسيد لـ«حورس»، أو أن روح «حورس» تسكن في كل فرعون. الأكثر إثارة أن «ست» لم يمت هو الآخر برغم هزيمة «حورس» له. هو يظل حاضرًا كإله للشر.

ما المغزى من وراء هذه القصة العجيبة؟

المغزى أن الصراع بين الخير والشر مستمر وأبدي. أن «ست» الذي يجسد الفوضى والشر والقتل، يظل ماثلًا وحاضرًا في عالمنا، تمامًا مثل كل مظاهر الفوضى الكامنة في الحضارة الزراعية، من جفاف وحروب وأوبئة. أما الحاكم (الفرعون) فهو وريث «حورس». هو تجسيد حي للنظام في معركته الأبدية مع الفوضى. عندما يتوج الفرعون يُستحضَر «حورس»، وعندما يموت يتحول إلى «أوزوريس»، ويعود «حورس» لأداء مهمته الخالدة في تتويج الفرعون الجديد.

إنها دائرة أبدية كما ترين. دائرة مغلقة، يُسلم فيها الفرعون الراية لمَن بعده في تتابع مقدس يضمن عدم الانزلاق إلى الفوضى. قد يُدهشكِ أن علماء الآثار لم يعثروا أبدًا، من بين ما عثروا على آثار مختلفة من الحضارة المصرية القديمة، على أي تاج ملكي. ربما كان السبب، كما تُشير إحدى النظريات، أنه لم يكُن هناك في الواقع سوى تاج واحد يتم توريثه من ملك إلى آخر في تتابع غير منقطع. هذا التتابع هو ما أقرته الآلهة؛ لذا فهو غير خاضع للتساؤل أو المراجعة.

ذلك هو مغزى الأسطورة إذن. الصراع بين النظام والفوضى لا يحدث مرة واحدة، ولكنه متجدد وحاضر في كل لحظة. الأسطورة، أي أسطورة، هي حدث يتصور الناس أنه وقع منذ زمن بعيد، ولكنه في الوقت نفسه متجدد ومتكرر بصورة لانهائية في الحياة الحاضرة. كل فرعون هو «حورس»، وكل فوضى أو اعتداء أجنبي أو خراب هو «ست». مهمة الفرعون هنا هي الحفاظ

على هذا النظام الكوني.. أي الحفاظ على «ماعت»، التي تعبر عن العدالة والنظام والتوازن أو «الطريقة التي يجب أن تجري بها الأشياء».

خاتمة القصة المصرية معروفة: من بعد الاحتلال الفارسي تعرضت مصر لغزوة يونانية قادها الإسكندر الأكبر. في عام 30 ق.م أقدمت آخر فراعنة مصر «كليوباترا» - ولم تكن مصرية بل يونانية من الأسرة البطلمية - على الانتحار. كانت تلك هي النهاية الرسمية للحضارة المصرية القديمة. إنها ليست سوى قصة أخرى حزينة من قصص انهيار الحضارات بعد المنعة والعزة. لما يقرب من ألفي عام تالية، ستكون مصر تابعًا لقوى أخرى تبعد آلاف الكيلو مترات. هذه القوى تسمى الإمبراطوريات.. هل تصورتِ نفسكِ من قبل حاكمة لإمبراطورية تمتد على ملايين الكيلو مترات المربعة؟ في رسالتي القادمة سوف أخبركِ بحيلٍ كثيرةٍ اخترعناها لتشغيل أكثر الكيانات تركيبًا في قصتنا. سأخبركِ أيضًا لماذا كانت هذه الكيانات حاسمة في انتقالنا إلى مرحلة جديدة.. ستقترب بنا من الإجابة عن الكثير من التساؤلات التي تؤرقك. هل ما زالت الحُمَّى تدفع الأفكار للتصادم بعنفٍ داخل دماغك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بابا العزيز..

الحُمَّى غادرتني أخيرًا، ولكني لم أعُد أحتمل الحبس الانفرادي. أقضي وقتًا طويلًا في مراقبة الشارع والمارة من النافذة. لاحظتُ أن المقهى المقابل لعمارتنا أغلق أبوابه وأوقف نشاطه. السبب هو كورونا على الأغلب. فكرتُ في مَن كانوا يعملون فيه ومعاناة أسرهم وأصابني الحزن. فكرتُ أيضًا في أن هذه الجائحة كان يُمكن أن تكون أخطر كثيرًا، وأشد فتكًا. ماذا كنا لنفعل ساعتها؟ حضارتنا بالفعل هشة للغاية.

إليك تساؤل جديد: إذا كان البشر جميعًا استخدموا الأدوات نفسها تقريبًا في صناعة الحضارة، وإذا كانوا جميعًا يواجهون المشكلات نفسها التي تؤدي إلى انهيار الحضارة عند نقطة معينة.. فلماذا يختارون، مرة بعد مرة، السير في هذا الطريق نفسه الذي يبدو معلوم النهاية من أول خطوة؟ لماذا، وقد أثبت البشر عبقرية كبيرة في ابتداع أدوات الحضارة، لم يفكروا في علاجٍ لبذور الفناء الكامنة التي تؤذن بانهيارها؟ كيف لم يفكروا، مثلًا، في معالجة ظاهرة الصراع على السُّلطة وفساد الحكام؟ أو في نظامٍ ما يجعل مَن يصل للسُّلطة هو الأفضل في المجتمع؟

إذا كانت شفرة الجماعة هي شيء يصنعه البشر بأنفسهم، فهم بالأحرى قادرون على تغييره. كان بمقدورنا تركيب نظام الحضارة بحيث يكون أقل ظلمًا للأغلبية، وأكثر انصافًا للبشر. تجربة «أخناتون» التي رويتها في رسالتك تشير إلى أن باستطاعتنا تغيير المسار كله في مدة قصيرة. فشلها لا يعني خطأها.

أُخمن أيضًا أنه كان في استطاعتنا بناء مجتمعات أكبر وأكثر تنظيمًا، وبحيث نُسرع عملية التعلم وتناقل المعلومات لنكسر المزيد والمزيد من الشفرات. إذا كنَّا قد توصلنا إلى تكنولوجيا الكتابة، وأدوات جديدة مثل الأبجدية والحساب، فإن ذلك يُتيح لنا، كما أتصور، بناء مجتمعات كبيرة للغاية.. تُشبه تلك التي نعيش فيها اليوم. ربما كان ذلك هو السبيل لتجنب دورات الانهيار الحضاري التي وصفتها في رسالتك.

ليلى

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الرسالة التاسعة

كيف تحكمين إمبراطورية؟

«للأقوياء أن ينتزعوا ما يقدرون عليه،

أما الضعفاء فيكابدون ما قدر لهم»

المؤرخ اليوناني ثيوسيديديس

(460-395 ق.م)

عزيزتي ليلى..

تفكيركِ ليس بعيدًا عمَّا حاول البشر عمله بالفعل عندما دلفوا إلى مرحلة جديدة من قصتهم. جرى ذلك، في أماكن مختلفة من العالم، بداية من العام 800 ق.م. انهمك البشر، في أكثر من مكان، في مغامرات مذهلة لتجريب «نظم تشغيل» وابتداع «أدوات اجتماعية» مبتكرة لمعالجة مشكلات الحضارة. وصلت هذه الابتكارات إلى الذروة حول العام 500 ق.م. تكبير المجتمعات، وكما توقعتِ أنتِ، بدا حلًّا مناسبًا. ولكن هل فكرتِ يومًا إن كان ممكنًا تكبير الأشياء إلى ما لا نهاية؟

لماذا هناك حد أقصى لارتفاع الأشجار؟ لماذا لا ترتفع الأشجار، مثلًا، إلى عنان السماء؟ لماذا يبدو أن هناك حدًّا أقصى لأحجام الكائنات الحية؟ لماذا لا توجد في الطبيعة مثلًا عناكب عملاقة في حجم الأفيال؟

بعض هذه الأسئلة شغل العالم الإيطالي جاليليو جاليلي (1564م-1642م)، وهو قيد الإقامة الجبرية بمنزله لتسع سنوات كاملة فقد خلالها بصره، بعد أن عاقبته الكنيسة على تأييده لنظرية دوران الأرض حول الشمس.

كان «جاليليو» يفكر من زاوية هندسية في مدى تحمل الأعمدة والعوارض لثقل مبان كبيرة. اكتشف شيئًا مذهلًا: عندما تُكبِّرين شيئًا، فإن وزنه يزداد بنسبة أكبر كثيرًا من حجمه. تصوري مثلًا أنكِ كبرتِ شجرة بمقياس عشر مرات، فإن وزنها يزيد ألف مرة، ولكن قوة الجذوع التي تحملها تزيد بمقدار مائة مرة فقط. لهذا لا تطول الأشجار بعد مدى معين. الجذع لن يتحملها، وسوف تنهار تحت وطأة وزنها.

«جاليليو» وضح فكرته على النحو التالي: «كلما كان الجسد أصغر، زادت قوته النسبية؛ لذلك ربما يستطيع الكلب الصغير أن يحمل فوق ظهره كلبين أو ثلاثة من حجمه نفسه، ولكني أعتقد أن الحصان لا يستطيع أن يحمل حتى حصانًا واحدًا فوق ظهره».

الفكرة الجوهرية هنا أن هناك حدًّا أقصى لنمو الأشياء.. كل الأشياء. إذا قمتِ بتكبير شيءٍ فإنه، عند نقطة معينة، ينهار تحت ثقل وزنه نفسه. هذا القانون يسري على كل شيء: المدن والدول والإمبراطوريات كما سنرى..

الإمبراطوريات التي سنصادفها، من الآن فصاعدًا، لن تعتمد على البرونز مثل تلك التي ابتلعها الظلام بعد انهيار العصر البرونزي الذي ساد قرونًا كما رأينا. ستستخدم معدنًا آخر..

لو نظرتِ حولكِ للاحظتِ أن عنصرًا رئيسيًّا يُمثل عاملًا مشتركًا في الأشياء المحيطة بك: الحديد. في السيارات والقطارات، وفي البنايات التي نقطنها.. في السفن والطائرات وأسلحة الجيوش. نحن ما زلنا نعيش عصر الحديد الذي بدأ حول 1000 ق.م. البرونز أجمل من الحديد من دون شك، بل إن البرونز أكثر متانة من الحديد ولا يبلى مثله. لهذا لم نسمع عن ميدالية حديدية في الأولمبياد. غير أن الحديد متوفر أكثر، وتصنيعه أسهل، وبإضافة الكربون إليه يصير أكثر متانة. عندما عرفت الحضارات الحديد، تغيرت أشياء كثيرة. استخدامه في تصنيع الأدوات الزراعية، وفي حدوة الخيل، ساهم في مضاعفة الإنتاج. هو أيضًا مثَّل نقلة في تكنولوجيا السلاح، ذلك أن وفرته جعلت بإمكان أعداد أكبر من البشر تسليح أنفسهم. لم يعُد السلاح قاصرًا على القلة كما كان في العصر البرونزي. الجيوش صارت أكبر حجمًا، وأشد فتكًا.

بعد التسلح بالحديد، ظهرت إمبراطوريات أكثر اتساعًا من ذي قبل. الآشوريون (تقع آشور في شمال العراق، في منطقة كردستان حاليًّا) كوَّنوا أولى إمبراطوريات الحديد الكبرى (911-612 ق.م)، تلاهم الفُرس، ثم اليونان، فروما. بالتوازي، ظهرت إمبراطوريات كبرى في الهند والصين، بينما تأخر ظهور الإمبراطوريات طويلًا في الأمريكتين.

أنتِ لا تعيشين اليوم في ظل إمبراطورية، بل في إطار ما يُعرف بالدولة القومية. هناك 193 دولة أعضاء بالأمم المتحدة، إضافة لدولتين لهما صفة مراقب هما الفاتيكان وفلسطين. العنصر الأهم الذي يميز الدولة هو أنها تحتل رقعة جغرافية معينة على كوكب الأرض، وأن لها سلطة حاكمة. هي صاحبة السيادة العليا على السكان والأرض داخل هذه البقعة الجغرافية. غير أن الدولة القومية هي اختراع حديث للغاية بمعايير تاريخنا الكبير. في أغلب فترات التاريخ، لم يعش البشر في ظل دولة قومية. إما أنهم كانوا يسكنون وحدات أصغر كثيرًا (مدنًا مستقلة أو إمارات صغيرة أو حتى بلدات)، أو أنهم كانوا جزءًا من إمبراطورية كبرى، تسيطر عليهم من مركز يبعد آلاف الكيلو مترات من المناطق التي يعيشون فيها.

لا تنظري للإمبراطورية باعتبارها دولة كبيرة. الحجم يغير خواص الأشياء. المحيط ليس مجرد بحيرة كبيرة. هو نظام بيئي مختلف تمامًا. كذلك الإمبراطورية شيء مختلف عن المدينة، وعن الدولة. إنها طريقة متفردة للتحكم في أعداد هائلة من البشر، وعبر مساحات شاسعة. الخاصية المميزة للإمبراطورية هي أنها تضم في داخلها شعوبًا مختلفة وأقوامًا متعددة. ليست هناك طريقة واحدة، أو كتالوج واحد للإمبراطورية. ثمَّة أفكار وطرق مختلفة كما سنرى.

تحتاج الإمبراطوريات، ككل الأشياء المركبة في قصتنا، إلى قدر هائل من الطاقة لتبقى حيَّة. هدف الإمبراطورية، مثلها مثل الفيروس والخلية، هو البقاء. التحدي أمام أي إمبراطورية عبر التاريخ تمثل في تأمين كميات الطاقة اللازمة لاستمرارها. ولكن كيف تحصل الإمبراطورية على الطاقة؟ بالتوسع.. عبر ضم المزيد من الأرض والبشر. هذا هو السبب في أن الإمبراطوريات تتضخم باستمرار وبلا توقف، وأنها في العادة لا تعرف فكرة الحدود كما تعرفها الدول المعاصرة. هذا أيضًا ما يفسر صراع الإمبراطوريات عندما تصطدم واحدة منها بالأخرى في مسيرة توسعها. بل إن هذا التوسع نفسه هو ما يفضي بالإمبراطوريات، بعد وقتٍ طال أم قصر، إلى السقوط والانهيار.. تذكري أن هناك حدودًا لتكبير الأشياء كما أخبرنا «جاليليو».

في هذه المرحلة من قصتنا (500 ق.م-500م)، سوف يجرب البشر «نظم تشغيل» متنوعة وأدوات اجتماعية مختلفة من أجل إدارة هذه المجتمعات الكبيرة المسماة بالإمبراطوريات. بعض هذه «الأدوات الاجتماعية» الجديدة سيكون غير مألوف ونادرًا. بعضها سيُصيب نجاحًا باهرًا. كلما كان النجاح أكبر، توسعت الإمبراطوريات أكثر وأكثر.

الأصل اللغوي لكلمة إمبراطورية يعود إلى فعل لاتيني (Imparare) بمعنى «الأمر». الإمبراطور هو الحاكم بأمره. هو السُّلطة التي لا تعلو فوقها سلطة. جوهر الإمبراطورية هو وجود سلطة آمرة في المركز الإمبراطوري، تسندها قوة عسكرية فعالة. هذه السُّلطة الآمرة تسيطر على الأطراف البعيدة من خلال أذرع لها تأتمر بأمرها وتنفذ خططها. سوف تلاحظين، عبر قصتنا، أن الإمبراطوريات كافة واجهت مشكلتين كبيرتين:

1) كيف تحافظ على التواصل بين المركز والهامش؟

(2 كيف تسيطر على الهامش من دون أن تخلق مراكز مستقلة للسلطة فيه؟

تنهض الإمبراطوريات كافة على أساسٍ واحدٍ لا يتغير: القوة العسكرية التي تفرض النظام على مساحة شاسعة. الآشوريون مثلًا اعتمدوا - ولأول مرة - على فكرة الجيش الدائم الذي يحصل جنوده على مرتبات. هذا الجيش

استطاع إخضاع مجتمعات كثيرة في بلاد الرافدين والشام ومصر. غير أن الاحتفاظ بالإمبراطورية يحتاج إلى ما هو أكثر من القوة العسكرية مهما كانت قاهرة، وإلى ما هو أبعد من العنف مهما كان غاشمًا. الإمبراطورية نظام مركب، ويحتاج إلى تكنولوجيا من نوع مختلف..

العلاقات الجديدة بين الأشياء نطلق عليها التكنولوجيا، مثل أن تستخدم النحاس والقصدير معًا، بنسبة معينة، لإنتاج شيءٍ جديدٍ له خواص مفيدة في الاستخدام هو البرونز.

العلاقات الجديدة بين البشر تمثل نوعًا آخر من التكنولوجيا. هذه هي «التكنولوجيا الاجتماعية»، مثل أن ننظم الناس بطريقة مختلفة في ظل إمبراطورية كبرى، أو أن نخترع «أداة اجتماعية» جديدة لإدارة مجتمع كبير ومترامي الأطراف.

كلا النوعين من التكنولوجيا؛ المادية والاجتماعية، لا غنى عنهما للإمبراطورية..

العنف والتسامح وجهان لعملة واحدة!

كان الملك «كرويسوس» مضرب المثل في الثراء الفاحش. هو آخر حكام ليديا التي سكَّت أول عملة ذهبية كما رأينا، وكانت له قصة عجيبة..

كان يشعر بضغط التوسع المستمر للفُرس. ممكلته في آسيا الصغرى بقيت حصنًا أخيرًا أمام الاجتياح الفارسي المتواصل. قرر أن يبادر بالهجوم. غير أنه كان في حاجة إلى استشارة عرافة «دلفي» الشهيرة التي كان اليونانيون موقنين بقدرتها على قراءة الطالع. العرَّاف هو شخص لديه موهبة في قراءة نفسيات البشر ومداعبة أمانيهم الخفية. لو أنكِ تعملين عرَّافة، وأردتِ الاستمرار في هذا العمل لفترة طويلة، فعليكِ أن تُعطي دومًا إجاباتٍ غامضة. لو سألكِ أحدهم، مثلًا، إن كان عليه أن يتزوج الفتاة التي يحبها، فستردين بإجابة يمكن أن تعني أشياء كثيرة مثل: «أحيانًا تتفتح زهور الربيع قبل موعدها». هكذا فعلت صاحبتنا عرَّافة «دلفي» مع «كرويسوس». أعطته إجابة غامضة: «لو ذهبت للحرب فسوف ينتهي الأمر بتحطم إمبراطورية». اعتبر «كرويسوس» أنها تقصد الإمبراطورية الفارسية، فشنَّ حربه التي انتهت بهزيمته على يد ملك الفرس البازغ «قورش» (600-530 ق.م).

تروي القصة أن «قورش» أراد أن يحرق «كرويسوس» حيًّا. عندها سمعه يصرخ بكلمة واحدة ظل يرددها: «صولون»! فلما سأله: «مَن هذا؟» قال: «إنه حكيم يوناني أخبرني بألا أغتر بثروتي لأن الأقدار تتبدل». ثم أضاف: «أحمق مَن يسعى إلى الحرب أكثر من السلام. ففي زمن السلم يدفن الأبناء آباءهم، وفي وقت الحرب يدفن الآباء أبناءهم».

تقول الأسطورة إن الأمطار هطلت فجأة، فأخمدت النار التي كان يُفترض أن تحرق ملك ليديا حيًّا، فاقتنع «قورش» بأن له صلة بالآلهة. ربما ما حدث في الواقع أن «قورش» أُعجب بحكمة «كرويسوس» عن الحرب والأقدار، فألغى حكم الموت وأبقى عليه. بل إنه استفاد منه كمستشار في حروبه اللاحقة!

«قورش»، الذي يلقب بالعظيم، كان يفكر بطريقة مختلفة: العنف مطلوب بالطبع لإخضاع الشعوب، ولكن الأهم هو الاحتفاظ بولاء الناس، والاستفادة منهم كلما كان ذلك ممكنًا. الفُرس كانوا أول مَن أدرك الحاجة إلى «نظام تشغيل» مختلف للتحكم في كيانٍ يضم شعوبًا متعددة ومتنوعة. عُرف «قورش» بالتسامح الديني. قام مثلًا بإطلاق سراح اليهود الذين كانوا قد تعرضوا للأسر والسبي على يد البابليين، فاعتبروه مخلِّصًا لهم كما سأروي لكِ في رسالتي الأخيرة. هو أدرك أن بناء إمبراطورية كبيرة، يعني القبول بقدرٍ من التنوع داخلها.

أسس «قورش» الإمبراطورية الفارسية الأولى (الأخيمينة) بعد إزاحة الآشوريين (حول العام 550 ق.م). سوف يتم استنساخ هذه الإمبراطورية في نفس البقعة الجغرافية تقريبًا، بأكثر من طريقة، وتحت سلالات حكم مختلفة، لمدة ألف عام قادمة.

الهدف من الإمبراطورية هو جلب الموارد، أو بالأحرى شفط الطاقة من الأطراف إلى المركز عبر الجباية. يحدث هذا أساسًا عبر العنف، أو التهديد بالعنف. تذكرين أن العنف ركن أساسي في نظام أي دولة. العنف أيضًا ركيزة الإمبراطورية: الإتاوة مقابل الحماية، تلك هي المعادلة. الإتاوة هي نصيب من الإنتاج يدفعه الشعب المحتل مقابل الحماية من الغزو العسكري والتنكيل. ولكن العنف المفرط يؤدي إلى نضوب مصادر الإنتاج والثروة التي يمكن جمعها من الممتلكات الإمبراطورية. العنف أيضًا ينشر بذورًا للتمرد والثورة. أما النهب المتواصل، فيقضي على مصادر الإنتاج نفسها: الأرض والسكان. مَن يمارسه يصبح كمَن ذبح بقرته الوحيدة التي يعيش على ألبانها، من أجل الحصول على اللحم لعدة أيام.

أدرك الفُرس أن إقامة الإمبراطورية مشروع معقد. هم صنعوا «كتالوجًا للإمبراطورية» سوف يسير على نهجه الكثير من الإمبراطوريات التي ظهرت فيما بعد. عمد خلفاء «قورش»، مثل «داريوس»، على تعيين حكام محليين أو ولاة ينوبون عن الملك (الذي صار يُدعى ملك الملوك أو الشاهنشاه) في أقاليم الإمبراطورية كافة. الحاكم المحلي يدعى «ساتراب» أو «مرزبان»، وقسمت الإمبراطورية إلى 20 «مرزبانية». إلى جانب كل مرزبان، كان يُعين قائد عسكري يكون متصلًا بصورة مباشرة بالإمبراطور. في البلاط الملكي كان هناك مكتب يسهر على مراقبة كل المرازبة والموظفين. ليس صعبًا

عليكِ أن تتصوري الحكمة وراء ذلك: الشاهنشاه في المركز يخشى من أن يتحول «المرزبان» إلى ملك مستقل في إقليمه. إنها معضلة سوف تواجه كل إمبراطورية تقريبًا. الحلول التي توصل لها قادة الإمبراطوريات، انطوت على قدر كبير من التشابه. كثيرًا ما كانت الإمبراطوريات تعتمد على الحكام المحليين من أهلِ البلد المحتل وتعهد إليهم بالمهام الصعبة، مثل جمع الضرائب. هذا، مثلًا، ما فعلته الإمبراطورية البريطانية خلال احتلالها للهند منذ القرن الثامن عشر.

على أن التحدي الأخطر أمام الشاهنشاه، شأنه شأن حكام الإمبراطوريات اللاحقة التي عرفها التاريخ، تمثل في نقل المعلومات بين المركز والهامش..

تذكرين أن الطاقة والمعلومات مرتبطان. الحصول على الطاقة من البيئة يحتاج إلى معلومات. هذا ما تفعله الكيانات كافة التي تعتمد على الطاقة، بداية من الخلية الواحدة، مرورًا بالإنسان والمدينة والدولة، وانتهاءً بالإمبراطورية مترامية الأطراف. الإمبراطوريات تحتاج إلى طاقة هائلة لتسييرها. تحتاج إلى جنود مدربين، وأسلحة، ومحاصيل غذائية يعيش عليها الجيش، وجدران للتحصين، وجيوش من الموظفين للإدارة. كل هذه الأشياء يمكن اختزالها إلى طاقة؛ لأنها تتحقق بفائض الإنتاج الزراعي، وليس بأي وسيلة أخرى. ولا يمكن استخراج الطاقة من دون معلومات عن ثروات الأرض، وأعداد الناس، بل وعن مدى ولاء الناس للإمبراطورية. يحتاج المركز الإمبراطوري إلى معلومات عمَّا يحدث في الهوامش، لكي يستطيع استخراج الثروات (الطاقة) منه، وشفطها إلى المركز.

لا تفكري في العالم كما نراه الآن. تصوري الدنيا من دون موبايل أو إنترنت، أو حتى تليفون أو تلغراف. كيف تصل المعلومة بين المركز والهامش؟ بل كيف يعرف الإمبراطور بما يدور على بُعد كيلو مترات قليلة من مركز حكمه؟ أنَّى له أن يعرف – مثلًا - أن إحدى مقاطعاته تتعرض لتهديد خارجي، أو أن ثورة تختمر في إقليم من أقاليم الإمبراطورية؟ وإذا عرف بشيءٍ من هذا، فماذا هو فاعل على بُعد آلاف الكيلو مترات؟

إن الجاسوسية هي واحدة من أقدم المهن التي عرفتها البشرية. هي مرتبطة بنظام الدولة، وبالذات بالحكم الإمبراطوري. المعلومات هي السلعة الأهم لدى حكام الإمبراطوريات الكبرى. الجواسيس تكون مهمتهم دائمًا الحصول على معلومات ذات طبيعة خاصة وخطيرة، عمَّا يجري وراء الجدران. بل ما يدور في العقول ويعتمل في الصدور!

يقول القائد العسكري والكاتب الإغريقي «زينوفون» إن «قورش» نجح في تجنيد الكثير من «العيون والآذان».. «ومن خلال إغداق الهدايا السخية على

الرعايا الذين يوافونه بمعلوماتٍ مهمة، نجح الملك في إغراء الكثيرين بأن يفتحوا عيونهم ويتنصتوا بآذانهم على كل ما يدور حولهم، وكل خبر يمكن أن يكون نافعًا بالنسبة للملك. من هنا لا عجب أن يخاف الإنسان في أرجاء الإمبراطورية كافة من التطرق إلى موضوع لا يروق للملك، وكأن الملك سيسمع بنفسه ما يُقال عنه»!

إن أسرع ناقل، للبشر والمعلومات، على ظهر الأرض كان الحصان. ظل هذا هو الحال حتى عام 1815م. الحصان، في واقع الأمر، هو الذي حدَّد المدى الذي يمكن أن تذهب إليه الإمبراطورية من حيث الاتساع. لو تجاوزت المسافة بين الهامش والمركز 12 يومًا على ظهر الحصان، من الصعب فرض التحكم الإمبراطوري. إذا حدث تمرد في أطراف الإمبراطورية لن يكون بالإمكان إخماده في زمنٍ مناسب. المعلومة ستتأخر أكثر من اللازم، والاستجابة لن تأتي بالسرعة الواجبة. من هنا يكمُن تفسير توقف الإمبراطوريات عن التوسع عند حد معين. إنه الحد الذي تنهار عنده سيطرة المركز على الهامش، بسبب بطء وسائل الاتصال ونقل المعلومات التي لم تتغير تقريبًا حتى القرن التاسع عشر.

لذلك ستجدين مثلًا أن الإمبراطورية المغولية في ذورتها، سيطرت على 23 مليون كيلو متر مربع في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. كانت تلك هي أكبر رقعة متواصلة من الأرض سيطرت عليها إمبراطورية في التاريخ. لكن سرعان ما تفككت دولة المغول بعد مائة عام لا أكثر. السبب الرئيسي هو ضعف سيطرة المركز على الهامش في ضوء الاتساع الهائل للإمبراطورية. عندما يزيد حجم الإمبراطورية على حد معين، يصبح حتميًّا ظهور مراكز للسلطة المستقلة في الأقاليم المختلفة، ويجري تقسيم الإمبراطورية عادة إلى ممالك وإمارات. هذا النوع من التآكل لم تنجُ منه إمبراطورية تقريبًا.

في مواجهة هذا التحدي، اكتشفت كثير من الإمبراطوريات أهمية تأمين الطرق. «التدخل السريع» في الإمبراطورية يحتاج إلى عربات تجرها الجياد. العربات تستلزم بدورها وجود الطرق. لا تتصوري أن بناء الطرق أمر سهل. ما إن يحل الشتاء حتى تتضعضع الطرق وتتحول إلى أوحال تستحيل أن تتحرك عليها العربات. الرومان كانوا أفضل مَن أقام الطرق. بلغ بهم إتقان الصنعة حد أن بعض الطرق التي أقاموها، مثل «طريق فيلامينيا»، لا يزال يُستخدم إلى اليوم! الإمبراطور الصيني تشين شي هوانج، أول مَن حكم الصين الموحدة، أدرك ضرورة توحيد المسافة بين عجلتي العربات (محور العجلة) في أرجاء الإمبراطورية كافة، لكي تستطيع السير بسهولة في مسار الوحل الذي تشقه العجلات عندما تغمر أمطار الشتاء الطرق. الإمبراطوريات تسعى باستمرار لوضع قواعد موحدة ومعايير لكل شيء: الأوزان والعملات

والمقاييس. الهدف دائمًا كان تسهيل التعامل بين أعداد أكثر من البشر، حتى لو كانوا من شعوب مختلفة.

الإمبراطورية الفارسية الأولى أقامت الطرق أيضًا. وصل توسع الإمبراطورية إلى 5.5 مليون كيلو متر مربع، تمتد من اليونان إلى الهند، يربطها نحو 13 ألف كيلو متر من الطرق. كان ذلك أكبر حجم لإمبراطورية عرفه البشر حتى هذا التاريخ (أكثر من خمسة أمثال مساحة مصر الآن). اعتمد الفُرس أيضًا «تكنولوجيا اجتماعية» ذكية. لم يفرضوا دينًا معينًا على أرجاء الإمبراطورية كافة. بل لم يضعوا شريعة قانونية واحدة. تركوا مساحة واسعة من حرية الحركة لحكام الأقاليم، والزعماء المحليين للتصرف في إدارة شعوبهم. الإمبراطوريات كما تواجه مقاومة من السكان المحليين، غالبًا ما تجد من بينهم متعاونين أو عملاء..

عندما قام الفُرس باحتلال مصر على يد قمبيز الثاني (ابن قورش) في عام 525 ق.م، استعانوا برجلٍ مثيرٍ للجدل، يُدعى «أودجا هورسنت»، كان كاهنًا أعلى، ومسئولًا عن البحرية. عمل «هورسنت» بشكل لصيق مع الفُرس، وأقنع «قمبيز»، ومن بعده «داريوس»، بضرورة احترام عقائد المصريين. يمكنكِ اليوم أن تشاهدي في متحف الفاتيكان تمثالًا صنعه الفُرس لهذا المتعاون عرفانًا بفضله. بعد 2500 عام تقريبًا، صنع المارشال الفرنسي «بيتان» الشيء نفسه، وتعاون مع الاحتلال النازي لبلاده في عام 1940م وقَبِل أن يرأس حكومة «فيشي» العميلة. الحقيقة أن الإمبراطورية لا يمكن أن تستمر من دون متعاونين من أهل البلدان المحتلة. ربما يدافع الكاهن المصري العميل عن نفسه بأنه لم يفعل سوى الإقرار بالأمر الواقع الجديد، وأنه كان يرغب في صون الآلهة المصرية وحماية المعبد الأكبر في «سايس» (صا الحجر اليوم بمحافظة الغربية)، وستجدين دائمًا، عبر التاريخ، مواقف متباينة من التعامل مع الإمبراطوريات والاحتلال الأجنبي.

استمرار الإمبراطوريات ونجاحها عبر التاريخ يشير إلى حقيقة مهمة هي قبول الشعوب الخضوع للمحتل لفترات طويلة. السر في ذلك هو أن الشعوب كافة كانت خاضعة لتراتبية هرمية كما تعرفين. كل ما يفعله المحتل هو إزاحة بعض الرءوس من قمة الهرم و«إعادة تشغيل النظام» بالطريقة نفسها التي كانت سائدة تقريبًا. الفرق هو أن أموال الجباية يتم شفطها إلى المركز الإمبراطوري. هذا ما يفسر أيضًا نجاح الإمبراطوريات، بأعداد قليلة من الجنود والموظفين، في إخضاع أعداد أكبر كثيرًا من البشر وفرض الاحتلال عليهم. هكذا تمكنت بريطانيا، مثلًا، من إخضاع 300 مليون هندي في القرن التاسع عشر، بينما احتفظت هناك بقوة من الجنود والموظفين لا تتجاوز 20 ألفًا!

شعور الشعوب بأن لديها حقًّا في «تقرير مصيرها» هو فكرة حديثة جدًّا. مع ذلك، فإن كراهية الشعوب للأجنبي المختلف عنها، وإمعان هذا الأجنبي في فرض الجباية، كانت أسبابًا متكررة لثورات الهامش ضد المركز. مثلًا: الاحتلال الفارسي لمصر، الذي دام 120 عامًا تقريبًا، لم يتمتع بأي شعبية، وتفجرت الثورات ضده أكثر من مرة، بل إن مصر استقلت لمدة ستين عامًا قبل أن يعيد الفُرس احتلالها من جديد لفترة قصيرة.

سوف تصادفين في قصص الإمبراطوريات مشكلة متكررة. فأمام كل إمبراطورية خياران كبيران:

الأول هو أن تدمر المؤسسات القائمة في المجتمعات التي تحتلها، وهنا لا بد أن يكون لديها مؤسسات بديلة للحكم والإدارة، بل وأن تأتي بتنظيمات مختلفة في الآلهة والحكم (شفرة اجتماعية بديلة). وكما يمكن لكِ أن تتوقعي، فإن تدمير المؤسسات القائمة ينطوي على مخاطرة كبيرة بحدوث الفوضى والاضطراب، ومن ثم تقليص مصادر الدخل والثروة في المجتمع، أي القضاء على الهدف الأصلي للإمبراطورية.

الخيار الثاني هو أن تترك المؤسسات القائمة على حالها وتكتفي بالحصول على أموال الجباية، وهنا يمكن أن تواجه الإمبراطورية الغازية خطر الذوبان بعد فترة قصيرة. وتجدين دائمًا أن النظم الحضارية الكبرى قادرة على هضم واستيعاب الغزاة، وإذابتهم في مدى زمني قصير. ليس صدفة أن زمن احتلال الهكسوس لمصر (في القرن السادس عشر قبل الميلاد)، وزمن احتلال المغول للصين (في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادي).. لم يتجاوز في الحالتين أكثر من مائة عام تقريبًا. مرد ذلك هو قوة النظامين الحضاريين - المصري والصيني - واستمراريتهما الطويلة، إلى حد أن الغزاة لم يجدوا أمامهم سوى التماهي معه، والاعتماد على الأدوات نفسها والمؤسسات القائمة للإدارة. النتيجة الحتمية بعد عدة أجيال هي الذوبان في هذا النظام، كحفنة ملح سقطت في وعاء ماء.

لقد ابتدعت الإمبراطوريات أدوات مختلفة من أجل السيطرة على أعداد كبيرة من السكان. اعتمدت الصين، في عهد الهان (210 ق.م إلى 221 م) على الموظفين، وعلى الفكر الموحد الجامع (الكونفوشية كما سنرى). استندت روما، وهي النموذج الأهم للإمبراطورية، إلى القوة العسكرية الرشيقة، والإدارة السياسية لصهر الأقاليم في نظام واحد، وجعل أهلها - بعد مرحلة معينة - مواطنين رومانيين. ثم عرف التاريخ بعدها إمبراطوريات استندت إلى الأديان: الساسانية اعتمدت على الزرادشتية، والبيزنطية والرومانية المقدسة فيما بعد على المسيحية، ثم ارتكزت الإمبراطورية الإسلامية، بنسخ مختلفة في أكثر من مكان وعبر فترة زمنية طويلة؛ على

الإسلام. وتصادمت الإمبراطوريات الدينية تصادمًا شديدًا في العصور الوسطى فيما عُرف بالحروب الصليبية.

ثمَّة منطقتان من العالم لم تعرفا الإمبراطوريات الكبرى سوى في مرحلة متأخرة: الأمريكتان وقارة إفريقيا. تحتاج الإمبراطورية إلى قدرٍ من تكثيف الثروة الناتجة عن الزراعة لاستخراج فائض يكفي لتشغيل كيان سياسي كبير بحجم إمبراطورية. أغلب أراضي القارة الإفريقية غير صالحة للزراعة كما ذكرنا، وأغلب أنهارها - باستثناء النيل - غير صالحة للملاحة، ومن ثم لا تفيد في تحقيق الاتصال. أما القارة الأمريكية فقد افتقرت لمكونٍ جوهري من توليفة الحضارة: الحصان وحيوانات الحمل الأخرى (باستثناء اللاما). وقد رأيتِ مدى خطورة الدور الذي يقوم به الحصان في «لضم» أوصال الإمبراطورية.

لماذا الإمبراطورية محورية في قصتنا؟

أنتِ الآن تدركين أن الخط الرئيسي في التاريخ يتحرك باستمرار من الأشياء البسيطة إلى المركبة، عبر امتصاص المزيد من الطاقة من البيئة. الإمبراطورية تسير في هذا الاتجاه نفسه. هي نظام أكثر تركيبًا بكثير من المدينة أو الدولة. يمكنكِ اعتبارها - كغيرها من الكائنات المركبة في قصتنا - «ماكينة هائلة تسعى للبقاء». إستراتيجية البقاء لدى الإمبراطورية هي التوسع لالتهام المزيد من الطاقة. الإمبراطورية هي أيضًا تنظيم يهدف إلى زيادة قدر اليقين في حياة البشر. المشروع الإمبراطوري، في جوهره، هو مسعى لتقليل مساحة الفوضى عبر توحيد «طريقة الحياة» لدى ملايين البشر. وبرغم أن الإمبراطوريات تحقق أهدافها عبر العنف؛ لأنه الوسيلة الوحيدة التي تجعل مجتمعًا يقبل بسيطرة آخر عليه، إلا أن الفُرس ربما كانوا أول مَن أدرك أن الهدف النهائي من الإمبراطوريات هو فرض السلام، وليس النهب.

عندما يسود السلام، يتحرك التجار بأمان لمسافات طويلة. تزدهر التجارة، وتمتلئ خزائن الإمبراطورية بعوائد الضرائب. اليقين والأمان يترجمان على الفور ازدهارًا وانتعاشًا في الاقتصاد ومناحي الحياة كافة. هذه قاعدة لم تتغير إلى اليوم. عندما تشتعل النزاعات والتوتر حول طرق تجارية مهمة، فإن دول العالم - وبخاصة القوى الكبرى - يساورها القلق الشديد. السبب وراء احتفاظ الولايات المتحدة بإحدى عشرة حاملة طائرات، وبالأسطول السادس في البحر المتوسط (قاعدته في نابولي)، والأسطول الخامس في الخليج العربي (قاعدته في البحرين)، يكمُن في إدراكها لضرورة تأمين طرق التجارة البحرية.

الإمبراطوريات، بواقع الحجم الكبير والاستقرار، تُولد كمًّا أكبر بكثير من المعلومات مقارنة بالمجتمعات الصغيرة. المعلومات تتدفق على المراكز

الإمبراطورية من الأطراف، مثلها مثل الثروات. هكذا تتوفر الفرصة لكاسري الشفرات للإبداع والمقارنة واستخلاص الأنماط الكبرى. لهذا كله فإن «التاريخ المهم»، منذ ذاك الزمن وحتى فترة طويلة، سوف تتوالى فصوله في إمبراطوريات كبرى.

ومن أجل البقاء لأطول فترة والتوسع لأبعد مدى، فإن الإمبراطوريات لم تكن فقط في حاجة إلى «تكنولوجيا مادية»، وإنما أيضًا إلى «تكنولوجيا اجتماعية» و«نظم تشغيل» تمكنها من التفوق على منافسيها وسحقهم. هذه التكنولوجيات والنظم، التي ظهرت في الفترة من 500 ق.م وحتى 500م، سوف تبقى هي الأساس في حركة التاريخ وتفاعلاته حتى وقت قريب جدًّا. وسوف ترصدين فيها ملامح من نظم وممارسات ما زالت حيَّة إلى اليوم. ستلاحظين أيضًا أن أساليب الحياة المادية (التكنولوجيا) لن يلحقها تغير حاسم في ظل الإمبراطورية، بينما أساليب تنظيم البشر (التكنولوجيا الاجتماعية) ستمر بتجارب عجيبة..

شفرة مكونة من زلطتين

«ابتهجوا لقد انتصرنا»!

كانت تلك آخر كلمات تلفظها «فيدبيداس»، قبل أن يسقط ميتًا في الحال..

تحمَّل الرجل ما لا يُطاق. كان يعمل عدَّاءً محترفًا لنقل الرسائل. تلك كانت الوسيلة الأسرع لنقل المعلومات في بلاد اليونان. في 490 ق.م، كانت أثينا على وشك الهزيمة على يد الجيش الفارسي الرهيب الذي نزلت قواته في ماراثون بقيادة «داريوس». أرسل الأثينيون «فيدبيداس» حاملًا رسالة يطلب العون من إسبرطة. قطع العدَّاء مسافة 240 كيلو مترًا في يومين، وعاد حاملًا رد إسبرطة التي تحججت بأنه يوم مقدس لا يمكن القتال فيه!

المفاجأة كانت انتصار أثينا في ماراثون. اضطر «فيدبيداس» أن يقطع 40 كيلو مترًا أخرى عائدًا إلى أهل أثينا الذين ترقبوا نتيجة المعركة على أحر من الجمر. زفَّ إليهم البُشرى، وقضى من فوره. من هنا جاء اسم سباق «الماراثون» الشهير الذي نعرفه اليوم.

برغم القوة الهائلة التي تمتعت بها الإمبراطورية الفارسية، فقد هُزمت. لم تُهزم مرة واحدة، بل مرتين يفصل بينهما عشر سنوات تقريبًا. العجيب أنها لم تُهزم على يد إمبراطورية أخرى، مكافئة لها في الحجم والقوة، بل على يد ائتلاف من المدن على ساحل المتوسط تجمعها ثقافة مشتركة هي اليونانية أو الهيلينية..

حملة «داريوس» في عام 490 ق.م كانت تهدف إلى إخماد ثورة المدن اليونانية في آسيا الصغرى (تركيا اليوم). كانت هزيمته غير متوقعة. بعد وفاته، عزم ابنه «زركسيس» على الانتقام من اليونان. يقول المؤرخ اليوناني «هيرودوت» إن الفُرس، تحت قيادة «زركسيس» حشدوا في عام 480 ق.م ما يقرب من مليون محارب! لا شك أنها مبالغة قصد منها التهويل، وأن الرقم الحقيقي يدور غالبًا حول 100 ألف. يظل هذا حجمًا رهيبًا لجيش حتى بمقاييس عصرنا الراهن.. ولكن اليونانيين انتصروا مرة أخرى..

كيف فعلها اليونانيون وهم مجموعة من المدن الصغيرة؟ كيف انتصروا على أقوى إمبراطورية على ظهر الأرض في ذاك الزمن؟

البعض يُرجع هذا النصر إلى الطريقة التي نظَّم بها اليونانيون أنفسهم. ليس فقط في القتال في ساحة المعركة، ولكن أيضًا في العيش المشترك في المجتمع..

ما ميز اليونان هو «الشفرة الاجتماعية» الجديدة والفريدة التي تبنتها. في أنحاء العالم القديم كافة كان الحكم يتجسَّد في شخصٍ واحد. في أغلب الأحوال كان هذا الشخص يُبرِّر حكمه بالاستناد إلى الدين. الفرعون في مصر هو ابن إله، أو هو ذاته إله متجسد. والملك في الصين لديه تفويض من السماء، وهكذا. في اليونان، وبالذات في أثينا، جرت تجربة غير مسبوقة في التنظيم الاجتماعي. لم تتكرر في التاريخ سوى بعد وقتٍ طويلٍ لاحق. كانت أول محاولة نعرف بها لكسر التراتبية الهرمية، التي صوبتِ نحوها سهام النقد في رسائلك.

لم تكن بلاد اليونان إمبراطورية موحدة. جغرافيتها الجبلية جعلت من الصعب السيطرة عليها بسهولة من قِبَل حاكم واحد. في أحضان الجبال، ازدهرت مئات المدن التي كانت في واقع الأمر دولًا مستقلة تحكم نفسها بنفسها. أغلب الظن أن القصة بدأت من المقاتل اليوناني..

كان على هذا المقاتل أن يتدبر درعًا وحربة. لم تكن الجيوش توفر الأسلحة. كان هذا هو الحال في اليونان وفي روما أيضًا فيما بعد. المقاتل كان شخصًا لديه قدرٌ من الملكية (غالبًا مزرعة صغيرة يزرع فيها القمح أو الزيتون أو الكروم). لم يكن المقاتل جنديًّا مُستأجَرًا أو مرتزِقًا، أو حتى جنديًّا يعتاش من الجندية (مثل المقاتل الآشوري أو الفارسي). كان مواطنًا حرًّا في المدينة يدافع عنها. إنه مفهوم جديد تمامًا. هو أقرب ما يكون لشعور الانتماء القومي الذي نشعر به في الدولة الوطنية الحديثة اليوم.

من المثير أن تعرفي الطريقة التي كان يُقاتل بها اليونانيون. كانوا ينضوون في كتائب من الصفوف المتراصة تُسمى «تشكيل السلامي». هذه الكتائب

هزمت كل الجيوش التي واجهتها تقريبًا. الإسكندر استطاع، بفضل القوة القاهرة للكتائب اليونانية، السيطرة على معظم الشرق في 13 عامًا لا غير. فما سر هذه الكتائب؟

السر في تشكيل السلامي نفسه. هو يتحرك، بانضباط شديد وتناغم، كوحدة واحدة.. وكأنه فرد واحد. هذا ما أسهم في تعويض الفجوة العددية الكبيرة مع جيش الفُرس. المقاتل في هذا التشكيل يحمي بدرعه مَن هو عن يساره، ويحميه مَن هو عن يمينه. القتال بهذه الطريقة يجعل حياة المقاتلين مربوطة ببعضهم بعضًا.. حرفيًّا.

تخيلي الآن أنكِ مقاتلة تقفين في وسط صف من صفوف هذا التشكيل، ثم ترامت إلى مسامعكِ إشارة بدء المعركة. هذه لحظة مروعة. ستسمعين صراخًا وحشيًّا ينطلق من حناجر عشرات الآلاف من جنود الأعداء، ربما بلُغةٍ غريبةٍ عليك. سيستولي عليكِ الخوف، وأول ما ستفكرين فيه هو أن تفري وتهربي بجلدك. ولكن مهلًا! أنتِ في وسط التشكيل. يحوطكِ رفاقكِ من المقاتلين من كل اتجاه. ليس أمامكِ حين تبدأ المعركة سوى أن تُقاتلي دفاعًا عن نفسك، وأيضًا - وهذا هو الأهم - عمَّن هو إلى جوارك. نصف الدرع لكِ، ونصف لرفيقكِ عن يسارك. حياتكِ وحياة رفاقكِ صارت في رباطٍ واحد. لا مجال أمامكِ لأن تهربي أو أن تولي الأدبار؛ إذ إن تشكيل الكتيبة نفسه مصمم ليحول دون فرار الجند. القتال بهذه الطريقة، وكما ثبت لليونانيين بالتجربة، يُخلِّف أعدادًا أقل من القتلى في صفوف الجيش.

بين هؤلاء المواطنين المقاتلين، خُلقت رابطة جماعية. لا شيء يعدل الرابطة التي تُخلق بين المحاربين كما عرفنا من قبل. هؤلاء المواطنون المحاربون صاروا يشعرون بالمساواة الكاملة بينهم. هم يدافعون عن بعضهم بعضًا، وينافحون في ذات الوقت عن مدينتهم. والمدينة، كما قال أحد جنرالات اليونان يومًا، ليست سوى الناس.

من هذه الرابطة والانتماء إلى المدينة والدفاع عنها ولدت بالتدريج فكرة الديمقراطية، أي أن تكون السُّلطة في يد الشعب بأسره، وليس في يد مجموعة قليلة أو شخص واحد..

كان المجتمع الأثيني، مثل المجتمعات القديمة كلها، يُعاني توتراتٍ بين القلة المالكة للأرض والثروة (وتُدعى الأرستقراطية)، والأغلبية التي لا تملك شيئًا سوى قدرتها على الكدح والعمل في الأرض. لو أنكِ تعيشين على الكفاف من كدِّ يدك، وفسد محصولكِ لعامٍ أو اثنين، ماذا تفعلين؟ سوف تلجئين إلى الأغنياء ليُقرضوكِ. ولكن لماذا يفعلون ذلك؟ لا بد أن يحصلوا على ضمان. هذا ما يحدث اليوم عندما تذهبين للاقتراض من البنك. لا بد أن يضمن البنك أنكِ

قادرة على رد المال. وإذا كنتِ تعيشين على الكفاف، كما مزارعي أثينا القديمة، فإن الضمان الوحيد الذي تستطيعين تقديمه إلى الغني لكي يُقرضك، هو مزرعتكِ نفسها، ثم بيتك، ثم أسرتك.. ثم نفسك! هكذا اضطر الآباء لبيع أبنائهم وزوجاتهم، بل وصاروا هم أنفسهم عبيدًا. أصبح الوضع الاجتماعي غير قابل للاستمرار. كان لا بد من حل يمنع انفجار هذا المجتمع. مَن قدَّم الحل لم يكُن أحد سوى «صولون»، الحكيم والسياسي الذي التقينا به منذ قليل في قصة «كرويسوس» مع «قورش»..

في عام 594 ق.م صار «صولون» المسئول التنفيذي الأعلى في أثينا، وكان يُدعى بـ«أركون». واجه معضلة الأزمة الاجتماعية المتفجرة. الفقراء لهم مطلبان، تكررا عبر التاريخ في مجتمعات مختلفة: إلغاء الديون، وإعادة توزيع الأراضي، التي تمثل المصدر الأساسي للثروة في المجتمعات القديمة. الأغنياء بدورهم كانت لديهم حجة قوية. ليس ذنبهم أنهم أغنياء، وأنهم يريدون ضمانًا للقروض التي يعطونها للفقراء. إنها حجة الأغنياء في كل زمان ومكان! اختار «صولون» حلًّا وسطًا: ألغى عبودية الدَّين، ولكنه لم يسلب الأرستقراطية الحاكمة ملكيتها أو مكانتها. هو أيضًا ابتدع نظامًا يُتيح نوعًا من المشاركة في حكم المدينة من خلال مجلس يضم أبناءها، ولكنه لم يُنهِ هيمنة الأرستقراطية. كان الرجل حكيمًا كما تلاحظين، وأدرك أن المطلوب هو صيغة تعايش بين الأغنياء والفقراء.

أدخل «صولون» إصلاحات أخرى مهمة. تذكرين أن العدالة كانت تتحقق في القبائل والمجتمعات البدائية من خلال الثأر الذي يمثل الردع الأساسي لجرائم القتل. كانت الدِّية (مبلغ من المال يُدفع لأهل المجني عليه) وسيلة أخرى لتحقيق العدالة. بدا ذلك طبيعيًّا في مجتمعات بلا شرطة أو سجون. العدالة على هذا النحو كانت مسألة شخصية بين الجاني وأهل القتيل. غير أن «صولون» رأى أن الجرائم ينبغي أن تكون شأنًا عامًّا لا شخصيًّا. عندما يُقتل شخص في المجتمع فإن ذلك لا يهم أهله فقط، وإنما المجتمع كله. لماذا؟ لأن القتل لا يُعرِّض أهل القتيل وحدهم لضرر، وإنما يُهدِّد نسيج المجتمع وسلامه. الحل الذي اقترحه «صولون» هو أن يكون هناك طرف ثالث، بخلاف الجاني والمجني عليه، يقوم بالتحكيم في أي جريمة (نظام للقضاء). قال «صولون» إن كل فرد في المجتمع لا بد أن يشعر إذا ارتُكبت جريمة أنه ضحية مباشرة لها. هذا ما يخلق شعورًا لدى الناس بالانتماء للمجتمع حقًّا.

كانت تلك كلها خطوات مهمة على طريق تحول أثينا إلى نظام لم يجربه أي مجتمع من قبل..

في عام 510 ق.م أُزيح طاغية اسمه «هيبياس» من حكم أثينا. لأول مرة ثار العامة ضد الأرستقراطية. الثورات تحدث في التاريخ، ولكن مشكلة كل ثورة

هي ما يأتي بعدها. ذلك أن الأصعب من التمرد على النظام القائم هو الاتفاق على قواعد جديدة، أو «نظام تشغيل» مختلف لعمل المجتمع. غالبًا ما تنجح الثورات في إزاحة مَن يعتلون قمة هرم التراتبية، ولكن الثائرين يقفون عاجزين عن تغيير النظام الهرمي نفسه. ما حدث في أثينا هذه المرة كان استثنائيًّا ونادرًا..

اقترح سياسي من الأرستقراطية اسمه «كلايثيسينيس» حلًّا لتحصين البلد من حكم الطغاة للأبد. كان حلًّا غير تقليدي: أن تصبح السُّلطة الفعلية بيد مجلس عام يضم مواطني المدينة جميعهم. واستثنى هذا المجلس العبيد الذين يشكلون ربع السكان، وكذلك الأجانب المقيمين بالمدينة، فضلًا عن النساء. من عُدَّ مواطنًا كان الذكر الحر الذي يزيد عمره على ثلاثين عامًا.

هذا المجلس العام كان ينتخب، بأسلوب القرعة، مجلسًا آخر مكونًا من 500 شخص لإدارة شئون المدينة اليومية. كان مجلس المدينة يجتمع كل تسعة أيام لكي يتخذ قرارات في الشأن العام: إقامة الطرق، وفرض الضرائب، والتحالف مع المدن الأخرى، وخوض الحروب. الأثينيون آمنوا بأن كل شخص له حق في أن تكون له كلمة فيما يخص الشأن العام، أي كل ما يتجاوز اهتمامات الفرد بذاته أو بأسرته المباشرة. كل ما يتعلق بالمجتمع الذي يعيش الفرد في كنفه مثل بناء المرافق العامة، وسياسات الدفاع، والقوانين التي تحكم المجتمع.

القرارات في الشأن العام في أثينا كانت تُتخذ بالأغلبية في اجتماع عام، سواء برفع الأيدي أو بإلقاء زلطة في قِدر. الزلطة البيضاء تعني الموافقة، والسوداء تعني الرفض. هي «شفرة» بسيطة كغالبية الشفرات التي صادفناها في قصتنا، مثلها مثل شفرة بيت (Bit) - واحد أو صفر - المستخدمة في الكمبيوتر. الأثينيون رأوا أن هذه الشفرة البسيطة يمكن أن تكون أساسًا لنظامهم الاجتماعي المركب. إنها نفس الشفرة التي تعمل بها كثير من الدول في زمننا.

في الديمقراطية الأثينية، وبعكس نظام الطبقات الهندي، كل مواطن له صوت واحد. أي إن المواطنين لا يسكنون أدوارًا مختلفة في هرم مدرج، وإنما يقفون سواسية في ساحةٍ عامة. كان المواطنون هم أيضًا القضاة. المجلس كان يقوم باختيار هيئة المحكمة في القضايا المختلفة (من المواطنين). لم يكن هناك محامون، بل كان الناس يدافعون عن أنفسهم بأنفسهم أمام هيئة من 500 عضو (من المواطنين أيضًا) في القضايا العادية، و1001 عضو في القضايا ذات الأهمية الخاصة.

الديمقراطية الأثينية المباشرة تختلف عن الديمقراطية كما نعرفها اليوم. نحن ننتخب ممثلين عنَّا، ليتفرغوا لدراسة الشأن العام واتخاذ القرارات المهمة. نلجأ فحسب للديمقراطية المباشرة في حالة الاستفتاءات على القرارات المهمة (مثل إقرار الدستور). أما في المدينة اليونانية فقد كان من الممكن أن يتخذ سكانها القرارات بشكل مباشر؛ لأنهم كانوا يجتمعون وجهًا لوجه. عدد سكان المدن كان يسمح بذلك. اعتبر «أرسطو» أن العدد المثالي للمواطنين هو خمسة آلاف، فهذا هو أقصى عدد يمكن أن يجتمع في مكان واحد ويُجري مناقشة تنتهي إلى قرار.

البطل في التجربة الأثينية هو المدينة ذاتها. المدينة تأتي قبل الفرد. أهل أثينا رأوا أن سعادة الإنسان وازدهاره وتحققه الذاتي لا يكتمل إلا إذا عاش في مدينة جيدة. القائد الأثيني الأشهر «بركليس»، لخص الأمر قائلًا: «نحن لا ننتصر بالسلاح، فالسلاح متاح لنا ولعدونا. ولا ننتصر بالتدريب العسكري، فهو متاح لنا ولعدونا.. نحن ننتصر بثقتنا في أنفسنا.. بما لدينا من عدلٍ وحرية».

على أن التجربة لم تخلُ من المخاطر والمثالب..

إذا اخترتِ مبدأ الديمقراطية، بمعنى حكم الأغلبية، فأنتِ تعطين السُّلطة لـ 51% من الناس ليفعلوا ما يريدون. لم يكن صعبًا على رجل بذكاء الفيلسوف «أرسطو»، الذي سأحدثكِ عنه في رسالتي القادمة، ملاحظة أن الديمقراطية ستقود حتمًا إلى نزع ملكية الأغنياء؛ لأنها تعكس حكم الأغلبية، والأغلبية دومًا من الفقراء! ثم ما الذي يضمن أن حكم الأغلبية على أي مسألة سيكون صحيحًا؟ أغلب فلاسفة اليونان شككوا في هذا، في ضوء أن الأغلبية غير متعلمين (10% فقط كانوا يعرفون القراءة والكتابة). صدقت شكوكهم عندما أعدمت الديمقراطية «سقراط» أهم فلاسفة اليونان، كما سنرى. السبب في أننا لا نمارس الديمقراطية المباشرة اليوم لا يرجع فقط إلى تضخم حجم مجتمعاتنا. الخوف من استبداد الأغلبية يمثل مشكلة أخرى خطيرة؛ لذلك تجدين أن ممارسة الديمقراطية، وبعد أن عاودت الظهور من جديد في قصتنا في القرن السابع عشر ببريطانيا، وفي القرن الثامن عشر بالولايات المتحدة، كانت مختلفة. الديمقراطية بنسختها الحديثة تضمنت قيودًا على الأغلبية، فلا تكون صاحبة السُّلطة الوحيدة في المجتمع.

الديمقراطية الأثينية عاشت أزهى عصورها في القرن الخامس قبل الميلاد، بعد الانتصار المؤزر على الفُرس الذي منح الأثينيين عصرًا من الثقة. إنه العصر الذي أبدعوا فيه فنونهم، وازدهرت فيه أنشطتهم العقلية. سعت أثينا لتكوين إمبراطورية تجارية خاصة بها. أقامت حلفًا من المدن اليونانية الأخرى، كانت هي فيه صاحبة الكلمة العليا، وفرضت على المدن الأخرى نوعًا من

الجباية. كانت أثينا إمبراطورية صغيرة، ولكن بنمطٍ مختلف. على أن «شفرة الزلطتين» لم يكن مقدرًا لها أن تعيش طويلًا..

في مقدونيا، عثر الملك فيليب (382-336 ق.م) على منجم للذهب واستطاع تكوين جيش كبير أخضع بلاد اليونان لأول مرة. قُتل فيليب في مؤامرة دبرتها زوجته «أوليمبيا» التي خططت لاعتلاء ابنها سُدَّة السُّلطة. وصل هذا الابن، واسمه الإسكندر المقدوني، للحكم في 336 ق.م، وتمكن من أن يقضي على استقلال المدن اليونانية، والإجهاز على الديمقراطية. أخذ الإسكندر الكتائب اليونانية ذات القوة الفتاكة، بعد أن أضاف إليها الخيول، في مغامرة باهرة لغزو المشرق. إنه التحرك العسكري الأول من الغرب إلى الشرق، ولن يكون الأخير.

هزم الإسكندر الفُرس في عام 333 ق.م، وعندما قُتل ملكهم داريوس الثالث على يد حُرَّاسه، تزوج الإسكندر ابنته، وشجع ضباطه على الزواج من الفارسيات، إذ حمل حلم المزج بين الحضارات في إمبراطورية واحدة كبرى. كان القائد الشاب أسير نجاحه المدوي الخاطف. لم يكُن ممكنًا حكم الإمبراطورية الجديدة، التي امتدت من مصر حتى الهند وأفغانستان، بشكل مركزي. عندما مات الإسكندر في بابل عن 32 عامًا، تنازع قواده الإمبراطورية الجديدة، وتفككت بسرعة لأربع دول، أهمها السلوقية في الشام، والبطلمية في مصر.

إن الديمقراطية الأثينية لم تعش أكثر من 180 عامًا، ولكنها ستُلهم البشر بعد ما يزيد على ألفي عام. هذه التجربة الفريدة كشفت عن حقيقة مثيرة: المجتمع قادر على التلاعب بـ«نظام التشغيل». بإمكانه إعادة تصميمه في وقت قصير وفق أفكار غير تقليدية.

الغاية التي سعت إليها الإمبراطوريات كافة واحدة: كيف تسيطر على أكبر عدد من السكان، وأكبر مساحة من الأرض، لأطول فترة ممكنة؟ السبل التي اتبعتها متشابهة، ولكنها ليست متطابقة.. في الهند والصين، ظهر عدد من «كاسري الشفرات» الذين أدركوا العلاقة بين التنظيم الداخلي للمجتمع، وقدرته على حشد آلة عسكرية تمكنه من التوسع الهائل..

الإستراتيجية

عندما طُرد «كاوتيليا» من بلاط «ناندا» حاكم مملكة «ماجدا»، أكبر ممالك الهند في القرن الرابع قبل الميلاد، عزم على الانتقام. خطته كانت الإطاحة بالحاكم نفسه. بدأ في البحث عن شخص آخر يُراهن عليه. وقع اختياره على الفتى شاندرا جوبتا ماوريا، الذي لم يكن له أصل ملكي بل ولد يتيمًا. «كاوتيليا»، السياسي الأريب، رأى فيه صفات المُلك عندما شاهده يُمثل دور

الملك مع أقرانه في اللعب. أخذ يدربه، ويعلمه أسرار الحرب والسياسة، ثم جمعا جيشًا وخاضا معًا مغامرة مذهلة لغزو «ماجدا». ولكنهما هُزما وخاب سعيهما. وبينما هما يتأملان أسباب الهزيمة والفشل تناهى إلى سمعهما حديث أم مع ابنها الصغير وهو يأكل. كانت الأم تُحذر الغلام من الاقتراب من قلب الطبق الساخن، كما فعل «شاندرا جوبتا» و«كاوتيليا» بالهجوم على قلب «ماجدا»؛ أي عاصمتها «باليبوترا». «عليك بالبدء من الأطراف»، هكذا قالت الأم لصغيرها. ألهمت النصيحة الثنائي الطامح..

احتاج «كاوتيليا» و«ماوريا» لخطة مركبة للقضاء على مملكة «ماجدا». وجدا ضالتهما في جيوش الإسكندر الأكبر الذي كان يقود هو الآخر مغامرة مثيرة لغزو الهند في 327 ق.م. فكرا في إقناع الإسكندر بضرب «ماجدا». القاعدة بسيطة: عدو عدوي هو صديقي. لا بد من التفكير في وسائل لتحقيق الأهداف بأقل تكلفة. ليس هناك ما هو أفضل من تدمير خصمك باستخدام قوةٍ أخرى.

عند نقطةٍ معينة، رفض جنود الإسكندر التقدم أكثر بعد أن سمعوا عن جيش هندي بانتظارهم يضم خمسة آلاف فيل. اضطر الإسكندر المغامر إلى الانسحاب مُخلفًا وراءه فراغًا. قفز «ماوريا» لملء الفراغ. أكمل مهمة الإجهاز على مملكة «ماجدا». استخدم أساليب مختلفة، من بينها زرع بذور الحرب الأهلية والصراع الداخلي عبر توظيف الجواسيس. هاجم الأطراف، واتبع أسلوبًا فريدًا في حصار المدن، عملًا بنصيحة الأم لولدها. خطوة بعد أخرى، استطاع «مواريا»، بمساعدة معلمه ومستشاره «كاوتيليا»، إخضاع 16 ممكلة من ممالك الهند المتنافسة، توطئة لإقامة الإمبراطورية الأكبر في تاريخ شبه القارة الهندية. امتدت إمبراطورية «ماوريا» على أكثر من خمسة ملايين كيلو متر مربع، وسيطرت على نحو 60 مليون نسمة، أي ما يقرب من 30% من سكان العالم في ذلك الوقت (لاحظي أنه من المتوقع أن تصير الهند الدولة الأكثر سكانًا في العالم بحلول عام 2027). هذا الخزان السكاني الهائل، فضلًا عن التنظيم والإدارة، مكَّن الإمبراطورية من حشد جيش يزيد على 600 ألف مقاتل. لو أن هذا الجيش موجود في زماننا، لكان من بين أكبر عشرة جيوش عالميًّا من حيث عدد الجنود!

كيف يُمكن أن تديري «كائنًا» مركبًا على هذا النحو؟ الإمبراطوريات كيانات بالغة التعقيد. هي أعقد منظومة ظهرت على الأرض حتى تلك اللحظة في قصتنا. لديها موارد هائلة، وتدفقات ضخمة من الطاقة. ولكن كيف تستخدمها؟ ولأي غاية؟ ما خطتها؟ هل تتوسع أكثر أم تحصن نفسها؟ عند أي نقطة يجب أن تتوقف؟ هل تدافع أم تهاجم؟ هل تعقد تحالفات؟ وما هو التنظيم الأفضل للمجتمع الذي يخدم أهدافها؟ باختصار.. ما هي الإستراتيجية المُثلى للنجاح؟

الإستراتيجية هي فن التوفيق بين الأهداف والوسائل. عندما ترغبين في تحقيق هدفٍ معين، أي هدفٍ في حياتك، سوف تكتشفين حقيقة هامة وحاسمة: الموارد، وفي أي وضع، لها حدود. عليكِ التفكير، إذن، في الأولويات. تحتاجين إلى استخدام مواردكِ على أفضل نحوٍ ممكن لتحقيق أهدافك. عليكِ أيضًا أن تختاري أهدافكِ بدقةٍ وحكمة، وأن تميزي بين القريب منها والبعيد. الأمر لا يختلف كثيرًا في الصراعات والحروب بين الممالك والإمبراطوريات. هذه الصراعات ليست مجرد دليل على حماقة البشر أو نزعتهم الدموية. إنها منافسات قاتلة، بالحديد والنار، بين إستراتيجيات مختلفة لتحقيق أهداف ومصالح متناقضة. الإستراتيجية الذكية هي الفرق بين الحياة والموت. هي محرك رئيسي في قصتنا الكبيرة؛ لأنها رسمت مصائر الإمبراطوريات والدول في صراعاتها ومنافساتها المستمرة.

السياسي الحصيف «كاوتيليا» فصَّل رؤيته الإستراتيجية لصناعة وصيانة الإمبراطورية في كتاب نادر اسمه « أرثا شاسترا». إنه كتاب في فن الحُكم، ودليل عملي للحاكم لكي يدير دولة، وينتصر في الحروب، ويتجنب المؤامرات، بما فيها تلك التي يحيكها مستشاروه. يزخر الكتاب بنصائح عملية كثيرة للعيش في بيئة البلاط المُفعمة بالدسائس، بما في ذلك طريقة معرفة إن كان طبق الأرز مسمومًا. ينصحكِ «كاوتيليا» بأن تراقبي البخار الذي يخرج منه، فلو كان في لون رقبة الطاووس فلتعلمي أن الطبق مسموم!

يصف الكتاب أيضًا إستراتيجيات للتعامل مع الدول الأخرى، سلامًا وحربًا وتحالفات. وضع السياسي الهندي هدفًا أعلى لإستراتيجيته هو الغزو. تفكيره كان واقعيًّا: الدولة التي لا تُبادر بالغزو، ستتعرض له في لحظةٍ ما. إما أن تُباشر الغزو أو أن تُخاطر بالتعرُّض للهجوم على يد آخرين. لا يمكن أن تقوم إستراتيجيتكِ على الدفاع وحده. ذلك لا يعني سوى الهزيمة على المدى الطويل.

يوصف «كاوتيليا» دائمًا بأنه «ميكافيلي الهند»، في إشارة للمفكر والدبلوماسي الإيطالي الشهير نيكولا ميكافيلي (1469م-1529م). الرجلان يشتركان في نظرتهما للعالم. كلاهما يرى العالم من زاوية واقعية. الواقعية تعني أن تري العالم كما هو، وليس كما ترغبين في رؤيته. الأمر يبدو بسيطًا في الظاهر، ولكنه ليس كذلك. لو عملتِ مستشارة ليوم واحدٍ لدى قائد سياسي، أو رجل دولة، ستدركين كم هو صعب أن يرى المرء العالم على حقيقته!

مدينة «باليبوترا» - تُدعى «باتنا» اليوم - صارت مركز إمبراطورية «ماوريا»، وكان يقطنها مليون إنسان. ربما مثَّلت التجمع البشري الأكبر على وجه الأرض حتى حينه، أي في القرن الثالث قبل الميلاد. الحفاظ على استقرار

هذه الكتلة البشرية الكبيرة في مدينة واحدة لم يكُن بالأمر السهل. انطلق «كاوتيليا» من فلسفة بسيطة هي أن وجود الدولة - بالنسبة للجميع - أفضل من عدم وجودها. ما يحمي الضعفاء حقًّا هو وجود الدولة، ففي غيابها يلتهم السمك الكبير السمك الصغير. الرجل الضعيف يحتاج إلى الدولة أكثر من الرجل القوي!

«كاوتيليا» أدرك كذلك أن الأساس في بناء القوة هو الاقتصاد المزدهر. يتطلب هذا استقرارًا. الأساس في الاستقرار هو العقاب القاسي الذي تستخدمه الدولة في مواجهة مَن يخرجون على القانون والنظام. على الدولة أن تعرف كل شيءٍ عن سكانها عبر شبكة من الجواسيس الذين يملأون أرجاء الإمبراطورية. يتحدث كتاب «أرثا شاسترا» عن تنظيم سري يُديره رئيس جباة الضرائب. ضم التنظيم جواسيس متخفين، من بينهم معتوهون ومكفوفو البصر، بهدف التعرف على قيمة الدخول الحقيقية التي يخفيها بعض السكان للتهرب من دفع الضرائب.

على أن هذا التفكير الواقعي في إدارة الإمبراطورية لا يُمثل الإستراتيجية الوحيدة المتاحة أمام الحكام. هذا ما أثبته عمليًّا حفيد «ماوريا»، واسمه «أشوكا». مثَّل الرجل طرازًا نادرًا من رجال الدولة، إذ استخدم «تكنولوجيا اجتماعية» مختلفة كليًّا عن أفكار «كاوتيليا»..

حكم «أشوكا» حول العام 250 ق.م أكبر إمبراطورية هندية موحَّدة. في مبدأ حياته طبق أساليب «كاوتيليا» الواقعية والقاسية. وصل إلى الحكم بالخداع بعد أن قتل أخاه، الذي كان وليًّا للعهد. وتقول الأساطير إنه قتل 99 من إخوته غير الأشقاء. لم يعرف سوى القوة طريقًا، والقسوة نهجًا. تعلم من جده شاندرا جوبتا ماوريا أن يرى العالم كما هو في الواقع بكل قسوته ورعبه. واصل الغزو والتوسع، باعتبار أن ذلك قدر الإمبراطوريات. في معركته مع إمارة «كالينجا» قتل 100 ألف، وأسر 150 ألفًا. في لحظة تحول عجيبة، ونادرة في قصتنا، أصابته حالة من الندم. اعتنق البوذية، وأعلن أنه سيتخلى نهائيًّا عن ممارسة العنف، إلا بغرض الدفاع عن النفس. أي إنه تخلص من «نظام التشغيل» الذي يحرك المنظومة كلها!

من دون العنف والإجبار كيف يمكن أن تديري إمبراطورية؟

بالعطف والمحبة ورعاية الناس. تلك كانت إجابة «أشوكا» الفريدة في بابها. لم يحدث أن أعلن حاكم أو رجل دولة التخلي عن العنف طواعية. ربما لم يمارس بعض الحكام العنف، ولكن الإعلان عن ذلك كان عملًا غير مسبوق.

«نظام التشغيل» الذي استعمله، في المقابل، هو البوذية. سوف أخبركِ بالمزيد عنها في رسالتي القادمة، ولكن يكفي أن أقول لكِ الآن شيئًا واحدًا

عنها: هي لا ترى العالم كما هو في الواقع، ولكن كما ينبغي أن يكون وفق تصورها. هذا هو الفارق الحاسم بين نظرة «كاوتيليا»، ورؤية «أشوكا». تبشر البوذية - التي انتشرت في الهند قبل زمن «أشوكا» بنحو 150 عامًا - بعلاقات قائمة على التعاطف الإنساني، لا العنف أو العقاب. «عندما تؤذي الآخرين، فأنت في الواقع تؤذي نفسك». استلهم «أشوكا» الفكرة، وصاغ منها «نظام تشغيل» لحكم الإمبراطورية. نحن نعرف هذا لأنه ترك تعاليمه وأفكاره محفورة على الأحجار عبر إمبراطوريته الشاسعة، وتم اكتشاف هذه الأحجار وفك رموزها في القرن التاسع عشر.

اهتم «أشوكا» بالمرضى وكبار السن، والأرامل اللاتي ترعين اليتامى. حرص على زراعة الأشجار، وحفر الآبار، وبناء المستشفيات، وتعليم الفتيات. عِوضًا عن شفرة «كاوتيليا» التي تتركز على العقاب القاسي، ألغى «أشوكا» عقوبة الإعدام (كما حدث في عدد من الدول في زماننا) بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك وأوقف تقليد الأضحيات الذي يقع في القلب من الممارسات الهندوسية. بدا «أشوكا» كأبٍ حانٍ يرعى شعبه، وكانت تلك إستراتيجيته في تجنب الآفة التي طالما أرقت الإمبراطوريات جميعًا: التمرد والصراع الداخلي على السلطة. العجيب أن الإستراتيجية نجحت. حكم «أشوكا» أربعين عامًا كاملة سادها الازدهار. في ختام حياته، أعطى كل ما يملك للمعابد البوذية. على فراش الموت لم يبقَ معه سوى نصف ثمرة فاكهة تبرع بها!

على النقيض من هذا العطف الإمبراطوري، اتبع الصينيون إستراتيجيات وأدوات اجتماعية جد مختلفة اعتمدت في أحيان كثيرة على العُنف الأقصى..

فن الحرب ومطاردة الخلود

كان صن تزو فيلسوفًا وخبيرًا بالحروب عاش بمملكة «تشي» في الصين حول العام 500 ق.م. كان ذلك هو زمن الدويلات المتحاربة، حيث تتنافس الممالك فيما بينها على السيطرة. وفي يوم من الأيام راهن «تزو» أحد الملوك على أنه يستطيع تحويل جواريه إلى مقاتلات ومجندات في الجيش. ما فعله ليكسب الرهان كان مرعبًا بحق..

قسم «تزو» النساء إلى كتيبتين وعيَّن على رأس كل منها واحدة منهن كضابطة. أعطى النساء السلاح، وسألهن: «أعتقد أنكن تعلمن الفرق بين الأمام والخلف، وبين اليد اليمنى واليسرى، أليس كذلك؟»، فرددن جميعًا بالإيجاب. قال «تزو»: «عندما أقول لليمين دُر، فعليكن بالدوران إلى اليمين». فأجابت النساء بأنهن فهمن معنى الأوامر. ثم دُقَّت الطبول وأصدر «تزو» أمره بالتحرُّك: «لليمين دُر»، فضجَّت النساء بالضحك. قال «تزو»: «إذا كانت الكلمات غير واضحة، فإن اللوم يقع ساعتها على القائد، فربما كان الأمر غير

مفهوم». ثم أعطاهن أمرًا جديدًا: «لليسار دُر». ودوى الضحك من جديد. عندها قال صن تزو: «إن الأمر يبدو واضحًا تمامًا، والخطأ في هذه الحالة هو خطأ الضباط». أمر بإعدام الجاريتين (الضابطتين) على الفور، رافضًا رجاء الملك بألا يقتلهما؛ لأنهما الأقرب إلى قلبه. بعد لحظات عاود «تزو» تكرار الأمر، وامتثلت النساء في انضباط كامل. ربح «تزو» الرهان وقال للملك: «هاك جنودك يا مولاي يمكنك أن تأمرهن بأن يخضن في النيران، وسيفعلن»!

قصة صن تزو تكشف عن أن الكثير من الدول في هذه المرحلة، في الشرق والغرب، قد استوعبت تمامًا أن الحرب شأن خطير، وأنها أخطر من مجرد ممارسة العنف، أو إظهار الشجاعة في ساحات القتال. كتب تزو كتابًا صغيرًا ضمنه خلاصة تجربته تحت عنوان: «فن الحرب». الكتاب اُختير كواحد من مقررات البحرية الأمريكية في عام 1972م، وما زال الكثيرون يلجأون إليه، ليس فقط من العسكريين، ولكن أيضًا من مديري الشركات والرياضيين. النصائح والأفكار المتضمنة في الكتاب تصلح لأي موقف ينطوي على منافسة، ويحتاج إلى خطة، أي إلى إستراتيجية لتحقيق النصر.

الجملة الافتتاحية في كتاب «فن الحرب» هي: «لا يوجد في حياة الأمم ما هو أخطر من قرار شن الحرب، فالحرب لا تتوقف عند كونها ساحة للدم تزهق فيها أرواح الجنود، وإنما هي جهد جماعي لكل أفراد المجتمع، ويمكن أن تحول بلادًا بأكملها إلى أراض يعمها الخراب والدمار... الحرب مسألة خطيرة للدولة، إنها ميدان الحياة والموت، وهي الطريق التي تؤدي إلى العيش أو الفناء».

في الكتاب أفكار وحيل كثيرة عن الحرب. هو مثلًا يُخبركِ بأن الحرب كلها خداع في خداع. عليكِ بالتظاهر بالضعف أمام العدو عندما تكونين قوية، وعندما تكونين قريبة تظاهري بأنكِ «بعيدة بعيدة». يقول لكِ أيضًا إن القائد الحاذق عليه أن يعمل أولًا على تجنب احتمال الهزيمة، ثم ينتظر بعدها فرصة لإنزال هزيمة بعدوه. غير أن الفكرة الكبرى التي جاء بها «تزو» هي هذه: فن الحرب أبعد من مجرد ممارسة القوة العسكرية. في الحرب لا بد أن يكون عندكِ إستراتيجية، وهدف بعيد تنشدين تحقيقه من وراء العمل العسكري. الحرب هي مجرد وسيلة؛ لذلك فإن القتال والانتصار في المعارك ليس عنوان المهارة، كما يقول لنا «تزو»، ولكن التفوق الأعظم هو كسر مقاومة العدو دون أي قتال. إن أفكارًا مثل هذه ربما ألهمت الرجل الذي وحد الصين لأول مرة..

تعود بدايات الحضارة الصينية لنحو 3500 عام مضت، أو أكثر. ولكن الصين، كما نعرفها اليوم، تكونت في عام 221 ق.م على يد الإمبراطور الأول تشين شي هوانج. كان طاغية دمويًّا بلا حدود، ولكنه كان مفعمًا بالنشاط والابتكار.

كان يقرأ في الشهر الواحد ما يوازي الطن من التقارير المكتوبة على الخشب والبامبو.

لكي تعرفي حجم الإنجاز الذي قام به عليكِ أن تتصوري أن الفارق بين المناخ في شمال الصين وجنوبها، يُشبه تقريبًا الفارق بين مناخ أسكتلندا والإسكندرية! الصين دولة شاسعة، تعيش على ثلاثة نظم نهرية منفصلة عن بعضها بعضًا. الإمبراطور الأول نجح في ربطها وصناعة دولة موحدة، تكتب لغة واحدة، وتتعامل بالعملة نفسها، بل إنه وحَّد المسافة بين عجلات العربات كما رأينا. الصين ما زالت تتكلم هذه اللغة إلى اليوم، بل ظلت هذه العملة المعدنية متداولة حتى مطلع القرن العشرين.

ما «التكنولوجيا الاجتماعية» التي طبقها تشين شي هوانج؟

لقد تبنى فلسفة سياسية سادت في الصين تدعى «القانونية». تنطلق هذه الفلسفة، مثل أفكار «كاوتيليا»، من العقاب كأساس لتنظيم المجتمع. في عُرفها لا يجب أن يُعاقَب فقط مَن ارتكب جُرمًا معينًا، وإنما أيضًا مَن شهد هذا ولم يُبلغ السلطات. بل ويمكن أن تُعاقَب عائلة مرتكب الجرم، بل والحي الذي يقطنه بأكمله!

العقوبات الجماعية دفعت الناس للتجسس على بعضهم بعضًا. أشاعت جوًّا من الرعب في المجتمع. إنها الحالة نفسها التي انتابت الجواري بعد إعدام زميلتيهن في قصة صن تزو. كانت العقوبات تُنفذ علنًا. بعضها كان مروعًا مثل جدع الأنف، وقطع الأطراف، والإغراق في ماء مغلي. كان فلاسفة هذه المدرسة، وأشهرهم «هان فيه»، يرون أن المشاكل تبدأ عندما يتعرض منصب الحاكم للاهتزاز. الأساس عندهم هو احترام الحاكم وصون هيبته. الوسيلة الناجعة هي إشاعة الخوف من العقوبات التي يتم تطبيقها بقسوة بالغة.

الجانب الآخر لهذه الفلسفة هو تطبيق القانون على الجميع بقدرٍ من المساواة. كان من شأن هذا تقويض سلطان الإقطاع وهيمنة ملاك الأراضي الكبار. الهدف انصب على جمع الضرائب بشكل مركزي، وليس من خلال هؤلاء الإقطاعيين، من أجل تكوين جيوش كبيرة. أنصار المدرسة القانونية أرادوا تحويل مجتمع الفلاحين إلى مجتمع مقاتل في وقت الحرب.

قسم شي هوانج الإمبراطورية إلى 36 قسمًا، ووضع على كل قسم حاكمًا، يشاركه حاكم عسكري مستقل، والاثنان يراقبهما مفتشون يتحركون من مقاطعة لأخرى وينقلون المعلومات للإمبراطور. الحكام لم يكُن يطول بهم المقام في المقاطعات، بل كان يتم تحريكهم من مقاطعة إلى أخرى. انطلق الإمبراطور يجوب البلاد في عربةٍ سوداء، متشحًا بسوادٍ يُلقي الرعب في

الصدور عرفه الناس به (مثل الخلفاء العباسيين فيما بعد!). شق آلاف الكيلو مترات من القنوات والطرق. أتاحت القنوات نقل الفائض الزراعي إلى المركز في صورة ضرائب من الحبوب. الأهم أنه شيد جدارًا لصد غزوات قبائل الشمال تجاوز طوله 3000 كيلو متر، واستمر العمل فيه 12 عامًا. سوف يكون هذا النوع من التحصين الدفاعي ملازمًا للإمبراطوريات الصينية فيما بعد، وستضيف إليه كل سلالة حاكمة، حتى يصل طوله إلى نحو 20 ألف كيلو متر.

على أن الرجل كان مصابًا بنوع من جنون الارتياب والشك القاتل في كل مَن حوله، ربما لأنه تعرض لمحاولتين فاشلتين للاغتيال. كان من أثر ذلك أن قام ببناء ممرات سرية بين القصور حتى لا يتعرف أحد على مكان إقامته. انتابه هوس آخر بمطاردة الخلود! دفعه الهوس إلى بناء مقبرة له على نفس صورة مملكته، وحوله جيشه. احتوت المقبرة على تماثيل من الفخار لنحو ثمانية آلاف من جنوده. المذهل أن ملامح كل جندي قد نُحتت بصورة مختلفة لتُعطي الانطباع بأنهم ليسوا تماثيل متماثلة، بل بشرًا حقيقيين. استغرق بناء المقبرة ثلاثين عامًا، وعمل فيها 700 ألف عامل، أي أكثر من عدد العمال الذين بنوا الهرم الأكبر. بعد الانتهاء من المشروع، قام الإمبراطور بقتل المهندسين، ومات سر الموقع معهم حتى اكتُشف في عام 1974م!

يفسر البعض تصرفات تشين شي هوانج الجنونية في آخر حكمه بتناوله كميات كبيرة من الزئبق. «الحكماء» كانوا قد أوصوا به كإكسير للخلود. ربما كان هذا ما قتله في النهاية! لقد اعتبر هذا الإمبراطور أن معركته الحقيقية هي مع الموت نفسه. قصته تجسيد صارخ لهذه المعركة المستمرة في قصتنا منذ بدايتها. إستراتيجيته كانت عجيبة بعض الشيء، إذ بدا مقتنعًا أن الانتصار على حدوده البيولوجية أمر ممكن. في مسعاه للخلود، قام بتأسيس إمبراطورية، ما زالت هي القوة الثانية في عالمنا اليوم. لو فكرتِ لوجدتِ أن كثيرًا من الإنجازات الكبرى في قصتنا كان محركها هذا السعي الدائب للانتصار على الموت - ولو في الخيال - وتحقيق الخلود بصورة أو بأخرى!

لقد تفككت دولة «هوانج» سريعًا بعد وفاته. من الواضح أن المجتمع لم يتحمل هذا القدر من القسوة. كان غيابه عن المشهد إيذانًا بانتشار حالات التمرد بين الفلاحين. بدأ الأمر بمجموعة صغيرة من العمال تأخرت عن موقع العمل بسبب هطول أمطار غزيرة. خاف العُمال من عقوبة الإعدام جراء هذا الجرم الصغير، واختاروا التمرد. شرارة الثورة تندلع عادة عندما يجد البشر أنفسهم في موقف ليس لديهم فيه ما يخسرونه. انتهى الأمر بسيطرة أسرة أخرى على الحكم هي الـ«هان». استمرت إمبراطورية الهان 400 سنة، من 206 ق.م، وحتى 221م. استعانت الهان بأساليب الإمبراطور الأول، ولكنها

أضافت إليها «شفرة اجتماعية» أخرى هي الكونفوشية التي سأروي لكِ قصتها في الرسالة القادمة.

تظل البيروقراطية أهم ما يميز «الشفرة الاجتماعية» الصينية. العمود الفقري لحكم الصين هو طبقة الموظفين. ستعيش الصين دورات من الصعود والتفكك عبر ألفي عام، غير أن الأساس الذي تقوم عليه الدولة بقي واحدًا: طبقة من الموظفين يدرسون مبادئ كلاسيكية واحدة، ويعملون كوسيط بين الإمبراطور والشعب. سيؤدي هذا النمط من الإدارة والتنظيم إلى ازدهار كبير، ونمو هائل في أعداد السكان. عندما أُجري خلال أسرة «هان» في العام الثاني الميلادي إحصاء للسكان، تبين أن عدد الصينيين يبلغ 60 مليونًا (أي ربع سكان العالم تقريبًا). 10-30% من هؤلاء كانوا يسكنون المدن، وهي نفس نسبة سكان المدن في مصر في عام 1960م!

عندما ظهر وباء كورونا في الصين في أواخر 2019م، فرضت السلطات إغلاقًا شاملًا على المنطقة التي ظهر فيها لأسابيع كاملة. عدد سكان هذه المنطقة – هوبي - يبلغ 60 مليونًا. ثم عادت وفرضت إغلاقًا على شنغهاي استمر شهرين في 2022م. كان الحظر صارمًا وقاسيًا بصورةٍ لم تظهر تقريبًا في أي مكان آخر. ما مهد السبيل لهذا التعاطي الحاسم مع الأزمة كان التراث الطويل للبيروقراطية الصينية التي حكمت إمبراطورية أسسها رجل مصاب بجنون الارتياب ومسكون بمطاردة الخلود!

إن هذه التكنولوجيات الاجتماعية المختلفة، والإستراتيجيات المتباينة للحكم والتوسع، التي اتبعها قادة وأباطرة في الهند والصين، مثل شاندرا جوبتا ماوريا و«أشوكا» وشي هوانج، تكشف لك أن الإمبراطوريات، عند توسعها عن حدٍّ معين، تواجه نفس المشكلات تقريبًا، ويكون عليها أن تجد حلولًا من أجل التكيف والبقاء. الأمر لا يختلف عن إستراتيجية الكائنات الحية التي صادفناها في أول قصتنا. الاتجاه المستمر هو المزيد من التركيب والتعقيد، للتعامل مع المنافسة الشرسة. الإستراتيجيات التي تُثبت نجاعتها هي التي تبقى وتستمر، ويُعاد استخدامها.

لاحظي أن أهم ما يُميز مجتمعات الهند والصين هو الحجم السكاني الكبير الذي وصل إلى نحو 60 مليونًا في كل منهما، بينما لم يكن عدد سكان مصر القديمة، مثلًا، يتجاوز مليونًا ونصف المليون في الألفية الثالثة قبل الميلاد، أي في فترة بناء الأهرام. أنتِ الآن تعرفين ما يعنيه العدد الكبير من السكان: توليد المزيد من المعلومات، وإطلاق تفاعلات أشد تشابكًا بين الجماعات البشرية. هذا ما يُتيح لـ «كاسري الشفرات»، من أمثال «كاوتيليا» و«تزو» العمل على استخلاص الأنماط المتكررة في العالم الاجتماعي، والخروج بنتائج عامة حول فن إدارة الدولة والمجتمع. ومع استخدام شفرة بارعة هي

الأبجدية، صار ممكنًا تسجيل الملاحظات واستخلاص القواعد الشاملة، وتناقلها بين الأجيال في كتب مثل «أرثا شاسترا» و«فن الحرب».

نحن مولوعون بالقواعد كما تعلمين. هذه الكتب تعكس نقلةً مهمة لأنها تضع قواعد عامة لأنشطة بشرية تبدو في الظاهر فوضوية، مثل السياسة والحرب، ولكنها في واقع الأمر يمكن أن تخضع للتحليل العقلي، بعيدًا عن العالم الأسطوري للآلهة. إلى حد بعيد، بات ممكنًا أن يتصور «كاسرو الشفرات» كيف يعمل الدماغ البشري المنضوي في مجتمع، بل كيف يمكن التحكم في «دماغ المجتمع» نفسه. صار هؤلاء قادرين على توقع المشكلات المختلفة التي تواجه صاحب السلطة، واقتراح حلول ذكية لها. مهما بدا لكِ من تعقيد الدول الحديثة التي نعيش في ظلها اليوم، فصدقيني عندما أُخبركِ بأنها لم تذهب بعيدًا عن المبادئ الأولية البسيطة التي اكتشفها هؤلاء الرجال بالملاحظة والمقارنة ومراقبة الأنماط!

روما: حدود تكبير الأشياء

في عام 169 ق.م، حدثت هذه الواقعة العجيبة على شاطئ المتوسط، وفي مكان غير بعيد عن مدينة الإسكندرية..

هل تذكرين تفسخ إمبراطورية الإسكندر بين السلوقيين في الشام، والبطالمة في مصر؟ لم يكن هذان الفرعان دائمًا على وفاق. رأس الإمبراطورية السلوقية «أنطيوخوس»، كانت له أطماع في مصر. هو قاد جيشًا إلى هناك لمساندة حلفاء له في صراع على السُّلطة داخل الأسرة البطلمية. كان يستغل الفرصة ليسيطر على البلد الغني بالموارد. استنجد الفرع الآخر في الأسرة البطلمية بقوة أخرى صاعدة في المتوسط: روما.

لم ترسل روما جيشًا. أرسلت بعثة دبلوماسية مكونة من شيخ مسن، وخادمين يحملان الشعار الرسمي لسلطة الجمهورية الرومانية، وهو عبارة عن صولجان يسمى «فاشيو» (ومنها اشتُق مصطلح الفاشية التي ظهرت في إيطاليا القرن العشرين). هذا الرجل المسن كان عضوًا في مجلس الشيوخ الروماني. اسمه «جايوس بوبيليس لاينوس». وقف هذا المبعوث أمام «أنطيوخوس»، وسط جيشه وقوَّاده. مدَّ «أنطيوخوس» يده بالسلام. لم يمد الرجل يده. قال ببساطة: «ارجع من حيث أتيت إلى سوريا، ولن أمد يدي بالسلام عليك حتى أسمع ردًّا إيجابيًّا على طلبي هذا». بدا على الملك القلق وساد جو من التوتر. ما كان من الشيخ المهيب إلا أن أخذ عصاه، ورسم دائرة على الرمال حول الملك، ثم قال له: «إذا لم تُعطني ردًّا قاطعًا قبل الخروج من هذه الدائرة اعتبر نفسك في حرب مع روما». حدث أغرب رد فعل يمكن توقعه. قفل «أنطيوخوس» وجيشه راجعًا إلى سوريا!

هذا شيخ مسن، ليس معه سوى عصاه. وأمامه جيش كامل لمملكة كبرى تسيطر على الشام وبلاد الرافدين. انسحب الجيش أمام شيخ لا حول له ولا قوة، وليس معه سوى خادمين وصولجان! على أن هذا الرجل، الذي بدا وحيدًا وضعيفًا، كانت خلفه أقوى إمبراطورية على ظهر الأرض في هذا الوقت. تذكري مقولة صن تزو: «أفضل المعارك هي تلك التي تكسبها من دون قتال».

قصة روما تخبركِ بأقصى الحدود التي يمكن أن تذهب لها الحضارات الزراعية. تبنَّى الرومان «تكنولوجيا اجتماعية» ربما تكون هي الأكثر تركيبًا في العصور القديمة. ابتدعوا أفكارًا تنظيمية وإدارية تسمح بتكبير «الإمبراطورية» إلى أقصى مدى ممكن. عاشت دولتهم ما يقرب من ألف عام، قبل أن تواجه المصير المحتوم في القرن الخامس الميلادي.

لقد فعلت روما شيئًا لم تفعله أي إمبراطورية سابقة أو لاحقة: أحكمت السيطرة على البحر المتوسط بكامله، بضفافه المطلة على ثلاث قارات؛ لذلك أطلق الرومان على البحر المتوسط: «بحرنا». حاولت من قبل روما ومن بعدها إمبراطوريات وفشلت في تحقيق هذا الهدف. الإمبراطورية الوحيدة التي اقتربت من هذه السيطرة كانت العثمانية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ولكنها فشلت، بدورها، في استكمال إحكام السيطرة على الساحل الشمالي كله.

السيطرة على المتوسط تعني التحكم بمنظومة كاملة من الخطوط التجارية للعالم القديم. لا يمكن تحصيل العوائد الهائلة للتجارة إلا إذا اكتملت تلك السيطرة من دون منافس. ساعتئذ فقط يمكن أن تزدهر التجارة من آسيا وإفريقيا إلى أوروبا، وصولًا إلى أسكتلندا، وبالعكس. الثروات التي تتولد عن هذه السيطرة مذهلة حقًّا. ما فعله الرومان هو أكبر عملية استخلاص للطاقة من الأرض حتى ذلك الوقت. يشير العلماء إلى أن انبعاثات الكربون خلال القرنين الأولين بعد الميلاد، اللذين ازدهرت خلالهما الإمبراطورية، لم تتكرر سوى في العصر الصناعي وبعد قرون طويلة، بما يؤشر إلى ازدهار اقتصادي غير مسبوق.

فرضت روما ما عُرف بـ«السلام الروماني» على المتوسط. في أوج الإمبراطورية، ومن العام 36 ق.م وحتى القرن الثالث الميلادي، أصبح البحر المتوسط خاليًا من القراصنة بصورة شبه تامة. السلام العالمي يتحقق عادة بوجود قوة مهيمنة قادرة على سحق مَن يهدده. القراصنة صار عليهم التفكير مرتين قبل الإغارة على السفن التجارية في المتوسط؛ لأنهم عرفوا ما يمكن أن تفعله بهم الفيالق والأساطيل الرومانية. الإمبراطورية تفرض قدرًا أكبر من «اليقين» على تفاعلات البشر وعلاقاتهم: «إذا فعلتِ كذا، سيحدث لكِ

كيت». الشيء نفسه فعلته إمبراطورية الهان في الصين في نفس الزمن تقريبًا. في هذه الأجواء يزدهر النشاط البشري، من إنتاج وتبادل تجاري.

إذا عدتِ إلى روما في القرن الميلادي الأول لن تشعري بغربة كبيرة. ارتفعت في روما بنايات من ستة أدوار يقطن الواحد منها 380 ساكنًا. كان بالمدينة خدمات بوليس ومطافئ وخدمة بريد وثلاث مسارح و144 مرحاضًا عامًّا! تحت أرضها، كان يمتد نظام من الصرف، ما زالت أطلاله باقية إلى اليوم، يتخلص من 55 طنًّا من الصرف البشري يوميًّا. كانت روما بالتأكيد المدينة الأكثر تقدمًا في العالم. لفترة طويلة تالية لم يظهر شيء مثلها.

لم تحكم روما شعبًا واحدًا، ولكن شعوبًا مختلفة أشد الاختلاف، في آسيا وإفريقيا وأوروبا. إنجازها الحقيقي يكمُن في أنها وضعت منظومة صالحة لحكم شعوب مختلفة، ونسجت شبكة محكمة من أجل امتصاص ثرواتهم. بإمكانكِ اعتبارها تطويرًا أكثر تعقيدًا بكثير للإمبراطورية الفارسية.

لقد رأينا أن كل إمبراطورية تبحث عن فكرة كبرى أو «نظام تشغيل» يساعدها على البقاء والازدهار. أثينا اخترعت السياسة كأداة لإدارة الشئون العامة. الصين رأت أن الحل في المركزية، مع انتقاء طبقة من الموظفين المدربين تكون وسيطًا بين الحاكم والناس (البيروقراطية). روما اخترعت الجمهورية..

بدأت روما ملكية، ثم ثارت على آخر ملوكها تاركوين المتغطرس، في 509 ق.م. قرر الرومان ألا يعودوا للملكية أبدًا، بل وأصبحت كلمة الملك مكروهة ممجوجة. ولكن مَن الذي وضعوه مكان الملك الذي أزاحوه؟

مثلما حدث في أثينا في الفترة نفسها تقريبًا (حول العام 500 ق.م)، اختار الرومان أيضًا أن يضعوا مكان الملك «نظام تشغيل» وليس ملكًا جديدًا.

النظام الذي ابتدعه الرومان يُسمى الجمهورية. استبعد النظام النساء والعبيد كما كان الحال في أثينا. وضع السُّلطة في يد مجلس الشيوخ ممثلًا لطبقة الأعيان وكبار الملاك، وهو الذي ينتخب حاكمين اثنين (يدعوان قنصلين) كل عام، ويعين كبار المسئولين التنفيذيين. أي إن السُّلطة الحقيقية في روما كانت في يد مجلس الشيوخ الذي يضم 500 شخص من الطبقة الأرستقراطية، ويعين أعضاؤه مدى الحياة. في القرن الثالث قبل الميلاد ثار العوام على هذا الوضع الظالم. هددوا بترك روما وإنشاء مدينة خاصة بهم. اضطر الأعيان إلى التخلي عن احتكارهم الكامل للسلطة.

في 287 ق.م مُنح العوام فرصة اختيار عشرة ممثلين لهم ومدافعين عنهم في مواجهة أصحاب السُّلطة. في البداية كان لهؤلاء حق نقض قرارات

القناصل (ما يُسمى بالفيتو)، بالتدريج اكتسب مجلس العوام سُلطة سَن القوانين للجمهورية كلها. غير أن النصيب الأكبر من السُّلطة ظل في يد النخبة الأرستقراطية، مع مشاركة محدودة من العوام. كلمة السر في هذا النظام هي التوازن: هو ليس حُكمًا مطلقًا، فمدة القنصلين محكومة بعام واحد، وهما يتقاسمان السُّلطة معًا. وهو ليس ديمقراطية كاملة؛ لأن سُلطة العوام تظل محدودة، والسُّلطة الحقيقية في يد مجلس الشيوخ، أي الأرستقراطية.

استمر هذا النظام لنحو خمسمائة عام. أثبت فاعلية كبيرة في تكوين قوة عسكرية استطاعت السيطرة على المتوسط بعد تدمير القوتين العتيدتين في فضائه. في عام 146 ق.م كانت روما قد محقت قرطاج وسوت مدنها بالأرض، وأخضعت مقدونيا. لم تعُد قوة أخرى تنافسها، وصار الطريق ممهدًا أمام تأسيس إمبراطورية كبرى. غير أن التحول إلى الإمبراطورية كان يحمل بين طياته القضاء على الجمهورية؛ أي على نظام التشغيل المبتكر الذي جاءت به روما.

الإمبراطورية ضخَّت الثروات، فقلبت موازين المجتمع. نشأت المزارع الكبيرة التي استقدمت العبيد من البلدان المحتلة. صار الفلاحون بلا عمل فتدفقوا على روما. أصبحت الإمبراطورية تعيش على الغزو والنهب المستمر، لا الناتج الزراعي. طبيعة الجيش المكون من المواطنين الفلاحين، كانت تتغير بالتدريج. أدخل الجنرال ماريوس في عام 107 ق.م تعديلًا صار بمقتضاه الجيش محترفًا يعيش على الرواتب.

الجيش المحترف أصبح معتمدًا على مكاسب الحرب ومغانمها. هكذا تولَّد لديه دافع ذاتي لمواصلة الغزو باستمرار. تعلق ولاء الجند بالجنرالات الذين يدفعون لهم رواتبهم، وليس بروما. كان طبيعيًّا أن تتضخم سلطة هؤلاء الجنرالات إلى حد تهديد نظام الجمهورية نفسه. كان موكب الجنرال المنتصر يجوب شوارع روما في أبهة تخلب الألباب. اعتاد واحد من أشهرهم، «بومبي»، أن يخصص شخصًا يهمس في أذنه أثناء الموكب بهذه العبارة: «أنت بشر ولست إلهًا»!

القرن الأول قبل الميلاد شهد منافسات وصراعات بين هؤلاء الجنرالات. برز من بينهم يوليوس قيصر، الذي حقق انتصارات مؤزرة في حربه في بلاد الغال بتكلفة بشرية مروعة (أحضر معه مليون عبد). استطاع يوليوس قيصر التلاعب بالجميع، وفرض نفسه حاكمًا مطلقًا على روما، قبل أن يُغتال في مؤامرة دبَّرها مجلس الشيوخ في 44 ق.م دخلت البلاد بعدها في حرب أهلية طاحنة استمرت لسنوات، قبل أن يحسمها ابن قيصر بالتبني «أوكتافيوس»،

الذي أصبح لقبه أغسطس قيصر. وقد أطلق اسمه على أحد شهور السنة كما تلاحظين!

كان «أغسطس» من «ثعالب» الإستراتيجية الكبار في قصتنا. هو المؤسس الحقيقي لنظام الإمبراطورية. استطاع هزيمة منافسيه جميعًا، بمزيج من الدهاء والعنف الذي لا يعرف الرحمة. كان أستاذًا في الإستراتيجية بلا نظير. استخدم الرشوة في شراء ذمم بعض أعضاء مجلس الشيوخ، وقضى بعضهم الآخر في «حوادث» تكررت على نحوٍ غامض! أصبحت السُّلطة كلها في يد شخص واحد. في 27 ق.م صارت جمهورية روما إمبراطورية تقوم أساسًا على القوة العسكرية.

توالى على الإمبراطورية أباطرة متفاوتون في قدراتهم وتوازنهم النفسي. بعضهم كان ممعنًا في الجنون مثل «كاليجولا» الذي عيَّن حصانه في مجلس الشيوخ ليُثبت أن المنصب بلا فائدة. بعضهم كان حصيفًا، مثل «تراجان» الذي وصلت معه الإمبراطورية إلى أقصى توسع لها في 117م. إليه تُنسب عبارة: «من الأفضل أن يفلت مُذنب من العقاب، بدلًا من أن يُعاقَب بريء». وهي على النقيض من فلسفة «كاوتيليا» و«هان فيه»، التي تأسست كما رأينا على تعميم العقاب.

لم تنجُ روما من صراعات السُّلطة والحروب الأهلية. كان عام 96م هو عام الأباطرة الأربعة، وعام 193م هو عام الأباطرة الخمسة. صار للحرس الخاص (الحرس البيروتري) في بعض الأوقات اليد الطولى في تعيين الإمبراطور. في القرن الثالث الميلادي، كان لدى الإمبراطور فرصة ضئيلة للخروج من منصبه حيًّا. قيل إن الأباطرة الرومان كانوا يملئون غرفهم بالمرايا تحسبًا لمَن يغدر بهم في لحظة خؤون.

الصراع الداخلي أضعف مناعة روما في مواجهة الأعداء الرابضين على الحدود من الشرق (فارس أو بارثيا)، ومن الغرب (قبائل الجرمان). تفرقت القوة الرومانية في مواجهة غزوات عدة في وقت واحد. حاولت روما شراء ولاء بعض القبائل بالمال، والاستعانة بها في مواجهة قبائل أخرى. الجفاف دفع قبائل لتخترق حدود الإمبراطورية، بعد أن تعلموا أساليبها في القتال. في 476م سقطت روما على يد القوط، برغم أن الإمبراطورية في الشرق استمرت لألف عام أخرى في مركزٍ آخر هو بيزنطة.

لقد نجح كل من الرومان بطريقتهم، و«الهان» في الصين بنهجٍ مختلف، في إقامة أكبر وأكثر مجتمعات مركبة عرفتها الكرة الأرضية حتى هذا التاريخ. سيطر كل منهما على نحو 6.5 مليون كيلو متر مربع من الأرض. حكمت كل إمبراطورية نحو 60 مليونًا من السكان. انهارت الإمبراطوريتان تحت ثقل

وزنهما الضخم كما شرح لنا «جاليليو». يُرجح كذلك أنهما تعرضتا لتهديدات متشابهة، خاصة لجهة الأوبئة، ومواجهة البرابرة (في حالة الصين كان هؤلاء البرابرة يُدعون الشوينغو)، وعانت الإمبراطوريتان ممَّا تؤدي إليه هذه القوى المدمرة من نقص في السكان، وبالتالي من تراجع في القوة البشرية التي تقوم بالإنتاج الزراعي.

لا تنسي أننا ما زلنا حتى هذه النقطة في عصر الحضارات الزراعية. لا مجال لتشغيل النظام الإمبراطوري المركب إلا عبر استخلاص طاقة الشمس. في البداية، اعتمدت روما على النهب المنظم لصور مركزة من تراكمات الطاقة الشمسية (محاصيل/معادن/سلع مصنعة/عبيد) من مستعمراتها، لتشغيل منظومتها المركبة وتمويل جيوشها. عند نقطة معينة لا يصبح النهب مجديًا، وتلك هي النقطة التي توقف عندها توسع الإمبراطورية مع «تراجان» في مطلع القرن الثاني. بعدها عاشت الإمبراطورية على «عوائد الطاقة الشمسية»، أي على الضرائب والجباية. هذا هو السبيل الآخر للحصول على موارد من أجل حماية الإمبراطورية ببناء الأسوار الدفاعية وحشد الجيوش. غير أن الضرائب الباهظة تجعل من الصعب على الأسر إعالة عدد كبير من الأطفال، وبالتالي يتناقص السكان أكثر. إذا أضفنا إلى ذلك تأثير الأوبئة نجد أنفسنا أمام دورة جهنمية من الانهيار المتسارع. الوباء الأنطوني قضى على ربع سكان روما في القرن الثاني الميلادي.

لا أشك في أنكِ سمعتِ شيئًا عن مخاطر التدهور البيئي، وتغير المناخ، وانتشار الأوبئة على حضارتنا المعاصرة. وباء كورونا في 2020م كان مجرد إنذار لما يمكن أن يحدث من اضطراب كبير في المجتمع بسبب «أزمة بيولوجية». لطالما ألفى البشر أنفسهم في هذه المآزق الجهنمية طول التاريخ، حيث الحلول تدفع بدورها إلى مشاكل أعقد. على أننا نمتلك اليوم سلاحًا لم يكن موجودًا لدى الحضارات الزراعية: الابتكار التكنولوجي..

السبب في أن عالمنا لم يتوقف على أثر جائحة كورونا، هو أننا استطعنا إيجاد لقاح بسرعة كبيرة وغير متوقعة، وأن لدينا «شبكة افتراضية» ظلت تعمل بكفاءة حتى مع توقف بعض الشبكات «الواقعية» مثل حركة الطيران، وبالتالي تمكنَّا من تشغيل مجتمعاتنا المعقدة حتى ونحن قابعون في منازلنا.

انهيار روما والهان الصينية يكشف عن أن هناك حدودًا قصوى لما يمكن أن تحققه الحضارات الزراعية من دون تكنولوجيا تكسر معادلة الطاقة وتوسِّع «حدود الملعب» التي حدثتُكِ عنها في رسائلي الأولى. بعض هذه الحدود تفرضه طبيعة المجتمعات المركبة نفسها، وما تتعرض له حتمًا من صراعات على السُّلطة بسبب التراتبية الهرمية الصارخة التي تقوم عليها. ثمَّة حدود أخرى على النمو تفرضها أيضًا القوى الطبيعية: الأوبئة وتغيرات المناخ.

لو وضعتِ نفسكِ مكان مَن حكموا هذه الإمبراطوريات لوجدتِ أن كل حل يمكن التفكير فيه لمواجهة هذه المآزق يقتضي الحصول على مصادر إضافية للطاقة. الحفاظ على النظام الاجتماعي المركب، شأن الحفاظ على أي شيء مركب في هذا الكون، ليس مجانيًّا. بذور الفوضى- مثلها مثل الإنتروبيا في الكون- تظل كامنة في النظم المركبة كافة، ومن بينها الحضارات والإمبراطوريات التي أقامها البشر.

ليس معنى هذا أن هذه الحضارات وقفت عاجزة أمام تلك التحديات، أو أنها كانت عاطلة من التكنولوجيا. كانت هناك إنجازات تكنولوجية بالتأكيد في العمارة والهندسة، من ذلك مثلًا ناقلات المياه الضخمة التي توصل المياه من أماكن بعيدة إلى المدن. يمكنكِ مشاهدة هذا الاختراع العبقري في روما إلى اليوم، وأيضًا في القاهرة تحت اسم «مجرى العيون». من دونه لم يكن سكان روما ليبلغوا المليون في القرن الأول الميلادي. يوظف ناقل المياه فكرة الجاذبية: تنحدر أعمدته التي تحمل مجرى المياه فوقها بمعدل 30 سم في كل متر. لو زاد المعدل لفاضت المياه عن الحاجة، ولو قل عن ذلك لتبخرت وجفت. كان إنجازًا هندسيًّا فريدًا كذلك لأنه استخدم مادة جديدة هي الأسمنت. ناقل المياه إلى روما كان يغذي 1300 نافورة، و900 حمَّام عام للاستحمام!

على أن أهم الابتكارات التي ظهرت في هذه الفترة جاء من الصين. كان ذلك هو اختراع الورق على يد تساي لون في 105م. ويمكنكِ تصور مدى فائدة هذا الاختراع في تسريع عملية التعلم الجماعي. غير أن انتشاره عبر العالم سوف يحدث ببطء شديد، ولن يتحقق هذا الانتشار بصورة واسعة سوى مع الحضارة الإسلامية في القرن الثامن الميلادي.

وبالرغم من كل هذه الاختراعات المفيدة، فإن الابتكارات التي تغير وجه الحياة ظلت قليلة وشحيحة. ما السبب؟

أغلب الحضارات القديمة اعتمدت على منظومة لاستغلال الطاقة العضلية البشرية في الإنتاج من خلال العبيد. كان في الإمبراطورية الرومانية ثمانية ملايين عبد. توفر العبيد بكثرة أضعف الحافز للبحث عن مصادر طاقة لتحريك الأشياء. إن اختراعات مهمة مثل الساقية وطواحين الهواء، والتي تمثل مصادر مبتكرة للحصول على الطاقة، لم يتم الاستفادة منها بصورة واسعة، ولم يجرِ تطويرها. لا تتصوري أن أصحاب الابتكارات في العصور القديمة كانوا علماء يجلسون في معامل. أغلب المخترعات الكبرى المهمة، مثل الورق والطباعة، طورها حرفيون يعملون بأيديهم. وفي روما كانت أغلب قوة العمل من العبيد. ليس لدى العبيد أي حافز للابتكار، فما الذي يحملهم على إبداع شيء جديد لن يعود عليهم مباشرة بالنفع أو الربح؟

الحكام أيضًا كانت لديهم خشية من الابتكارات الجديدة. مثلًا: رفض الإمبراطور الروماني «فسبازيان» اختراعًا لنقل الأعمدة الكبيرة من دون حاجة للكثير من العمال. هو رأى أن ذلك سيترك الكثيرين في العاصمة في حالة بطالة، بما يمثل خطرًا سياسيًّا. الإمبراطور «تيبريوس» رفض اختراعًا آخر لتصنيع الزجاج، وأمر بقتل الرجل الذي جاءه به، خشية أن يصير سعر الذهب مثل التراب!

إذا كنتِ تعيشين في هذا العصر، فإنكِ ولا شك ستصلين إلى خلاصة بعدم جدوى الابتكار. إن مَن يقوم بالابتكار يسعى بالأساس لجني ثمرته. عندما يشعر الناس بأن التغييرات لا تحدث سوى ببطء شديد، فإنهم لا يُقدمون على الابتكار لأنهم يعرفون أنهم لن يجنوا ثمرة أفكارهم المُبدعة في حياتهم. بطء التغيير مشكلة في ذاته، ولكن المشكلة الأكبر أنه يُشيع الاقتناع بعدم جدوى الابتكار. تصوري مثلًا أن يكون لزامًا على صاحب فكرة «فيسبوك» أن ينتظر خمسين أو مائة عام قبل أن يرى ثمرة اختراعه.

من الواضح أن المجتمعات التي أقامها البشر حتى هذا التاريخ ظلت، على تركيبها وتعقيدها، بعيدة عن تجاوز عتبة معينة تسمح بكسر الشفرات التي يعمل على أساسها العالم الطبيعي، ومن ثم توليد مبتكرات جديدة. من دون مبتكرات تكنولوجية، تظل المجتمعات عرضة لدورات متتالية من الازدهار، ثم التفكك والتحلل والتراجع إلى وحدات أبسط. البساطة هنا تعني ثلاثة أشياء:

1- أعداد أقل من البشر.

2- تنوع أقل في الأنشطة التي يقومون بها. (بعض الوظائف والحرف تختفي)

3- علاقات أضعف وشبكات أوهى، فيما بينهم. (التجارة تتقلص، وتتراجع فرص ظهور كاسري الشفرات)

كان على البشر أن يخوضوا رحلة طويلة، قبل أن يتجاوزوا هذه العقبة الكبيرة التي تجعل مجتمعاتهم في حالة من التأرجح بين البناء والفناء. كان لا بد من مستوى آخر من التركيب والاتساع العددي بما يسمح بإنشاء حضارات أكثر توليدًا للابتكار. الابتكار هو العازل الوحيد الذي يجعل الحضارة أشد صلادة في تحمل صدمات الأوبئة، وتقلبات المناخ، وصراعات البشر الدامية.

الابتكار هو عملية إبداعية لكسر الشفرات باستخدام المعلومات. هي تدور في الدماغ. لقد عرفنا أن الابتكار يقدم عليه فئة من البشر هم كاسرو الشفرات. لكي يظهر هؤلاء، بكثرة، في المجتمع، يقتضي الأمر توفر عدد كبير من العقول. من المهم أيضًا أن تعمل هذه العقول معًا بصورة أو بأخرى. أن تكون متصلة ببعضها بعضًا، وأن تتناقل المعلومات فيما بينها بصورة أسرع

بحيث تبني على أفكار بعضها بعضًا. هكذا، وهكذا فقط، يحدث التغيير الجوهري والحاسم في نمط الحياة.. هكذا تحافظ النظم الاجتماعية الكبرى على نفسها، ولا تواجه مصير روما.

برغم أن الإمبراطوريات تهيئ السبيل أمام تكوين مجتمعات بشرية أكبر حجمًا، وبرغم أنها تفتح المجال أيضًا أمام ازدهار التجارة، إلا أن اعتمادها على العنف والإجبار والجباية ومنظومة العبودية يُضعف من احتمالات تعاون البشر طوعًا. التعاون الطوعي للبشر يُخرج أفضل ما فيهم ويُفجر ينابيع الإبداع لديهم. سيتطلب الأمر شيئًا جديدًا يجعل هذا التعاون الطوعي ممكنًا على نطاق واسع، ويخلق روابط أكثر إنسانية بين البشر.. لن يأتي هذا «الشيء الجديد» من عالمنا، وإنما من عالم آخر ما ورائي.. انتظري آخر رسائلي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بابا العزيز..

أجريت اليوم اختبار كورونا، ونتيجته سلبية والحمد لله. أخيرًا، خرجت من غرفتي بعد أسبوعين من العزل. لقد رأيت العالم من حولي وكأنني أراه لأول مرة!

أرى فيض عطف وإشفاق في عيني أمي، فأتذكر أن هذه الرابطة كانت البذرة الأولى لمشاعر الرحمة والتعاطف التي جعلت البشر مختلفين عن أي كائن آخر.

أنظر إلى أخي الصغير وهو يلعب. أدرك الآن أن اللعب هو عمله. أغبطه على طفولته المديدة ككائن بشري يتعلم شفرات العالم، وشفرة الجماعة التي يعيش فيها. كم هو رائع أن يكون الواحد منَّا إنسانًا ينتمي إلى جماعة بشرية..

أتطلع إلى الخروج من البيت غدًا. عزلة كورونا مرت كدهر. أفتقد الناس. نحن بالفعل لا نعيش سوى في جماعة، وبالجماعة. حياة الجماعة صعبة. مليئة بالرموز الغامضة والخداع غير المبرر، والإستراتيجيات المركبة من أجل التفوق على الآخرين. غير أن الجماعة هي ما جعلتني أنا.

كتبت لي في إحدى رسائلك أنني أسير على طرق رسمتها الجماعة لي. أفهم هذا، ولكن كثيرًا ما أشعر بأنني أريد أن أخرج عن هذا الطريق الذي يبدو كمسار قطارٍ يتحرك وئيدًا إلى محطة نهاية معلومة سلفًا. أريد أن أخرج إلى السهول والوديان، إلى حيث لا طريق أو مسار. في دماغي أسئلة لا تشغل أحدًا، وفي قلبي شوق لسعادةٍ لا تزورني إلا لمامًا.

على الأقل أنا اليوم سعيدة. أتذوق الطعام كما لم أذقه في حياتي، بعد أن حرمتني كورونا التذوق أيامًا. الحياة بلا طعم ليست حياة، ولا تستحق أن تُعاش!

هل في قصة البشر مساحة للسعادة؟ أنت لم تذكر السعادة في قصتك المليئة بصراع البقاء، ومطاردة الخلود، وتأسيس الإمبراطوريات الكبرى.. ثم سقوطها. ما الغاية من القصة كلها إن كنَّا نحن أبطالها مجرد أدواتٍ في أيدي قوى جبارة كالجينات والفيروسات والإمبراطوريات؟

أين وعدك عن علاج القلق ونوباته؟ لم أجد في قصتك سوى المزيد منه!

أنتظر رسالتك الأخيرة لكي أعود إلى حياتي العادية.. إلى طريقي المرسوم..

ليلى

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الرسالة العاشرة
انفجار الأفكار

«يقول العقل: لا يوجد شيء فيما وراء العالم الحسي.

يقول القلب: لا، بل يوجد شيء، وقد ذهبت كثيرًا إلى هناك».

الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي

(1315م - 1390م)

عزيزتي ليلى..

حمدًا لله على سلامتك. أنا أيضًا سأعود لجماعة البشر غدًا بعد الخروج من العزل. هذه هي آخر رسائلي إليك. ستلتقين عبر سطورها بنوعية نادرة من البشر اختاروا ألا يتبعوا مسار الجماعة، أو هم اُختيروا لهذا المصير. ربما تجدين فيها ما يُساعدكِ على شق طريقكِ الخاص الذي تفتشين عنه. ربما تعثرين بين ثنايها على إجاباتٍ عن بعض تساؤلاتكِ عن السعادة ومغزى قصتنا كلها.. وقد تصادفين فيها طرقًا مبتكرة للتعامل مع القلق، أو على الأقل التفاهم معه!

نحن نقترب الآن من لحظة فاصلة في القصة. اللحظة التي تكوَّن فيها دماغك! لا أقصد الدماغ بالمعنى البيولوجي والعصبي بالطبع، فهذا حدث - كما عرفتِ- منذ زمنٍ بعيدٍ جدًّا. ما أرمي إليه هو ما في دماغكِ من أفكار كبرى عن العالم. نظرتكِ إلى الوجود. الفلسفة التي ترين الدنيا من خلالها.

إذا ظننتِ أنكِ لا تعتنقين فلسفة فأنتِ مخطئة. كلنا فلاسفة على نحوٍ ما. ثمَّة أفكار كبرى في أدمغتنا هي التي تُحدِّد ما نسعى إليه في الدنيا، وما نعتبره خيرًا وحقًّا، وما نظن أنه الهدف من وراء حياتنا. كل ما تفعلينه في حياتك، أو بحياتك، ليس سوى محصلة للأفكار الموجودة في دماغك. وكل فكرة لديكِ مؤسسة على أفكار أشمل وأكبر مستقرة في أعماق عقلكِ حتى لو لم تلاحظي ذلك. نحن نبني رؤيتنا للعالم كله على هذه الأفكار الكبرى..

مثلًا: أنتِ تعتقدين أن كل حدث له مسبب. وأن الأسباب تؤدي إلى النتائج، وأن الأشياء التي تحدث في الطبيعة حولنا يمكن فهمها على هذا الأساس. النار تلسع لخواص فيها، والحديد يصدأ لطبيعة به، والأشياء تسقط إلى الأرض بسبب الجاذبية. فكرة السببية هذه هي فكرة كبرى موجودة في دماغكِ وترين العالم من خلالها. ولكنها ليست بديهية كما تظنين. الدليل على ذلك أن أغلب البشر لم يروا العالم على هذا النحو عبر التاريخ. كان لدى البشر تفسيرات

أخرى لحدوث الأشياء في الطبيعة، مثل أن الأرواح الخفية هي التي تتحكم في كل شيء. كانت هناك أفكار كبرى مستقرة في أدمغتهم جعلتهم يرون العالم والطريقة التي تحدث بها الأشياء على نحوٍ مختلفٍ تمامًا.

من أين جاءتكِ هذه الفكرة الكبرى عن الأسباب والنتائج؟ أنتِ لم تولدي بها، ولكن تعلمتِها من آخرين. ومن أين جاء بها هؤلاء الآخرون؟ تلك هي قصتنا في السطور القادمة.. قصة تكوُّن الأفكار الكبرى الأساسية التي ملأت أدمغة مليارات البشر منذ أكثر من 2500 عام، وحتى اليوم. إن هذه الأفكار الكبرى تُشبه جذور الشجرة الغائرة في عمق الأرض. أنتِ لا ترينها، ولكنها شريان الحياة للجذع والفروع والأوراق التي تظهر لك.

الواقع المادي له تأثير حاسم في تكوين عناصر قصتنا، ورسم «قواعد اللعبة» و«حدود الملعب» كما رأينا. غير أن رؤية البشر لهذا الواقع المادي، تؤثر كذلك في قصتهم ومسارها. الواقع مهم، ولكن الطريقة التي ترين بها الواقع أهم. تلك حقيقة نابعة من أن عقولنا لديها هذه الخاصية العجيبة التي تمكنها من إعادة صياغة الواقع المحيط بنا..

نحن لا نرى الواقع كما هو، بل كما تستقبله عقولنا وأدمغتنا وتعيد صياغته. تمامًا كما لا تستطيع عيوننا البشرية رؤية اللون الأصفر، وإنما تصنعه أدمغتنا، عبر شفرة الدماغ التي تحدثنا عنها من قبل، من خليط من الأخضر والأحمر. العين البشرية لا تستطيع التقاط الطول الموجي سوى لثلاثة ألوان فقط: الأخضر والأزرق والأحمر. بقية الألوان التي نراها ليست سوى «وهم» تصنعه أدمغتنا من خليط من هذه الألوان!

إن قصتنا لا تتحرك فقط على أساس ما يحدث في الواقع، وإنما أيضًا عبر ما يحدث في الأدمغة.. خاصة في بعض الأدمغة التي تشغل نفسها بأشياء تتجاوز المعيشة اليومية والصراع من أجل البقاء. إذا أردتِ معرفة لماذا اتخذت قصة البشر مسارًا بعينه، ولماذا عاشوا بطريقة دون غيرها في فترات التاريخ المختلفة، فعليكِ ألا تكتفي فقط بتقصي ظروف حياتهم المادية وما كانوا يستخدمونه من أدوات وتكنولوجيا، ولا حتى بمعرفة ظروف البيئة ومحدداتها، أو الجغرافيا وقيودها.. عليكِ أن تُفتِّشي داخل عقولهم للوقوف على الأفكار الكبرى المستقرة بداخلها. فهذه الأفكار تصنع الأحداث بقدر ما تصنعها ظروف البيئة والواقع المادي، بل إن هذه الأفكار كثيرًا ما تعيد صياغة الواقع المادي وتشكله من جديد!

غالبًا ما تتعلق هذه الأفكار الكبرى بأسئلة جوهرية عن العالم، وهي أسئلة شغلت تفكير البشر في كل زمان ومكان. هي الأسئلة نفسها التي تشغلكِ اليوم..

لماذا هناك عالم من الأصل؟ ولماذا نحن هنا؟ هل هناك وجود واحد، أم أكثر من وجود أم لا يوجد وجود من الأصل وكل ما نراه حولنا مجرد وهم؟ هل هناك قوانين كبرى تحكم هذا الوجود؟ ولو كان ذلك صحيحًا، فهل ثمَّة مجال لخرق هذه القوانين؟ ما الظروف التي تجعل ذلك ممكنًا؟ هل الوجود هو المادة التي نراها ونلمسها أم أن هناك قوى أخرى؟ هل هناك روح أم أن الكون كله مادي؟ ولو كانت هناك روح، فما طبيعتها، وهل تعيش بعد موت الجسد؟ هل يمكننا، من الأصل، أن نعرف الإجابة عن هذه الأسئلة؟ وبفرض أننا عرفنا الإجابة، فكيف لنا أن نتأكد من أن ما نعرفه هو الحقيقة؟ كيف نميز بين الأفكار الصحيحة والخاطئة.. ما المعيار؟ وما السبيل الأفضل لكي نعيش حياتنا؟ أي قيم نعتنق وأيها نترك؟

هذه الأسئلة الكبرى لا تشغل بالنا في كل يوم وكل لحظة. ولكن الإجابة عنها، مع ذلك، تشكل طريقة حياتنا. ولا وجود لحضارة مركبة لم تهتم بهذه الأسئلة وتنشغل بتقديم إجابات عنها.

أنتِ أيضًا لديكِ إجابات معينة عن بعض هذه الأسئلة على الأقل، فمن أين جاءتكِ معتقداتكِ وأفكاركِ الأساسية عن العالم؟

لقد تخلقت وتطورت في أدمغة عدد من البشر عاشوا في فترة زمنية متقاربة. نحن نتكلم عن فترة حول العام 500 ق.م، قبله بمائتي عام، وبعده بمائتي عام تقريبًا. حول هذه الفترة حدثت انطلاقة روحية وعقلية. تفكير جديد. تغيير في العقل، أو بالأحرى في طريقة استعماله. كانت هذه قفزة محورية في قصتنا؛ لأننا انتقلنا من مجرد السعي إلى البقاء، إلى البحث عن معنى هذا البقاء، والتفتيش عن طرق وأساليب تجعل بقاءنا المحدود على وجه الأرض مُثمرًا وله معنى.

الأفكار لم تتخلق في الأدمغة فحسب، ولكن هبطت على البشر في صورة وحي إلهي حمله الأنبياء والرسل. الدين التوحيدي الإبراهيمي الأول، اليهودية، تشكلت معالمه الأساسية حول هذه الفترة. لحقت به المسيحية حول القرن الأول الميلادي، ثم الإسلام في فترة لاحقة في القرن السابع الميلادي. هذه الأديان التوحيدية تشكل اليوم الإطار الذي يرى من خلاله مليارات البشر عالمهم، ودور الإنسان فيه.

الأفكار الكبرى لها قدرة على تغيير الواقع؛ لأنها تنسج علاقات جديدة بين البشر والعالم، وأيضًا بين البشر وبعضهم بعضًا. إن قصة ظهور الأفكار الكبرى والأديان العالمية هي النقلة الأهم على الإطلاق في قصتنا بعد التحول إلى الزراعة. إنها قصة الرحلة التي قطعناها إلى أكثر الأماكن غموضًا في هذا الكون: إلى داخل أنفسنا، وإلى ما وراء عالم المادة المحسوس. سوف

تكتشفين بعد قليل أن الولوج إلى هذه العوالم غير المرئية، سوف يؤدي - وهذا هو المدهش- إلى نقلات كبرى في الحياة الواقعية والعالم المحسوس.

إليكِ واحدة من الحقائق المدهشة عن قصتنا: إننا نعيش اليوم في العالم الحديث، ولكن أدمغتنا ووجداننا مملوء بأفكار وعقائد تخلقت في العالم القديم، وبالتحديد خلال هذه الفترة التي نتحدث عنها. القصص الأقرب إلى قلبك، والتي لُقنتيها في مبدأ حياتكِ وبداية تفتح عقلك، تنتمي إلى هذا العالم القديم. قصص الأنبياء وتعاليم الأديان الكبرى تنتمي إلى عالم بعيد عنَّا زمنيًّا، وإن كان قريبًا جدًّا من قلوبنا ووجداننا.

إن السؤال الكبير الذي شغل القدماء، هو ذاته الذي يشغلكِ اليوم: ما الطريقة المثلى التي يجب أن نعيش بها حياتنا على الأرض؟ وهل من سبيل إلى السعادة في هذا العالم؟

ما السبيل إلى حياة سعيدة؟

في أكثر من مكان، بدا أن العالم كما لو كان يمر بطورٍ من التغيير حول العام 500 ق.م. ازدادت أعداد البشر وصارت حياتهم أكثر تركيبًا وتداخلًا. المدن تضخمت. التجارة ازدهرت. ومع تضخم المدن، ظهرت مشكلات لم نعهدها من قبل، وبرزت تساؤلات غير مألوفة. حياة المدن يصاحبها قدر أكبر من انعدام اليقين. أنتِ في المدينة، وبعكس الريف، تحتكين بالكثير من الأغراب. شعور القلق والاغتراب ملازم لحياة المدن. يتعمق الشعور أكثر مع اتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء، وهو ما يحدث غالبًا مع الازدهار والاستقرار والتجارة.

التجارة تفعل شيئًا آخر. إنها تعرف الناس بأنماط حياة مختلفة. عندما تعرفين أن طريقة حياتك ليست هي الطريقة الوحيدة في العالم، وأن هناك مجتمعات أخرى لها «شفرة اجتماعية» مختلفة، وآلهة مغايرة.. تتولد لديكِ أسئلة بشأن مجتمعكِ أنتِ. لو كان لديكِ عقل فلسفي فسوف تلاحظين أن «الشفرة الاجتماعية» في مجتمعكِ لا تعكس بالضرورة حقائق كونية مطلقة، وإنما نسبية. التجارة تعتمد على المال، والمال يدفع الناس للتفكير بصورة رمزية مجردة، وأيضًا يُدرب العقل على الحساب.

الانتقال للأبجدية كان له أثر آخر مهم. سهولة الأبجدية، بالمقارنة بالكتابة التصويرية، توفر الفرصة أمام أعدادٍ أكبر لتعلمها. لم تعُد معرفة الكتابة حرفة، كما كانت في مصر القديمة مثلًا، بل صارت مهارة يُتقنها عدد أكبر من البشر الذين يعملون في مجالات مختلفة. مع تزايد أعداد الناس التي تعرف القراءة والكتابة، تتكاثر الأسئلة وتصير أكثر عمقًا وإلحاحًا، إذ تنتشر المعلومات والأفكار بين أشخاص لا يعرفون بعضهم بعضًا، ولا يعيشون في

المكان نفسه. مع الكتابة تتوفر أيضًا إمكانية مراجعة الأفكار ونقدها ومقارنتها. التفكير بالكتابة يجعل العقل منضبطًا أكثر.

حول عام 500 ق.م ظهر عدد من الفلاسفة والمعلمين الروحيين في وقتٍ متقارب. بعضهم فكر في مبادئ جديدة لتنظيم التواصل والعلاقات بين أغراب في مجتمعات كبيرة. أغلبهم انشغل بالتفكير في الطريقة المثلى التي يجب أن يعيش بها الفرد في هذا الزمن المضطرب. في الكتل الحضارية الكبرى، في الصين والهند، وأيضًا على ضفاف المتوسط، ساد عالم متشابه. لم تكن هذه المناطق تحت سيطرة إمبراطوريات كبرى، بل تشرذمت إلى ممالك متنافسة، ودويلات ومدن وإمارات متحاربة ومتطاحنة.

بوذا (المولود عام 563 ق.م)، وكونفوشيوس (المولود عام 551 ق.م)، وسقراط (المولود عام 469 ق.م).. ثلاثتهم ظهروا في وقتٍ متقاربٍ كما ترين، ووسط ظروف متشابهة شهدت تغيرًا اجتماعيًّا حادًّا، ومنافسة ضارية بين وحدات سياسية صغيرة وإمارات وممالك.

ثلاثتهم فكروا في سؤالين جوهريين:

- كيف يجب أن يعيش الإنسان حياته ويحقق سعادته؟

- ما السبيل الأفضل لتنظيم المجتمع، وترتيب العلاقات بين أعضائه؟

ربما لاحظتِ أن السؤالين مرتبطان، فنحن ننظم مجتمعاتنا على أساس تصورنا لما يحقق سعادة الأفراد.

تذكري أننا في زمن الإمبراطوريات الذي حدثتكِ عنه في رسالتي السابقة. زمن الرجال الأقوياء، وسيادة قانون العنف والقوة كوسيلة لفرض الإتاوة والجباية واستخلاص الموارد. إذا أضفتِ لذلك هيمنة الآلهة، يمكنكِ تصور مدى خطورة أن يقترح شخص ما تصورًا مغايرًا للحياة بأسرها، أو للطريقة التي يجب أن نعيشها بها. هذه النوعية من الأفكار تسمى بالأفكار الجذرية: أي تلك الأفكار التي تقلب المجتمع، وربما العالم بأسره، رأسًا على عقب. إنها أفكار تضرب «جذور» المعتقدات السائدة وتهزها بعنف. العقل يُمكنه، من حيث المبدأ، التفكير في أي شيء.. أي شيء على الإطلاق. على أن العقل في الواقع، يظل محدودًا بالقيود التي يضعها المجتمع. هذه القيود تفرض على العقل أن يظل حبيسًا في إطار، دون حتى أن يرى هذا الإطار. يصير العقل كسمكة تسبح في الماء لا يمكنها تصور عالمٍ آخر خارجه.

المفكرون الثلاثة كسروا ذاك الإطار بدرجات متفاوتة وأساليب مختلفة. كانوا مجددين وشجعانًا. التصورات التي طرحوها، على بُعد المسافة بينهم، حملت عناصر مشتركة أهمها إمكانية أن يصل الإنسان إلى الحقيقة بنفسه، وأنه لكي

يفعل ذلك عليه أن ينظر داخل نفسه وليس خارجها. الحقيقة والسعادة أقرب إلينا ممَّا نتصور.. إنها في داخلنا. لقد أدركوا، ربما لأول مرة، الإمكانيات اللا محدودة التي ينطوي عليها الدماغ البشري. ليس فقط في إيجاد الأنماط المتكررة كما رأينا في بداية قصتنا، ولكن أيضًا في التفكير فيما يتجاوز هذه الأنماط، وهذا ما ندعوه اليوم بالتفكير «خارج الصندوق». هم عرفوا أيضًا أن الكثير من المشكلات التي نُعاني منها في الحياة تنبع من العقل، والكثير من الحلول يمكن أن يأتي منه أيضًا. العقل عدو وحليف في الوقت ذاته. كان هذا الفهم الجديد للعقل اختراقًا مذهلًا؛ لأنه يعني أن الطريق إلى تغيير العالم يبدأ من تغيير التفكير، ولا شيء آخر.

الثلاثة آمنوا بالإنسان، وبقدرته الذاتية على أن يصنع شخصيته، ويحقق سعادته. اقترح كل واحد فيهم برنامجًا مختلفًا للوصول إلى هذا الهدف. لقد كانوا مثل معلمين، يدرسون كورسات مختلفة، ولكن في جامعة واحدة. الطريقة التي فكروا بها، بل وسيرة حياتهم، لعبت دورًا حاسمًا في مسار قصتنا كما سنرى..

«كونفوشيوس» قد لا يروق لكِ كثيرًا. لقد كان رجلًا يتمسك بالطقوس والتقاليد، ويرى فيها وسيلة مهمة للارتقاء بالإنسان. لو أنه كان ناظر مدرسة، لكان من ذلك النوع الذي يهتم بتفاصيل ثيابك، وإيقاع مشيتكِ وصوت قهقهتكِ المرتفع أكثر من اللازم. ربما يزعجكِ أن تعرفي أنه لم يكن يجلس سوى على سجادة مفرودة بطريقة معينة، وأنه رأى أن الأخ لو شاهد زوجة أخيه تغرق، فليس له أن ينقذها إن كان ذلك سيُحتم إمساكه بيدها، فهذا ضد التقاليد!

غير أن الرجل كان يرى معنى أعمق وراء الاتباع الصارم للتقاليد والطقوس. كان يرى أن ممارستنا لطقوس معينة، وتكرارها، تؤدي إلى تغيير شيء في داخلنا، ومن ثم تغيير سلوكنا إلى الأفضل.. خاصة إن لم نكن نؤدي هذه الطقوس بطريقة ميكانيكية. الطقوس لها مكانة مهمة في الثقافة الصينية، وبخاصة طقوس التعامل بين مَن هم في مراتب مختلفة (الأب والابن، أو الرئيس والمرءوس). يمكنكِ ملاحظة هذا الملمح في المجتمع الصيني إلى اليوم.

المنطلق في فلسفة «كونفوشيوس» كان الأسرة، الوحدة الأساسية في المجتمع البشري. وبالتحديد علاقة الاحترام والتبجيل من الابن لأبيه، والعطف من الأب على ابنه. أراد أن ينقل هذا النمط نفسه إلى الدولة، فيحنو الحاكم على الشعب كأبنائه، ويوقرونه كأبٍ لهم. لاحظي أن أهم ما يميز الأسرة في العصور القديمة هو طبيعتها الهرمية (الأب فوق الزوجة والأبناء). «كونفوشيوس» أراد أن يُسقط هذه التراتبية الهرمية على الدولة أيضًا. الحاكم حاكم، والشعب شعب. عندما يعرف كل شخص مكانه في المجتمع،

يتحقق الهدف الأسمى وهو الانسجام. «اعرف مكانك»، كان هو الشعار الأثير لكونفوشيوس.

غير أنه رأى أن الاحترام والتوقير والتراتبية لا تكفي، لا بد من العطف والإنسانية، أو ما يسمى «رِن» (ren). وتذكرين أننا تحدثنا من قبل عن «القاعدة الذهبية» في العلاقات بين البشر، وهي التبادلية. إن «كونفوشيوس» صاغها بطريقة عكسية عندما سأله أحد تلاميذه عن قاعدة واحدة يمكن أن يعيش بها حياته فقال: «لا تُعامل الآخرين، بما لا تحب أن يُعاملك به الآخرون».

لماذا «كونفوشيوس» مهم في قصتنا؟ لأنه الشخصية الأكثر تأثيرًا في الحضارة الأطول عمرًا على ظهر الأرض اليوم. الصين هي أطول تجربة في الحضارة غير المنقطعة، ولا مثيل لها في ذلك سوى الحضارة المصرية القديمة، مع فارق مهم هو أن الحضارة الصينية ما زالت قائمة إلى اليوم. لقد عاش الصينيون 24 قرنًا بتعاليم وأفكار هذا الرجل. وإلى يومنا هذا، يعيش مئات الملايين في الصين بوحي من الأفكار التي بثها وبشَّر بها.

«كونفوشيوس» اعتبر أن بإمكان الإنسان الارتقاء بذاته وشخصيته عبر التعليم الذي كان ركيزة فلسفته. لينصلح الشعب، لا بد أن يكون الحكام صالحين. كان هدفه الأعلى هو ما نسميه اليوم بـ«الحكم الرشيد»: كيف يمكن الحفاظ على الاستقرار في المجتمع، والاستقرار في السُّلطة؟ هذا سؤال كبير جدًّا. لقد صادفنا إجابات مختلفة عن هذا السؤال مع بُناة الإمبراطوريات. غير أن الحل الذي اقترحه «كونفوشيوس» كان عمليًّا وبسيطًا في آن. برنامجه كان يقوم على بناء الشخصية التي تتولى السُّلطة. ليس بمجرد المعرفة العملية بالحساب أو الكتابة أو غير ذلك. الشخصية الفاضلة، المتزنة، هي الأجدر بأن تتولى المناصب الحكومية. أي إن فلسفته باختصار تنطلق من تغيير الإنسان نفسه – بالتعليم - من أجل تغيير المجتمع والعالم. كان أيضًا مقتنعًا بأن التعليم لا بد أن يكون متاحًا للجميع.. لأبناء الأرستقراطية والفلاحين على حدٍّ سواء. وقَبِل في مدرسته تلاميذ من أبناء العامة. لقد فتح بابًا لما نُسميه اليوم «الصعود الاجتماعي» عبر الجدارة العقلية والاجتهاد الذاتي في بناء الشخصية.

سيظل هذا النهج ركيزة الحضارة الصينية لألفي عام. اعتمدت الصين، حتى سقوط آخر أباطرتها في عام 1911م، على نظام لاختيار الموظفين على أساس من التعليم الكونفوشي. الموظفون لعبوا الدور الأهم في استقرار الحضارة الصينية كما رأينا. على خلاف نظم حضارية أخرى، لعب فيها النبلاء أو رجال الدين دور الوسيط بين الحاكم والشعب، فإن الموظفين ظلوا الوسيط بين الإمبراطور والناس في الصين. وإلى اليوم، يدير جمهورية الصين

الشعبية جيش من خمسة ملايين مدير لمؤسسات تعمل في مناحي النشاط الإنساني كافة!

إن «كونفوشيوس» لم يكتب حرفًا، مثله مثل «سقراط» و«بوذا» وكثير من المفكرين والأنبياء في هذا العصر. تلاميذه أخذوا على عاتقهم جمع دروسه وتعاليمه، ثم جرى تسجيلها بعد ذلك كتابة. صارت هذه التعاليم والأفكار من التغلغل والهيمنة على المجتمع بصورة تقترب من قوة الدين وتأثيره. وهذه مفارقة عجيبة؛ لأن «كونفوشيوس» لم يشغل باله كثيرًا بما وراء هذا العالم. هو رأى أن في شئون هذا العالم ما يكفي للنظر والتأمل.

على العكس، اهتم «بوذا»، الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد، بما وراء الواقع الذي نعيش فيه..

في زمن انفجار الأفكار، أشرقت فكرة واحدة، كبيرة وملهمة، بصورٍ شتى، وفي أدمغة مختلفة. هذه الفكرة تذهب إلى أن العالم الذي نعيش فيه ليس كما يبدو عليه. ثمَّة خدعة كبرى. هناك عالم آخر، لا مرئي، يقبع خلف هذا العالم المحسوس!

هذه الفكرة سوف تُشكل وجدان وضمير وشعور مليارات البشر، من حينها فصاعدًا.

لم يكن «بوذا»، إذن، هو مَن جاء بهذه الفكرة. هو بنى على الهندوسية التي نشأ في كنفها. الهندوسية تحمل مفهومًا دائريًّا عن عالم من الميلاد والممات الذي لا ينقطع ولا ينتهي. يفضي هذا إلى معاناة متواصلة للنفس. يمكن أن يولد المرء ويموت ثمانية ملايين مرة بفعل التناسخ. «الكارما»، أو الفعل الجيد بنية جيدة، هي ما تضمن للمرء ألا يولد في حياةٍ أخرى في صورة صرصار مثلًا أو ما هو أدنى!

القوة الأعلى في الهندوسية هي روح عظيمة، «براهمان»، متغلغلة في الكون. تنتشر فيه كما يذوب الملح في ماء المحيط. وبالتالي فإن كل الأشياء والأرواح مرتبطة على نحوٍ ما. بالرغم من صعوبة استيعاب هذا التصور، إلا أنكِ لو تأملتِ بعض الشيء لما وجدتِه يختلف كثيرًا عمَّا صادفناه عبر قصتنا من ارتباط الأشياء، من النجوم والشمس والمواد والمعادن والقوى الكونية والبشر والدول والأفكار، بشبكة واحدة كبيرة يتصل فيها كل شيء بكل شيء.. بصورةٍ أو بأخرى!

أغلب الظن أن «بوذا» اطلع أيضًا على «الأوبانيشاد»، وهي من أهم النصوص الفلسفية الهندوسية. كُتبت باللغة السنسكريتية بين القرنين الثامن والخامس قبل الميلاد. يدور النص حول فكرة أساسية هي طبيعة الوجود. هناك عالمان:

عالم الحواس، وعالم آخر خلف الحواس لا يمكن الولوج إليه على نحوٍ مباشر. لماذا؟ لأن العالم الأول يحجبه عنَّا. الحواس تمارس علينا الخداعَ بوسائل شتى. عقولنا أيضًا يمكن أن تضللنا. لهذا فإن عالم الحواس عابر وغير مستقر. هو مثل حلم ينتهي باليقظة في لحظة. خلف هذا العالم المضلل يقبع عالم الحقيقة الأبدية. الأشياء فيه ليست عابرة. الانفصال الذي نشهده في عالم الحواس، بين الأشياء وبين البشر وبعضهم بعضًا، ليس سوى جزء من عملية الخداع الكبرى التي نتعرض لها. بينما الحقيقة أن كل الأشياء وكل البشر مرتبطون في كُلٍّ واحد!

«بوذا» أخذ على عاتقه مهمة تخليصنا من الخداع الذي نتعرض له..

ولد «بوذا» أميرًا منعمًا في إحدى ممالك الهند التي صادفناها في الرسالة السابقة. كان مقدرًا له أن يرث العرش. تحدثت نبوءة عن أنه سيكون ملكًا عظيمًا أو زعيمًا دينيًّا ملهِمًا. أراد أبوه أن يعزله عن الحياة وتصاريفها وآلامها، فأحاطه بغلالة مخملية من العز والنعيم لكي يُعده لخلافته. لم يعرف «بوذا» المعاناة يومًا. لما بلغ التاسعة والعشرين من عمره، جرب أن يخرج إلى الشارع، إلى العالم الذي عُزل عنه طوال حياته.

في جولته الأولى، صادف أربعة مشاهد كان من شأنها أن تُحدث في داخله تحولًا عنيفًا، أو إن شئتِ ولادة جديدة. رأى «بوذا» رجلًا مريضًا، وشيخًا مُسنًّا، وجثة لرجلٍ ميت، ثم رأى ناسكًا يتسول. ربما صادفتِ أنتِ أيضًا المشاهد نفسها. بالتأكيد تعرفين أن المرض والشيخوخة والموت من حقائق الحياة. على أن «بوذا» خلص ممَّا رأى إلى نتيجة عجيبة: أن الحياة كلها عابرة، وأنه لا مهرب من المعاناة النهائية بالشيخوخة.. ثم الموت. هذا الإدراك البسيط هو جوهر ما يسمى بـ«الحالة الإنسانية»، أي حقيقة وجودنا، المؤقت والمضني، من الميلاد إلى الممات المحتوم، وإدراكنا لهذا المصير. إنها ذات الحالة التي حدثتكِ عنها في رسائلي الأولى، والتي أدرك الإنسان مبكرًا جدًّا أنه أسير لها، فأخذ يتحايل عليها بمشاريع وأفكار مختلفة لتحقيق ما يتصور أنه الخلود، مرة بتشييد الصروح الباسقة، ومرة بتصور استمرار الروح بعد الموت البيولوجي، ومرة بتناول الزئبق كما فعل إمبراطور الصين الأول!

انطلق «بوذا» في رحلةٍ للبحث عن الحقيقة وإيجاد سبيل لتجاوز حالة المعاناة هذه. بعد سنوات من عيش النُّسَّاك، قرر الجلوس تحت ظل شجرة تين في مكان يدعى «بوجدايا» في شمال الهند، وعدم مغادرة المكان إلا بعد الوصول للحقيقة. مرت أمامه، في جلسته هذه، كل حيواته السابقة. تخلص من كل رغبة ممكنة، بما فيها رغبته في التخلص من الرغبات! وفي النهاية، وبعد 49 يومًا كاملة من التأمُّل، وصل إلى التنوير. «استيقظ» كما قال.

أشرقت في عقل «بوذا» حقيقة كبرى: الحياة كلها معاناة. التخلص من المعاناة أمر ممكن. الطريق إلى ذلك يكون بالتخلي عن الرغبة، واتباع طريق التأمل والتحكم في العقل والوعي والسلوك. «بوذا» يقول لنا إن الحياة ليست سوى وهم كبير. النفس ذاتها وهم. نحن في هذا العالم مثل شخصيات في كتاب مؤلَّف ما. ليس لنا وجود حقيقي. تعلُّقنا بهذا الوهم هو سر عذابنا ومتاعبنا. المعضلة الصعبة التي وضع يده عليها هي أن طريق الرغبة لا ينتهي؛ لأن الرغبات تولِّد رغبات أخرى. والتعلُّق بالأشياء والأشخاص يُفضي حتمًا إلى الألم والحزن، فالأشياء لا تروي ظمأنا للمزيد منها، والأشخاص الذين نتعلق بهم زائلون.

أراد «بوذا» أن يحررنا، مرة واحدة وإلى الأبد. هو يدعونا إلى «الاستيقاظ» من الغفلة والوهم. انتبهي: ما يقوله ليس أن المعاناة تحدث في الحياة. كلنا يعلم ذلك، حتى الأطفال. ما يقوله هو شيء أكثر «جذرية» وعمقًا: المعاناة مجدولة في نسيج الحياة نفسها. هي حالتنا الأصلية أو الـ (Default) بلغة الكمبيوتر. ليست مجرد أشياء تحدث لنا من آن لآخر، وإنما هي طبيعة وجودنا التي لا مهرب منها.

الحل الذي اقترحه هو نوع من التدريب التأملي العميق من أجل السيطرة على عقولنا التي تصنع كل هذه الأوهام، وتحول بيننا وبين إدراك الحقيقة. عقولنا هي التي تقنعنا بأن اقتناء الأشياء سوف يجلب لنا السعادة، وأننا يمكن أن نصل إلى الرضا عند نقطةٍ ما. لو استطعنا تغيير الطريقة التي تعمل بها عقولنا، لتحررنا. يمكننا فعل ذلك عبر التأمل. لو أردتِ تجريب أبسط أنواع التأمل ما عليكِ سوى تركيز تفكيركِ في شيءٍ واحد، من دون أن يشرد ذهنك. جربي أن تفعلي هذا الآن. فكري، مثلًا، في صورة «شجرة» لدقيقة كاملة. هل رأيتِ كم هو صعب السيطرة على شرود الفكر؟! لقد شبه «بوذا» الأفكار التي تتجاذب أدمغتنا، بالقرود التي تتقافز في كل اتجاه. لا شك أنكِ لاحظت أن «بوذا» كان يعرف بالضبط أصل المشكلة التي تواجهينها مع نوبات القلق.

لماذا «بوذا» مهم في قصتنا؟

لأنه أسس لظاهرة مهمة للغاية سوف تتكرر بصورٍ شتى فيما بعد، لتصير من أهم التحولات في تاريخنا الكبير على الأرض. «بوذا» أسس لدين عالمي. أي لدينٍ ينتشر خارج المنطقة التي نشأ فيها. هذا مفهوم مختلف تمامًا عن مفهوم الأديان كما صادفناه حتى الآن في قصتنا. الأديان القديمة مرتبطة بالمجتمعات التي نشأت فيها، وبطريقة عيش الناس الذين يؤمنون بها (تذكري الشفرة الاجتماعية). الهندوسية مرتبطة بالهند، ولا انتشار لها تقريبًا خارجها. الديانة المصرية القديمة لم يكن لها وجود خارج مصر، اللهم سوى في حضارة كوش في السودان.. وهكذا. أما البوذية فشأن مختلف. لقد

انتشرت، بنسخ مختلفة، من منشأها في الهند إلى شرق آسيا والصين، ثم تمددت إلى اليابان وكوريا، واليوم لها وجود غير قليل في الغرب، وفي العالم نحو نصف مليار إنسان يدينون بنسخٍ مختلفةٍ من البوذية.

الأديان العالمية ستغير كل شيء. ستدفع بقصتنا إلى مستوى آخر من التجريد، والتركيب، والتنظيم. ستسهل التعاون بين أعداد أكبر من البشر، وعلى مساحات أوسع من الأرض. تحت مظلة الأديان العالمية ستنشأ نظم حضارية أكثر تعقيدًا من أي شيءٍ عرفناه في السابق.

البرنامج الذي طرحه «بوذا» - كما رأيتِ - شامل وإنساني. يخاطب الإنسان في كل مكان وزمان. ليس أدل على ذلك من تأثركِ برؤيته، الآن.. وبعد 2500 عام من حياته، وأنتِ تعيشين في مكان لا علاقة له بالمكان الذي ولد وعاش فيه، وتقرأين فلسفته بلغةٍ غير تلك التي تحدث بها. الحل الذي قدمه «بوذا» كان ثوريًّا وجذريًّا، وينبع من داخل الإنسان نفسه. في مقدور كل إنسان أن يعيش على أساس برنامج «بوذا»، ويجد الخلاص ويكسر دائرة المعاناة. لا حاجة للأضحيات أو الطقوس. لا حاجة كذلك للبراهمة ونظام الطبقات الهندوسي. تعاليم البوذية واضحة، ويمكن لأي إنسان أن يفهمها ويعيش على أساسها.

قوة الأديان العالمية تنبع من الفكرة الكبرى التي بشَّرت بها: أن هناك مجالًا آخر خلف عالمنا المحسوس. أما في اليونان فسوف يظهر طريق آخر مدهش لفهم العالم. لا بد أن نعبر في هذا الطريق أولًا قبل أن نلتقي المعلم الثالث، سقراط.

اكتشاف العقل على ضفاف المتوسط

يؤرِّخ البعض لبداية الحضارة اليونانية بعام 776 ق.م، وهو تاريخ أول ألعاب أولمبية تجمع المدن اليونانية (وهذا تقليد أخذناه عن اليونان وما زلنا نمارسه، كأسرة بشرية، إلى اليوم كل أربع سنوات). اليونانيون جمعتهم طريقة عيش واحدة، وآلهة مشتركة، في مدن متناثرة حول ساحل المتوسط. أشهر هذه المدن كانت أثينا وإسبرطة اللتين تعرفنا على قصتيهما من قبل.

ازدهار التجارة، إلى جانب زراعة القمح والزيتون والأعناب، كان سببًا في ازدهار هذه المدن. لم يكن اليونانيون جميعًا يعملون ويكدحون كمزارعين. كان ربع سكان المدن اليونانية على الأقل من العبيد. توفر العبيد، والثروة التي تولدت عن التجارة، منحت بعض سكان المدن اليونانية شيئًا هامًّا: وقت الفراغ.

في هذه البيئة الاستثنائية انبثق نوع جديد من التفكير. نظرة أخرى إلى العالم وطبيعته والأشياء التي يتكون منها. انطلقت أسئلة كبرى حول أصل الوجود ومآله، والقوى التي تحركه. وأسئلة أخرى حول طبيعة الإنسان نفسه، والطريقة التي يجب أن يعيش بها حياته. هذه النظرة الجديدة يُطلق عليها الفلسفة.

في أبسط معانيها؛ الفلسفة هي كل تفكير في طبيعة الحياة ومعناها. عندما تتأملين الأشياء العادية التي يأخذها البشر كمسلماتٍ بنوعٍ من الاندهاش والتساؤل، فأنتِ تمارسين تفكيرًا فلسفيًّا. الدهشة هي أصل الفلسفة كما قال «أفلاطون». آسيا الصغرى (أيونيا)، هي المكان الذي ظهر فيه أول فلاسفة اليونان. «أيونيا» هي ضفة بحر إيجة التي تقع في تركيا اليوم. لو أنكِ نظرتِ إلى الخريطة لوجدتِ أنها تحتل مكانًا فريدًا بحق. هي قريبة من آسيا، حيث حضارات بلاد الرافدين (بابل وآشور ثم فارس)، وشرق المتوسط (كنعان وفينيقيا). هي أيضًا على مسافة قريبة من مصر، حيث الحضارة القديمة الممتدة. الاختلاط بحضارات مختلفة، بأفكارها وعقائدها وعلومها، منح هذه البقعة مزية كبرى.

أول الأسئلة التي فكر فيها فلاسفة اليونان في أيونيا (حول عام 600 ق.م) كانت حول طبيعة الوجود..

من أي شيءٍ يتكون الوجود؟

أول الفلاسفة، «طاليس» (624-546 ق.م)، قال إن الوجود مكون من مادة رئيسية هي الماء. إنه إلهام لا بد أن يلفت النظر لأنكِ تعرفين أن قصتنا البعيدة جدًّا بدأت بالفعل في الماء، وأن الماء هو من أكثر العناصر انتشارًا في الكون. وقد ذهب فلاسفة جاءوا بعد «طاليس» إلى تبني أفكارٍ شبيهة، فقال أحدهم، وهو «أنيكسمانيس» (585-525 ق.م) إن الهواء هو أصل الوجود، وهي قفزة أكثر تجريدًا باعتبار أننا لا نرى الهواء. وقال «إمبيدوكليز» (490-430 ق.م) إن كل الأشياء في العالم مكونة من خليط من أربع مواد هي: الهواء والماء والتراب والنار، سمَّاها جذورًا، وأن هناك قوة تجمع هذه العناصر في نوعٍ من التوازن هي الحب، وقوة أخرى تعمل ضدها هي الصراع أو التنافر. وتجدين أن فكرة العناصر الأربعة تظهر أيضًا في الفلسفة الصينية.

هذه التصورات قد تبدو لكِ بدائية. هي ليست كذلك. هؤلاء الفلاسفة وضعوا أيديهم على ثلاث أفكار خطيرة:

الأولى أن الأشياء ليست بالضرورة كما تبدو عليه. أنتِ تظنين أن الكرسي الذي تجلسين عليه مصنوع من الخشب، ولكن «طاليس» يقول لكِ إن مبدأه الأول من الماء، مثل كل شيءٍ آخر في الوجود، «إمبيدوكليز» سوف يخبركِ

بأن الكرسي ليس سوى حصيلة اتحاد بين العناصر الأربعة التي يتكون منها كل شيء في الوجود.

الثانية هي أن العالم، على ما فيه من تركيب وتعقيد وتنوع، يمكن اختزاله وتفكيكه إلى أشياء أبسط. ثمَّة وحدة كامنة ونظام ما خلف هذا التنوع الظاهر حولنا.

الفكرة الثالثة هي أن هذه الوحدة، أو هذا النظام، يمكن الاهتداء إليه بالتفكير العقلي والتأمل في الظواهر.

هذا النهج في التفكير كان ثورة حقيقية. لقد كان لدى اليونان، كما لدى غيرهم من الحضارات، تفسيرات خرافية للوجود؛ من أين جاء وممَّ يتكون وكيف تجري الأحداث فيه. «طاليس»، ومَن جاءوا بعده، لجأوا إلى طريقٍ آخر في تفسير طبيعة العالم. مدى صحة ما جاءوا به من تفسيرات ليس هو الأمر المهم هنا. الجديد حقًّا كان هذه الطريقة في التفكير والتفسير المنطقي للأمور. أسهل شيء هو أن تربطي بين الظواهر الطبيعية، ورغبات الآلهة ونزواتها. كأن تقولي، مثلًا، إن الآلهة تبكي ولذلك تمطر السماء أو يفيض النهر. هذا تفسير خرافي أو أسطوري للظواهر. في المقابل، تعرفين اليوم أن فكرة طاليس عن الماء كأصل للوجود كله خاطئة، ولكنه بناها على أساس منطقي. هو نظر حوله، فوجد الماء يحيط ببلاده، وأدرك أن الماء هو سبب نمو النبات، وأن الإنسان والحيوان لا يعيش بدونه، وأنه لو حفر في الأرض فسوف يجد ماءً أيضًا. استنتج الفيلسوف اليوناني الأول من هذه الملاحظات أن الماء هو أصل كل شيء. فلاسفة اليونان جاءوا بفكرة مدهشة: أن هناك «نظامًا ما» خلف ما يبدو عليه الوجود من فوضى وغموض. وأن بالإمكان الاهتداء لسر هذا النظام، وكسر الشفرة التي تشغله، باستخدام أداة هي العقل. لقد اكتشفوا العقل!

كانت تلك خطوة مهمة في «كسر شفرة» الواقع المادي المحيط بنا في هذا العالم. الفكرة الكبرى التي جاء بها فلاسفة اليونان، وهم كانوا علماء في نفس الوقت، هي أن «شفرة العالم» قابلة للكسر. أول خطوة نحو تحقيق شيء ما هي تصور إمكانية تحققه من الأصل. لقد شق فلاسفة اليونان طريقًا سيقطعه فيما بعد علماء مثل «جاليليو» و«نيوتن» و«أينشتاين»، وأيضًا فلاسفة مثل «ديكارت» و«بيكون» و«لوك» وغيرهم. سيكون هذا الطريق وعرًا، كثير الالتفافات. ولكن من دون تلك الخطوة الأولى، ما كان ليظهر الطريق من الأصل. إذا لم تتصوري أن بإمكانكِ فهم العالم باستخدام دماغك، فلن تُقدِمي على المحاولة أبدًا. اليونانيون قالوا لنا إن هذا الفهم ممكن.. وهكذا ظهر طريق سار فيه فيما بعد المسلمون منذ القرن الثامن الميلادي،

ثم استلهمه منهم رواد النهضة الأوروبية ليصنعوا، بداية من القرن السادس عشر، الثورة العلمية التي نعيش في ظلها اليوم.

كانت تلك لحظة فاصلة في قصتنا. إنها اللحظة التي توصَّل فيها بعض البشر إلى ضرورة الشك في التفسيرات والأفكار السائدة في المجتمع الذي يعيشون فيه حول طبيعة العالم، وأسباب حدوث الظواهر. لو أنكِ شككتِ في طبيعة العالم المادية، فإن الخطوة التالية هي الشك في الطريقة التي تعيشين بها، وفي الطريقة التي ينظم بها المجتمع نفسه (الشفرة الاجتماعية).

لم يكن هذا الأمر سهلًا. الفلسفة ليست، في الغالب، نشاطًا آمنًا؛ لأن الناس لا يحبون التشكيك في الأفكار القابعة في أدمغتهم. كثير من فلاسفة اليونان عانوا بسبب المجتمع. «أنكساجاروس» (500-428 ق.م)، على سبيل المثال، نُفي من المدينة وحُرقت كتبه في وسط أثينا لأنه لم يُقر بأن الشمس من الآلهة، بل هي مجرد قرص أحمر كبير في حجم مجموعة من الجُزُر اليونانية. هو رأى أيضًا أن النجوم كبيرة للغاية ولكننا لا نراها كذلك لأنها بعيدة جدًّا، والقمر جسم مُعتم يستمد ضوءه من الشمس. قال كذلك بفكرة عجيبة هي أن هناك قوة تحرك كل شيء في الوجود، هي العقل (نوس).

لقد تطورت أفكار فلاسفة اليونان الطبيعيين شيئًا فشيئًا في اتجاه أكثر تجريدًا. في البداية قال بعضهم إن الأصل في الوجود هو مادة واحدة أو مجموعة مواد، ثم جاء مَن فكر في أن الأصل يمكن أن يكون فكرةً أو مبدأً وليس مادة..

«زنوفون» انتقد تعدُّد الآلهة وقال إن الأصل هو إله واحد، وإن هذا الإله هو الوجود نفسه، وهو الذي يحرك الأشياء بعقله!

«هيراقليطس» (457 - 535 ق.م) هو صاحب المقولة المشهورة: «أنت لا تنزل إلى النهر الواحد مرتين». فلسفته قامت على أن المبدأ الأساسي لكل شيء هو التغير المستمر، والتدفق والسيولة التي تطبع الوجود كله. أنتِ لا تنزلين النهر الواحد مرتين؛ لأن النهر نفسه يتدفق باستمرار فلا يكون هو ذاته، وأنتِ أيضًا تتغيرين فلا تكونين الشخص نفسه بعد لحظة. هو رأى أيضًا أن المتناقضات تُكمل بعضها، بل هي، في الواقع، الشيء نفسه: «الطريق الهابط هو الطريق الصاعد».

«فيثاغورس» (496 -582 ق.م)، الذي صادفناه من قبل، جاء بفكرةٍ أخرى عجيبة، وأكثر تجريدية. قال بأن الأعداد هي الأصل في الوجود..

لم يتعامل «فيثاغورس» مع الأعداد لفائدتها العملية في الحساب والقياس والعمارة، مثل المصريين أو البابليين، بل اهتم بالأعداد لذاتها. نظر إليها نظرةٍ فلسفية. لاحظ أن الأشياء في الواقع تتغير وتتبدل، ولكن الأعداد تبدو مبدأً ثابتًا مجردًا. تبدو شيئًا مطلقًا لا يمكن لمسه أو رؤيته في الواقع المادي. طفق «فيثاغورث» يبحث عن العلاقات المُدهشة بينها. اكتشف أن النسب الرياضية هي التي تصنع أيضًا نغمات الموسيقى، وأدهشه هذا الارتباط بين الأنماط. لقد رأى «فيثاغورس» وجماعته أن الرقم واحد هو أصل كل شيء؛ لأن الأعداد الأخرى جميعها مكونة منه، ولهذا فإن العد في اليونانية القديمة يبدأ من العدد اثنين وليس العدد واحد!

لقد حاول هؤلاء الفلاسفة الإمساك بأصلٍ واحدٍ أو فكرةٍ واحدةٍ لتفسير الظواهر المعقدة حولهم. على أن مجموعة أخرى من الفلاسفة سلكت طريقًا مختلفًا..

لاحظ «بروتاجوراس» أن الأشياء كلها نسبية. لا توجد حقيقة مطلقة. الشيء يكون حقيقيًّا بالنسبة للشخص وليس على إطلاقه. «الإنسان هو مقياس كل شيء»، كما قال. تعرض «بروتاجوراس» للنفي أيضًا بسبب خطورة فكرته. مَن يفكرون بهذه الطريقة عُرفوا بالسوفسطائيين. كانوا مدرسين جوَّالين يُعلِّمون الخطابة والمنطق بالأجر للراغبين في النجاح في الحياة العامة في الديمقراطية الأثينية. كانوا مثل المحامي الذي يستطيع الدفاع عن أي قضية. لا يهم إن كانت قضيتكِ صحيحة أو عادلة، المهم هو قدرتكِ في الدفاع عنها. ولذلك نصف اليوم مَن يجادل لمجرد الجدل بأنه يمارس «السفسطة». أما مَن يرى العالم من زاوية المادة فحسب، فهو يسير على خطى «ديموقريطس»..

ربما يكون «ديموقريطس» (370 - 460 ق.م) هو الأخطر بين فلاسفة اليونان الطبيعيين. هو قال إن الوجود ليس مكونًا من مادة واحدة أصلية (كطاليس)، ولا من فكرة واحدة (كزينوفون)، وإنما من أشياء صغيرة لا تقبل الانقسام، أطلق عليها الذرات.

قال «ديموقريطس» إن كل شيء في الكون مكون من ذرات وفراغ. الأشياء الحية وغير الحية على حدٍّ سواء، بما فيها الآلهة ذاتها. موت الكائنات (بما فيها الإنسان) ليس سوى انفصال الذرات وانحلالها، توطئة لمعاودة الاتحاد من جديد لبناء كائن آخر. هذه الفكرة تعكس رؤية مثيرة للعالم والوجود، إذ يترتب عليها أن كل شيءٍ حولنا مكون من مادة.. حتى الروح، قال «ديموقريطس» إنها مكونة من ذرات ذات طبيعة خاصة.

مَن يتبنون هذه الفكرة يطلق عليهم «ماديون». أي هؤلاء الذي يرون أن العالم مكون من شيء واحد، هو المادة. مَن يذهب هذا المذهب اليوم يرى أن الإنسان نفسه ليس سوى مجموعة من المواد وشفرة وراثية تنظم عمله، وأن الوعي والتفكير ليسا سوى حاصل تفاعلات بين مواد كيميائية معينة تتناقل بين الخلايا العصبية في المخ. وإذا مددتِ هذا التفكير على استقامته ستصلين إلى نتيجة خطيرة: أن إرادة الإنسان الحرة وقدرته على الاختيار لا وجود لها؛ إذ إن كل شيء، كل حركة وكل سلوك وكل تفكير وعاطفة، محتوم ومقرر سلفًا بواقع التفاعلات بين المواد!

المادية تمثل رؤية مهمة للعالم، ولكنها ليست الرؤية الوحيدة. في مقابل الماديين ثمَّة آخرون يقولون إن العالم مكون من شيء واحد أيضًا.. ولكن ليس المادة، وإنما الأفكار. هؤلاء هم المثاليون، الذين نظروا إلى ما وراء المادة، وإلى ما وراء عالمنا..

ما وراء العالم

لم يكتب «سقراط» (399-470ق.م)، المعلم الثالث مع «بوذا» و«كونفوشيوس»، حرفًا. قال إن الكتابة تُضعف الذاكرة، وهو لا يمكنه أن يكون موجودًا مع نصِّه للدفاع عنه وشرحه لكل قارئ. هو فضَّل الحوار المباشر سبيلًا للمعرفة وطريقًا إليها؛ لذلك فقد كان دأبه أن ينطلق إلى الأسواق يسأل الناس عن «ماهية» الأشياء: ما هي العدالة؟ ما هي الشجاعة؟ الأسئلة الأهم لديه كانت حول تعريف الأشياء والقيم التي نتناولها في حياتنا كل يوم دون أن نتوقف لنسأل عن ماهيتها من الأصل. نحن نعرف عن سقراط في الأساس من خلال حواراته مع تلاميذه وأصدقائه، كما نقلها لنا تلميذه أفلاطون. الحوار طريقة بارعة في تعلم الأشياء؛ لأنه يضعنا أمام الفكرة ونقيضها في الوقت نفسه. يجعلنا جزءًا من مناقشة، وليس مجرد متلقين للأفكار.

في كل فلسفته وحياته كان سقراط يريد أن يقول لنا شيئًا بسيطًا للغاية: فكروا بأنفسكم!

لم يكن لديه برنامج شامل للحياة كذلك الذي طرحه «بوذا» و«كونفوشيوس». ما سعى إلى التبشير به هو أسلوب التفكير نفسه، وليس فكرة محددة بعينها. وإذا كنتِ كتبتِ في رسالتكِ أن الحياة بلا طعم لا تستحق أن تُعاش، فإن أهم ما قاله سقراط هو: «أن الحياة التي لا تقوم على التفكير وبحث الأشياء.. لا تستحق أن تُعاش».

كان يعتبر نفسه، كوالدته، قابلة.. يُخرج الأفكار من عقول الناس عبر الحوار، كما تُخرج هي الأجنَّة من بطون الأمهات. فلاسفة اليونان قبل «سقراط»

سعوا، كما رأيتِ، إلى فكِّ لغز الوجود والطبيعة. هو اهتم بسؤال آخر، مثل ذاك الذي شغل «كونفوشيوس» و«بوذا»: كيف يجب أن نعيش الحياة؟ «سقراط» رأى أننا يجب أن نعيش الحياة بسعادة. والسعادة ليست شيئًا خارجيًّا، في المال أو الصحة. السعادة الحقيقية يمكن الحصول عليها فقط عبر اتباع طريق الفضيلة. لماذا؟ لأن الروح هي أهم ما لديكِ، وهي أهم كثيرًا من جسدكِ..

المال والصحة لن تنفعكِ إذا ضيعتِ روحك، والإنسان هو وحده القادر على إيذاء روحه. الآخرون قد يؤذون جسدكِ أو يمنعون عنكِ الأشياء المادية، أو حتى يقتلوكِ، ولكنهم لا يستطيعون المساس بروحكِ، إلا إذا سمحتِ أنتِ لهم بذلك. أنتِ وحدكِ القادرة على إيذاء روحكِ. كيف؟ عبر ممارسة الرذيلة. الرذائل تؤذي أرواح مَن يرتكبونها وليس الآخرين.

هل تذكرين أصدقاءنا السُّوفسطائيين الذين رأوا أن كل شيء نسبي؟ لقد رفض «سقراط» آراءهم، بالتحديد حول نسبية الأشياء. كان يرى، بخلافهم، أن ثمَّة قيمًا مطلقة، وأنه يمكن العثور عليها باستخدام العقل. لم يكن مثلهم يُعلِّم الفلسفة مقابل المال. بل رفض أن يتلقى مالًا مقابل عِلمه، وعُرف عنه أنه كان يسير في الأسواق قائلًا: «ما أكثر الأشياء التي لا أحتاج إليها»!

لماذا «سقراط» مهم في قصتنا؟

أخطر ما فعله «سقراط» كان كشف مدى جهل الناس بقدر ما لا يعرفون من الأشياء. لقد جاءه أحد أصدقائه يومًا قائلًا إن عرَّافة «دلفي» أسرَّت إليه بأن «سقراط» هو أحكم رجل في العالم. لقد انزعج «سقراط» لما سمع بكلام العرَّافة، فهو لا يظن في نفسه أنه الأحكم أو الأكثر علمًا. طفق يسأل كبار الفلاسفة والساسة في السوق عددًا من الأسئلة. ثم اكتشف أنه الأحكم فعلًا، ليس لأنه يعرف الإجابات الصحيحة. لكن لأنه، بخلافهم جميعًا، يعرف أنه لا يعرف!

الفكرة الكبرى لدى «سقراط» هي أننا لا يجب أن نثق فيما يُقال لنا. علينا أن نشك، وأن نفكر بأنفسنا في كل شيء حولنا، وأن نسائل كل القيم والأفكار حتى لو بدت راسخة مستقرة في المجتمع الذي نعيش فيه. أن يرى 50 مليونًا أو 100 مليون شخص رأيًا معينًا، ليس دليلًا على أن هذا الرأي صحيح، هو دليل فقط على أنه منتشر!

أفكار «سقراط» بدت «جِذرية» للغاية. لماذا؟

لأن الناس، وكما لا بد أنكِ لاحظتِ في حياتك، يفضلون أن يخبرهم آخرون بما يجب عليهم فعله في الدنيا. يرتاحون أكثر إذا اتبعوا «كتالوجًا» يقول لهم كيف

يجب أن يعيشوا حياتهم. البشر مجبولون على الاتباع والانقياد والامتثال والتماهي مع المجموع. العيش في مجتمع له «شفرة اجتماعية» متفق عليها، وآلهة يمتثل الجميع لها، يريح البشر من الحيرة؛ لأنه يعفيهم من عذاب التفكير والاختيار؛ لذلك، فإن الناس غالبًا ما يصيبهم قلق شديد من الأفكار الجديدة. إنه أيضًا نمط متكرر عبر التاريخ. عندما يظهر شخص مثل «سقراط» يوجِّه أسئلة - مجرد أسئلة! - للمسلَّمات التي يعتقد المجتمع بصحتها، فإن ذلك يمثل مصدر إزعاج كبير.

«سقراط» كان يدرك ذلك جيدًا، غير أنه أصر على السير في هذا الطريق. قال إن لديه «مهمة إلهية» لتنوير الناس. شبَّه نفسه بذبابة عنيدة تقض مضجع حصان نعسان.. هذا الحصان هو مدينة أثينا. تأثير «سقراط» الممتد، بالذات في العالم الأوروبي، راجع لأنه قدم النموذج لما يجب أن يكون عليه رجل الفلسفة: أن ينشد الحقيقة وحدها، مهما لاقى من عنت واضطهاد. هو عاش فلسفته، ولم يكتفِ فقط بالكلام في الأسواق. كان، مثل «كونفوشيوس» و«بوذا»، رجلًا حمل على عاتقه مهمة تغيير المجتمع. على أن مصيره كان مختلفًا..

في عام 399 ق.م، ووسط ظروف سياسية مضطربة بعد هزيمة أثينا على يد إسبرطة، قُدِّم «سقراط» للمحاكمة. تذكرين أن أثينا كانت ديمقراطية، وأن القضاة كانوا مجرد مواطنين عاديين يتم اختيارهم بالقرعة. خمسمائة من مواطني أثينا حاكموا «سقراط» ووجهوا له تهمتين: إفساد الشباب، والدعوة لآلهة جديدة. الحقيقة أن التهمتين لم تكونا بعيدتين عن الحقيقة. هو بالفعل حرَّض الشباب على الشك والتفكير، وكان هذا في عرف المدينة «إفسادًا» لهم. هو أيضًا، وبمعنى من المعاني، بشَّر بآلهة مختلفة.. هي العقل!

المدهش حقًّا في محاكمة «سقراط» كان موقفه غير المتوقع. هو رفض أن يعتذر. بدا في دفاعه عن نفسه ثابتًا. لم يتوسل الصفح، وكان بإمكانه ذلك. لم يطلب حتى تخفيف عقوبة الموت إلى النفي. قال إنه عاش حياته من أجل المدينة ويستحق مكافأة لا إدانة. أثار هذا الموقف المتحدي القضاة. فكان أن حُكم عليه بالموت بتجرُّع سُم الشوكران.

إعدام «سقراط» ربما كان أكثر تأثيرًا وأعظم أثرًا من فلسفته. بل ربما كان موقفه، المتقبِّل للموت، هو السبب في ذيوع قصته وانتباه الناس لأفكاره. تصوري أنكِ تستمعين إلى هذه القصة: رجل فضَّل أن يموت، على أن يُغير فكرته. ما الانطباع الذي يتولد لديك؟ لا بد أن تكون هذه الفكرة التي اعتنقها شيئًا كبيرًا ومهمًّا لكي يُضحي شخص بنفسه في سبيلها. لا بد أن تكون فكرة أكبر من الحياة نفسها!

إن شجاعة «سقراط» في مواجهة الموت كانت لحظة فارقة في تاريخ الأفكار. إنها اللحظة التي ظهر فيها للبشر أن التفاعلات التي تدور داخل أدمغتهم، يمكن أن تُنتج تصوراتٍ وأفكارًا تتحدى خوفهم الأكبر المبرمج في شفرتهم البيولوجية: الخوف من الموت. لقد أدركت قِلَّة قليلة من البشر أن أفكارهم أهم منهم، وأنها يمكن أن تكون «خالدة» على نحوٍ ما. إنه تصور صحيح، بدليل أنكِ تقرئين الآن عن «سقراط»، وأغلب الظن أنَّ قصته لم تكن لتصلكِ لو لم تنتهِ حياته هذه النهاية الحزينة.

لقد اضطر «سقراط» أن يقبع في السجن شهرًا في انتظار إعدامه. كان هادئًا بصورة أدهشت تلاميذه. استمر في إجراء الحوارات معهم حول مختلف الأشياء. كان الحديث عن الموت حاضرًا بالطبع. بدا أن «سقراط» مؤمن بصورة أو بأخرى بمبدأ خلود الروح، وأن رباطة جأشه تعود إلى إيمانه الكامل بهذا التصور. إنه التصور نفسه الذي تحدثنا عنه حول وجود «مجال آخر» وراء الحياة المادية التي نعيشها. كان «سقراط» مؤمنًا بهذا أيضًا. هو رأى أن الفلاسفة الماديين، مثل «ديموقريطس» صاحب نظرية الذرات الذي تعرفنا عليه منذ قليل، لا يفهمون الحياة على حقيقتها. هم مثلًا لا يستطيعون تفسير لماذا هو – «سقراط» - في السجن الآن. هو لا يفعل ذلك لأن ذراتٍ في داخله تحركه. هذا خيار ذهب إليه «سقراط» بدافع من إرادته الحرة وعقله. العالم ليس مادة فقط، وإنما المجال الأهم هو خارج عالم المادة..

كان «أفلاطون» (347-427ق.م)، تلميذ «سقراط» الأهم، أفضل مَن شرح هذا «المجال» الذي يقع خلف عالمنا المحسوس. هو صوَّر الأمر بتجربة ذهنية مثيرة. والتجربة الذهنية هي موقف افتراضي يتصوره الفلاسفة لاختبار صحة فكرة معينة. تجربة «أفلاطون» عبقرية حقًّا، وتكشف لكِ عن الدور الذي تلعبه الأفكار والتصورات التي نبنيها في عقولنا في تحريك قصتنا..

هو تصور كهفًا عميقًا، وعددًا من السجناء الجالسين مقيدين في مواجهة حائط في الكهف. لا يستطيع أيٌّ منهم النظر وراءه، فقد كانت رقابهم مقيدة بالسلاسل أيضًا. هؤلاء السجناء قبعوا في الكهف منذ بداية حياتهم، فلا يعرفون شيئًا من العالم سواه. على حائط الكهف يرون خيالات للأشياء كما يعكسها لهيب نار خلفهم. تذكري أنهم لا يستطيعون الالتفات للوراء. لو أنهم رأوا خيالًا لكلب، فسينطبع في أذهانهم أن هذا هو الكلب ذاته، ولو رأوا خيال شجرةٍ لظنوا أن تلك هي صورة الأشجار في العالم. هم لا يتصورون أن ما يرونه في الكهف هو خيال، بل يرونه الحقيقة ذاتها.

الذي حدث أن أحدهم استطاع التخلص من قيوده، فرأى موقف زملائه السجناء على حقيقته. رأى النار التي تعكس الأشياء، ثم صعد تاركًا الكهف ذاته، وعاين الأشياء في العالم على حقيقتها. تعرَّض هذا الرجل لمعاناة كبيرة

لأنه لم يجرب ضوء الشمس من قبل في ظلام الكهف (مثل معاناتنا مع صدمة الحقيقة)، ثم ما لبث أن عاد ثانية إلى الكهف. تصوري الحوار بينه وبين أقرانه الذين ما زالوا مقيدين بالسلاسل وعيونهم معلقة على الخيالات على الحائط. عبثًا حاول أن يشرح ما شاهده، وعبثًا حاول إقناعهم بأنهم لا يرون سوى صور وخيالات للعالم الحقيقي.. ولكن أحدًا من السجناء لم يصدقه، بل هم سخروا منه، ورموه بالجنون.

لا بد أنكِ خمنتِ الآن ما كان يرمي إليه «أفلاطون». هو تصورنا جميعًا في هذا العالم، كهؤلاء السجناء المساكين، الذين لا يدركون حقيقة وضعهم، وواقع السجن الذي يعيشون فيه. نحن، مثلهم، لا نرى الأشياء على حقيقتها. بل نرى ظلالًا باهتة لها. نرى ما نظن أنه الحقيقة، لأننا – ببساطة - لا نُدرك أننا في سجن. إنه نفس الوضع تقريبًا الذي واجهه أبطال فيلم «ماتريكس» (1999)، حيث يجدون أنفسهم أسرى لواقع افتراضي وبرنامج محاكاة صنعته الآلات، دون أن يدركوا ذلك. إنه خاطر مرعب حقًّا أن نتصور الواقع المحيط بنا كخدعة كبرى. الأكثر رعبًا ألا نستطيع كشف الخدعة أبدًا؛ لأننا نظل عاجزين عن تجاوز الواقع إلى ما وراءه.

«أفلاطون» يقول لنا إن تجاوز الواقع ممكن. هو تصور عالمًا آخر كاملًا يقبع خلف عالمنا، عالمًا فيه الأشياء الحقيقية الكاملة، عالمًا مثاليًّا. هذا العالم هو عالم الأشكال أو الأمثلة. فيه المثال الكامل للحصان والشجرة، والأشياء كلها. وأيضًا للأفكار المجردة: العدالة والجمال والخير. فكري في الأمر: ربما تصادفين أناسًا عادلين في الحياة، ولكنكِ لن تصادفي أبدًا العدل ذاته، أو العدل الكامل، تمامًا كما يستحيل أن تجدي مثلثًا أو دائرة مثالية في الطبيعة. هذه الأشكال موجودة بصورتها المثالية هندسيًّا في مجال الرياضيات، أي إنها موجودة في العقل.

تصور «أفلاطون» إمكانية الوصول إلى هذا العالم الآخر للأشياء المثالية.. بالعقل.

هو رأى أن الروح كانت تعيش في هذا العالم قبل أن تولد، وأنها تتوق إلى العودة إليه؛ لذلك فإن لدينا - قبل أن نولد - معرفة مسبقة بالأشياء والأفكار (هو آمن بالتناسخ مثل الهندوس، وربما اطلع على أفكارهم). هذه المعرفة تكون مختزنة في أرواحنا التي كانت تهيم يومًا ما في عالم الأرواح. ما نفعله في الدنيا هو أننا نتذكر ما كنَّا نعرفه بالفعل في العالم المثالي! تحدث «أفلاطون» عن أشخاص بعينهم، يستطيعون – حصريًّا - النفاذ إلى هذا العالم الخالد، عالم الحقيقة المطلقة. هؤلاء هم الفلاسفة. في كتابه الأشهر «الجمهورية» تخيل نظامًا للمجتمع يقوم على حكم الفلاسفة، وبهدف تحقيق العدالة الكاملة في المجتمع. سوف تظهر، عبر التاريخ، أفكار كثيرة تُشبه

فكرة أفلاطون، أو تستلهمها بصورة أو بأخرى، لتؤسس نظمًا سياسية واجتماعية تقوم على احتكار القلة للحقيقة المُطلقة. الحجة تمثلت دومًا في الرغبة في بناء مجتمع مثالي يُشبه الجنة على الأرض. النتائج كانت في الغالب مروعة!

على أن فكرة «أفلاطون» الكبرى هذه تعرضت للنقد من أهم تلاميذه: «أرسطو».

خطوات متعثرة نحو العلم

درس «أرسطو» (384-322 ق.م) في المدرسة التي أنشأها «أفلاطون» في أثينا بعد مقتل أستاذه، وتُدعى «الأكاديمية»، وهي أول معهد علمي وبحثي في الغرب، ومنها تستمد الأكاديميات اسمها اليوم. وبرغم أن «أرسطو» ظل ملازمًا لأستاذه «أفلاطون» عشرين عامًا كاملة، إلا أنه رفض أهم أفكاره.. فكرة المجال الآخر الموازي للواقع، أو العالم المثالي الذي يقع وراء عالمنا.

«أرسطو» رأى أنه لا دليل على وجود مثل هذا العالم «الما ورائي». لا وجود سوى لعالمنا هذا الذي نراه ونلمسه. الأشياء التي نراها حولنا ليست انعكاسًا لأفكار. كل شيء هو – ببساطة - محصلة لخواصه وطبيعته التي يمكن أن نلاحظها ونفهمها. نحن لا نولد ولدينا أفكار مسبقة كما قال «أفلاطون»، وإنما تتكون أفكارنا ممَّا نعاين ونسمع في العالم المحسوس حولنا. باختصار؛ اعتبر «أرسطو» أن أستاذه كان أسيرًا لعالم أسطوري لا وجود له!

كان والد «أرسطو» طبيبًا للبلاط الملكي في مقدونيا. من هنا، عمل «أرسطو» معلمًا للإسكندر الأكبر، وورث عن والده شغفًا بالكائنات الحية، وانهمك في مراقبتها وتسجيل الملاحظات عنها وتصنيفها. كان مشغولًا بتصنيف الأشياء كافة في العالم بحسب منهج معين. «أرسطو» مثَّل قفزة كبيرة لأنه حوَّل النظر من الأفكار المجردة، إلى تأمل الطبيعة ودراستها. الأفكار المجردة مهمة بالطبع، على أن الاختراق الأخطر في طريقة حياتنا على الأرض سيتحقق عبر تطبيق منهج آخر، هو ملاحظة الطبيعة نفسها. هذا ما نسميه اليوم بالعلم..

لم يكن تفكير «أرسطو» علميًّا تمامًا، على الأقل بمعاييرنا اليوم. هو طرح أفكارًا كثيرة من دون دليل أو سند، مثل أن العبودية هي شيء في صالح العبيد، أو أن المرأة هي رجل غير مكتمل، أو أن النباتات لها أرواح ولهذا تنمو لأعلى.. في اتجاه السماء!

جاء «أرسطو» أيضًا بفكرةٍ أخرى مهمة حول تفسير حدوث الأشياء ونشأة الكون: كل شيءٍ في الدنيا له سبب سبَّبه. الأحداث تقع في العالم مثل قطع

الدومينو التي تقف صفًّا طويلًا واحدة أمام الأخرى. القطعة الأخيرة سقطت لأن التي قبلها دفعتها. ولكن القطعة التي قبلها أيضًا سقطت لأن قطعة وراءها دفعتها.. وهكذا. سنظل نعود إلى الخلف إلى أن نصل إلى القطعة الأولى. مَن الذي حرَّك القطعة الأولى؟ كان «أرسطو» مقتنعًا بأن الإله هو المحرك الأول. إنه المحرك الذي لا يتحرك. إنه المفكر والفكرة على حدٍّ سواء! تفكير «أرسطو» يقوم على أن الكون كان موجودًا منذ الأزل، وأن الله هو مَن «حرك» الأشياء في المرة الأولى (الذي دفع بقطعة الدومينو الأولى). الله، إذن، هو السبب الأول أو العلة الأولى لكل الأشياء.

أبدع «أرسطو» أفكارًا حول كل شيءٍ تقريبًا. ليس مستغربًا أن تتضمن حزمة أفكاره الكثير من الأخطاء. غير أنه جاء بفكرةٍ بالغة القوة والتأثير: ضرورة التوجُّه إلى الطبيعة ودراسة الأشياء ذاتها في عالمنا الحقيقي. بخلاف «أفلاطون» الذي انطلق من العقل وحده، كان لدى أرسطو ثقة في قدرة حواسنا على إدراك عالمنا. غير أنه ظل، مع ذلك، بعيدًا عن استخدام الأداة الأخطر لكسر الشفرات: التجربة العملية.

«أرسطو» مهم في تاريخنا الكبير لأنه ظل الفيلسوف الأكثر تأثيرًا على عقول العدد الأكبر من المتعلمين على مدى ألفي عام. أفكاره قُرئت ودُرست في الشرق والغرب. الديانات التوحيدية، وبخاصة المسيحية والإسلام، رفعت أفكاره إلى مرتبةٍ عُليا بعد أن ترجم المسلمون أعماله وأطلقوا عليه لقب «المعلم الأول»، ثم عمل القديس توما الإكويني على مزاوجتها مع العقيدة المسيحية في القرن الثالث عشر الميلادي.

المشكلة الحقيقية التي تسبب فيها «أرسطو» أن أفكاره كانت مقنعة للغاية! لهذا ظل تأثيرها ممتدًّا ومسيطرًا - وأحيانًا مكبلًا - على عقول البشر. مع ذلك يظل «أرسطو» ملهمًا. حتى أفكاره الخاطئة أنارت طريق البشر؛ لأنها وبعد قرون طويلة جدًّا، حفَّزت آخرين لمقارعتها بأفكار مضادة. كان منهج «أرسطو» أيضًا هو الملهم وراء أهم وأضخم مشروع لـ «كسر الشفرات» في العالم القديم: مكتبة الإسكندرية..

الإسكندرية مدينة نشأت بقرار. الإسكندر الأكبر رأى الأهمية الإستراتيجية الكبيرة لإنشاء ميناء في هذه المنطقة في عام 331 ق.م. صارت المدينة بعدها عاصمة لمصر لألف عام تقريبًا، وحتى الفتح الإسلامي. إنها مدينة عجيبة تُجسِّد التقاء الشبكات في عالم المتوسط وتقاطعها في نقطةٍ واحدة.

هي أيضًا مدينة خليط. اختار لها بطليموس الأول، القائد المقدوني الذي استقلَّ بمملكة مصر بعد وفاة الإسكندر وأسس أسرة حاكمة استمرت 300 عام، إلهًا حارسًا اسمه «سيرابيس». يُجسِّد هذا الإله التزاوج بين آلهة مصر

(أوزوريس والعجل أبيس)، واليونان (ديونسيوس وهاديس- إله العالم السفلي). الهدف كان خلق بيئة تصلح لأن يشترك المصريون واليونانيون في العبادة في «خليط عقائدي» مقبول لدى الطرفين!

هاجر الكثير من الأثينيين إلى الإسكندرية بحثًا عن المال والوظائف، بعد أن صارت في سنوات قلائل مركزًا تجاريًّا أساسيًّا في العالم القديم. تَشكَّل مجتمع نادر من المصريين واليونانيين واليهود. إنها البيئة المثالية لتلاقح الأفكار وتوليد المعلومات. لا شيء يجسد هذا التلاقح قدر مكتبة الإسكندرية التي نشأت بقرار من بطليموس الأول، وبوحي من أفكار «أرسطو».

ربما مثَّلت المكتبة أهم محاولة لتجميع المعلومات التي راكمها البشر عبر رحلتهم حتى هذه النقطة. كان يجري تفتيش السفن التي ترسو في الإسكندرية، وفي حالة العثور على كتاب، فإنه كان يؤخذ إلى المكتبة فورًا ليتقرر إن كان سيُعاد إلى صاحبه أم يُحتفظ به مع دفع تعويض. أحيانًا كانت تُنسخ هذه الكتب بسرعة، وتُعاد للسفينة النسخ بينما يُحتفظ بالأصول في المكتبة!

أُلحق بالمكتبة مركز علمي، هو الأول من نوعه في العالم ، يُدعى «الموسيون». كان أعضاء «الموسيون» من العلماء معفيين من الضرائب ويتلقون طعامهم مجانًا. ليس صدفة أن كثيرًا من الأفكار الاستثنائية ظهرت في هذه المرحلة بسبب توفر قدر غير مسبوق من المعلومات من نظم حضارية مختلفة؛ مصر واليونان وبابل وآسيا. أرسل «أشوكا»، الحاكم الهندي الذي تخلى عن العنف وتبنى البوذية، إلى بطليموس الثاني بعثة دبلوماسية للتبشير بالبوذية.

يُعتقد أن «إقليدس»، صاحب الكتاب الأهم في الرياضيات والهندسة، ولد بالإسكندرية. هو أهدى كتابه الذي صدر في عام 300 ق.م إلى بطليموس الأول. الكتاب يبدأ بمسلَّمات مثل تعريف النقطة، والخط المستقيم كأقصر طريق بين نقطتين. أما «إراستوثسينيس» فقد تمكن من قياس محيط الأرض بالاستعانة بظل الشمس بهامش خطأ 2% فقط، وكان يرى إمكانية الإبحار إلى الهند بالاتجاه غربًا في الأطلنطي!

ومن المثير أن مناخ الإسكندرية ولَّد عددًا من الأفكار التي لو كُتب لها الانتشار لتغيَّر مسار رحلتنا. مثلًا: اخترع «هيرون» شيئًا يُشبه المحرك البخاري، ولكنه استُخدم للتسلية وإثارة العجب، إذ لم تكن هناك حاجة لآلة لتوفير الطاقة العضلية في ظل توفر العبيد. أما «أريستارخوس» (230-310 ق.م) فقد كان يقول بنظرية عجيبة، إذ تصوَّر أن الأرض ليست مركز الكون كما كان الناس يظنون، وإنما الشمس هي المركز الذي تدور حوله الأرض. رأى أيضًا أن

الشمس نجم مثل النجوم الأخرى التي تظهر لنا صغيرة لأنها بعيدة جدًّا. لا شك أنه كان رجلًا عبقريًّا على نحوٍ ما، إذ تمكن - من دون تلسكوب - من حل قضية أخطأ البشر، حتى أذكاهم وأكثرهم ألمعية، في فهمها حتى القرن السادس عشر، عندما خرج نيكولاس كوبرنيكوس (1473م-1543م) بكتابه عن دوران الأرض حول الشمس. لا أحد يذكر «أريستارخوس» اليوم. رفض علماء اليونان أفكاره، وساد تصور «أرسطو» و«بطليموس»، وهو فلكي وجغرافي شهير عاش في القرن الثاني الميلادي، حول مركزية الأرض قرونًا طويلة.

قصة «أريستارخوس» تُفسِّر الصعوبة الكبيرة التي واجهها البشر مع عملية «كسر الشفرات» في العالم المحيط بهم. لا يكفي أن تلمع فكرة نيرة في ذهن عبقري لكي نتمكن من كسر شفرةٍ ما. لو لم تنتقل الفكرة من دماغ إلى أدمغة أخرى، يمكن أن تذوي وتموت. غير أن القصة تُشير أيضًا إلى أن التقاء الشبكات وتراكم المعلومات، كما حدث في مكتبة الإسكندرية، هو طريق البشر لكسر الشفرات، حتى أصعبها وأشدها استعصاء.. وهو ما سيحدث بالفعل فيما بعد في أماكن أخرى من العالم ستظهر فيها مجتمعات تُشبه كثيرًا مجتمع الإسكندرية المتنوع والمنفتح على الأفكار من كل مكان.

لقد صنعت فتوحات الإسكندر عالمًا متنوعًا حول المتوسط. غير أنه كان أيضًا عالمًا سائلًا، اختفت فيه حياة الدولة- المدينة، وعمَّته الصراعات المتكررة. في هذا العالم الهيليني، حول 300 ق.م، ولدت أفكار عملية تساعد الإنسان الفرد على العيش في عالم تتحكم فيه إمبراطوريات كبرى. من بين هذه الأفكار ظهرت فلسفة ربما تكون الأكثر اقترابًا من كسر شفرة انعدام اليقين التي صاحبتنا منذ بداية قصتنا. إنها فلسفة تذهلكِ ببساطتها وفائدتها العملية في حياتنا. هي تقدم لكِ الدواء الأفضل، والأبسط على الإطلاق، لداء القلق..

الرواقية هي فلسفة أسسها «زينون»، حول 300 ق.م. هي تستمد اسمها من «الرواق»، وهو مكان في سوق أثينا اعتاد «زينون» أن يُلقي دروسه عنده. الفلسفة الرواقية تطالبكِ في البداية بشيءٍ مهم: التمييز بين الأشياء التي يمكنكِ التحكم فيها، وتلك التي لا يمكنكِ التحكم فيها. أنتِ لا تستطيعين التحكم في القدَر. لا يمكنكِ التحكم - على نحو كامل - في صحتكِ، أو سمعتكِ، أو الأحداث الخارجية التي تقع لكِ. على أن بإمكانكِ التحكم في شيءٍ يفوق كل ذلك في أهميته: عقلكِ وأفكاركِ. سعادتكِ في الحياة تعتمد على أفكاركِ، ولا شيء آخر!

الرواقيون يعتبرون أن ما يحدث لكِ ليس مهمًّا، ولكن المهم هو كيف تستقبلينه وتفكرين فيه. القدر السيئ لن يكون سيئًا إلى هذا الحد إذا درَّبتِ نفسكِ على تقبُّله، تمامًا كما نتقبل تقلبات الجو من دون اعتراض. جوهر

الرواقية هو الانتصار على حالة انعدام اليقين التي تصاحب وجودنا، ليس عبر محاولة التحكم فيما يحدث لنا، ولكن من خلال التحكم في استقبال عقولنا للأحداث، ونظرتنا لها. الرواقيون يرون أن هذا العالم هو أفضل العوالم الممكنة. كل شيءٍ يحدث لسبب. حتى الأحداث السيئة لها سبب، قد لا ندركه، وبالتالي علينا تقبلها.. بهدوء ومن دون تذمر أو مرارة. «إبكتيتوس»، وقد كان عبدًا، يُخبركِ بسر السعادة في أبسط عبارة: «هناك طريق واحد للسعادة، وهو أن تكف عن القلق بشأن الأشياء التي لا تستطيع التحكم فيها».

التعامل مع انعدام يقين والقدَر مشكلة قديمة قدم الرحلة البشرية ذاتها كما رأيتِ. غير أننا اقتربنا في هذه المرحلة من رحلتنا من ابتداع أساليب تساعد عقولنا على التعامل مع حالة انعدام اليقين والعجز أمام الكوارث التي تغلف الوجود. وبرغم بساطة ومنطقية ما تنصحنا به الرواقية من أجل حياة سعيدة خالية من القلق والألم، إلا أن أغلبية البشر يجدون صعوبة كبيرة في الالتزام بمبادئ عامة أو فلسفات مهما بدت عقلانية ومنطقية. الدليل على ذلك أنكِ قد تكونين مقتنعة الآن بكلام «إبكتيتوس»، ولكنكِ ستواجهين غدًا مواقف الحياة، بما في ذلك التافه منها، بذات القلق والانزعاج! لقد كان البشر في حاجةٍ إلى شيءٍ أكثر شمولًا وإقناعًا.. شيء يُفسر الوجود كله في وحدة واحدة متكاملة، شيء يكسر شفرة الطبيعة وشفرة البشر في آنٍ معًا، ويُشعر الإنسان بالطمأنينة التي يفتقر إليها في عالم تزايد تركيبه وتعقيده.. عند هذه النقطة من رحلتنا، أصغى البشر السمع إلى نداء السماء..

التوحيد

لا شك أنكِ لاحظتِ غياب مفهوم مهم عن الأديان الآسيوية، الكونفوشية والبوذية: الإله!

نعم! في هذه الأديان لا يوجد إله خالق للعالم، ومحرك للأحداث التي تجري فيه. «كونفوشيوس» لم يشغل باله بما وراء العالم، كما رأينا؛ لأنه وجد في هذا العالم ما يكفي للتأمل. البوذية أيضًا لا تهتم بقصة خلق العالم، أو مَن خلقه. يقول «بوذا» إن الاهتمام بهذه الأمور يشبه شخصًا أصيب بسهم واشترط أن يقوم بعَدِّ ريشات السهم قبل العلاج! حتى في الهندوسية لا يُعد «براهمان» إلهًا، بل قوة كونية تتغلغل في الوجود كله..

الأديان التوحيدية شأن مختلف. أنبياؤها لم ينقلوا للناس أفكارهم هم، كما فعل «كونفوشيوس» و«بوذا»، وإنما حملوا رسالات من قوةٍ عُليا، خارج العالم وتتجاوز قدرتها كل شيءٍ على الأرض؛ لأنها قوة الخالق..

يختلف الأنبياء عن الفلاسفة في شيءٍ جوهري. هم يتصلون بقوةٍ عُليا في السماء للحصول على حقيقةٍ مطلقةٍ وكاملة، ويبشرون بهذه الحقيقة العُليا

في مجتمعاتهم. هم أيضًا يختلفون عن المنجمين أو العرَّافين؛ إذ إن قوة الأنبياء وتأثيرهم مستمدان من إيمانهم بالمصدر السماوي للرسالة، وكذا من تصديق عدد كبير من الناس لهم، أي إيمانهم بصدق حديثهم عن هذا المصدر.

جوهر الإيمان هو التصديق في شيءٍ حتى من دون رؤية دليل مادي كافٍ عليه. أنتِ تتيقنين من الشيء عندما ترينه أمامكِ، أو تلمسينه بيدكِ. الأديان التوحيدية تطالبكِ بالتيقن ممَّا لا يمكنكِ رؤيته على الإطلاق، وهو الله. هذا اليقين، الذي لا يخامره أي شك، هو الركن الأساسي في الديانة التوحيدية. وبرغم محاولات كثيرة لعلماء الدين في مراحل لاحقة، في الأديان التوحيدية كافة، لصياغة دلائل عقلية على صحة الرسالات السماوية، يظل الإيمان في الأساس حالة روحية تتعلق بالتصديق حتى لأحداث وظواهر تبدو منافية للعقل ولقانون الطبيعة كما نعرفه في حياتنا العادية. بل إن ما يجعل الإيمان الديني مختلفًا عن أي شعورٍ آخر هو ذلك التصديق في تلك الظواهر المستحيلة والخارقة للطبيعة التي لا يخلو دين توحيدي منها، بدرجاتٍ متفاوتة، والتي تُسمى بالمعجزات.

الأديان التوحيدية تختلف عن الدين كما عرفناه في قصتنا حتى هذه اللحظة، والذي ظهر في كل منظومة اجتماعية مركبة. تعكس هذه الأديان درجة أعلى من التجريد. الفكرة الجوهرية في التوحيد هي أن هناك حقيقة مطلقة واحدة، وأن التعدد الذي نراه حولنا، في الظواهر والأحداث، يعود في مبدأه إلى أصل واحد، وينتهي إليه. يفترض التوحيد كذلك أن هذه الحقيقة المطلقة لا تكشف عن ذاتها بذاتها للبشر. بل تظهر من خلال أناسٍ مختارين، لديهم قدرة خاصة على اجتياز الحاجز بين العالم المرئي المحسوس والعالم الما ورائي الذي تحدثنا عنه. هؤلاء البشر المختارون - الرسل والأنبياء - يحملون الرسالة إلى بشرٍ آخرين. هم يستخدمون غالبًا لغة قصصية لأنها اللغة الأقرب إلى قلوب وعقول البشر.

نحن نحب الحكايات لأنها تخبرنا بأشياء عن الحياة والواقع الذي نعيش بطريقة غير مباشرة، ومثيرة. القصص تأسرنا أيضًا لأنها تفسر لنا العالم بطريقة مفهومة ومنطقية، بحيث تكون الخاتمة مربوطة بالمقدمات والأحداث ومبنية عليها، بل ويكون هناك معنى ومغزى للأحداث والتصرفات: المعاناة تُكافَأ بعد الصبر، والأشرار تنكشف أحابيلهم، والخير تكون له الكلمة الأخيرة. البشر يتمنون في أعماقهم أن تجري الأمور في العالم على النحو المنطقي المفهوم الذي نتابعه في قصة أو رواية أو فيلم. لهذه الأسباب كلها ستجدين أن القصص تحتل الجزء الغالب من الكتب السماوية للأديان التوحيدية الثلاثة.

الأديان ليست محاولة للكشف عن طبيعة العالم مثل الفلسفة أو العلم. هي نظام روحي وعملي نعيش به وفي كنفه وبإلهامه. ليست مجرد وجهة نظر

في الأشياء، أو رأي في مسألة من المسائل. الأديان التوحيدية هي تفسير كامل للعالم، وخطة شاملة لكيفية العيش. هي تخاطب الناس في كل الأزمان وليس في وقت محدد. هي لا تعرف الزمان أو المكان؛ لأنها قادمة من خارج الزمان والمكان. وبرغم أنها تستند إلى الإيمان بأحداث وقعت في تاريخ محدد ومكان معين، إلا أنها تدعونا للاسترشاد بهذه الأحداث في الحياة في كل الأزمنة.

الأغلبية الكاسحة في عالم اليوم يؤمنون بدينٍ ما. والأغلبية من بين المؤمنين يؤمنون بدين من الأديان التوحيدية الكبرى. في العالم 2.2 مليار مسيحي، ونحو 1.9 مليار مسلم. أي إنهم يشكلون معًا نحو نصف سكان الكوكب. هذا معناه أن كتلة هائلة من البشر تعيش على هدي رسالات ظهرت بداياتها في هذه الفترة نفسها التي شهدت الاضطراب والتغيرات الاجتماعية، وظهور الأفكار الكبرى.

تنزَّلت هذه الرسالات أيضًا غير بعيد عن عالم البحر المتوسط. ولما كانت الأديان التوحيدية الثلاثة تُستقى من نبع واحد، فإنه لو حدث وعاد مسلم أو مسيحي أو يهودي إلى هذا الزمن البعيد، ولنقل 500 ق.م، وهي فترة تبلور الديانة اليهودية بصورتها الحالية، فإنه سيجد الكثير من الأشياء المشتركة التي يمكنه الحديث حولها مع أناسٍ من هذا الزمن. إن حطَّ الرِّحال به في فلسطين، فسوف يجد عالمًا مألوفًا إليه، وقصصًا يعرفها عن آدم وإبراهيم ونوح (عليهم السلام)؛ لذلك فالأديان التوحيدية هي أقرب نقطة فكرية وروحية في العالم القديم إلى عالمنا كما نفهمه ونعيشه اليوم. ما قبلها يبدو بعيدًا جدًّا عنَّا وعن فهمنا للعالم. ما بعدها يبدو أكثر ألفة وقربًا من عقولنا وقلوبنا.

لقد تابعنا قصتنا وهي تتحرك من انعدام اليقين، شيئًا فشيئًا، إلى يقين أكبر. الأديان التوحيدية قفزة مهمة في هذا الاتجاه الكبير نفسه.

جوهر العقائد التوحيدية الثلاث هو الإيمان بإلهٍ واحد. الوصية الأولى من الوصايا العشر التي نزلت على موسى هي: «اعبد الرب إلهك ولا تُشرك به أحدًا». المبدأ الأهم في الإسلام هو: «لا إله إلا الله». كلمة الله ذاتها، بالعربية، قد تكون تسهيلًا لنطق الـ«إله» بألف ولام التعريف، فتصير الله. هذا الإله الواحد هو إله كامل القدرة، متعالٍ عن البشر. ليس على صورة الإنسان مثلًا، كآلهة اليونان التي كانت بشرًا، لها مشاعر البشر نفسها، ويمتازون فقط بالخلود. بل إن إله التوحيد، كما في اليهودية والإسلام بالذات، ليس له أي صورة على الإطلاق، على خلاف آلهة الهند ومصر القديمة مثلًا التي كانت تصور في تماثيل.

الإله الواحد أيضًا كلي المعرفة. عالم بكل شيء. ما وقع في الماضي، وما سيقع في المستقبل، وأيضًا الأحداث التي لم تقع من الأصل، والتي لم تكن سوى إمكانية أو احتمال. وبعبارة شهيرة في الفقه الإسلامي: «يعلم ما كان وما سيكون، وما لم يكُن لو كان كيف يكون»! لقد ذكرت لكِ في أولى رسائلي أن البشر ظلوا أسرى لانعدام اليقين بسبب استحالة معرفة المستقبل. الأديان التوحيدية تساعدكِ في معالجة هذه الحالة، عبر الإيمان بأن المستقبل مقرر سلفًا، ومعلوم لدى القوة الأعلى في الكون، وهي الإله. ليس فقط مستقبلكِ، وإنما مستقبل البشر جميعًا؛ لأن الأديان التوحيدية تفترض نقطة بداية الكون، ونقطة نهاية أيضًا تصل عندها قصة البشر إلى خاتمتها.

الإله الواحد هو أيضًا ذو قدرة غير محدودة. لا توجد قوة أخرى في الكون تفوق قدرته. لاحظتِ مثلًا أن الإله - كما فكر فيه «أرسطو» - هو المحرك الأول، وليس متدخلًا في الأحداث باستمرار. رأى «أرسطو» كذلك أن العالم كان موجودًا منذ الأزل، وأن الله لم يخلقه. وهناك تصورات لاحقة في الفكر الأوروبي للإله الذي خلق الكون، ثم لم يعُد يتدخل في أحداثه، وهو الاتجاه المسمى بـ«الربوبية»..

إله التوحيد ليس على هذه الصورة المحدودة. هو خالق للكون من العدم، ومتدخل فيه على الدوام، وموجِّه لأحداثه بصفة مستمرة.

هذه الصفات التي يحملها الإله الواحد لا شك أنها تُعطي مَن يؤمن بها قدرًا من الطمأنينة في مواجهة انعدام اليقين الذي يطبع الحياة. الأحداث التي تقع في العالم لا تعود عشوائية، وإنما هي من تدبير محدد ومحكم، ومخطط سلفًا. تتحرك الأحداث بقدرٍ وفي اتجاهٍ معلوم. وحتى لو بدا أن الأحداث تتخذ منحًى سيئًا أو مأسويًّا، فإن هذا يكون لحكمةٍ معينةٍ يعلمها الإله الذي لا يمكننا نحن البشر الإحاطة بعلمه. بالتالي فإن المعاناة هي شيء لا بد للإنسان أن يتقبله لأنه جزء من الخطة الإلهية الشاملة (كما نتعلم من قصة النبي أيوب مثلًا).

لقد صاحبنا انعدام اليقين، كمكون أساسي في وجودنا، منذ بدايات قصتنا الأولى. الأديان التوحيدية لا تُبشرنا بأن هذا الواقع الصعب سيتغير، ولكن تقول لنا إننا نحن مَن يجب أن يتغير..

من الواضح لكِ أن الأديان - التوحيدية وغيرها - لا يمكنها إلغاء معاناة الإنسان. هذه المعاناة مغروسة ومجدولة في طبيعة الوجود الإنساني ذاته كما قال لنا «بوذا». على أن الأديان بإمكانها أن تشق للناس طريقًا للتعامل مع هذه المعاناة وتجاوزها. هي تفعل ذلك بطريقين: الأول هو تغيير الحالة الذهنية

للإنسان نفسه، وبحيث يصير أكثر تقبلًا لواقع الحياة القائم على انعدام اليقين والمعاناة المستمرة، ويغدو أشد ثقة في الرحمة الإلهية، سواء في هذا العالم أو في عالمٍ آخر. أما الطريق الثاني فيتمثل في تغيير طبيعة العلاقات بين الجماعة البشرية لتصبح أكثر تراحمًا، ولا تتأسس على المصلحة أو الأنانية وحدهما، وإنما على مبدأ التعاطف. وبهذا تصير معاناة الحياة أخف وطأة بوجود البشر إلى جوار بعضهم بعضًا، وتساندهم على بعضهم بعضًا.

اليهودية كانت أول الأديان التوحيدية. العبرانيون كانوا جماعة بشرية سكنت منطقة كنعان في الألف الثانية قبل الميلاد بوحي الإله الذي أخبر إبراهيم بترك عبادة الأصنام، والارتحال من أور في بلاد الرافدين (هل تذكرينها؟ لقد كانت من الأماكن الأولى التي نبتت فيها بذرة الحضارة المركبة!) إلى كنعان (الأرض الموعودة). أبناء إبراهيم هم إسحاق وإسماعيل، ومن نسلهما جاء اليهود والعرب على التوالي. ابن إسحاق هو يعقوب الذي تسمَّى بعد ذلك إسرائيل، ومن نسله خرجت قبائلها الاثنتي عشرة.

لاحظي أن كلمة عبرانيين تعني رحَّالة (من كلمة عبور بالعربية أيضًا). وقد هاجر الإسرائيليون من كنعان إلى مصر بسبب القحط، ربما حول العام 1600 ق.م، حيث جرت وقائع قصة النبي يوسف في مرحلة لاحقة. ثم كان الحدث الأهم في تاريخ الديانة اليهودية، وهو خروج اليهود من مصر، في القرن الرابع عشر قبل الميلاد (أي غير بعيد عن الزمن الذي عاش فيه الفرعون المتمرد أخناتون) بزعامة «موسى» الذي جدد العهد مع الإله «ياهوه»، وأعطى بني إسرائيل وصايا الرب العشر.

في الحل والترحال كان الإله مصاحبًا لبني إسرائيل. الإله يمكنه أن يتحرك في كل مكان؛ لأنه موجود في كل مكان. كانت تلك ظاهرة جديدة. فالأديان القديمة، في أغلبها موجودة في مكان محدد، وترتبط بأضرحة ثابتة في هذا المكان، ومعابد تسكن فيها الآلهة، أو تجسيدات حجرية مختلفة لها. أما إله التوحيد فهو لا يسكن في مكان؛ لذلك فبإمكانكِ أن تقيمي معه علاقة شخصية مباشرة، أنَّى كنتِ وفي أي وقت.

لقد عاش اليهود وسط ممالك كبيرة من كل ناحية: مصر وبابل وآشور. حصنهم في مواجهة الذوبان أو الانسحاق وسط هذه الكتل الحضارية الضخمة، كان التمسك بتلك العقيدة الجديدة. إلههم كان - للمرة الأولى - «متنقلًا» ومصاحبًا لهم في الحل والترحال. النقطة الفاصلة جاءت عندما دُمِّرت مملكتهم في إسرائيل في عام 712 ق.م على يد الآشوريين، ثم دُمِّرت مملكتهم الأخرى في القدس على يد الملك البابلي نبوخذ نصر الثاني في عام 586 ق.م. جرى ترحيل اليهود بعدها إلى بابل، إذ كان ترحيل السكان عن المدن المفتوحة إجراءً متبعًا في هذا الزمان.

لقد تنبأ النبي «أرميا» بهذه الكارثة التي ضربت بني إسرائيل. قال إن عقاب الرب سيأتي بسبب خطاياهم. النبي «حزقيال» اعتبر أيضًا أن ترحيل السكان عن مدينتهم هو عقاب إلهي. هذا تصور مهم: ما نفعله في الدنيا له علاقة مباشرة بما يقع لنا من أحداث، أو ما يحل بنا من كوارث ونوازل. معنى ذلك أن الأخلاق، وليس القوة كما هي سمة العصور القديمة، هي التي تحدد مصيرنا. هذا ما دافع عنه أنبياء إسرائيل وبشروا به، ولاقوا في سبيله العنت والاضطهاد من أبناء جلدتهم.

هناك إذن «ميثاق أخلاقي» لا بد أن نعيش به. لا تكفي الأضحيات والطقوس، كما كان الحال في الأديان القديمة. هذا الميثاق فوق سلطان الملوك أنفسهم. لماذا؟ لأن الله هو الذي يحرك التاريخ، ويصنع الأحداث والمصائر. التاريخ لا يسير عبثًا، بل هو موجَّه إلهيًّا نحو غاية نهائية. تلك الغاية هي عصر من السلام الشامل سيحل في آخر الزمان. يقول النبي «إشعيا»: «إنه سيأتي زمن تنام فيه الحملان مع الذئاب بلا خوف، وتستحيل فيه السيوف محاريث، وتختفي فيه الحرب بين الأمم».. الوصول إلى هذه النقطة من السلام والطمأنينة الكاملة لا يتطلب سوى التوبة والتكفير عن الخطيئة والعيش بنهج أخلاقي.

لقد بقي اليهود في منفى بابل نحو سبعين عامًا، قبل أن يحررهم «قورش»، الملك الفارسي الذي صادفناه من قبل، والذي عُرف بتسامحه مع الأديان الأخرى. تُسمَّى هذه الفترة بالسبي البابلي. إنها الفترة التي تشكلت فيها العقائد اليهودية الرئيسية. في فترة السبي، تأثر اليهود بديانة أخرى كانت سائدة في هذا الوقت في بلاد فارس هي الزرادشتية. يُقال إن «زرادشت» ولد في عام 628 ق.م، وربما كان التاريخ الحقيقي أبعد من ذلك بكثير. بشَّر «زرادشت» في منطقة تقع في إيران اليوم. قال إنه تلقى وحيًا من إلهٍ واحدٍ هو «آهورا مازدا»، غير أن هذا الإله له توأمان: أحدهما طيب والآخر شرير. هما في حالة صراع على البشر. أي إننا جميعًا ساحة هذا الصراع الكوني، وعلينا أن نواجه الشر في العالم لكي ينتصر الخير. هذا هو تفسير الزرادشتية لوجود الشر في الدنيا، وهي معضلة حيَّرت أتباع الديانات التوحيدية كافة، إذ كيف يسمح إله عادل وقادر بوجود الشر في العالم؟ الزرادشتية حملت أيضًا تصورات عن الجنة والنار، والحساب بعد الموت على أساس عمل الإنسان في الدنيا، حيث يضطر البشر إلى السير على جسر رقيق موصل إلى الجنة، ويقبع تحته الجحيم. الروح المثقلة بالذنوب سوف تسقط في الجحيم بسهولة.

في المنفى، أصبح المعبد الحقيقي لليهود هو الكتاب المقدس، وأهم ما فيه أسفار موسى الخمسة التي تروي قصة الخلق (سفر التكوين)، وقصة الخروج من مصر (سفر الخروج)، ثم تروي سِيَر أنبياء بني إسرائيل وملوكهم.

لاحظي أن الأديان التوحيدية تستخدم شفرة واحدة هي «الكلمة»، وأسلوبًا محددًا هو نشر الكلمات بين الناس..

الأديان التوحيدية تحفل بعدد كبير من الطقوس، ولكن الطقوس ليست العنصر الأهم في الدين التوحيدي وإنما الكلمات التي يبنى عليها هيكل الدين نفسه. الصلاة الرئيسية في اليهودية تبدأ بـ«اسمع يا إسرائيل: الرب إلهنا رب واحد». البداية بـ«السماع» للكلمات. وإنجيل يوحنا في المسيحية يبدأ بـ«في البدء كان الكلمة». ومعنى كلمة «القرآن» نفسها ينصرف إلى القراءة وجمع الكلمات، كما أن أول كلمة نزلت في القرآن كانت «اقرأ». أي إن الكلمات - تناقلها وتدارسها وحفظها وتلاوتها - هي اللبنات التي يرتفع بها بناء الأديان التوحيدية. وهي مرحلة جديدة من الرمزية والتجريد، إذ صار النص، مسموعًا أو مكتوبًا، هو الأساس في تشكيل العقيدة. هنا يصبح الإيمان الديني علاقة شخصية عميقة ومتغلغلة في النفس بين الإنسان والرب، الذي هو «أقرب إليه من حبل الوريد»، كما جاء في القرآن الكريم.

نصوص الأديان التوحيدية جُمعت في كتبٍ مقدسةٍ (ولذلك فالمؤمنون بها أهل كتاب). عالم الكلمات المكتوبة ليس عالمًا بسيطًا. تتذكرين ما قاله «سقراط» عن توجسه من الكتابة؛ لأنه لا يكون موجودًا للدفاع عن نصِّه وشرحه. النص المقدس يحمل المؤمنين به على التوجس من التغيير، فالنص ثابت، والزمن بطبيعته متغير. من جانبٍ آخر، فإن اعتماد الأديان التوحيدية على النصوص المقدسة المكتوبة شجَّع على تعلُّم القراءة والكتابة؛ لذلك تجدين أن هذه الأديان، ولفترةٍ طويلةٍ جدًّا، كانت حاضنة للبحث والتفكير، بل وللعلم والفلسفة. التمييز بين العِلم والدِّين هو تطور حديث جدًّا حدث منذ 300 سنة فقط. لقرونٍ طويلةٍ ظل العِلم والدِّين شيئًا واحدًا تقريبًا في مختلف الحضارات.

إن الحضارات التي تأسست على هذه الأديان الكبرى فيما بعد، وضعت النص المقدس في القلب من ثقافتها. دراسة النص، وأحيانًا حفظه، تبدأ عادة في مرحلة الطفولة، وتشكل اللبنة الأساسية في عقول المتعلمين، الذين يصير بعضهم فيما بعد فلاسفة وعلماء، سواء في علوم الدين أو في غيرها.

بعبارةٍ أخرى: النص المقدس يصير هو «الشفرة الكبرى» التي تفسر العالم، وتنظم سلم القيم في المجتمع، بل وتضبط العلاقات داخله، وتضع القواعد الأساسية للسلوك المرغوب، أو المرفوض. تتضمن التوراة مثلًا 613 توجيهًا، من بينها 365 من النواهي، و248 من الأوامر. بعض النواهي يدخل في أمور تفصيلية مثل حظر خلط اللبن باللحم. لا تذكر التوراة سببًا عقلانيًّا لهذا الأمر الإلهي، فكثير من الأوامر الإلهية في الديانات التوحيدية تهدف إلى اختبار الامتثال لدى المؤمنين ومدى استعدادهم لطاعة الإله. تهدف الأوامر والنواهي

كذلك إلى تمييز المؤمنين عن غيرهم عبر اتباع نمط معين في الحياة (أي شفرة اجتماعية). ويمكنكِ أيضًا أن تتصوري أن الطقوس والأوامر والنواهي هي وسيلة مهمة لتعزيز ثقة الناس في بعضهم بعضًا في المجتمع الواحد. الالتزام بها يصبح علامة واضحة للشخص الجدير بثقة الناس. وتذكرين أن معضلة الثقة هذه طالما أرقت الجماعات الإنسانية.

على أن النصوص المقدسة لا تشرح ذاتها بذاتها. ومعرفة الكتابة والقراءة لم تتعدَّ، ولفترة طويلة، 5-10% من سكان أي مجتمع. هذا يؤدي بالضرورة إلى ظهور طبقة من شُرَّاح النص، وهو ما حدث في اليهودية (الحاخامات)، وفي المسيحية (الأساقفة والكهنة)، وفي الإسلام (الفقهاء والعلماء).

إن لغة النصوص المقدسة تكون كونية، وموحية، وعميقة التأثير في النفوس. إنها لغة تنشد مخاطبة الإنسان من حيث هو إنسان، فتلمس أدق نوازعه الداخلية، وعذاباته، ومعاناته مع ظروف الحياة المتقلبة؛ لذلك فهي تدفع إلى التأمل وتُثير الرهبة. ما معنى ما جاء في سفر الجامعة بالعهد القديم: «باطل الأباطيل الكل باطل وقبض الريح»؟ وما الذي قصده السيد المسيح من أن «مملكة الله في داخلكم»؟ وكيف نفهم المعنى العميق لـ «عمى القلوب» في قوله تعالى: «فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور»؟

إن النتيجة الأخرى لبناء الدين على أساس الكلمات هي الاختلاف حول تفسير الكلمات، وتعدد التأملات والأفكار حول تأويلها ودلالاتها. في داخل كلٍّ من هذه الأديان الثلاثة هناك تفسيرات متعددة للغاية للنص الواحد. على أن هناك، عادة، خطًّا فاصلًا بين مَن يقرأون النص بحرفيته، وهؤلاء هم المحافظون أو الأصوليون، ومَن يقرأونه في ضوء الواقع في الزمان الذي يعيشون فيه، وليس في زمن نزول النص نفسه، وهؤلاء هم المجددون أو المصلحون.

لم يخلُ دين توحيدي من هذين التيارين الكبيرين، وتفرعت من كل تيار فرق وأفكار شتى. الخلاف في داخل الأديان التوحيدية، وبين هذه الأديان وبعضها، سيكون قصة رئيسية في تشكيل العالم الذي نعيش فيه اليوم.

لكي تقتربي أكثر من فهم الأديان التوحيدية عليكِ تصور العالم الذي نشأتِ فيه. الحقيقة أن كل دين توحيدي نشأ في بدايته كضربٍ من الهرطقة! لم ينشأ أي دين في «فراغ روحي»، بل كان في واقع الأمر تحديًا لمنظومة عقائدية سائدة بالفعل في المجتمع. قد يساعد هنا أن ننظر إلى الأنبياء بوصفهم «محطمي أصنام». لقد عرفنا الدور المحوري لـ«كاسري الشفرات» في قصتنا. «محطمو الأصنام» يلعبون دورًا لا يقل أهمية..

محطمو الأصنام

«كاسرو الشفرات» ينظرون إلى العالم الطبيعي، ويعثرون على الأنماط، وعلى علاقات بين الأشياء تُتيح «كسر شفرة» معينة كما ذكرت لكِ في رسائلي. «محطمو الأصنام» يعيدون ترتيب العلاقات بين البشر، ويقلبون القيم السائدة في المجتمع، فلا يصير الأقوياء في المرتبة العليا ولا الضعفاء في الأسفل. هم يبشرون بـ«شفرة كبرى» جديدة تفسر العالم كله، وتربط كل الأشياء ببعضها بعضًا، بل وتقلب كل الأشياء رأسًا على عقب. لهذا السبب بالتحديد ترفضهم المجتمعات وتحاربهم بضراوة.

ليس صدفة إذن أن النبي إبراهيم (عليه السلام) قام بتحطيم الأصنام فعليًّا. هو لم يكن يتحدى فقط الديانة القائمة في المجتمع، ولكن أيضًا الاقتصاد الذي يعتاش منه الناس ببيع التماثيل. وربما كانت لحظة تحطيم الأصنام في الكعبة عام 628م هي الأكثر درامية في سيرة النبي محمد ( ). هذا هو ما يفعله محطمو الأصنام، حرفيًّا ومجازيًّا. إنهم يدمرون بحسم الرموز السائدة في الجماعة، ويرجُّون معتقدات الناس ويزلزلون عالمهم الراسخ المستقر. لا تتوقعي أن تنسحب المعتقدات القديمة بسهولة في هذه المعركة. هذا ما نستخلصه مثلًا من قصة العجل الذهبي الذي عاد موسى (عليه السلام) من رحلته إلى جبل الطور ليجد قومه قد صنعوه ليعبدوه من جديد. هذا ما نعرفه أيضًا من قصة السيد المسيح (عليه السلام)..

المسيح نشأ يهوديًّا. كلمة «مسيح» تعني ملك بالعبرية (وكان اليهود «يمسحون» رءوس ملوكهم بالزيت). غير أن المسيح بشَّر بـ«عهد جديد». «العهد القديم» كما يعتقد اليهود، كان بين الرب وإبراهيم (عليه السلام) وهو عهد التوحيد، وتم تجديده مع موسى (عليه السلام)، وبحيث صار اليهود شعب الله المختار. المسيح جاء بعهد جديد للحب والتسامح بلا حدود، وللجميع: «سمعتم أنه قيل عين بعين وسِن بسِن. أما أنا فأقول مَن لطمك على خدك الأيمن فقدِّم له الأيسر أيضًا». إنه يُبشر بقيم جديدة كما ترين. ظهر ذلك بوضوح في اقترابه من المهمشين في المجتمع، من غير اليهود، ومن الخاطئين.

عندما سُئل المسيح عن الوصية الأهم في الشريعة اليهودية قال: «حب جارك كنفسك»، ولما سُئل: «مَن هو جاري؟» روى قصة السامري الصالح الذي أنقذ رجلًا يهوديًّا أخذ اللصوص ثيابه وتركوه على قارعة الطريق. فعل الرجل ذلك برغم العداء بين السامريين واليهود. إن العطف الإنساني الشامل يمثل جوهرًا مهمًّا في القيم الجديدة التي بشَّر بها السيد المسيح.

تجلَّت تلك القيم الجديدة كأبلغ ما يكون في موعظة الجبل. إنها الموعظة، التي تُشكِّل لُبَّ الإنجيل أو العهد الجديد. هي تقلب الموازين كلها، وتعيد تعريف الأشياء من جديد، إذ تخبرنا بأن المساكين والحزانى والودعاء هم

الذين سيرثون الأرض، وليس الأغنياء أو الأقوياء. إنها رؤية «جذرية» تعيد تعريف القيم في المجتمع.. ومن هنا خطورتها.

المسيح قال: «لا تظنوا أني جئتُ لأُلقي سلامًا على الأرض. ما جئتُ لألقي سلامًا بل سيفًا». لم يكن يقصد معنى العنف بالطبع، ولكنه يرمي إلى المعاناة الشديدة والألم والانقسام بين الناس الذي سيُصاحب عملية تغيير القيم في المجتمع، وصولًا إلى تبني «شفرة اجتماعية» جديدة.

الحدث الأهم في سيرة السيد المسيح هو الطريقة التي انتهت بها: الصَّلب ثم القيامة، كما في العقيدة المسيحية. كان طبيعيًّا أن يُعاديه كهنة اليهود الذين تحدى سُلطتهم بهذه «الشفرة الجديدة». مثلًا: هو علَّق على تمسكهم الحرفي بوقف كل نشاط في يوم السبت بقوله: «إن السبت جُعل من أجل الإنسان، وليس الإنسان من أجل السبت».

ظل المسيح ينشر تعاليمه لثلاث سنوات، ذهب في نهايتها إلى القدس في وقت احتفال اليهود بعيد الفصح. وهو العيد الذي يحيي ذكرى خروجهم من مصر. ولأن المسيح كان يهوديًّا، فقد كان يتناول في هذا اليوم عشاء الفصح مع تلاميذه (العشاء الأخير). بعدها أُلقي القبض عليه، وتعرَّض للمحاكمة. أدان اليهود المسيح. اعتبره الرومان، الذين كانوا يحكمون فلسطين، متمردًا وحكموا عليه بالموت صَلبًا.

يمكنكِ الآن معرفة السبب وراء تقارب العيدين الأهم في اليهودية والمسيحية في فترة الربيع من كل عام: عيد الفصح وعيد القيامة. كما تلاحظين، الأديان التوحيدية ترتبط بوشائج عميقة وتقاطعات واضحة. غير أن هذه التقاطعات لن تقود بالضرورة إلى وئام بين أتباعها. لن ينسى المسيحيون أن اليهود هم مَن دانوا المسيح. سوف يكون لذلك نتائج مؤلمة ومأسوية على اليهود عندما يضطرون للعيش كأقليات صغيرة في مجتمعات مسيحية.

إن الصَّلب لم يكن نهاية لحياة المسيح، بل بداية لحياة جديدة بعد القيامة. تحدي الموت على هذا النحو كان ملهمًا لمَن اعتنقوا هذه الرسالة الجديدة، إذ منحهم الأمل في حياة أخرى جديدة خالية من آلام الحياة الأولى ومعاناتها. عذاب المسيح كان أيضًا رسالة قوية جدًّا للناس. كما عرفتِ من قصة «سقراط»، يظل الموت في سبيل الكلمة ملهمًا بأكثر من أي موعظة أو فلسفة.

إن «محطمي الأصنام»، من أصحاب الرسالات السماوية وأيضًا من غيرهم ممَّن يبشرون بأفكارهم الذاتية، لا يكتفون بـ«تحطيم» الواقع القائم. هم يتصورون واقعًا بديلًا مختلفًا. يبشرون بحقيقة أخرى، إما على الأرض، أو فيما وراء العالم. بل هم يحددون طريق الوصول إلى هذا العالم الآخر. هم يعطون

الناس الأمل في أن هذا العالم الآخر، الذي لا تسوده القيم نفسها السائدة على الأرض، موجود بالفعل، وأن بإمكانهم العيش فيه، إما هنا على الأرض أو في حياة أبدية. حتى العبيد بإمكانهم التطلع إلى هذا العالم الأبدي الذي تتحقق فيه المساواة الكاملة، حتى وإن لم يتحقق هذا في عالمنا المعاش. هذا الأمل في الحياة الجديدة السعيدة هو ما يجعل البشر يرون واقعهم وحياتهم بطريقة مختلفة. ما يفعله «محطمو الأصنام» في الواقع هو أنهم يجعلون الناس يرون كل شيءٍ بعيون جديدة.

ولكن كيف كانت تنتشر هذه القيم الجديدة التي يبشر بها «محطمو الأصنام»؟ كيف تمدَّدت الأديان التوحيدية وصار لها هذا الذيوع الكاسح؟

المقصود هنا بالطبع هو المسيحية والإسلام، فاليهودية ليست دينًا تبشيريًّا. وهي دِين أشبه بالقومية الخاصة لمَن يعتنقه، فإما أن يولد المرء لأمٍ يهودية، وإما يكون التحاقه بالدِّين أمرًا صعبًا للغاية. لا عجب، والحال هذه، أن عدد اليهود في عالم اليوم لا يتعدى 15 مليونًا.

الحقيقة أن الأديان تنتشر عبر قانون بسيط. إنه نفس قانون انتشار أي ممارسة أو فكرة أو شيء جديد: من فم إلى أذن، ومن دماغ إلى دماغ..

فكري في الأمر من زاوية التسويق. ما الذي يدعوكِ لتجربة مُنتجٍ جديد؟ أغلب الظن أنكِ سمعتِ به من شخصٍ تعرفينه. هذا الشخص يكون محل ثقةٍ لديكِ بما يكفي لتقليده. هذه هي الإستراتيجية التي تتبعها شركات الإعلان عندما تستعين بنجمٍ مشهورٍ ومحبوبٍ ليُعلن عن بضاعتها. الأديان العالمية اتبعت أيضًا الطريقة نفسها. المبشرون بالرسالات يسعون لضم رموزٍ مهمةٍ ومحل تقدير في المجتمع للدِّين الجديد. أبناء الأمراء والحكام دائمًا ما يكونون هدفًا للدعوة الجديــدة. هذا ما دعا الرسول ( ) مثلًا للترحيب بإسلام عمر بن الخطاب الذي كان ذا شأنٍ في قريش وعضوًا في أرستقراطيتها. بعد انضمام عمر، ومن قبله حمزة بن عبد المطلب، تحولت الدعوة للإسلام في مكة من السِّرية إلى العلنية.

في مراحل الانتشار الأولى للدين العالمي تحتاج الدعوة كذلك إلى شخصيات تتقد قلوبها بحماس عارم وتوق لا محدود لنشر الكلمة الجديدة. من عجبٍ أنه كثيرًا ما تكون هذه الشخصيات من أشد المتعصبين ضد الدين الجديد في مبدأ الأمر، ثم لا يلبث أن يصيبهم تحولٌ مفاجئ في لحظة إلهام فارقة. هذا ما حدث مع عمر بن الخطاب الذي عذَّب جاريته عذابًا شديدًا لمَّا علم بإسلامها، بل ولطم أخته «فاطمة» في سورة غضب للسبب نفسه. تحوَّل «عمر» بعدها تحولًا كاملًا وصار من أعتى المناصرين للدِّين والمنافحين عنه، وكان الخليفة الثاني بعد وفاة الرسول ( ). وهو نفس ما حدث من قبل مع القديس

«بولس» الذي كان يهوديًّا اسمه «شاؤول» يعمل مفتشًا في تعقُّب اليهود الذين يتحولون للمسيحية، وشهد بنفسه واقعة رجم القديس «إسطفانوس» حتى الموت؛ ليكون بذلك أول شهيد في المسيحية. ثم كان أن انقلب «شاؤول» انقلابًا مفاجئًا في رحلةٍ قطعها إلى دمشق بعد أن سمع صوت المسيح، الذي لم يرَه في حياته، يقول له: «يا شاؤول لماذا تضطهدني؟» تحوَّل «شاؤول»، أو القديس «بولس»، بعدها إلى أهم مُبشِّر بالمسيحية. تعقَّبه الرومان وحكموا عليه بالموت، وظل يكتب رسائله حتى وهو قابع في السجن ينتظر النهاية!

إن إنجاز القديس «بولس» الكبير يكمُن في أن المسيحية تحولت على يديه من طائفة يهودية، إلى ديانة قائمة بذاتها. كان ذلك نتيجة لقرار مصيري بالتبشير بين «الأغيار»، أي غير اليهود. هو استخدم شبكة الطرق الهائلة التي أقامتها روما في نشر رسالته. هذه «الشبكة» هي المعادل القديم لشبكة أسرع كثيرًا نستخدمها اليوم كذلك في نشر الأفكار.. هي «الإنترنت». من الصعب تصور انتشار المسيحية من دون شخصية «بولس الرسول».

عند مرحلة معينة يتصاعد منحنى الإيمان بالشيء الجديد بشكل متسارع. عند نقطةٍ معينةٍ يصير هناك حافز لدى الناس للانضمام لهذا «الشيء الجديد»، لشعورهم بأنه سيكون موجة المستقبل، وأنهم سيصبحون عمَّا قريب أقلية إن هم لم يلتحقوا بالموجة. هذا ما حدث مثلًا مع الإسلام بعد مرحلة فتح مكة (630م).

انتشرت المسيحية في أرجاء الإمبراطورية الرومانية بشكل متسارع. في عام 200 ميلادية (أي بعد نحو قرنين من رسالة المسيح) كان هناك نحو عشرة آلاف مسيحي فقط في الإمبراطورية الرومانية، أي بنسبة 0.03%. في عام 300م، وقبل سنوات قليلة من إعلان المسيحية دينًا رسميًّا للإمبراطورية، كان عدد المسيحيين نحو ستة ملايين، من أصل 60 مليونًا هم سكان الإمبراطورية، أي بنسبة 10%. إنها قفزة بعيدة في قرن واحد في عالم بلا وسائل اتصال، ولا حتى كتب مطبوعة.

الشباب في الأغلب يكونون أكثر استعدادًا من غيرهم للانضمام لمعتقدات جديدة، فيما يكون كبار السن أقل إقبالًا على تغيير أفكارهم الموروثة. كانت سن أبي بكر الصديق وقت دخول الإسلام 38 عامًا، وعمر بن الخطاب 26 عامًا، والزبير بن العوام 16 عامًا! وتجذب الرسالات الجديدة الناس بدافع المصلحة أيضًا. العبيد، مثلًا، يهتمون أكثر بدين يتبنى مبدأ المساواة الإنسانية. هذا حدث مع المسيحية والإسلام برغم أنهما لم تلغيا العبودية، وإن بشرتا بمساواة بين الناس في الجوهر والمصير بعد الموت على أساس أعمالهم،

وليس مكانتهم في التراتبية الاجتماعية. تبشير الأديان التوحيدية بالمساواة بين الناس قفزة مهمة للغاية.

لقد رأيتِ أن المجتمعات القديمة كلها قامت على تراتبيات هرمية جامدة تضع الإنسان في مكان معين منذ لحظة الميلاد. الأديان التوحيدية سوف تكون لها تراتبيات أيضًا فيما بعد، مثل نظام الكنيسة في العصور الوسطى. غير أن هذه الأديان نظرت للبشر باعتبارهم متساوين من حيث المبدأ. «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»، كما قال الرسول ( ) في آخر خطبة له المعروفة بحجة الوداع (632م). هذه المساواة، وبرغم ما تعرضت له من تشويه فيما بعد في المجتمعات والإمبراطوريات التي قامت على أساس الأديان التوحيدية، ستكون الخطوة الأولى نحو تكون «المجتمع الإنساني الكبير» الذي نعيش فيه اليوم.

عندما يسألكِ أحد عن سبب اعتقادكِ بأن البشر متساوون من حيث الجوهر، لن تجدي ردًّا مقنعًا. الحال أن البشر، في الواقع، مختلفون في كل شيء. هم أبعد ما يكونون عن المساواة، في ملكاتهم العقلية وإمكاناتهم الجسدية، وفرصهم وحظوظهم في الحياة. يمكنكِ أن تردي على هذا السائل بأن هذا ما تعتقدين بصوابه: البشر متساوون ولا يمكن أن يكونوا إلا كذلك. ولكن من أين جاءكِ هذا الاعتقاد العجيب، والمناقض للواقع؟ الأديان التوحيدية مصدر أساسي لاقتناعكِ، واقتناع كثير من البشر اليوم، بأن الناس خُلقوا متساوين، بغض النظر عن تفاوت حظوظهم في الحياة. فلسفات كثيرة بشَّرت بهذه المساواة لاحقًا، ولكن الأصل السماوي والديني للمساواة ظل أقوى في تأثيره من أي فكر بشري أو فلسفة إنسانية، بل إن هذا الأصل الديني كان له تأثير ضخم على الأفكار السياسية التي تبنَّت المساواة بين البشر، والتي ظهرت فيما بعد في عصر التنوير الأوروبي. ستلاحظين، مثلًا، أن إعلان الاستقلال الأمريكي في عام 1776م يبدأ بهذه العبارة الشهيرة: «نحن نعتبر أن هذه الحقائق بديهية: أن جميع البشر خلقوا متساوين، وأنهم وهبوا من خالقهم حقوقًا غير قابلة للتصرف». أي إن المساواة مرتبطة بالخالق. إن هذه النزعة للمساواة سوف تكون سببًا مهمًّا أيضًا في التوسع المستمر للأديان التوحيدية، خاصة خلال الفترة الزمنية المعروفة بالعصور الوسطى، أي بعد انهيار روما في القرن الخامس الميلادي..

عندما تضم الأديان الجديدة أناسًا جددًا فإنها تغيرهم بالطبع، ولكنها هي أيضًا تتأثر بالوافدين الجدد، الحاملين معهم أفكارهم وممارساتهم، وأيضًا توقعاتهم وأهدافهم من وراء الانضمام للدين الجديد. ما يحدث في معظم الحالات هو نوع من الحلول الوسط بين الدين الجديد والمجتمع الذي يضمه تحت مظلته. علاقة تأثير وتأثر. في عالم الإسلام، على سبيل المثال، أدخل انضمام شعوب

الفُرس (الإمبراطورية الساسانية) ممارسات مختلفة على الحضارة الإسلامية، من بينها حجاب المرأة. وفي الصين تحولت البوذية إلى دين مختلف بعد أن مُزج بثقافة المجتمع الكونفوشية، فصارت هناك بوذية «الماهايانا» التي تركز على عبادة «بوذا»، وتجسده في صورة بشرية، في مقابل البوذية الأصلية (هانايانا) التي لا تجسد «بوذا» في صورة بشر، وإنما من خلال آثار أقدام على الطريق.

غيَّرت الأديان التوحيدية العالم لأنها انتشرت كما لم تنتشر أي عقيدة من قبل. لقد ضمَّت البشر في وحدات كبرى هائلة الاتساع. صحيح أن الإمبراطوريات فعلت الشيء نفسه، ولكن الأديان التوحيدية خلقت وحدة جديدة بين البشر أنفسهم، وحدة في الفكر والشعور والطقوس والنظرة إلى العالم. جعلت العلاقات بينهم تنهض على أساس من الثقة في بعضهم بعضًا، واليقين المشترك في صدق الرسالة ووعدها. هيأت للإنسان الفرد أن يصير جزءًا من شيءٍ أكبر منه بكثير. هي بذاك تستجيب لرغبةٍ عارمةٍ في داخل كلِّ واحدٍ منَّا بأن يكون جزءًا من شيءٍ له معنى أهم وأبقى من حياته العادية. تذكري أننا كائنات نبحث عن المعنى، وليس فقط عن البقاء.

لقد رأينا أن المجتمعات المركبة تقوم على شبكة من العلاقات المتداخلة بين الأشياء والمعلومات والبشر. تحكم عمل هذه العلاقات «شفرات» مختلفة، مثل الأبجدية والأعداد و«الشفرة الاجتماعية» التي تتوافق عليها الجماعة. هذا التركيب والتعقيد يستند على أساس بسيط جدًّا: الثقة. ثقة الناس في بعضهم بعضًا، وفي «الشفرة» التي يصنعونها لتسهل تعاونهم، مثل «شفرة المال». الأديان التوحيدية ارتقت بهذه الثقة إلى مستوى جديد. رفعت منسوبها بين الناس على نحو غير مسبوق. وضعتهم على طريق جديد من الإيمان بقيم مشتركة عُليا أكثر إنسانية ورحابة. على أساس من هذه القيم المشتركة سوف يتمكن أغراب، يتحدثون لغاتٍ شتَّى، من التعاون معًا. ليس تحت سيف الإمبراطورية وحده، وإنما بدافع من إيمانهم المشترك بحقيقة واحدة يقينية، آتية من خارج هذا العالم. على سبيل المثال، أشار البعض إلى أن التراحم الذي ساد المجتمعات المسيحية في مواجهة الوباء الأنطوني في القرن الثاني الميلادي، كان سببًا في انتشار الدين بصورة أكبر في الإمبراطورية الرومانية؛ لأن الكثيرين رأوا أن هذه الجماعة الجديدة توفر أمنًا وتمنح أملًا في زمن يحاصرهم فيه الوباء ويترصدهم الموت.

ولا يخفى عليكِ كذلك أن سببًا آخر مهمًّا في تمدد الأديان التوحيدية في العالم يتمثل في ما توفره للجماعة من ميزة عسكرية حاسمة. الإيمان اليقيني بالحياة الأخرى يُعين المرء على تجاوز أعمق غرائزه: الخوف من الموت.

التضحية بالنفس على أساس ديني تُسمى بالشهادة، وهي ممارسة حاضرة بقوة في الأديان التوحيدية الثلاثة.

في اليهودية، جاءت فكرة الشهادة مع ثورة «المكابيين» على الحكم الهيليني في عام 165 ق.م. وفي القرنين الثاني والثالث، زود الاضطهاد الروماني المسيحية، وللمفارقة، بقوة دفع غير متوقعة، إذ انتبه الناس إلى أن هذا الإيمان الجديد يخلق قوة أكبر من غريزة الحياة نفسها. مؤكد أن شعورًا بالرهبة كان ليتملككِ لو شاهدتِ فتاة مثل «بيربيتوا»، تُقتل في الساحة العامة عام 203م بتهمة المسيحية. كانت في الثانية والعشرين من عمرها، ولها ابن صغير. رفضت أن تتراجع عن إيمانها حتى اللحظة الأخيرة، برغم توسلات والدها. التضحية بالنفس من أجل قضية تترك أثرًا عميقًا في البشر، بدليل أننا نذكر قصة هذه الفتاة اليوم. وهي لا تختلف كثيرًا عن قصة عمَّار بن ياسر الذي تحمَّل العذاب الشديد، أو قصة أمه سمية، أول شهيدة في الإسلام.

لقد كان الإقدام على الشهادة سببًا أساسيًّا وراء التوسع العسكري الجارف والخاطف للدولة الجديدة التي أسسها المسلمون، حتى تمددت في مائة عام من حدود الأطلنطي إلى حدود الصين. وينطلق الإقدام على الشهادة، بطبيعة الحال، من يقين بأن الحياة الأخرى تفوق الحياة الدنيا في نعيمها، وأن الموت قدر محتوم في أي حال. وفي القرآن الكريم إشارات كثيرة لهذا المعنى.

إن الأديان التوحيدية تشترك مع الإمبراطوريات في نزوعها للتوسع المستمر. بل إنها سوف تبتلع الإمبراطوريات وتكتسحها من الداخل، كما حدث مع المسيحية التي انتشرت في جسد الإمبراطورية الرومانية، وسرت في دمائها، حتى تلبستها، وورثتها. المفارقة أن الإمبراطورية الرومانية، بشبكات الطرق والمؤسسات المختلفة، هي ما مهدت للمسيحية هذا التوسع السريع! عندما انهارت روما في القرن الخامس كانت الكنيسة هي الصخرة الوحيدة التي لاذ الناس بها في الغرب. لألف عام تقريبًا ظلت الكنيسة هي قلب الحضارة الأوروبية.

عندما يظهر الإسلام في القرن السابع، سوف يُنشئ إمبراطورية عالمية كذلك، ولكن تلك قصة أخرى تتجاوز المدى الزمني لهذه الرسائل. فالإسلام لا ينتمي إلى حقبة التاريخ القديم أو الكلاسيكي، وإنما إلى حقبة زمنية أخرى تُعرف بالعصور الوسطى.

إن محطمي الأصنام لا يكتفون بالهدم، وإنما ينسجون روابط جديدة بين البشر. الإيمان بالإله الواحد يخلق تلقائيًّا انصهارًا في أمة واحدة تضم كل المؤمنين؛ لذلك تمثل الأديان العالمية، وبخاصة التوحيدية منها، خطوة أخرى

في قصتنا نحو المزيد من التركيب، وخلق شبكات أكثر امتدادًا وتداخلًا بين البشر.

لو أردتِ دليلًا على النجاح الباهر للأديان التوحيدية فلتنظري حولكِ في عالم اليوم. الإمبراطوريات التي تحدثنا عنها كلها لم يعُد لها وجود، فيما بقيت الأديان مكونًا مستمرًّا في الحضارة البشرية حتى يومنا هذا. ربما لأن الكلمة أبقى من السيف.. ربما أيضًا لأننا لا نُقيم حضارتنا على أساس من العالم المادي وما يجري فيه فحسب، وإنما بوحي من تصوراتنا عمَّا وراءه أيضًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خاتمة وبداية

إلى أين؟

«أيها المسافر! خطواتك هي الطريق.

أيها المسافر! لا طرق هنالك.. الطرق يصنعها المسير».

الشاعر الإسباني أنطونيو مخادو

ابنتي العزيزة..

لقد صرنا، بعد هذه الرحلة الطويلة التي بدأناها صيادين جامعي ثمار قبل 300 ألف عام، على أول طريق جديد.. طريق تتلاقى فيه الأشياء كلها. تتضافر، وتتداخل، وتنسج فيما بينها روابط وشبكات جديدة باستمرار: الحروف والأعداد.. الكلمات والسيوف.. النجوم والمعادن.. القوى الكونية والخلايا العصبية.. الفيروسات والمدن.. المعلومات والشفرات والطاقة.. الأحلام والفلسفات.. الأديان والإمبراطوريات..

حضارتنا، أو الطريقة التي نعيش بها نحن البشر، مركبة جدًّا.. ولكنها تتكون من أشياء بسيطة.. من شفرات تحتوي عددًا قليلًا للغاية من الوحدات. شيئًا فشيئًا، تضافرت المكونات البسيطة لتصنع أشياء مركبة. هكذا «انبثقت» أشياء وكيانات غير متوقعة في قصتنا، فظهرت الخلايا والكائنات والأدمغة المركبة من مليارات الخلايا العصبية، والمجتمعات المكونة من أعداد كبيرة من الأدمغة، ثم المدن والدول والإمبراطوريات، وهي عبارة عن شبكات واسعة من الأدمغة البشرية المنضوية في نظام معين. هذه الكيانات المركبة تسعى إلى نفس ما كان يسعى إليه الكائن وحيد الخلية منذ 3.7 مليار سنة: البقاء. ثمَّة وسيلة واحدة لذلك، كما عرفتِ عبر قصتنا: الحصول على الطاقة.

رحلتنا كانت جهادًا مستمرًّا من أجل امتصاص الطاقة، وحشد المعلومات التي تمكننا من تحقيق ذلك. كانت سعيًا لا ينقطع للحصول على قدر من اليقين، في وجود يغلفه انعدام اليقين ويعمه الخوف وتزحف عليه مظاهر الفوضى باستمرار. نحن حاولنا صناعة النظام من الفوضى، ومشينا في طريق دفعنا دفعًا لأن نعيش معًا، ونفكر معًا، ونحاول كسر الشفرات الغامضة المحيطة بنا. لأجل ذلك، صنعنا نحن أيضًا شفراتٍ أخرى تجعل عيشنا المشترك ممكنًا، وتُسهل علينا مراكمة الخبرة والمعرفة لمواجهة معضلة البقاء.

ولكننا لا نسعى فقط للبقاء، وإنما للخلود!

إدراكنا لحقيقة فنائنا المحتوم يدفعنا للسعي لإعطاء حياتنا معنى.. معنى يتجاوز حدودنا البيولوجية، وربما يتجاوز أعمارنا نفسها. إننا نسعى للمعنى الذي لا يجعل حياتنا مجرد نضال عبثي بين نقطتين. الحقيقة أننا بارعون في إعطاء كل شيء حولنا معنى. نحول قطعًا من القماش إلى رمز مقدس للجماعة، وقطعة من الورق إلى رمز للثروة. ننضوي تحت أشياء أكبر منَّا لنشعر بأن وجودنا له معنى وأهمية. نعطي ولاءنا للجماعة ورموزها لأنها تعيش بعدنا. ننخرط في مشروعات محمومة لصناعة الخلود، بناءً وتصويرًا وقولًا وابتكارًا. نتطلع إلى السماء في خشوع أملًا في أن تستمر أرواحنا بعد مغادرة أجسادنا للعالم. غير أن أبسط وسائلنا للحفاظ على الخلود هي إنتاج نسخ جديدة منَّا، بما يضمن تواصل قصتنا.. واستمرار المعاناة والعذاب. هكذا جئتِ أنتِ يا عزيزتي إلى العالم وأصبحتِ جزءًا من القصة، وصار عليكِ أيضًا السعي وراء المعنى، ومكابدة القلق والخوف.

إننا نعيش بطريقة عجيبة حتى ولولم تبدُ لنا كذلك. لو أن كائنًا فضائيًّا هبط إلى الأرض لأصابته دهشة شديدة من طريقة حياتنا في مستعمرات يقطنها الملايين من الكائنات البشرية، التي لا تعرف بعضها بعضًا، ولكنها - مع ذلك - لا تقتل بعضها بعضًا إلا لمامًا! بل إنها، على العكس، تتعاون بطريقةٍ ما لتشغيل هذه المستعمرات البشرية المعقدة، هائلة الاتساع. هذه المستعمرات تبدو فوضوية للغاية. يتبنى كل واحد من سكانها أهدافه الخاصة ويسعى وراء مصلحته، ويرى نفسه في مركز العالم. غير أن المستعمرة البشرية، وعلى نحوٍ أشبه بالسحر، تعمل في تناغم عجيب، وتحقق أهدافها بصورة أو بأخرى!

سوف يستغرب هذا الكائن من طقوس عجيبة نمارسها، كأن يرى مثلًا مئات الآلاف منَّا يتجمعون في مكان، ليشاهدوا مجموعة من البشر يبدو أنهم يركضون وراء شيءٍ له شكل كرة. لن يفهم لماذا يشتعل الحماس وتلتهب الحناجر بالصراخ عندما يدخل هذا الشيء في شباك منصوبة على مستطيل من ثلاث عارضات! الكائن الفضائي هذا سوف تصيبه الصدمة عندما يسمع صرخات الهتاف والتشجيع والإعجاب تنهمر فجأة على الشخص الذي نجح في ركل الشيء الكروي داخل الشباك. لن يدرك الكائن الفضائي أن كل شيءٍ في عالمنا له معنى رمزي: الكرة وملابس اللاعبين وإشارات الحكم وصوت صافرته. لن يتصور أن عالمنا كله مصنوع من هذه الإشارات والرموز والمعاني، ومن القواعد والشفرات التي نتفق عليها. سيصعب عليه إيجاد تفسير لانغماسنا في هذه المعاني والرموز المصطنعة إلى حد الهوس. لن يخطر بباله أن هذه هي إستراتيجيتنا العجيبة لكي نجعل لوجودنا نفسه معنى أكبر من مجرد البيولوجيا التي نتشكل منها، والفيزياء التي تحكم الكون. لن يتخيل أبدًا أن طريقة حياتنا اليوم، على ما تبدو عليه من غرابة، هي حصيلة

رحلتنا الطويلة على درب المجهول وفي ظلال الخوف لصناعة أكثر الأشياء تركيبًا في الكون: المجتمع الإنساني المكون من أدمغة بشرية.

رحلتنا لن تتوقف بالطبع عند نداء التوحيد وتحطيم الأصنام. هذه كانت مجرد البداية..

«التشبيك» المتواصل بين الأشياء المادية حولنا، والأفكار في أدمغتنا، سوف يمهد السبيل في القرون التالية «لانبثاق» أشياء مركبة جديدة غير متوقعة، وبزوغ أفكار وكسر شفرات، عبر مسيرة لا تقل إثارة قد يأتي وقت لأرويها لكِ.

لقد بدأ كل شيءٍ من وصلات جديدة في أدمغتنا جعلتنا نرى العالم بصورة تختلف عن أي كائن آخر. واليوم، نقترب من «اصطناع» آلات تحمل من الوصلات ما يمكنها من رؤية العالم.. ربما بصورة أفضل منَّا. هل هذا هو مصيرنا؟ هل الرحلة مقصود منها أن تصل في النهاية إلى «وعي إلكتروني» يفوق وعينا البشري؟ هل تكون قصتنا الطويلة على الأرض، مجرد بداية وتمهيد لقصة أخرى لا تقل إثارة؟ هل يمكن أن يكون زمانكِ أنتِ هو الزمان الأخير للهيمنة البشرية على الكوكب؟

كيف وصلنا إلى هذه النقطة؟ كيف تحوَّل العالم القديم الذي حدثتك عنه في هذه الرسائل، إلى عالمنا الذي نعيش فيه اليوم؟ وإلى أين تأخذنا الرحلة؟

تلك قصة أخرى..

الحمد لله على سلامتكِ من الكورونا.. ومرحبًا بكِ مرة أخرى في عالم البشر.. عالم القلق!

جمال

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مراجع مختارة

أولًا - بالإنجليزية:

1. The new Penguin History of the World, J.M.Roberts, Penguin books, 2002.

2. Big History: between nothing and everything, David Christian and others, McGraw-Hill Education, 2014.

3. Big History: from the Big Bang to the present, Cynthia Stokes Brown, The New Press, 2012.

4. Sapiens: A brief History of Humankind, Yuval Noah Harari, Harvill Secker London, 2014.

5. The story of the world: from Prehistory to Present, W.B.Bartlett, Amberley, 2017.

6. The little book of Big History, Jan Crofton and Jeremy Black, Pegasus books Ltd, 2018.

7. Origin Story: A Big History of Everything, David Christian, Little Brown Spark, 2018.

8. A History of the World, Andrew Marr, Macmillan, 2012.

9. A little History of the World, E.H.Gombrich, Yale University Press, 2008.

10. Atlas of Empires, Peter Davidson, Companion House books, 2018.

11. Ideas: A history of thought and invention from fire to Freud, Peter Watson, Harper Perennial, 2005.

12. How to be human: the Ultimate Guide to our amazing existence, New Scientist, 2017.

13. The origins of political order, Francis Fukuyama, Farrar Straus and Grioux, 2011.

14. World Religions: the great faiths explored and explained, John Bowker, DK, 2016

15. Politics, David Runciman, Profile Books, 2014.

16. Signs, Symbols and Cipher: decoding the message, George Jean Thames and Hudson, New Horizon, 2010.

17. The Philosophy book, Sam Atkinson, Dk, 2011

18. The science book, Georgina Palffy, Dk, 2014.

19. The Politics book, Sam Atkinson, Dk, 2013.

20. The History book, Victoria Heyworth-Dunne, Dk, 2016

21. The History of Philosophy, Bryan Magee, Dk, 2016.

22. Numbers: the Universal language, Denis Guedj, Thames and Hudson, New Horizon, 1996.

23. Political Ideas, Edited by David Thomson, A Pelican Book, 1965.

ثانيًا - بالعربية:

1- الشبكة الإنسانية: نظرة محلقة على التاريخ العالمي، جون روبرت ماكنيل ووليام هاردي ماكنيل، ترجمة مصطفى قاسم، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، مارس 2018م.

2- مستقبل العقل: الاجتهاد العلمي لفهم العقل وتطويره وتقويته، ميشيو كاكو، ترجمة: سعد الدين خرفان، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، أبريل 2017م.

3- تراث العالم القديم، و.ج. جي بورج، ترجمة زكي سوس، مكتبة الأسرة، 2008م.

4- النظريات العلمية ومكتشفوها (جزآن)، روبرت جرينبرجر وآخرون، ترجمة عزت عامر وسمير حنا، مكتبة الأسرة، 2012م.

5- مادة الحياة، وصف مختصر للجزيئات التي تجعلنا ننبض بالحياة، إريك بز وايدمير، ترجمة هاشم أحمد محمد، المركز القومي للترجمة، 2013م.

6- حكمة الغرب (جزآن)، برتراند رسل، ترجمة د. فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، طبعة ثانية منقحة ومعدلة، 2009م.

7- فن الحرب، سون تسو، دار نهضة مصر، 2017م.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات

عن الكتاب..

بابا العزيز..

الرسالة الأولى
السفر إلى المستقبل

والدي العزيز..

الرسالة الثانية
قواعد اللعبة

والدي العزيز..

الرسالة الثالثة
كسر الشفرة

والدي العزيز..

الرسالة الرابعة
أرض الخوف

والدي العزيز..

الرسالة الخامسة
شفرة الجماعة

بابا العزيز..

الرسالة السادسة
الجماعة ضد الجماعة

والدي العزيز..

الرسالة السابعة
كيف تصنعين حضارة؟

بابا العزيز..

الرسالة الثامنة
بيت من ورق اللعب

بابا العزيز..

الرسالة التاسعة

كيف تحكمين إمبراطورية؟

بابا العزيز..

الرسالة العاشرة
انفجار الأفكار
خاتمة وبداية
إلى أين؟

مراجع مختارة